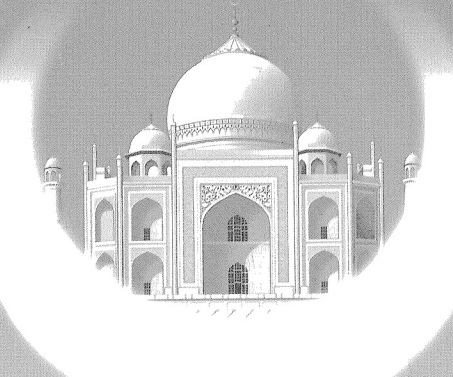
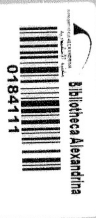


تاريخ المسلمين

في شبه القارة الهندوباكستانية وحضارتهم





الأستاذ الدكتور أحمد محمود الساداتي

كلية الآداب - جامعة القاهرة ومعهد الدراسات الإسلامية

دار نهضة الشرق

جامعة القاهرة

تاريخ المسلمين

فى شبه القارة الهند وباكستانية وحضارتهم

القسم الأول : من الفتـــح العربى حتى قيـــام الدولة المغوليـــة

القسم الثانى : الدولة المغولية حتى التقسيم (وبه مقدمة عـــن الـــهند القديمة وملحق به فصل فى تاريخ أفغانستان)

دكتـــور

أحمد محمود الساداتى

الأستاذ بكلية الآداب - جامعة القاهرة

ومعهد الدراسات الإسلامية

النـــاشـــر

دار نهضـة الشـرق

الكتـــــاب : تاريخ المسلمين في شبه القارة الهند وباكستانية وحضارتهم

المـــؤلـــف : دكتور أحمد محمود الساداتى

المراجــــع : محمود محمد عباس

تاريخ الإصدار : يناير - ٢٠٠١ م

النـــاشـــر : دار نهضة الشرق - جامعة القاهرة ت : ٠١٢٢٢٥٩٧٨٨

رقم الإيـداع : ١٨١٢٨/٢٠٠٠ م

الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977-245-141-7



مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم ...

وبه استعين ، والصلاة والسلام على خير المرسلين ،،،

شبه القارة الهندية التى تضم اليوم دولتى باكستان الإسلامية والهند الهندوكية([1]) بدأ أظهر أدوارا التاريخية – على إجماع من المؤرخين – بالفتوحات الإسلامية، وأخصها تلك التى فيها الغزنويون ، ومن جاء من بعدهم ، بهذه البلاد منذ أواخر القرن الرابع الهجرى ، وصحبهم فيها جملة من العلماء والمؤرخين والرحالة المسلمين الذين درسوا أحوال الهند وكانوا عما كان بها من حضارات ومدنيات عريقة تقصوا أسسها وتفصيلاتها .

وتاريخ شبه القارة الهندية القديم ، وفيما قبل فتوح المسلمين ، غالبيته الغالبة عموماً يكتنفه الغموض الشديد . ولولا القليل منه الذى استشفه المؤرخون من الكتب الهندية الدينية القديمة ، ومن أكداس أساطير الهنود القدماء وما وصل إلينا من تدوينات جوّابى هذه البلاد فى الأزمنة الغابرة لظل ماضى هذه البلاد مجهولاً إلى درجة كبيرة . ذلك أن آثارها وعادياتها القديمة ، التى اكتشفت حتى اليوم ، لا تعد فى الغالب ثبتاً وثيقاً مفصلاً لماضيها علىنطاق واسع نظير ما عند مصر واليونان.

والمسلمون الذين أسهموا فى حفظ تراث اليونان وزادوا عليه ، هم أنفسهم الذين أظهروا العالم على الكثير من تراث الهند الذى أطلعوا عليه ، فجر الإسلام ومطلع ضحاه ، فحبب إليهم الاستزادة بما عند غيرهم من مختلف فنون المعرفة([2]) ودفعهم إلى طلبها .

فلقد دخل المسلمون إقليم السند أواخر القرن الأول الهجرى ثم انطلقوا – ابتداء من أواخر القرن الرابع الهجرى – يوغلون فى هذه البلاد ، فإذا بعلمائهم

---

(١) لفظ هندوكى أو هندوسى – وهو معرب – غدا عند كتاب العربية المحدثين علماً على أصحاب العقائد الهنديةالقديمة من سكان شبه القارة الهندية، وهو ما ذهبنا إليه فى هذا الكتاب.

(2) Havell, E.B The History of Aryan Rule in India London p. 254 – 56 .

يقفون على ما عند الهنود من فنون المعرفة الكثيرة ، على نطاق واسع من أفواه المشتغلين بها من رجالهم بعد ما كانوا قد اطلعوا على قدر منها فى بطون كتبهم ، ويتعرفون على أحوالهم وعقائدهم بمخالطتهم ومساءلة كهنتهم ورهبانهم ومناظرة فلاسفتهم. وكان إمام هؤلاء العلماء الأعلام جميعا هو العلامة أبو الريحان البيرونى العارف بلغات الهند . وفيما تركه من كتب قيمة عن هذه البلاد ثبت لذلك كله .

وأخذ هؤلاء الفاتحون يستقرون بالبلاد التى فتحوها ابتداء من القرن السابع الهجرى ، فحفظت بذلك أموال الهند وثرواتها عليها بعد أن كان الغزاة يحملون معهم الكثير منها إلى بلادهم .

وما لبثت عقيدة الإسلام السمحة الفتية – بمبادئها الإنسانية الرفيعة ونظمها الاجتماعية القائمة على المساواة التامة بين معتنقيها ، والتى لا تعترف بنظام الطبقات – أن طفقت تجتذب إلى صفوفها ألوفا وألوفا من الهنود فى ازدياد متدرج، فهم اليوم بشبه القارة هذه يزيد عددهم على مائة وعشرين مليونا .

والمسلمون بناة حضارات أينما حلوا ونزلوا . وفى طبيعة الإسلام أنه يدفع دائما بعجلة الحضارة والمدنية إلى السير من جديد فى كل بلد يدخله . وأصحابه حين توغلوا بالهند ، ومعهم حضارتهم ، التى كانت قد بلغت خارج هذه البلاد درجة عالية من الرقى ، لم يهملوا أمر حضارة الهند وثقافتها ، بل شغلوا بها وانهمك علماؤهم فى كل العصور فى النقل منها ، حتى ترجموا أقساما من المهابهارتا نفسها سفر الهنادكه المقدس .

ولا تجد حتى عند أشد المؤرخين الهنادكه كراهية للحكم الإسلامى إشارة واحد إلى إحراق المسلمين لكتب الهنادكه وأسفارهم أو إتلافها .

وها هو ذا المؤرخ الهندوكى المعاصر إشوارى براساد يقرر صراحة بأن الحكم الإسلامى فى شبه القارة الهندية كان فيه الكثير من الخير ، ويرد ما يسمو به المجتمع فى هذه البلاد اليوم من الخصال الحميدة وما يروج فيه من رسوم وعادات راقية إلى تقاليد هؤلاء الفاتحين(1) .

---

(1) Prasa p. Med. India pp. xxxi

ولئن كانت شبه القارة الهندية قد عرفت أظهر أدوارها التاريخية أيام الحكم
الإسلامي بها ، فقد شهدت تلك البلاد أروع مظاهر الحضارة والمدنية بها في عهد
الدولة المغولية التي قامت بشبه القارة الهندية في القرن العاشر الهجري ، فوصلت
الحكم الإسلامي في هذه البلاد إلى أرقى صوره ، وبنفوذ المسلمين إلى أوسع مداه،
بالعقيدة الإسلامية إلى أقصى درجاتها من الذيوع والانتشار ، حتى بلغت بذلك كله
في تحويل ملايين عديدة من أهل الهند عن معتقداتهم القديمة إلى دين المسلمين ،
عن فنونهم ولغاتهم ورسومهم إلى فنون المسلمين ولغاتهم ورسومهم .

عاصرت هذه الدولة ، أول نشأتها ، دولتين إسلاميتين فتيتين كبيرتين هما :
الدولة الصفوية التي قامت في فارس وامتد سلطانها على خراسان والعراق ،
الدولة العثمانية التي كانت إذ ذاك تحكم في آسيا الصغرى وأجزاء من أوربا والتي
لم تلبث أن أغارت على الشام ومصر وأجزاء من فارس فاغتصبتها .

كانت الدولة المغولية أحدث هذه الدول جميعاً ، وأصحابها كانوا أكثر ملوك
عصرهم تسامحاً وأعظمهم كلفاً بالحضارة والمدنية ، فلم يدانيهم في ذلك عاهل لا
في الشرق ولا في الغرب .

وهم من أصلاب المغول والترك الذين أنزلوا الخراب والدمار بكثير من بلاد
العالم الإسلامي ، ثم ما غدوا أن انقلبوا ، بفعل الحضارة الإسلامية ودخولهم في
الإسلام ، إلى بنائين للمدنيات ، حتى ازدهر على أيديهم كثير من المدائن التي
خربها أجدادهم من قبل ، وصادفت المدنية والحضارة في عهدهم رواجاً كثيراً(١) .

لم يجر حكام هذه الدولة في تسامحهم على مجرد إطلاق حرية العبادة لأهل
البلاد من الهنادكه فحسب ، حتى فتحوا لهم أبواب المناصب ، وقربوهم منهم
وأصهروا إليهم ، وحضوا رعاياهم من المسلمين على ذلك . ليستهوي الإسلام من
بعد ذلك كثيراً منهم ، بقوله بالمساواة التامة بين معتنقيه ، فيقبلوا على الدخول فيه
أفواجاً ، حتى لنرى المسلمين في شبه القارة الهندية اليوم ، بعددهم الذي ينيف على
المائة والعشرين مليوناً ، هم في غالبيتهم الغالبة من أبناء هذه البلاد الأصليين .

ولقد هدف هؤلاء الأمراء التيموريون ، أصحاب هذه الدولة بتسامحهم هذا
إلى تألف سكان الهند واتحاد شعوبها لتقوى بهم دولتهم وترسخ أسسها حتى كان

---

١) تاريخ الحضارة الإسلامية لبارتولد ص ٩٥ – ٩٨ .

منهم من تعدى تقريب الهنادكة والإصهار إليهم إلى التفكير في محاولة ابتداع مذهب جديد يقوم على التوحيد ، وتذوب فيه عقائد الهند كلها ولا يتعارض مع أسسها ، ليبلغ بذلك إلى توحيد هذه البلاد كلها توحيدا حقيقا فى ظل الدولة .

ومن آيات هؤلاء السلاطين ، أنهم ، وهم فى كلفهم وشغفهم الزائد بالثقافة والمدنية ، لم يغفلوا شأن الثقافة والمدنية الهندية . فلم يكتفوا بالإطلاع عليها بل انطلقوا يحرضون أهلها ، فى الغالب ، على الأشغال بتراثهم القديم وإحيائه وتطويره ، لينجم عن ذلك كله مزيج عجيب بلغ بالحضارة الإسلامية الهندية إلى أرقى صورها فى كافة نواحى المعرفة .

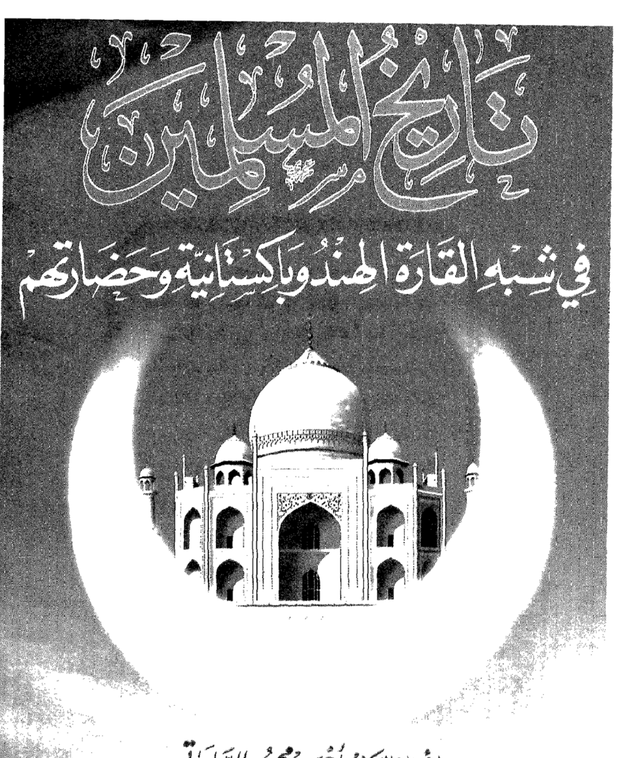
وأدى الإسلام ببساطته وقوله بالمساواة التامة بين أتباعه إلى تأثر فريق من مفكرى الهنادكة ومصلحيهم بتعاليمه ، فنادوا بمذاهب ومبادئ جديدة خففت كثيرا من غلواء نظام الطبقات ، وأنكرت صراحة عبادة الأوثان ، ودعت إلى عبادة إله واحد أكرم عباده عنده هو أتقاهم ، بصرف النظر عن العرق أو الطبقة والجنس ، واعترفت للأرملة والأيم بحق الزواج . وصادفت جهود هؤلاء من التوفيق قدرا غير قليل بين الطبقات المستنيرة ، غير أن سلطان البراهمة بقى عند العامة أقوى من كل حركات المصلحين ، فأقامت شعوب الهند فى الغالب ، على خلافاتها المدمرة التى مزقتها شيعا وطوائف ، فلم يجد المستعمرون البريطانيون ، حين أقبلوا على الهند ، مشقة كبيرة فى إخضاعها لهم ، ليمعنوا من بعد ذلك فى إذلالها ويستنزفوا فى يسر تام كل خيراتها ومواردها وثرواتها .

إن عقائد الهند تقوم عليها نظمها الاجتماعية لسكانها جميعا . والمسلمون الهنود يغايرون سواهم من سكان هذه البلاد مغايرة تامة فى عقيدتهم وتقاليدهم ورسومهم ، فلم يكن لهم بذلك مناص من أن يصروا على قيام دولة خاصة بهم تضم المناطق التى يسودونها بشبه القارة الهندية ، فلا تضيع بذلك أقليتهم الضخمة فى وسط الغالبية الهندوكية ، وتم لهم ما أرادوا ، فى الغالب ، عام ١٩٤٧م ، بقيام دولة باكستان الخاصة بهم على حدود لا ترضيهم ، قبلوها ليضعوا بذلك حدا للمذابح الكبيرة التى سقط فيها من المسلمين بفعل الاستعمار ، أكثر مما سقط من الهنادكة.

والله المستعان ،،،

القاهرة – المعادى

أحمد محمود الساداتى



الأستاذ الدكتور أحمد محمود الساداتي
كلية الآداب - جامعة القاهرة ومعهد الدراسات الإسلامية

دار نهضة الشرق
جامعة القاهرة

« كلما تقدمت الحضارة وتنور النـاس زاد عدد المسلمين ، فأسفر عن لين تعصب الطوائف وانتشار المبدأ القائل بإله واحد فى ذلك القطـــر المملوء بالخرافات انحناء النفوس بالتدريج أمـــام جلال الله وعظمته – حقاً إن فتح الإسلام للـــهند لما يتم ، وهو سائر بطيئاً صامتاً على طريقـــه فلم يقف تقدمه سلطان إنجلترا النصرانية ».

(من كتاب حضارة الهند لجوستاف لوبون)

موضوعات الكتاب

صفحة

حكام الدولة المغولية :

الهند القديمة

جغرافية الهند :

لم تكن الهند فى القديم هى شبه القارة المترامية الأطراف المتعارف عليها فى العصور الحديثة ، إذ كانت هذه التسمية يضيق مدلولها حينا ما فلا يعـــرف بـــه إلا شقة ضيقة من الأرض ، أو يتسع اتساعا كبيرا حينا آخر فيشغل رقعة واسعة مـــن جنوب القارة الآسيوية .

واختلف الناس فى منشأ تسمية هذه البلاد فمنهم من نسبها إلى الإله « إندرا » إله الهند القديم ، ومنهم من ردها إلى السند الذى كان يعرفه الفرس القدماء باســم « هند هو » أى النهر ، جريا على عادتهم فى إبدال السين السنسكريتية بالهاء ؛ وكــان نفوذهم قبل غزو الإسكندر قد عم الجزء الغربى من هذه البلاد وتوغلوا فيه .

وهؤلاء الفرس هم الذين أطلقوا كذلك اسم الهندســتان (أى أرض الأنــهار) على الشمال بأكمله من هذه الإقليم .

وشبه القارة الهندية ، التى تضم اليوم جمهوريتى باكستان والهند ، هى كتلـــة بالغة الضخامة من اليابس تصل مساحتها إلى المليونين من الأميال المربعــــة ، أى بما يزيد على نصف مساحة القارة الأوربية ، فيها تمثيل كـــامل لمختلــف عـــروق الإنسان وما عرفه من فنون وآداب وعلوم وما اعتنقه من مختلف العقائد منذ ظـهور الوثنية حتى اهتداء الناس بالتوحيد . وفيها أنواع الأجواء المتباينــــة مـــن الصقيــع القطبى وثلوجه بالهملايا ومرتفعاتها بالشمال إلى قيظ المناطق الاستوائية وشـــواطئها بأقصى الجنوب . وفيها كذلك من صنوف الحيوان والطير والنبـــات والمعـــدن مـــا يصلح لأن يكون إجمالا لما بالعالم كله منها . فهى فى الحق دنيا قائمة بذاتـــها قـــد عزلها عن بقية اليابس الآسيوى أمنع متراس أقامته الطبيعة بين بلدين وهـــو جبـــال الهملايا التى تعرف بسقف الدنيا . وبهذه الجبال الشامخة مسارب تجارية ضيقة تنفــذ إلى التبت وبلاد التركستان ولكنها لا تصلح لمرور القوافل الكبيرة.

والحدود الشرقية للهند جبلية كذلك ، وتتمثل فى جبال آسام ، وبها بعض المسالك التى تصل أرض الهند بالصين الغربية وشرقى آسيا .

وتمتد فى الغرب جبال الهند كوش من الشمال حتى البحر جنوبا . وتخترقها بدورها كذلك مسالك تصل إلى التركستان وأواسط آسيا عبر بلاد الأفغان ، وإلى إيران عبر بلوخستان . وعن طريقها نفذ الغزاة والمهاجرون، آريون وإغريق وهون وسيث وفرس وأتراك ومغول ، إلى شبه القارة الهندية، فلم يظهر طابعهم قويا إلا فى الشمال والشمال الغربى منها ، حتى أصبحت هذه الأجزاء التى تعرف باسم الهندستان تغاير فى ثقافتها ونظمها الاجتماعية والاقتصادية نظائرها فى الوسط والجنوب .

وكان مما سد حضارة الشمال عن التسرب جنوبا ووقف حائلا فى وجه الغزاة تلك الوهدة الضيقة العميقة التى تتوسط شبه القارة ممتدة من الشرق إلى الغرب عند شمال الدكن ، وتقع فيها جبال الوندهايا وتلال ساتيورا مع نهر تربدا .

وفيما عدا ما ذكرنا من حدود جبلية لشبه القارة الهندية فالبحر من حولها محيط .

وفى شمال الهندستان يجرى كذلك أعظم أنهار الهند وهما السند والكنج اللذان يستمدان ماءهما من ثلوج الهملايا .

والهنادكة يقدسون مجارى المياه قاطبة لما تهبه لهم من خيرات ونعم . ونهر الكنج هو أقدسها جميعا عندهم حتى ليتطهروا بمائه كل يوم . بل إنهم ليلقون بجثث موتاهم فيه تبركا ما أفلتوا من الرقابة . وطوبى لمن يكتب له منهم الحجيج إلى منابعه العليا المقدسة .

وأكبر روافده هما جمنه وبراهمايترا ، وينهيراته الأثنى عشر التى تؤلف دلتاه يصيب إقليم البنغال خصبا عميما .

ولئن كان الكنج هو أقدس الأنهار عند الهنادكة فإن السند بأمياله الألف أطولها جميعا . وروافده الخمسة ، وهى سلتج وجيناب وبياس وجهلم وراوى ،

قد عرف الإقليم الذى تجرى فيه بعددها ، فالبنجاب يعنى الأنهار الخمسة وللسند كذلك رافد سادس هو نهر كابل الذى ينبع من الهند كوش ويلتقى بالنهر الرئيسى فى ناحية الغرب وإقليم البنجاب هو من بوابات التجارة الهندية الكبرى ، ومنه نفذ أغلب الغزاة والفاتحين فأوغلوا فى شبه القارة .

ويضم وديان السند والكنج أغلب أراضى الهند الزراعية ، وإن كان وديان الثانى أكثر اتساعا وخصبا وبالتالى أغص بالسكان ذلك أن الكنج تمده على طول مجراه روافد عدة تستمد ماءها من ثلوج الهملايا الدائمة ، وهو ما ليس للسند منه نصيب فضلا عن انسيابه فى أرض يغلب الاستواء عليها مما يؤدى إلى بطء جريانه وضياع الكثير من مائه فى صحراء النار أكبر صحراوات الهند والتى تفصله عن الكنج . وتعرف هذه الصحراء أيضا باسم « الراجبوتانا » نسبة إلى الأمراء الهنادكة الراجبوتيين الذى جرى بذكر شدة بأسهم وبطولتهم ووقوفهم دائما فى وجه الغزاة والفاتحين ، وتاريخ الهند وأساطيرها على السواء .

وفى وسط الهند يجرى نهر تربدا ، وإلى الجنوب منه يجرى مهندى ، وتحته جودافرى أعظم أنهار الدكن ثم يليه نهر كرشنا .

وأنهار شبه القارة الهندية هذه برغم كثرتها لا تكفى لرى أراضيها ، لذلك كان اعتماد الزراع الأكبر على مياه الأمطار الموسمية التى يؤدى امتناعها إلى مجاعات مروعة محتومة . فلم يكن عبثا إذا أن ذكر المطر فى كتب الهنادكة المقدسة القديمة بأنه عطاء الآلهة الذى يهب لهم الزرع قوام الحياة(١) .

سكان الهند :

وأصل سكان الهند لم يصل إليه الباحثون على وجه التحقيق ، وإن كان الثابت المعروف أنه قد ورد على شبه القارة هذا موجات متتابعة من هجرات أجناس مختلفة .

---

(١) تنبه هنا إلى أن كلمة هندوكى ليس لها أى دلالة جنسية أو عرفية فهى تطلق فى
V Le Bon Les Civilsations de l'Ind Paris 188 p. 3456

وكما تتغاير الهند فى أجوائها تغايرا واسع المدى فهى كذلك تختلف فى أجناسها اختلافا بينا شديد الوضوح ففى مناطقها الشمالية يعيش جماعات لهم سمات الشعوب الشمالية ونشاطها فى الغالب . وبجانبهم أقوام آخرون لهم خصوصا فى وسط الجنوب ، سواد سكان المناطق الحارة حيث تقسو حرارة الشمس على الناس فتضعف أبدانهم وتقلل من نشاطهم(١)

وأقدم من سكن الهند فى الغلب قوم سود ، لهم سمات الأجناس الحامية قطنوا الغابات ، ولا تزال منهم بقايا منقرضة منعزلة وسط الهند حتى اليوم .

وقدم الهند من بعد ذلك ، فى عصور ما قبل التاريخ ، موجات ثورانية وافدة من الشمال فدفعوا بأهل البلاد أمامهم صوب الأماكن الجبلية فى الوسط وما لبثوا أن توالدوا معهم فظهر الدراوريون والتمول أقدم من سكن الهند فى التاريخ . ومنهم أغلب سكان شبه القارة اليوم .

وتوالت موجات الآريين البيض من السيث والهون على الهند من بعد ذلك قادمة من ناحية الشمال الغربى فاكتسحت أمامها الثورانيين وأخضعتهم والدراوريين والتمول لسلطانها وعن الدراوريين أخذ هؤلاء الغزاة نظمهم الحكومية والاقتصادية.

وسكن هؤلاء البيض فى بادئ الأمر إقليم البنجاب ، باب الهند الآرى ثم أخذوا من بعد ذلك ينتشرون فى منطقة الدرآب التى صارت مركزا لحضارتهم .

وخاف البراهمة مغبة اختلاط بنى قومهم الآريين بعناصر الهند الأخرى فوضعوا نظام الطبقات وجعلوا أنفسهم والنبلاء المحاربين من الآريين على رأسها . فالجيش يقوده النبلاء فى الحرب والبراهمة يؤيدونه ويشدون من عضده بالدعاء الذى لن يتم له النصر بدونه(٢) .

وإلى جانب الطبقتين الآريتين . وهم الكهنة البراهمة والأكشترية المقاتلة من النبلاء أن الذين يرون فى موت الرجل منهم بمخدعه عارا وأى عار ، سلك

---

(١) الهند على إتباع عقائد الهند القديمة .

(2)Dunhar, G, A.History of India from the earliest timas to tue pressal day Vol.1 p.15

التورانيون فى طبقة الويشية التجار ولا يأتى من بعدهم سوى طبقة الشودرا التى تنظم الزارع والصناع والعمال ، وكانوا أغلب سكان شبه القارة الأصليين إذ ذاك .

أما الباريا . وهم المنبوذون . فكانوا فيبادئ أمرهم جماعة صغيرة لا تنتمى الى الطبقات الأربع سالفة الذكر وقوامهم بعض القبائل الوطنية وأسرى الحرب ، ورجال تحولوا إلى عبيد عقابا لهم بسبب ولادتهم عن زواج بين براهمة وشودرية ، أو لعجزهم عن وفاء بالدين ، أو لممارستهم المهن الحقيرة التى تضم الكناسين والجزارين والجلادين والحواة ومن إليهم . وهم بعددهم المتزايد الذى ينوف على الأربعين مليونا ونفوسهم الثائرة مع عطف البشر البالغ عليهم ، حين يزداد الوعى الإنسانى تغلغلا فى صفوفهم، كفيلون بزلزلة كيان النظام الطبقى كله والقضاء عليه.

وأثر الأريين العظيم فى الحضارة والمدنية يتجلى فى ديانات الهند القديمة وعاداتها وطباعها ولغاتها

وإذا كانت غلبة الجنس الآرى تظهر واضحة فى مناطق الهملايا العليا حيث يتميز السكان ببياض بشرتهم ، فإنها ما تلبث أن تأخذ فى القلة إذ ما اتجهنا صوب الجنوب حيث تأخذ سمرة اللون فى الظهور بازدياد متدرج

حتى إذا ما نزلنا وادى الكنج ، أخصب بقاع الهند والذى يزدحم فيه أكثر من ثلث سكان البلاد ، وجدنا به تمثيلا يكاد يكون كاملا لعروق الهند من الدراوريين والأريين والتورانيين على تفاوت هذا والعنصر الأخير أى التورانى ، كان أبعد أثرا فى سكان الهند من الناحية الجثمانية وأظهر من كافة العناصر الأخرى التى قدمت هذه البلاد من بعده

وإذا كان وادى الكنج قد اختلطت فيه عروق الهند من اريين وتورانيين ودراوريين ، وتجاورت فيه كذلك دياناتها وعقائدها من برهمية وبوذية وهندوكية وإسلامية ، فإننا نجد البنجاب وأغلب وادى السند يكاد يكون وقفا على عرقين اثنين ، هما العرق التورانى والعرق الآرى ، وعقيدة واحدة هى الإسلام .

ومن بين سكان البنجاب والسند قبائل الميد والجات (الزط) الذين عرفوا بشجاعتهم ، ومهارتهم فى التجارة . وقد قيل إن على أبى طالب استخدمهم على

حراسة أموال البصرة فى وقعة الجمل ، كما أنزلهم الأمويون ثغور الشام فشاركوا فى حمايتها(1) .

وهذه القبائل ومعها الكهكر فيهم المسلمون وفيهم الهنادكة ، وتمتد منازلهم حتى صحراء الراجيرتانا .

أما وسط الهند وجنوبها فغالبيةسكانه الساحقةمن الدراوريين والتمول القدماء، وهم عند البراهمة يعدون من الشودرا والياربا نفاية البشر ومنبوذيه فى الغالب .

وأيا ما كان من تباين عروق الهند واختلاف أجناسها الشديد فقد عمت البيئة الواحدة طباع وعادات مشتركة ، ولا غرو فللبقاع تأثير فى الطباع على حد قول المقدسى جغرافى العرب .

وسكان شبه القارة الهندية الذين يبلغون اليوم أربعمائة مليون ، أى خمس سكان الدنيا بأسرها – إذا غضضنا الطرف عن قلة ضئيلة من أهل الفطرة تسكن أماكن منعزلة متناثرة ، ولا تزال على عقائدها الطوطمية الأولى فتؤله الأفاعى والقردة والنمرة ، فضلا عن ممارستها إلى عهد غير بعيد لعادة تعدد الأزواج من الذكور حيث يبنى بضعة أقارب أو أخوة فى العادة بامرأة واحدة ويقيمون أسرة – يمكن أن نكتلهم فى كتلتين كبيرتين على هدى البيئة وأساسها .

وأكبر الكتلتين هى الكتلة الهندوكية التى تقطن غالبتها جمهورية الهند اليوم . وهى تأتلف ثلاثة أرباع سكان شبه القارة الهندويا كستانية على كل حال .

وقد أدى معيشة هؤلاء الهنادكة فى بيئة واحدة تخضع لعقائد واحدة منذ القدم، إلى قيام صفات عامة مشتركة كثيرة فيما بينهم .

وأما الكتلة الثانية فهى كتلة المسلمين الذين يجاوز عددهم اليوم المائة مليون من الأنفس ، وتضم أغلبيتهم جمهورية باكستان . وبرغم وفود جموع الغزاة المسلمين من العرب والفرس والأتراك إلى هذه البلاد فإن غالبية المسلمين هناك فى أصولهم الأولى هنادكة خلص . ذلك أن المسلمين فى مدى قرون قليلة حكموا فيها

---

(1) فتوح البلدان للبلاذرى طبع ليدن ص ٣٧٠ .

بالهند ، أفلحوا فى تغيير معتقدات هذا الفريق الهندوكى الكبير إلى دينهم وعقيدتهم . بل لقد بلغوا به كذلك الى تغيير لغته وفنونه إلى لغتهم وفنونهم ، وهو ما مارسوه فى كل البلاد التى فتحوها وعجز عنه غيرهم من الأمم ورجال الدين وكان من أهم أسباب انتشار الإسلام فى شبه القارة الهندية خاصة ، بشهادة ثقات المؤرخين حتى فى العصر الحديث ، هو قوله بالمساواة ، فلم تستطع بريطانيا ومن سار فى ركابها ، حين كانت تحتل هذه البلاد أن تحد من نشاطه فيها ، ذلك النشاط الذى جرف كل ما كان يقام فى طريقه من معوقات وعراقيل([1]) .

معتقدات الهند القديمة :

فى شبه القارة الهندية كما قلنا من قبل تمثيل كامل لكافة العقائد التى عرفتها الدنيا ومراحل تطورها من الطوطمية الوثنية إلى التوحيد الكامل ، وعليها تقوم النظم الاجتماعية لسكانها جميعا

ولقد عرفت الهند قبل البرهمية كثيرا من معتقدات الآريين والآسيويين الذين كانوا قد وفدوا إليها قبل الميلاد بأكثر من خمسة عشر قرنا ، فاعتنقت الناجا الطوطمية وعبدت إلهها الأفعوان ، كما عبدت هانومان الإله القردونانديس الإله الثور ، وقدست الأشجار والموتى من الأسلاف اعتقادا منها بخلود أرواحهم ، وقدمت لهم القرابين ، وصلت من أجل سعادتهم فى مثواهم الأبدى ، واستخدمت الرقى والتعاويذ والسحر لجلب السعادة وإطالة العمر ودفع الأرواح الشريرة وإيقاع الارتباك بالأعداء . وقد انتقل كثير من ذلك كله إلى الهند فى العصر التاريخى ، وما زال اليوم قلة منقرضة منعزلة تؤله النمرة والقردة والأفاعى والآفات .

وقد ورد بكتب الويدا ، أقدم أساطير الهند ، تفصيل لآلهة الآريين الكثيرة هذه ومن بينها ما يمثل قوى الطبيعةنفسها وعناصرها مثل الإله إندرا الذى ينسب إليه البعض تسمية الهند ، وهو إله العواصف والسماء ، وهو الخالق البارئ الأعلى الذى يجلب الأمطار والماء أصل الحياة ، وأغنى إله النار موجب الحياة الكونية والعوالم والآلهة ؛ وشرويا إله الشمس .

(١) حضارة الهند لجوستاف لوبون ، تعريب عادل زعيتر – القاهرة ١٩٤٨ ص ٦٢٦ .

ولئن اختلف الراى فيمن ينسب إليه خلق العالم من بين هذه الآلهة العاتيــــة ، فقد أجمعوا ، على كل حال ، على وجوب رد الأمر كله إلى خالق واحد قهار(١) .

وصار للبراهمة بعد العصر الويدى السلطان والمنعة فثبتوا نظــــام الطبقــات الذى كانوا قد أقاموه من قبل ، ووضع قديسهم الأعظم منو شرائعه وفقهه الذى غــدا دستور الهند وقانونها الأساسى فى كافة نواحى الحياة بها .

وظهر فى هذا العصر ، قبل الميلاد بقـــرون أربعـــة ، ملاحـــم المهابـــهارتا والرامايانا . والأولى تشتمل اليوم على قرابة ربع المليون بيت من الشعر فى حيـــن تضم الثانية بين دفتيها ثمانية وأربعين ألف بيت ، أى أضعاف أضعاف اليـــاذة هـــو ميروس : فهذا كانتا أضخم آثار العالم الأدبية القديمة على الإطلاق.

ولا يستقيم مع العقل القول بكتابة هذه الأسفار فى بضع ســـنين . فـــهى قـــد تعرضت ، دون أدنى ريبة ، إلى إضافة كثيرة غزيرة على كر القرون حتى بلغـــت صورتها الأخيرة .

وللمهابهاتا على الخصوص قداسة عظمى عند الهنادكة ، كقداسة القرآن عنـــد المسلمين ، والإنجيل عند أتباع المسيح ، حتى ليعدون قراءة ما تيسر منـــها مجلبـــة للرحمة والمغفرة .

هذا وتنص شرائع منو على امتيازات للبراهمة لا يرقى إليها الملك نفسه الذى كان عليه ألا يقطع أمرا دون الرجوع إليهم فيه أو يصير حتى على حاجة لهم .

فهذه الشرائع التى رسمت بكل طائفة من الطوائف حدودا لا تتعداهـــا(٢) قـــد أطلقت فى الوقت نفسه أيدى البراهمة من كل قيد وجعلت لهم زعامة الناس جميعا .

---

(١) أبو الريحان البيروتى « ذكر ما للهند من مقولة مقبولة للعقل أو مرذولـــة » طبـــع لندلـــن ١٨٨٧ ص ١٣ .

(٢) نص منو ذهر ما ساستر فقيه الهندوس الأكبر على أن البرهمى – سيد الطبقات جميعا – هـــو المعلم والكاهن والقاضى والوزير الأكبر الذى لا يقضى الملك فى أى شأن بدون رأيه ، أمـــا الاكشترى – وكان الملك من بين الاكشترية – فعليه أن يتعلم ويقدم القرابين ويتصدق ويحمـــل السلاح دفاعا عن الوطن ، وأما الويشى فعليه أن يتجر ويجمع المال وينفق على رجال الديـــن وأهل العلم ، وأما الشودرى فعليه أن يخدم هذه الطوائف الثلاث الشريفة . (حضارة الهند) .

فالبرهمي لا يدنس بذنب حتى ولو قتل أهل الكون جميعا ، فهم وما يملكـــون ملــك يمينه .

وأباح منو لأبناء الطبقات الثلاث الأولى حق المصاهرة فيما بينهم على قــدر ، حتى إذا ما تجاوزه إلى طبقة الشودرا اللذين حرم عليهم مخالطتهم ، انقلبوا منبوذيـن يصيبهم الخزى فى الدنيا والآخرة .

وكم من شودرى نفى من الأرض لمحاولته التطلع إلى من هم أعلا منه طبقـــة. وكم منهم من جرع الحميم من الزيت الفوار أو قطعت يداه لمجرد معارضته للبراهمة.

وأيا ما كان من صرامـــة شرائع منو بشأن امـــتزاج الطبقـــات ، فقـد استطاعت المرأة الهنديـة بفتنتها أن تحطم هذه القيود وتخترق هذه الحواجـز فـى أحوال كثيرة كافية لأن تنفى اليوم القول بنقاء دماء أبناء الطبقات العليا .

هكذا أتاح منو بشرائعه ذلك السلطان المطلق والنفوذ الواسع لطبقة الكهنة ظل براهما على الأرض – رب الكون الذى يحيط بجميع المخلوقات بجسم مؤلف مـــن عناصر الطبيعة الخمسة – فأخضعوا أتباعهم لنظام مرهوب خشعوا له خشية ســوء المصير فى الآخرة .

وضاق الناس ذراعا باطراد سلطان البراهمة واشتداد وطأتهم عليهم ، حتـــى بدت لهم تباشير الخلاص على أدى مصلحين عظيمين ظهرا من بينهما فى القـــرن السادس ق.م وهما مهابير صاحب الديانة الجينية وكوتا ما بده صاحب البوذية .

ولقد غمضت حياة هذين المصلحين ، اللذين يقدس اسميهما ملايين من البشــر اليوم ، أشد الغموض على اللذين تصدوا للكتابة عنهما وعن مبادئهما فلم يجدوا مـــا يعتمدون عليه فى الغالب إلا الأساطير.

وعلى حد قول جوستاف لوبون ، الذى طاف بالهند ســنوات عشــرا باحثــا ودارسا ومنقبا حتى اخرج كتابه المشهور عن حضارتها ، فباستثناء النبــى الأكــرم محمد ﷺ ، نجد أن مؤسسى الأديان لم تؤلف سيرهم إلا بعد وفاتهم بزمـــن طويــل مما أعسر الإطلاع على حياتهم إطلاعا صحيحا([1]) .

---

(١) حضارة الهند ص ٣٤٤ .

والجينية ؛ أى عقيدة قهر النفس ، هى أسبق فى الظهور من البوذية . وفيها ينظر نبيها مهابير (أى البطل العظيم) إلى الحياة بانها لعنة على المرء أن يتخلص منها بنعمة الانتحار البطئ جوعاً ليبلغ سر الوجود ، ويدرك الحقيقة المجردة التى لا تتكشف إلا للمواصلين . ذلك أن الحقيقة والمعرفة عند أهل الدنيا المتعلقين باهداب الحياة فيها لا تتجاوز النسبى فى الزمان والمكان فيها ، فما هو عند فريق منهم حق محسوب هو عند غيرهم باطل معلوم فى الغالب[1] .

وطريق الخلاص عند الجينيين يقتضى الامتناع عن إيذاء أى كائن حى أو جماد فالمعادن والحجارة والأشجار لها بدورها أرواح كامنة فيها ، حتى امتنعوا عن ممارسة أى عمل من الأعمال وغطوا أفواههم بأيديهم كى لا تتسرب إليها كائنات من الهواء فتقتل ، وكنسوا الأرض برفق زائد أمامهم ومن تحتهم خوف القضاء على ما يسرح فيها من هوام حين يمشون وحين يجلسون أو يرقدون . ويفعلون ذلك كله إلى أن يتم لهم أعظم انتصار تظفر به الروح على إرادة الحياة وهو الانتحار البطئ جوعاً .

هذا وحياة البدو وعقيدته كما ترويها الأساطير تتفق فى كثير وسيرة المسيح بن مريم وتعاليمه . فبوذا (البد) قد ولد كعيسى عند جذع شجرة[2] مثمرة ، وأشرقت السماء بنور ربها عند مولده ، وسمع الأصم ونطق الأبكم وأقبل الملوك من أقصى الأرض يرحبون بمقدمة . وهو يماثل عيسى عليه السلام فى الصيام فى البرية ومحاولة الشيطان أن يغويه . هذا كما نرى كلتا الديانتين تدعوا إلى أن يتغلب المرء على غضبه بالكظم والعفو ، ويزيل الشر بالخير والكراهية بالحب . بل لقد استخدام البوذيون الماء المقدس والبخور وأضاءوا معابدهم بالشموع ، كما ابتدعوا الرهبانية فارتدى رجالها مسوحا خاصا بهم ، وحملوا المسابح واعتكفوا بالأديرة ، وتقبلوا الاعتراف من المؤمنين ، قبل أن يفعل أتباع عيسى ذلك كله قرون عدة[3] .

---

(١) الهند وجيرانها وهى الجزء الثالث من قصة الحضارة لبول ديوانت ترجمة الدكتور زكى نجيب محمود ص ٥٩ .

(٢) يذكر الأستاذ جوستاف لوبون أيضا فى كتابه ص ٣٣٤ نقلا عن الأساطير الهندية أن البد قد ولد من أم عذراء كذلك .

(٣) الهند وجيرانها ص١٩٨

وإذا كان مبلغ علم هؤلاء الكتاب في ذلك لا يعدو ما وقفوا عليه في الأساطير الغامضة، فلا يجوز لنا أن نصل بأقوالهم إلى نتائج إيجابية عن مبلغ دينونه إحدى هاتين العقيدتين للأخرى، هو ليس من موضوعنا على كل حال.

ويتفق البد مع مهابير في إنكار وجود خالق للعالم وأن الموجودات كلها ليست إلا وهم وظواهر باطلة فانية ،وأن الحديث عن الكون وهل هو متناه أو لا متناهيا، والروح وامتزاج النفس والبدن أو انفصالها ما هو إلا أسطورة وخرافة من خرافات الفلاسفة . وكذلك أنكر البد القضاء والقدر وقال بأن مصير كل حي منوط بسلوكه الذى قد يقوده إما إلى السعادة أو إلى الشقاء ، فلا آخره ولا جنة ولا سقر بحميم .

على أنه ، أى البد ما يلبث أن يختلف مع سالفة فى مسألة تعذيب النفس الذى أدى به حين مارسه إلى الشعور بالغرور فكاد يقصيه عن الطريق لبلوغ المعرفة وسلم بوجوب الحياة على أن يكبح الإنسان جماح شهواته الذاتية ساعياً إلى الخير المجرد دون سواه ، إذ أن كل لذة تحمل فى طياتها سماً هو الألم الذى يرجحها .

وسخر البد من البراهمة سخرية شديدة هزت من كيانهم حين أعلن بأن الطقوس وشعائر العبادة وما وراء الطبيعة واللاهوت مسائل لا تستحق النظر وأن القرابين والأدعية والتمائم إن هى إلا من صناعة الكهنوت . كما هاجم نظام الطبقات ضمنا حين صرح بأن الناس ، أشرافهم وأدنياءهم وأغبياءهم كلهم سواء .

وقضى على الجينية بقلة الانتشار ما تدعو إليه من تطرف بالغ فى التقشف والزهد حرم على أتباعها التملك والزواج والتدثر بالثياب(١) . فليس لها اليوم بالهند

---

(١) الناسك الحق هو الذى يقهر جميع مشاعره فلا يشعر بالحر أو البرد . والمرء طالما يتذكر أنه عار أو هناك خير أو شر ، حسن أو قبح ، فمعناه أنه لا يزال متعلقاً بالدنيا وما فيها فلا يفوز بالنجاة والشعور بالحياء من العرى يتضمن تصور الإثم . فترك اللباس هو ترك الإثم وقد كان آدم وحواء يعيشان فى الجنة عاريين بطهر كامل ، حتى أكلا ، بفعل الشيطان من شجرة العلم بالخير والشر فاخرجا من الجنه .

إلا أتباع ، (دون المليون عداً) يتناقصون بالتدريج . ولا ينبذ الثياب منهم إلا قـــد يسوهم المتقون والغالب أن ما كان يصمد إليه غاندى زعيم الهنادكـة الأكـبر مـن التطهير بالصوم الشاق والسير فى خرقة بسيطة، لا تستر إلا عورته، لـم يكـن إلا أثر من آثار هذه العقيدة .

وفى الوقت الذى لم يأبه البراهمة فيه الجينية التى لم تكن بذات خطر جـدى بالنسبة لهم ، انصرفوا انصرافاً نشيطاً حازما إلى العمل على تقويض صرح البوذية المتسامحة التى غدت تناوئ سلطانهم حتى أحدثت تغييرات غير قابلة فى نظم الـهند الاجتماعية والسياسية بما صار لها من أتباع كثيرين ، فما زالوا بها حتى أفلحوا علـى مر السنين فى تقويض نفوذها بالهند لتلقى قدراً كبيراً من الرواج فى بورما وبـلاد الصين واليابان والتبت من بعد ذلك .

ذلك أن رؤساء البراهمة عمدوا إلى إدخال قدر غـير يسـير مـن التطـور والتسامح فى شعائرهم ، فى الوقت الذى انحرف فيه سدنة البوذيـة عـن مبادئـها الأولى المبسطة إلى مستحدثات معقدة أقحموها على عقيدتهم ، وراحـوا ينشـدون لأنفسهم ، بغرور ، نظير ما للبراهمة من مجد وسلطان ، حتى وسعوا ، بامتيازاتـهم التى ادعوها لأنفسهم ، الشقة فما بينهم وبين أتباعهم الذين ما لبثوا أن جذبهم تسـامح البراهمة الطارئ وتدبيرهم المحكم حين أخلوا للبد نفسه مكانـاً بيـن آلهتـهم هـو ومهابير ، وأعلنوا لهم قدسيتهما ، فراحوا يعبدونها وكانوا قد نهو عن ذلك من قبل.

وهكذا ظهرت برهمية جديدة لا تختلف عن البرهمية القديمـة فـى كثـير . وساعدوا على استرداد أصحابها لسطانهم القديم ما وجدوه عند الأمراء الراجبوتييـن من مناصرة وتشجيع وتعضيد يسر لهم نشر مدارسهم فى كل مكان ، حتى سـادت عقيدتهم الهند كلهـا لا يضيرهـا وجود تلك القلة الجينية الضئيلة .

ودين الهنادكة اليوم السائد هذا ، للألوهية فيه ثلاث صور رئيسية هى:

براهما الخالق سيد الآلهة والمسيطر على العالم كله والـذى يحيـط بجميـع الكائنات فتنمو بعد أن تولد ثم تنحل على ما يشابه مذهب وحيدة الوجود ، ووشـنو الحافظ إله الحب الذى أحيا الموتى وأبرأ الأكمة والأبرص ثم صعـد إلـى السـماء

ليعود، إلى الناس من جديد قبل النشور ليهديهم إلى الحق ، وشيوا المدمر الموكول بـه قبض أرواح الناس وخلاصها من أبدانهم . وإلى جانب هؤلاء الآلهة فهناك ملايين من آلهة آخرين تزدحم بها بالهند بعضها أقرب إلى الشياطين وبعضها أقرب إلى الملائكة ومنها ما هو فى صورة الطير أو الحيوان والهوام وتجمعها كلها كالشبكة لا حدود لها تتناسخ الأرواح فيها .

والهندوكية المشتركة ، أى البرهمية الجديدة ، والشيوبة والوشنوية وجميعها مستمدة من البرهمية الأولى ، لم يقف الأمر عند تفرعها إلى مذاهب لا حصر لها ، هى اليوم فى عددها أشبه بأوراق شجرة باسقة كثيفة الأغصان أيام الربيع ، حتى دهب أتباع كل مذهب منها يتشددون فى أحكامهم فلا يطاعمون غيرهم أو يجالسونهم([1]).

لغات الهند :

لم يكن عجباً وفى شبه القارة الهندو باكستانية من المذاهب والعقائد ما لا يدخل تحت حصر أن يروج فيه أكثر من مائتين من اللغات وما يتفرع عنها من لهجات تربو على الثلاثمائة .

وترد لغات الهند عموماً إلى أصلين اثنين :

الأصل الآرى وإليه ترجع أغلب لغات الشمال وقسم من لغات الوسط والأصل الدراوى وإليه ترد أغلب لغات الجنوب ومناطق متفرقةفىالوسط والشرق.

والسنسكريتية هى أشهر لغات الهند الآرية القديمة وأعرقها ، وبها كتبت أسفار الهند المقدسة القديمة. ولقد أتى على هذه اللغة حين من الدهر كاد يكون استعمالها فيه مقصوراً على رجال الدين والعلماء ، ثم كتب لها من بعد ذلك قدر من الرواج بفضل تشجيع بعض سلاطين المسلمين . حتى إذا جاء « أكبر » ، أعظم سلاطين الدولة المغولية ، ينادى بأن الهند للهنود ، هنادكة ومسلمين ، صادفت هذه اللغة بدورها رواجاً كبيراً إذ راح هذا السلطان النابه يحض الهنادكة

(١) حضارة الهند ص٦١١ .

على الاشتغال بآدابهم وإحياء تراثهم فى نهضته العلمية الكبرى التى لم يعرف العالم لها نظيراً فى عصره وهى اليوم ، أى السنسكرتية ، لغة جمهورية الهند الحديثة . ويصفها بعض اللغويين الأعلام بأنها فضلاً عن اتحادها فى أصولها مع أغلب اللغات الأوربية فإنها أكمل من لغة اليونان وأوسع من لغة الرومان أى اللاتينية ، وأدق من كليهما(١) .

وتروج فى الدكن والجنوب لغة تأمل وتلنجو وهما من اللغات الدراوية القديمة .

وأعظم لغات شبه القارة الهند وباكستانية انتشاراً هى الأوردوية وهى لغة آرية وضع قواعدها ونحوها علماء المسلمين . وكلمة أوردو معناها المعسكر . والمقصود هنا معسكر أسرى المغول والترك المسلمين حول دهلى حيث نشأت هذه اللغة فبدأت بالظهور فى القرن العاشر الهجرى . وألفاظها مزيج من العربية والسنسكرتية والفارسية والتركية . وهى فى قواعدها آرية خالصة ، وتكتب بالحروف العربية مع الإضافات الفارسية(٢).

ولا يزال للفارسية سوق رائجة فى الأوساط الإسلامية وما برح المجوس ، الذين يعرفون بالبارسيين ، محتفظين فى الغالب بلغتهم البهلوية القديمة . وهم فى غرب البلاد على قلتهم يعدون بين أصحاب الثراء الواسع . هذا إلى جانب بعض اللغات الآسيوية والأوروبية الأخرى التى تسمع هنا وهناك بالهند.

تاريخ الهند القديمة وحضارتها .

كان بشبه القارة الهندوباكستانية حضارات مزدهرة أيام كان المصريون يقيمون أهراماتهم قبل ميلاد المسيح بقرون ثلاثين . فقد كشفت بعثة مارشال فى حفرياتها عند « موهنجو دارو » فى غرب السند عام ١٩٢٤م عن آثار ، يرجع

---

(1) Elp ninstone, M. the History of India London 1911 p. 161

(٢) هى الباء المثلثة أى التى تكب بنقط ثلاث من تحتها . ثم الجيم المثلثة والزاى والكاف الفارسية .

تاريخها إلى عصر الأهرامات ، لمدنية عريقة كانت تسود البلاد إذ ذاك ، وكان أصحابها على صلات اقتصادية وثقافية وسياسية ببابل فى الغالب . وهذه المدن الأربعة أو الخمسة التى كشفت عنها هذه البعثة ، والتى كان يقوم بعضها فوق بعض ، حوت دوراً من طبقات عدة قوامها الآجر المتين ، وإلى جوارها الحمامات والآبار ، وفيها آنية من خزف مصقول ، وأسلحة دقيقة ، وزخارف رقيقة من الخشب والمعدن ، وأدوات للزينة مما لا تروج إلا فى أرقى المجتمعات(١).

على أن قلة وثائق الهند القديمة التاريخية عموماً ، وصعوبة الاستدلال على ماضيها من نقوشها وأطلالها ، قد أظهر المؤرخين على أن لا معدى لهم من أن يستشفوا من كتب هذه البلاد الدينية القويمة وملاحمها ، وما حوت من أكداس الأساطير ، ما يكشف عن بعض نواحى التاريخ الهندى القديم وأحداثه .

وحمد جمهرة المؤرخين . لمؤرخى المسلمين ورحالتهم جهدهم العلمى البارز الموفق حمداً جعلهم يقررون بان أظهر أدوار الهند التاريخية(٢) لم يبدأ إلا بتدوينات هؤلاء العلماء الذين صحبوا الفتوحات الإسلامية فى الهند ، ونعنى بها تلك الفتوحات التى بدأها محمود الغزنوى وخلفاؤه فأخضعوا أغلب شبه القارة الهندية لحكمهم ، بعد أن كان العرب قد اقتصر أمرهم فى القرن الأول الهجرى على احتلال بعض ولايات سندية صغيرة . وسنتحدث عن ذلك كله تفصيلاً فى الصفحات التالية.

وعاون كذلك على استجلاء غوامض تاريخ الهند القديم ما وصلنا من تدوينات بعض الرحالة الذين زاروا الهند فى القديم واطلعوا إطلاعاً واسعاً على أحوالها ، أمثال ميغاستين ، سفير السلوقيين الإغريق لدى دولة الموريا الهندية فى القرن الثالث قبل الميلاد ، ثم الحاجين الصينين البلاذيين فاهيان وهيون تسيانغ اللذان طوفاً بالهند فى القرنين الخامس والسابع الميلادى على التوالى .

---

(1) Dunbar, pp. 1-3, 583.

(٢) حضارة الهند ص ٢٠٦.

ولا نعرف من تاريخ الهند قبل نفاذ الإسكندر المقدوني إلى هـذه البـلاد إلا استيلاء الفرس على إقليم السند والقسم الشمالي الغربي من هذه البلاد فأقـاموا بـه قرنين من الزمن واستخدموا سكانه وفيولهم في جيوشهم فحاربوا بهم اليونـان فـي القرن الخامس قبل الميلاد .

واكتسح الإسكندر بلاد فارس ثم نفذ من أرض كابل إلى السند فدخلـه عـام ٣٢٦ق.م ، بعد أن عبر الهند كوش ، فطفق يتجول بالبنجاب عاماً بأكمله. حتـى إذا ما عزم على المضي في الفتح قدماً بعدما هزم يورس ملك الهند ، ليبلغ البحر فـي ناحية الشرق فيقيم له إمبراطورية هندية ، عارضة رجاله ، الذين لم يصبروا علـى احتمال حر هذه البلاد مع ما عاودهم من الحنين إلى بلادهم ، فاستدار بهم عائد إلـى وطنه ، عبر بلوخستان ، فوافاه أجله في الطريق قبل أن يبلغه

وكان من أثر فتح الإسكندر هذا اتصال الهند بثقافـة الإغريـق وحضارتـهم اتصالاً وثيقاً . أما ما أسسه بعض قادته ، ومن تخلف معهم من رجالهم ، من بعـض الإمارات بالسند ، فلم يعمر إلا عدد سنين .

وظهر بالهند ، أواخر القرن الرابع قبل الميلاد ، إمبراطورية الموريا الهنديـة التي اتخذت لها الطاووس شعارا وكانت رقعتها تمتد من البنغال إلى الهند كـوش وتضم معها مالوه والكجرات وأرض كابل.

هذا وكان جندر اكبتا (٣٢١ - ٢٩٦ق.م) مؤسس هذه الدولة قد أقام بـدوره زمنا بمعكسر الإسكندر ، إذا كان أبوه من زعماء البنجاب الذين وقعوا فـي اسـر القائد المقدوني ، ثم نكل بالحاميات الإغريقية من بعد ذلك وطفق يوسع مـن رقعـة ملكه متخذاً من بتنه حاضرة له

وذاع صيت هذا الملك الهندي ، حتى بعث إليه نيكاتور السلوقي ، الذي ملـك بعد وفاة الإسكندر سوريه وبابل ، سفيره ميغاستين فاطلع إطلاعاً واسعاً على أحوال هذه البلاد وطباع أهلها وعاداتها ، حتى ليعد ما وصل إلينا من مذكراته ، من أهـم مصادر الهند التاريخية القديمة(١).

(1) Cambriqge History of india pp 3-4 467

وقد أشاد هذا المبعوث الإغريقى بما كان عليه قصر الملـــك مـــن الروعـــة والفخامة وما مكان يزينه من نقوش وجواهر وعمد طليت بالذهب . كمـــا وصـــف الحضارة الهندية التى كانت قائمة إذ ذاك بأنه تساوى أختها اليونانية مساواة تامـــة . وأثنى الثناء الكثير على شيوع الفضائل ونصرة الحق بين السكان عموماً ، وانعـــدام الرق عندهم برغم قيام نظام الطبقات فيما بينهم(1) .

وكان من أهداف هذا السفير العمل على تحويل مجرى التجارة الهنديـــة إلـــى بلاد الشام ، عبر مملكة السلوقيين ، بدلاً من الطريق البحرى الذى ينتهى بها إلـــى مصر فتثرى من ورائه . ودهمت الهند فى أواخر عصر هذا الملك مجاعات شـــديدة اعتزل الحكم بسببها ، فترهب مدى اثنى عشر عاماً قتل نفسه فى آخرها جوعاً على مذهب مهابيرا.

ويعتبر المؤرخون حفيده الملك الفيلسوف آزوكـــا (أشـــول : ٢٧١ – ٢٣١ ق.م) أول حاكم واضح الشخصية فى تاريخ الهند القديم(2) . وبه يبدأ تاريخ المعمـــارى ؛ ولا تزال بهذه البلاد حتى اليوم كثير من عمده التى أقامها فى أنحاء متفرقـــة بـــها انتقش عليها مراسيمه ، هذا فضلاً عن قصوره التى وصفها الرحالة فاهيـــان بأنـــها كانت من الأعاجيب .

وتروى الأساطير أنه قتل أخوته المائة الذين ولدوا لأبيه مـــن ســـت عشـــرة زوجة ليأمن بذلك منافستهم له فما غدا أن ندم على فعلته ، فوقف حياته من بعد ذلك على التعبد والعناية بأمر الدين حتى صار داعية البونية الأكبر الذى أحيا شـــعائرها من جديد . فقد أمر عماله فى كافة أنحاء بلاده أن ينظروا إلى رعاياهم نظرتهم إلـــى أبنائهم فيعاملونهم بالحسنى ، كما بنى دوراً للشفاء وملاجئ للعجزة مـــن الإنســـان والحيوان ، ثم بعث بمبشرى هذه العقيدة إلى خارج الهند فبلغـــوا مصـــر واليونـــان وسوريا وبلاد العرب ، كما انتشروا فى أواسط آسيا وجابوا التبت والصيـــن واليابـــان. وفى عهد هذا الملك عرفت الهند النقود كأداة تعامل لأول مرة فى تاريخها.

---

(1) Havell, E.B. The History of Arayan Rula in India .pp. 75-83.

(2) Havell. P.89.

وانتهى أمر أسرة الموريا هذه عام ١٨٤ ق.م على أيدى أسرة اندهارا التـــى حلفتها فى بلادها .

وظهرت قبائل السكا على حدود الهند الشمالية الغربية بعدقليل ، وأنشأت لـــها إمارات فى الشمال والوسط ، ولكن أسرة اندهارا ما عتمت أن تصدت لسـتاربتهم(١) فأنزلت بهم هزائم كثيرة .

كذلك عبرت قبائل كوشان السيثية حدود الهند الغربية وتوغلت فـــى شــمال الهند حتى بنارس . وفى عهد ملكهم كنشكا ضمت دولتهم أرض كـــابل والبنجــاب والراجبوتانا .

ويعد هذا الملك ثانى حماة البودية فى الهند بعد أزوكا(٢). فقد جمع مجلساً من كهنة البوذية الكبار عهد إليهم بتدوين سنن البوذية فبلغت ثلاثمائة ألف نص رفعــوا فيها اليد إلى مصاف الآلهة .

وفى عهد هذا الملك الذى كان على اتصال بالرومان ، راجت الحياة العقليـــة رواجاً كبيراً وازدهرت العمارة والنحت.

ويغيم تاريخ الهند حتى بداية القرن الرابع الميلادى لتظهر أسرة كبتا الثانيـــة على مسرح الحوادث فى شبه القارة ، فتطرد ، بفضل بطولة ثـــانى ملوكــها بكــر ماديت ، السيث أصحاب كنشكا من الهند ، وتبعد عن حدودها ستاربة الســكا ، ثــم تبسط نفوذها من بعد ذلك فى الشمال والوسط والغرب وتخضـــع لولائــها الدكــن والبنغال وآسام .

وقد تحدث الرحالة الصينى فاهيان فى مذكراته عن ملـــوك هــذه الأســرة، ووصف بلاطهم وما كان به من الفلاسفة والشعراء وكتاب المسرحيات(٣).

---

(١) السترب هو حاكم الإقليم عند الفرس القدماء ، وعنهم أخذ البابليون والإغريق .

(2) Morcland, W. Ashort history of India. London 1986 p. 76

(3) Dunbar, India. Pp.70-72.

وخلب لب هذه الحجاج البوذى ما رأى بالهند إذ ذاك من مدن كبيرة تعج بالحركة والسكان ، وما صادفه من دور للشفاء مجانية عديدة ورباطات كثيرة ، بل ومدارس وجامعات تزدحم بعلمائهم وطلابهم ، ومن بينها جامعة تكسيلاً السندية ومدرستها الطبية المشهورة . هذا فضلاً عن شيوع العدل بين الناس ورخاء العيش.

وفى عهد هذه الأسرة نعم البراهمة برعاية ردت لهم سلطانهم ونفوذهم القديم الذى كان آشوكا قد حد منه كثيراً ، فراحوا بالتالى يحيون تقاليدهم الأدبية من جديد فكتبوا المهابهارتا والرامابنا فى صورتيهما الحاضرة فى الغالب(١) .

وظلت هذه الأسرة تحكم الهند حتى أقبل الهون من بلاد ما وراء النهر فى القرن الخامس الميلادى فقضوا عليها فى الوقت الذى كانت فيه قبائل أخرى منهم تتوغل ، بقيادة زعيمهم الأكبر أتيلا ، بأوروبا .

وأقام عرشاً ، وكون من سلالة الكوبتيين ، إمبراطورية واسعة له فى القرن السابع الميلادى شملت آسام والكجرات مع شمال الهند كله . وكان هذا الملك شديد الرفق برعاياه فحد من سلطان البراهمة وأخذ بيد البوذية من جديد . ويروى عنه أنه كان يتنازل لشعبه عن كل ثروته مرة فى كل أربع سنوات. وقد استنفذت هباته فى إحدى هذه المرات كل أمواله وأملاكه حتى ذهب يستجدى أختاً له رداء قديماً ليتدثر به ، فما كاد يتناوله منها حتى سجد للبد حمداً وشكراً(٢) .

ويذكر الحجاج الصينى الثانى هيون تسيانغ الكثير عن فضائل هذا الملك العباد الذى انتزع الملك من الهون ، ويشيد بما كانت عليه حاضرته قنوج من الروعة والفخامة . وهذه المدينة التى كانت حاضرة أسرة كبتا من قبل ، والتى ذكرها بطليموس الجغرافى عام ١٤٠م باسم قنوجيا ، كما أعجب بها محمود الغزنوى فاتح الهندستان إعجاباً شديداً ، كانت تقع إلى الشرق من آكرا الحالية وعلى مسيرة كيلو مترات قليلة من نهر الكنج

---

(١) الهند وجيرانها١١١ .

(2) Ischwari Prased Medieval India P.XXIX.

وانفرط ملك هرشا عقب وفاته مباشرة . ذلك أن خلفاءه ، لم يستطيعوا لضعفهم أن يقفوا فى وجه قبائل الهون التى طفقت تتدفق من جديد على أرض الهند، فضربت الفوضى أطنابها فى أنحاء البلاد ، وقام بين أمرائها ما يشبه الحروب الأهلية التى أخذ البراهمة يذكون نيرانها طلباً لزيادة نفوذهم ولإخضاع البوذية لسلطانهم .

واستطاعت إمارة قنوج ، برغم انسلاخ الجزء الأكبر من إمبراطورية هرشا الواسعة عنها ، أن تحتفظ بمركز الصدارة فى الشمال الهندى كله . وظلت تقاوم غزوات أمراء كشمير والبنغال وما حولها حتى نهض بها مهير بهوج فى القرن التاسع الميلادى فاسترد كثيرا من أملاك هرشا السابقة فى البنجاب والدوآب وعند كواليار. وبدأت الغزوات الإسلامية تترى على هذه الإمارة منذ أوائل القرن الحادى عشر الميلادى فلم يشارف على نهايته حتى دخلت فى حوزة المسلمين .

كذلك بقى بسال دبوا يسيطر هو وأحفاده على إمارة دهلى ، التى كانت تمتد فيما بين الهملايا والوندهايا ، حتى اقتحمها الغوريون ، خلفاء الغزنويين ، عليهم وجعلوا من مدينتهم الكبرى حاضرة لملكهم .

أما مالوه فكان قد نهض بها بدورها راجا كرسنا فى القرن التاسع الميلادى وأشتهر خلفه مونكا ، إلى جانب بطولته فى الحرب ، بتشجيعه ورعايته للفنون والآداب السنسكريتية. وقد اعتنق آخر حكام مالوه الهنادكة الإسلام على أيدى الخلجيين فى بداية القرن الرابع عشر الميلادى .

هذا وقد اشتهر من بين حكام الكجرات « مولراجا » الذى بنى معبد سومنات وخليفته راجا بهيما الذى حاول أن يحمى هذا المعبد الشهير بوقوفه في وجه محمود الغزنوى الذى دمره عن آخره ، وقد ضم الخلجيون إلى أملاكهم أيضاً هذه الولاية التى تعد أهم مراكز التجارة الهندية .

وبرغم أن هرشا لم يستطع فتح إقليم كشمير فإنه أفلح فى حمل أصحابه على قبول البوذية فى بلادهم .

وأتيح لهذه الإمارة فى القرن الثامن الميلادى أن توسع من رقعتها حتى اشتهر أمرها ، فقامت بينها وبين الصين علاقات اقتصادية وثقافية وسياسية .

على أن وعورتها وحصانة موقعها الطبيعى لم تمنعها على غزاة المسلمين ، فاجتاحتها جيوش محمود الغزنوى الذى يرد إليه الفضل فى نشر الإسلام بها .

وسطع نجم بهار والبنغال بعد انفصالهما عن ملك هرشا ، فحكمهم أسرتا بالاوسنا على التوالى .

وبسطت الأولى منهما نفوذها على أغلب الشمال الهندى بعض الوقت وكان الخلجيون هم أول غزاة من المسلمين نفذوا إلى هاتين الإمارتين .

أما إقليم السند ، وهو آخر الأقاليم الشمالية التى نتحدث عنها ، فقد خضع طويلاً لقبائل السكا الآرية حتى انتزعه منهم الملك البرهمى داهر ، وهو الذى وجده العرب المسلمون على هذا الإقليم عند غزوهم له .

ويشير الرحالة الصينى هيون تسيانغ إلى حكم الأمراء الراجبوتيين فى الدكن . وقد اشتهر من بينهم أسرة الشليوكيين ، إذ استطاع بليكسين الثانى ، أحد ملوكها ، أن يقف فى وجه هرشا سالف الذكر ويغزو الكجرات ومالوه والراجبوتانا ، كما أنشأ علاقات ود وصداقة مع ملوك الفرس والساسانيين . وتعد النقوش التى ظهرت فى عهده من أعظم آثار الهند الفنية حتى اليوم.

وخلف الشليوكيين على عرش الدكن أسرة راشتراكوتا فى القرن الثامن الميلادى ، وقد قامت بينها وبين العرب علاقات اقتصادية(1) . قوية ، وكان تجارهم حين يفدون إلى بلاد الدكن يقابلون بالحفاوة والترحيب .

وبقيت الدكن تستعصى على غزاة المسلمين حتى اجتاحها الخلجيون الذين بلغوا بفتوحاتهم شبه القارة الهندية جنوباً .

والأمراء الراجبوتيون الذين حكموا فى إمارات الشمال والدكن ، والذين ذاعت شهرتهم وبطولتهم فى التاريخ الهندى والأساطير على السواء ، لم يصل

(1) Prassd. India pp.30-03.

الباحثون حتى اليوم إلى حقيقة أصلهم . والرأى الغلاب انهم من أصلاب الأبطـــال الأريين الذين سبقوا الهون إلى أرض الهند فحكموها . وقد احتموا من وجه الغــزاة المسلمين آخر الأمر بالمنطقة الصحراوية الوعرة بصحراء الثـــار التـــى عرفـت باسمهم كما تعرف كذلك براجستان أى أرض الملوك . وتـــرد الأســاطير الهنديـة نشأتهم إلى تزواج القمر بالشمس .

على أن بطولة هؤلاء الأمراء هذه لم تمنعـــهم مـــن الانغمـــاس فـــى تيـــار المنازعات الداخلية ، شأنهم فى ذلك شأن الأمراء الإقطاعيين فى كل زمان ومكـان، فآثروا فى الغالب الاندفاع وراء أطماعهم علـــى الاتحـاد والتــآزر لدفــع الغــزاة والفاتحين عن الهند وطنهم الأكبر .

وتاريخ جنوب الهند أشــد غموضاً من تاريخ شمالهـــا الذى لم يرتبط بـــه إلا عرضاء ولا تشير كتب الشـــمال وملاحمه ، بل ونقوشـــه وآثاره ، إلى الجنـوب إلا إشارات قليلة ، وجدت فى مخلفات عصر آشوكا وبعض مخلفـــات أخـــرى ، تفيـد قيام ممالك بهذا القسم الهندى قبل الميلاد بقرون قليلـــة . وما وجـــد مـــن كتابـــات التمول والتلنجو عن هذا الجنوب لا يسبق القرن الثـــامن الميلادى فى القـــدم ، ولا يجـــاوز ما به من نقوش وآثار القرن الخامس .

ويرجع ظهور ممالك الجنوب الكبرى ، وهى بنديا وكولا وجيرا ، إلى ما قبـل ميلاد المسح بقليل . وكانت الأولى تقع بأقصى الجنوب ، وكانت على قدر كبير مـــن الثراء وعلى اتصال اقتصادى وثيق بالمصريين والرومان كمـــا كـــانت عاصمتـــها مادوراً من أجل مدن الهند إذ ذاك . وإلى الشمال منها والشرق كانت تقـــوم إمـــارة كولا ، فى حين كانت جيرا تقع إلى الشمال من الأولى وإلى الغرب من الثانية .

وتمكن حكام كولا من الاستيلاء على بنديا وبسط ســـلطانهم علـــى جزيـــرة سيلان جنوباً ، فى حين امتد نفوذهم فى الشمال حتى البنغال وأوده وأن لـــم يعمـــر طويلاً هناك .

وبلغت جيرا بدورها شأوا عظيماً فى القرنين الرابع والخـــامس ، فلـــم يـــهل الثامن الميلادى حتى تجاوز نفوذها نهر تربدا .

وأخذ وسط الهند وجنوبها يتعرض للغزو الإسلامى ابتداء من أيام الخلجيين حتى استقل أمراء من المسلمين بسلطنة بهمنى الدكنية فى القرن الرابع عشر الميلادى ليقوم من ورائهم بالجنوب ، على أنقاض إماراته الثلاث سالفة الذكر ، إمارة فيايانكر الهندوكية أعظم الإمارات التى عرفها الجنوب . ومنع من القضاء عليها ما كان من اقتتال خلفاء سلطنة بهمنى فيما بينهم ، فلبثت وبعض دويلات هندوكية فى الجنوب تنعم بالنفوذ والاستقلال حتى بسط أورنك زيب المغولى سلطانه على شبه القارة الهندية بأكمله .

هذا وقد كان لقدماء الهنود حضارة عريقة ومدنية رفيعة بلغت من الرقى درجة عالية ، فلم تكن أقل شأنا من نظائرها عند اليونان ومصر فى القديم .

وتشير كتب الهند القديمة إلى قيام النظام الجمهورى ، وتتحدث عن الوزراء والمجالس النيابية والتشريع والقانون والإدارة حديثًا ديموقراطيا ؛ وتصف الملك الهندى بأنه فى حقيقته خادم لقومه يحصل على أجره ، وكان السدس السنوى من الحاصلات ، ليعمل به على رفاهيتهم([1]) .

هذا ولما كانت مساحة البلاد الواسعة لا تمكن الحكومة المركزية من الاضطلاع بشئون السكان فى كل مكان ، فقد أدى ذلك تلقائيًا إلى قيام مجتمعات صغيرة متماسكة بالقرى ترعى شئون نفسها بنفسها فى وحدة تامة لا يعلوها سوى الدولة .

فكانت القرية منذ القدم ، بنظامها السياسى والاجتماعى هذا ، وطن الهندوكى الذى يقوم على كافة شئونه الدنيوية والدينية . ففيه حكومته وقاضيه وكاهنة وطبيبه وشاعرة ، ومن حوله أبناء عشيرته الذين يشعرونه بأنه واحد منهم، فهو يشترك معهم فى العمل بأرض القرية التى هى فى الغالب مشاع بينهم، وله من بعد ذلك نصيب من ثمارها أو دخلها ، عن طريق العمل أو عن طريق الميراث .

([1]) Plasad, Iudia PP. XXIII. XXXIV.

ولم يتعرض الغزاة وحكوماتهم فى الغالب لهذا النظام ، فلم يكن يعنيهم إلا دفع الضرائب لهم ، وهو ما كان يهون على الفلاح الهندوكى أمره من بعد ذلك[1]. وكانت حالة الفلاح الهندوكى عموماً تتراوح بين الميسرة والمعسرة وفقاً لما يطالب به من ضرائب .

والمرأة الهندية كان لها فى مجتمعات بلادها القديمة شأن مهم ، فشاركت فى الاشتغال بفنون المعرفة ، حتى لا تزال الهند تتغنى بذكرى جارجى التى كان لها شرف الانخراط فى سلك الفلاسفة القدماء[2] وشاركت الهندية كذلك فى الدفاع عن بلادها فحاربت غير مره بجانب صناديد الهند وصعدت فوق المواقد مفضلة الموت حرقاً على الوقوع فى أيدى الأعداء .

والمرأة الهندوكية لا تتوانى فى الغالب ، ما أتيحت لها الفرصة حتى اليوم ، فى أن تحرق نفسها مع جثمان زوجها عن إيمان وشعور بالزهو والشرف بين دعاء القوم وهتافهم . ولعل مما ساعد على ممارسة عادة الساتى هذه ، ما كان ينتظر الأرملة التى ليس لها ولد ، على الخصوص ، من بؤس وشقاء ، إذ تصير منبوذة محتقرة من الناس جميعاً ؛ فلم يكن لها مناص إذن من سلوك طريق الساتى التى لا تزال تمارس حتى اليوم ما أفلت الناس من الرقابة .

هذا وقد وصل فن العمارة فى الهند القديمة إلى ذروة الرقى والجمال الذى تجلى فى معابدها الرائعة وأبنيتها الفخمة فبهر أعين الرحالة والمؤرخين من الإغريق والصينيين والمسلمين الذين زاروا هذه البلاد وأطلعوا على أحوالها .

أما الصناعات الهندية ، من معدنية وخشبية وحجرية وعاجية وجلدية وصوفية وحريرية وقطنية ، فقد بلغت شأوا كبيرا من الأزدهار قبل الميلاد بقرون كثيرة . وكان لكل طائفة من أبناء الحرف فى الغالب نقابة قوية تنظم شئونهم وتدافع عن حقوقهم .

---

(1) Le Bon. Pp.637.88

(٢) الهند وجيرانها ص ٢٨ ، ٤٢ .

وحملت قوافل الهند ، ما بين برية وبحرية، منتجات هذه البلاد منذ القرن التاسع قبل الميلاد إلى كافة نواحي العالم القديم مباشرة أو بواسطة بلاد الشرق الواقعة على شواطئ البحر الأبيض المتوسط ، فتبارز المقاتلون بسيوف الهند البتارة ، وتعطرت النساء بعطورها ورفلن فى حريرها وأزين بلآلئها ، وازدحمت الجموع حول الملاعب ليشاهدوا نمور الهند وفيلتها فى المعترك([1]) .

وكانت الهند إذ ذاك تتداول ما يشبه خطابات الاعتماد والضمان المتعارف عليها فى عالم الاقتصاد اليوم ، وتتعامل بالنقود قبل الميلاد بزمان طويل .

ويذكر الرحالة الصينى هيون تسيافغ الكثير عن انتشار الجامعات بالهند القديمة ومنها جامعة تاكسيلا التى كانت تشتهر بالبحث العلمى أيام الإسكندر وجامعة يوجين الفلكية وأجانتا الطبية وبنارس البرهمية وتالاندا البوذية ؛ ويفيض فى حديثه عن الفلسفة الهندية وازدهار العلوم والفنون بهذه البلاد والواقع أن اشتغال الهنود بالعلوم وتقدمهم فيه قديم جداً . فعالمهم آريه بهت ، الذى ترجم العرب كتبه أيام العباسيين ، هو الذى سبق إلى إثبات دوران الأرض حول محورها وأعلن عن كرويتها وعلل أسباب الكسوف والخسوف([2]) والانقلابين والاعتدالين فى الفصول الأربعة ؛ كما تحدث عن قيمة النسبة التقريبية المستعملة فى حساب مساحة الدائرة، ووضع كثيراً من قوانين حساب المثلثات والجبر .

وخلف هذا العالم رياضى آخر يدعى براهما كوبتا وطائفة من الفلكيين قسموا العالم إلى اثنى عشر شهراً ، وكل شهر إلى ثلاثين يوماً ، وحسبوا بدقة بالغة مواقع النجوم فى أفلاكها وبحثوا فى قوانين الجاذبية ، كما ابتكروا فكرة السلبية فى الجبر، وعالجوا الجذور وقواعد التبادل والتوافق .

وكذلك نبغ الهنود فى الكيمياء فصهروا الحديد وبلغوا بالصلب درجة عالية لم يصل إليها غيرهم ، حتى اعتبر الإسكندر هديتهم له منه من أنفس الهدايا فآثرها

---

(1) Havel; pp. 14 , 75. 130.

(2) Dunbar, pp.80-81.

على الذهب والفضة[1] . ولعل ذلك كان هو مرد شهرة أسلحتهم وسـيوفهم . هـذا كما تفننوا فى الصياغة والدباغة وصناعة الزجاج والصابون ، وكلسـوا وقطـروا وحضروا الأملاح على اختلاف أنواعها .

وكما بـذ الهنود القدماء الإغريق فى نواح من الرياضيات كثـيرة ، كذلـك فاقوهم فى العلوم الطبية حتى رأينا ديوسقورس الطبيب ، الذى عاش بالإسـكندرية قبل الميلاد بقرن ، يستخدم كثيراً من المصطلحات الطبية الهندية[2]. فقد كانوا علـى إحاطة تامة بتشريح الجسم ووظائف الأعضـاء والعضـلات والنسـجة وتركيبـها وخواصها ؛ كما استنبطوا ضروباً من المخدر استعانوا بها على إجراء الجراحـات الكثيرة التى كانوا يحذقونهـا ؛ وضبطوا النسل على طريقة لا يعارضـها رجـال الدين ، واهتدوا إلى لقاح الجدرى قبل الميلاد بخمسة قرون ؛ وتمكنوا من تشـخيص المرض بمجرد النظر فى بول المريض .

ولا نعدو الحق حين نقول كذلك إن الفلسفة الهندية قـد ذاع صيتـها قبـل أن يشتهر أمر الفلسفة اليونانية بزمان طويل . والمعروف أن فيثـاغورث الفيلسـوف اليونانى ، الذى عاصر بوذا ، قد شغل بعلوم الهند فى القرن السادس قبل الميـلاد ، أى قبل أن يغزو الإسكندر الهند بأكثر من قرنين . ويروى أن فلاسفة مـن الـهنود زاروا أثينا فى القرن الخامس قبل الميلاد وناظروا سقراط فسخروا منه[3] .

ومن بين فلاسـفة الهند القدامى ، فيما قبل عصـر الإسـكندر ، الفيلسـوف كابيلا ، أول من قـال بمقدرة العقل الإنسـانى واستقلالـه وحريته الكاملتين[4] .

هذا ولم يكن اشتغال الهنود بالآداب السنسكريتية وغيرها من الآداب الهنديـة الأخرى وسموهـم بها ليقل عما فعلوه بالفلسـفة . وفى أكداس تراثهم من القصص والملاحم والتمثيليات والشـعر ما يشـهد بطول باعهم فى هذا المضمار .

---

(١) الهند وجيرانها ص ٢٤٠ .

(٢) تاريخ الحضارة الإسلامية لبارتولد ، ترجمة المرحوم حمزة طاهر ص ٤٠٦ .

(3) Carratt the legacy of India p.8.

(٤) الهند وجيرانها ص ٢٥٢ .

ولقد انفرد أبو الريحان البيروني في العربية بأول وأكبر حديث عن قدماء الهنود وحضارتهم ومدنيتهم ، وأثبت وجود مبدأ التوحيد عندهم[1] . وجاء معه ومن قبله ومن بعده إلى هذه البلاد طائفة من مؤرخي المسلمين ورحالتهم ، من أمثال العتبي والبيهقي والمسعودي والاصطخري والإدريسي وابن بطوطة وابن حوقل ، فطوفوا بها وأسهبوا في الحديث عنها وعن أحوالها .

على أن توفر مقامات الحضارة والمدنية الكثيرة عند الهنود لم تمنعهم من انقسامهم على أنفسهم وتناحر أمرائهم فيما بينهم على النفوذ والسلطان حتى سقطوا آخر الأمر وبلادهم فريسة غير صعبة للغزاة والفاتحين .

وطفق المسلمون منذ أواخر القرن الأول الهجري ينفذون إلى هذه البلاد فاتحين ، ولم يبدأ الغزو الإسلامي الجدي لشبه القارة الهندية إلا على أيدي الغزنويين في أواخر القرن الرابع الهجري ، فدخل تاريخ هذه البلاد في عهد جديد وبدأ في أرضها الصراع بين القديم والحديث .

ولقد وهم كثير من أهل الرأي في الهند ، حين أقبل عليهم المسلمون فاتحين ، أن هؤلاء الغزاة سينتهي أمرهم إلى ما انتهى إليه مصير من سبقهم من اليونان والهون وغيرهم من الأمم التي وفدت إلى هذه البلاد فانصهرت جميعها في بوتقة شبه القارة .

فما لبث هؤلاء المسلمون أن بلغ نفوذهم بالهند نفس الأثر العميق الذي وصله في جميع الأقطار التي فتحوها ، وهو ما لم يرق إليه اليونان أو الرومان من قبل أو يبلغوه . فتم لهم بهذه البلاد نظير ما تم لهم بوادي النيل حيث حولوا شعباً ، كانت له أقدم الحضارات ، عن دينه ولغته وفنونه وثقافته إلى دينهم ولغتهم وثقافتهم وفنونهم.

وآية ذلك أنه بشبه القارة الهندية اليوم ما يزيد على المائة مليون من المسلمين هندوكي الأصل في الغالب. هذا كما نجد كثرة بالغة من السكان جميعاً تتحدث الأوردوية التي هي من مشتقات لغات المسلمين .

---

(١) انظر كتابه : « ذكر ما للهند من مقولة مقبولة للعقل أو مرذولة » ، وقد تداولته طبعات كثيرة في الشرق والغرب ، ص ١٣ من طبعة زاخاو بلندن ١٨٨٧ « واعتقاد الهند في الله سبحانه أنه الواحد الأزلي من غير ابتداء ولا انتهاء .. » .

وكان مما ساعد على إقبال هذه الكثرة الغالبة من الهنادكة على الدخول فـــى دين الإسلام ما وجدوه فيه من عقيدة فطرة لا طبقات عندها ولا تفاضل بين أفرادهـا إلا بالتقوى(١) .

والفتح الإسلامى للهند ، باعتراف جمهور المؤرخين العدول ومن بينهم علماء الهنادكة ، كان فيه الكثير من الخير . هذا كما نرد صفوة تقاليد المجتمـــع الحديـث بشبه القارة الهندية كلها إلى هؤلاء الفاتحين(٢) الذين دفعوا بعجلة الحضارة والمدنيـة الهندية إلى السير من جديد ، ونقلوا إليها كثيراً من فنون المعرفة عند المســـلمين ، وأقاموا من أنفسهم رعاة على ذلك كله(٣) .

وبلغت الشخصية الهنديـة الإسلاميـة أوجها أيـام الدولة المغوليـــة التـى حكمت الهند قرابة قرون ثلاثة ابتداء من القرن العـاشر الهجرى الموافق الســادس عشر الميلادى . وفى عهدها وحدت شبه القارة كلها تحت الراية الإسلامية .

ولقــد خضع أهل الهند قرونــاً طويلــة للحكم الإسلامى فلم يجدوا عنده عنتا ولا رهقاً ، كما لم يصادفوا فى الغالب تقييداً لحريتهم الدينية فعاشـــوا ، هنـــادكة ومسلمين ، متحابين فى كثير من الأحيان ، فى ظل سلاطين المسلمين .

والحكام المسلمون هم الذين قادوا الثورة التى نشبت بالهند فى منتصف القــرن التاسع عشر الميلادى لطرد المستعمرين البريطانيين من شبه القارة .

ويطلق البريطانيون اسـم فتنة الغـدر والعصيان على هـذه الثـــورة التـى تزعمها بهادر خان آخر أمراء البيت المغولى ، بتعضيـــد ومعاونـــة الأفغـان ، للقضاء على شرور شركة الهند الشرقية البريطانية التى كانت تبسـط يدهـا علــى أجزاء كبيرة من هذه البلاد وبمعنى أوضح ، كان الإنجليز يحكمون هناك باســمها . وقــد أفلح البريطانيون ، بمعاونة فريق من الهنادكة السك ، فى القضاء على الثـوار

(1) Havell. P.257.

(2) Prassad. Pp. XXXVI, XXXVII.

(3) Le Bon,pp. 420 et seq.

الوطنين الذين كانوا قد أنزلوا بهؤلاء المستعمرين ضربات شديدة حتى خلصوا من أيديهم أقاليم كثيرة لا سيما فى البنجاب وبهار .

ومن ثم نفى البريطانيون الأمير المغولى من البلاد بعد أن قتلوا كثيرين من أبناء أسرته وذويه ، وفيهم أطفال دون السادسة . وأعلنوا من فورهم ضم شبه القارة الهندية لتاج ملكتهم فكتوريا .

ولم يكن البريطانيون هم أول من جاء الهند من جماعات الأوربيين ، فقد سبقهم البرتغاليون إليها ثم جاء من بعدهم الهولنديون . ولحق الفرنسيون بالبريطانيين من بعد ذلك ، لكن الأخيرين استطاعوا بدسائسهم ، فى أوروبا على الخصوص ، أن يحملوا لويس الخامس عشر ملك فرنسا على إخلاء أملاكه الهندية الواسعة .

وطفق الإنجليز ، حين أخلى لهم الجو من منافسة الأوربيين بالهند ، ينفخون فى نار الخلاف بين أمرائها ويثيرون النزاع بينهم بالدس والوقيعة ، حتى انهكت قواهم فسقطوا فريسة سهلة .

وتم للبريطانيين السيطرة التامة على شبه القارة الهندية بمعاونة جنود من الهنود أنفسهم جذبتهم أموال المستعمرين الذين كانوا قد ابتزوها بدورهم من أمراء البلاد حين كانوا ينشدون عونهم على منافسيهم . وهكذا فتح الإنجليز الهند بأموالها ورجالها ، وامتصوا خيراتها وبركاتها قرابة القرنين من الزمان . وبدعوى المحافظة على مواصلتهم بالهند ، دخل هؤلاء المستعمرون مصر ثم احتلوا وادى النيل كله واغتصبوا فلسطين التى تركوها أخيراً لليهود ، كما اكتسبوا مزايا سياسية بالعراق ومشارف كثيرة بالشواطئ العربية . وداوموا ، إبان ذلك كله ، على إشعال نيران فتن متلاحقة بإيران بأمل أن يكون لهم الشرق كله فيما بين البحر الأبيض المتوسط والهند ، على اختلاف دروبه ومسالكه .

واستيقظت الهند وغيرها من أمم الشرق التى بليت بالبريطانيين ، وطفق الوعى القومى فيها ينمو ويقوى ، وأخذ أهلها يشعرون بما فى السكوت على وجود المستعمر ببلادهم من خزى وعار . وخلى البريطانيون شبه القارة الهندية آخر الأمر عام ١٩٤٦م وقد اتفق سكانها فيما بينهم على تقسيمها إلى جمهوريتين كبيرتين هما جمهورية باكستان الإسلامية وجمهورية الهند الهندوكية .

الفتوحات الإسلامية
فى شبه القارة الهندية

فتوح العرب بالسند

كان العرب وحدهم . فيما قبل الإسلام ، واسطة مقايضات التجارة الهندية ما ورد منها براً عن طريق بلاد فارس ، فتولاه المناذرة والغساسنة ليبلغوا به موانئ الشام ، اوبحراً ،عن طريق المحيط الهندى والبحر الأحمر فحمله اليمنيون من أبناء سباء القديمة ، فمنه ما كان من نصيب القرشيين فى رحلة الشتاء التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم ، ليسيروا بدورهم بأكثر فى رحلة الصيف إلى بلاد الشام ، ومنه ما كان من نصيب تجار مصر ليقايضوا عليه تجار الرومان والإغريق بموانئهم على ربح طائل وفير .

هكذا كان العرب فى القديم على معرفة غير قليلة بالهند وأحوالها عن طريق تجارهم الذين نزلوا بهذه البلاد فى غربها فاختلطوا بأهلها ولقوافى فى الغالب حفاوة وعناية عند حكامها ، ليعودوا إلى بلادهم فى كل مرة فيدهشوا الناس بما يروونه لهم عن ثراء الهنود الطائل وما لهم من غرائب العادات والمعتقدات ويبهروا أنظارهم بما يعرضونه عليهم من لآلئ الهند ونفيس معادنها ومنسوجاتها وعطورها وثمارها ثم سيوفها التى اشتهرت بها .

كذلك وقف العرب القدماء على جانب من حضارة الهند وأخبارها وما بها من ثقافات عن طريق المدارس العلمية فى أرض الفراتين ، مهد الحضارات القديمة ومجمعها ، التى كانت على اتصال وثيق بالهند ترد إليها بضائعها ويفد إليها علماؤها . وقد تخرج على أيدى الهنود بمدرسة جند يسابور الساسانية فريق من العرب ، منهم الحارث بن كلدة الثقفى ، طبيب العرب قبل الإسلام الذى قام على علاج الناس بفارس ، وطبب بعض أمرائها فأعطاه ما لا وجارية هى سمية أم زياد بن أبيه(١) .

---

(١) ضحى الإسلام لأحمد أمين ، القاهرة ١٩٣٨م أول مارس ص ٣٦٦ .

وفتح المسلمون بلاد الشام ومصر ، وتخطت جيوشهم شمال إفريقية إلى بلاد الأندلس ، كما توغلوا فى بلاد فارس المترامية الأطراف وطرقوا أبواب بلاد ما وراء النهر ، فعظم شأن الدولة الإسلامية بهذه الفتوحات الكثيرة المهمة وقويت دعائم الخلافة الأموية بها .

وعهد الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك ، بأمر القسم الشرقى من بلاده إلى الحجاج بن يوسف الثقفى ، وكان محباً للفتح ميالاً إلى التوسع ، فوجه جند المسلمين إلى بلاد ما وراء النهر فدخلت بخارى وسمر قند وخجند وفرغانة حتى وصلت إلى قشغر على حدود الصين .

وكان من الطبيعى ألا يهمل الحجاج أمر إقليم السند ، باب الهند ذات الثراء الطائل ، الذى أصبح يجاور آخر حدوده الشرقية .

هذا وكان العرب ، أيام عمر ، قد خرجوا قبل فتحهم لفارس ، فى حملات خفيفة من البحرين وعمان إلى بعض سواحل الهند على مقربة من ميناء كراجى الحالية وبمباى ، ولكن ثانى الخلفاء الراشدين نهى عامله بالبحرين ، الحكم ابن أبى العاص ، عن المضى فى هذا الأمر ،إذ كان يخاف البحر على جند المسلمين شديد الحذر من « حمل الدود على العود » على حد قوله .

على أن الحكم شجعه ما غنمه فى غزواته على الإغضاء عن أوامر خليفته طلباً للمزيد من الأسلاب وللتمكن من الإطلاع على أحوال تلك النواحى ، فبعث بأخيه المغيرة هذه المرة إلى ديبل عند مصب السند فى حين قصد هو بروج .

فلما فتح المسلمون العراق وفارس ، طلب عثمان بن عفان إلى عامله على العراق عبد الله بن عامر ، أن يوجه إلى ثغور الهند من يعلمه عنها ، فوجه إليها حكيم بن جبله العبدى الذى بعث مخاوف الخليفة بحديثه عنها فصرف المسلمين عن غزوها[1].

---

(١) فتوح البلدان البلاذرى ص ٤٣٣ ، ٤٣٨.

ولم تنته خلافة عثمان على كل حال حتى كان المسلمون قـــد فتحـوا كـابل وانتشروا على حدود السند يستطلعون أخباره وأحواله جنوباً حتى البحر .

وغزا المسلمون من بعد ذلك إقليم قيقان السندى ليجئ المهلب ابن أبى صفـرة من بعدهم أيام معاوية فيغزو بنه والأهوار (لاهور) بين الملتان وكانـــه . وعـدل الذين خلفوا المهلب هناك عن الاهتمام بالمناطق الشمالية لوعورتها ؛ فعـــادوا إلـــى حصر جهودهم فى المنطقة الممتدة بين كابل ومكران عند الشاطئ .

ويعث الحجاج ، حين ولى العراق ، بسعيد بن أسلم إلى مكران ، فخرج إليـــه معاوية ومحمد بن الحارث العلافى فقتلاه ، إذا كانا من الخـــارجين علـــى سـلطان الأمويين فى هذه الجهات . وكانا قد لقيا عند داهر ، ملك الســـند الـبرهمى ، كـل ترحيب لجآ إليه برجالها الخمسمائة ، وما لبثا حين نصراه فى بعـــض حروبـــه ان صاراً من أصحاب الحظوة عنده .

ويلغ الحجاج الخبر فسأل الوليد الإذن بتسيير حملة إلى السند التى غدت ملجـأ للخارجين على الدولة ، لكن الخليفة لم يجبه إلى طلبـــه . حتـــى إذا مـــا تعـرض قراصنة من ميد الديبل لسفن كانت قادمة من جزيرة الياقوت (سيلان) وفيها بنـــات وأرامل لتجار من المسلمين وافاهم الأجل هناك ومعهم هدية من ملك هذه الجزيـــرة للخليفة ، فاعتذر داهر ملك السند للحجاج ، حين ألح عليـــه فـــى تخليـص نســاء المسلمين من الأسر ، بعد قدرته على لصوص البحر هؤلاء ، سير الحـــاكم الثقفـــى من فوره إلى ديبل ، عبد الله بن نبهان فى قوة انتهى أمرها إلى الهزيمـــة والقتـــل . ولقى بديل بن طهفة البجلى نفس المصير حين خرج مـــن عمـــان بـــأمر الحجـــاج للغرض ذاته .

هنالك تبدى للحجاج مدى الإهانة التى تلحق بهيبة المســـلمين وخطورتـــها إن هو سكت على هذا الأمر ، فما زال بالخليفة حتى أذن له بتسيير الجند لفتـــح الســـند فى الوقت الذى كانت فيه جيوش المسلمين تتوغل بالأندلس وجهتها بلاد الفرنجة .

واختار الحجاج ابن أخيه محمد بن القاسم الثقفى أميراً للحملة السندية وطفق قائد هذه الحملة . وكان يقيم إذ ذاك بشيراز ، يعدلها العدة طوال شهور ستة وعنى الحجاج بالإشراف بنفسه على تزويد الجند بكل ما قد يحتاجون إليه من الذخائر والمؤن حتى أمدهم بالخيوط والمسال بل وكذلك بالخل([1]) .

وأقبل محمد بن القاسم ، وهو دون العشرين من عمره ، يغزو بلاداً مترامية الأطراف متسعة الأرجاء ، اشتهر أهلها بأنهم رجال حرب أقوياء وأصحاب حضارة ومدنية عريضة ، وهو فى قلة من الجند إلى جانب كثافة جندهم ، وضآلة من الموارد بالقياس إلى ما كان يرويه الناس عن مبلغ ثرائهم .

وسار المسلمون من مكران وجهتهم ديبل فى اثنى عشر ألفاً من جند الشام والعراق وثلاثة آلاف بعير تحمل متاعهم . أما عتادهم الحربى ، وكان قد قام على تجهيزه لهم محمد بن هارون حاكم مكران ، فقد اتخذ طريقه بحراً ، فالتقى الجيش بسفنه فى ظاهر المدينة فى ربيع الأول عام ٨٩هـ-٧٠٧م .

وانضم إلى جيش المسلمين عند ديبل جموع كثيرة من رجال الميد والجات (الزط) ، وهما قبيلتان سنديتان هاجر كثير من رجالهما إلى خارج بلادهم لفرط ما كانوا يعانونه من سوء معاملة الحكومة البرهمية ، إذ كانوا فى عداد المنبوذين الذين يحرم عليهم امتطاء الدواب أو ارتداء غالى الثياب ، ولم يكن يباح لهم من المهن والحرف إلا أدنؤها .

وأفاد الغزاة المسلمون من رجال الميد والزط . إلى جانب شجاعتهم فى الحرب وشدة جلدهم فيها ، معرفتهم بمسالك السند ودروبها وأحوال أهلها وأساليبهم فى النزال .

---

(١) كان الخل يعالج بان ينقع فيه القطن المحلوج فى الظل حتى يتشربه ويجف ، فإذا أريد استخراج ما به من الخل ثانية نقع فى الماء من جديد فيتحلل فيه .

ورابط الغزاة بخنادقهم بظاهر ديبل خلف أسوارها ، فأخذوا يقطعون الأقوات والمدد عن سكانها الذين لبثوا على مقاومتهم . حتى إذا ما نصب محمد ابن القاسم منجانيقه الكبير « العروس » ، وحوله خمسمائه من الرجال الأكفاء يقومون عليه ، فدق بقذائفه معبد الهنادكة الأكبر بالمدينة فهدمه ، استولى الرعب والفزع على السكان وشاعت الفوضى بينهم ليقتحم المسلمون المدينة عليهم من بعد ذلك . واستمر القتال بين الفريقين المتحاربين فى عنف بالغ انتهى إلى فرار أمير السند داهر وفلوله من الميدان .

وبنى القائد الثقفى بالمدينة مسجداً ، وعمر المسلمون أحد أحيائها ، وترك بجانبهم حامية قوامها أربعة آلاف من الجند ، ثم واصل زحفه فبلغ مدينة نيرون(١) على الضفة الغربية للسند . فما عتم أهلها ، وكانوا بوذيين يدينون بعدم العنف والبعد عن إراقة الدماء ، أن أبرزوا له عهداً بالأمان كانوا قد حصلوا عليه من الحجاج ، يوم أن سار بعض عماله من قبل إلى غزو السند ، فأكده لهم بدوره .

وفيما كان الغزاة على أهبة التقدم بجموعهم صوب الشمال ، ورد على قائدهم كتاب من الحجاج يلح عليه فيه بتعديل اتجاهه إلى شاطئ السند الشرقى حيث يرابط عدوة فى جموعه .

هنالك رجع ابن القاسم عن موقع سبوى ، الذى كان قد بلغه عند الشمال من نيرون ، ليفاجئ عدوه بعبور النهر إليه ليلاً ، فلم يملك داهر إلا أن يرتد كرة أخرى إلى حصن راور فيمتنع فيه إلى حين .

واشتبك الخصمان فى قتال عنيف ، انتصر فيه المسلمون ، برغم مواجهتهم فيلة الحرب لأول مرة ، وقتل داهر ، وكان يمتطى فيلاً اشتد به العطش فثار على

---

(١) تقع هذه المدينة على مسافة ٧٥ميلاً من مكران وتعرف أيضاً باسم نيرانكوت وموقعها حيدر آباد السند الحالية . ويغلط بعض الكتاب فيكتبون نون الكلمة الأولى باءاً وينسبون إليها على ذلك العلامة البيرونى ، وهو خطأ شنيع ، فمدينة بيرون مسقط رأس هذا العلامة هى بإقليم خوارزم .

فيالة واندفع إلى النهر ، فترجل الملك وأخذ يبارز على قدميه حتى أصابت سيوف العرب منه مقتلاً[1].

وبلغ الخبر رانى باى ؛ وكانت أختاً لداهر بنى بها ، فجمعت بالقلعة خمسة عشر ألفاً من الجند ، أخذوا يقذفون العرب بوابل من سهامهم ومن النفط المشتعل وقطع الصخر ، فلم يجدهم ذلك كله نفعاً . هنالك دعت أرملة الملك نساء الحصن ليقلين بأنفسهن فى النيران فلا يقعن بأيدى الغزاة[2].

واستولى محمد بن القاسم فى راور على الكثير من أموال داهر وكنوزه، ووقع فى أسره خلق كثير كان من بينه نفر من الأميرات بعث بهم جميعاً إلى عاصمة الخلافة .

وزحف المسلمون بعد ذلك صوب الشمال مشرقين حتى بلغوا المدينة برهمنآباد وكان قد فر إليها ابن لداهر ، يدعى جاى سنك ، بعد سقوط راور فأحكم من تحصينها وسد منافذها . وأقتحم الغزاة المدينة على أهلها بغتة وعنوة فلم يملك ابن داهر إلا الفرار شمالاً مستجيراً بملك كشمير ، فى حين سقط فى الأسر زوجة أخرى لداهر تدعى لا دهى وبعض بناته ، إذ أذهلتهم المفاجأة عن سلوك السبيل الذى سلكته رانى باى وصويحباتها فى راور من قبل .

وأقام القائد العربى بهذه المدينة فترة من الزمن دبر فيها شئون المناطق المفتوحة ونظم إدارتها . ومما يؤثر عنه أنه أكرم رؤساء الهنادكة من رجال الدين هناك وأطلق لهم حرية العبادة على أن يوالوا المسلمين ويدفعوا ما يفرض عليهم من جزية عن طيب خاطر[3] .

(١) تاريخ اليعقوبى طبع ليدن عام ١٨٨٣ – ثان ص ٣٤٦ .

(2) Prsad. Med. India 42,43.

(3) Muslim ruie in India 1638 pp. 29.30.

وبلغ الجيش العربى الرور[1] ، عاصمة داهر ، وكان ابنه قد تحصن فيها من جديد وراح ، فى سبيل حث قومه على المقاومة ، يلقى فى روعهم أن ملكهم إنما قد اختفى ليعود إليهم فى القريب بجند وسلاح كثير . واستمات الهنادكة فعلاً فى مقاومة الغزاة ودفعهم دفعاً شديداً . حتى إذا ما فطن محمد ابن القاسم لخدعة خصمه بعث بلادى أرملة داهر ، وكان قد بنى بها ، فنادت فى قومها بأدنى الأسوار تؤكد لهم موت ملكهم . فانهارت قواهم على أثر ذلك بعد ما عانوا طويلاً من انقطاع الماء عنهم وطول الحصار من حولهم .

وعبر الغزاة من بعد ذلك بيأس ، رافد السند ، إلى مدينة الملتان ، أعظم مدن السند الأعلى وأقوى خصوبة، فامتنعت عليهم شهوراً ستة نفدت فيها مؤنهم فطعموا الحر . حتى أتاهم رجل مستأمن دلهم على مدخل الماء الذى يشرب منه السكان ، فقطعوه عليهم ، فنزلوا إلى قتالهم فى معركة شديدة استمرت أياماً سبعة اقتحم المسلمون الأسوار من بعدها واستولوا على المدنية كلها .

وفى الملتان آخر حصون السند الكبرى ، أقبل على محمد بن القاسم الأعيان والتجار ، وأصحاب الحرف فى عدد كبير من سكان الأقاليم المجاورة من رجال الميد والجات الذين كانوا يعانون من ظلم البراهمة ، والذين كان قد بلغهم الكثير عن تسامح هذا القائد العربى وكرمه وكفه لأيدى رجاله عن السلب والنهب ، فأعلنوا جميعاً ولاءهم على أنفسهم وأموالهم .

ودل أحد البراهمة محمد بن القاسم ، تقرباً منه ، على مكان خفى بأحد المعابد القريبة كان ملوكهم يودعون فيه أموالهم وكنوزهم ، فوجد به من المال الكثير ما مكنه من أن يرد إلى بيت مال المسلمين ضعف نفقات الحملة السندية ، وكان الحجاج قد تعهد بذلك للخليفة بادئ الأمر ، فحمل إلى دمشق عشرون ومائة ألف ألف درهم دون أن يضار الأهلون فى أموالهم أو يفرض عليهم من الغرم مالا يطيقونه[2] .

---

(١) تعرف هذه المدينة باسم آلولى .

(٢) تاريخ الكامل لابن الأثير الجزرى طبع بولاق ١٣١ هـ مجلد ٤ ص ٢٠٩ .

وهكذا كان لحميد مسلك ابن القاسم من الأهلين ، فى حسن معاملته لهم وتأمينهم على أموالهم وأنفسهم ، وإطلاق حرية العبادة لهم ، أبعد الأثر فى نفوس القوم مما ساعد كثيراً على توطيد مركز المسلمين هناك(1) .

وكتب الفاتح العربى من بعد ذلك إلى الحجاج يستأذنه فى فتح مملكة قنوج أعظم إمارات الهند ، وكانت تمتد من السند إلى البنغال ، فإجابة إلى طلبه وشجعه على المضى فى خطته .

هنالك بدأ محمد بن القاسم ، أولاً ، بإيفاد بعثة من رجاله إلى صاحب قنوج تدعوه إلى الإسلام أو الجزية . حتى إذا مارد الملك الوفد رداً غير كريم أخذ الفاتح العربى يعد العدة لغزو عدوه ، فجهز لذلك جيشاً فيه عشرة آلاف من الفرسان وعليه قائده أبو الحكم .

على أنه لم يكد يفرغ من إعداد حملته هذه حتى وافته الرسل تنبئه بوفاة الحجاج ثم وفاة الوليد بن عبد الملك من بعده وانتقال الخلافة إلى سليمان الذى أرسل يستدعى فاتح السند للقدوم إليه .

وكان سليمان بن عبد الملك يكره الحجاج وينقم عليه لتأييده الوليد حين عزم على جعل ولاية العهد لابنه بدل أخيه هذا . ولم يمنع موت الوليد ، قبل أن يتم هذا الأمر ، سليمان من إنزال نقمته ، فى عنف ، بكل من كان يتصل بالحجاج خاصة بسبب .

ولقد كان بوسع محمد بن القاسم أن يعتذر عن عدم تلبية دعوة الخليفة، بل ويرفض المسير إليه ، مستقلاً بما فتح من بلدان وما استولى عليه من أراض ، وهو الذى أمكن له أن يخضع السند لراية الخلافة فى مدة لا تتجاوز سنوات ثلاثاً ، صار من بعدها يتمتع بمحبة الأهلين وولائهم له هناك ، ولكنه آثر ألا يشق عصا الطاعة على خليفة المسلمين برغم توجسه الشر منه .

---

(1)Dundar India. P. 89

فحمل مقيداً بالأغلال حتى بلغ باسط فلقى بها من العذاب النكر ، على أيـــدى أعوان سليمان وأعداء الحجاج من آل المهلب ، حتى لقى حتفه ، فبعثوا رأسه إلـــى دمشق .

وترد بعض الروايات غضب الخليفة الأموى على محمد بن القاسم إلى عبثــه بسبى الهند إلى دار الخلافة ، وكان فيه ابنتان لداهر هما بارمل ديوا وسوراج ديــوا . فما إن اختلتا بسليمان حتى صرحتا له باعتداء الفاتح العربى عليهما قبل مسـيرهما إلى دمشق ، فهاج للخبر وأمر بقتل ابن القاسم وأن يحمل إليه فى جلد ثور محشـــو بالتبن . وتقول الرواية من بعد ذلك إن الأميرتين حين عرض عليــهما رأس القــائد الثقفى ، عدلتا عن قولهما السابق واعتذرتا عنه بما يحملانه من ضغينة وحقد لقــاتل أبيهما ، فسبقتا إلى حتفهما بافترائهما وغدرهما .

وليس لهذه القصة سند عند ثقات المؤرخين على كل حال .

وفتر اهتمام الخلافة من بعد ذلك بأمر الفتوح فى شـــبه القــارة الهنديـــة ، إذ كانت بوادر الانحلال والضعف قد بدأت تظهر فى الدولة الأموية . فىحين حرصت الدولة العباسية من بعدها على عدم التوسع الكثير فى الفتح بعد أن عظمــت رقعـة الدولة الإسلامية وترامت أطرافها كما شغل الولاة . يضاف إلى ذلك أن الولايــات السندية ، فضلاً عن جدبها النسبى وضعف خراجها ، كانت لا تزال محوطـــة فــى الشمال والشرق بإمارة قوية يحكمها الهنادكة ، كما كان سكان البلاد أنفســـهم قــد طفقوا بدورهم يثورون فى وجه ولاتهم من العرب الذين حادوا فـــى الغــالب عمــا أسننه محمد بن القاسم من الرفق بالرعية وإشاعة العدل والتسامح بينهم .

وهكذا شغل أكثر الولاة المسلمين فى السند بإقرار الأمن والسلام بداخل البلاد وعلى حدودها ، فانصرفوا عن التفكير الجدى فى المضى فيما بدأه محمد بن القاسم من الفتوح . وأخذت الاضطرابات تنتشر فى السند حتى قامت بين القبائل العربيـــة نفسها هناك من النزارية واليمنية الذين لم يتركوا أى بقعة حلوا بها فـــى أراضـــى الدولة الإسلامية الواسعة ، سواء فى أرض الشام أو بلاد الأندلــس أو الســند ، إلا

واعترفوا فيما بينهم بها . وزار من تفاقم الأحوال بالسند نفاذ الخوارج والشيعة والقرامطه إليه ؛ فانكمشت أملاك المسلمين هناك من جراء ذلك كله فلم يبق لهم إلا المنصورة والملتان .

وتفصيل ذلك كله انه قد خلف محمد بن القاسم على ولاية السند يزيد ابن كبشه السكسكى من قبل سليمان بن عبد الملك ؛ ولكنه ما لبث أن قضى عليه أثر وصوله بأيام قليلة . وأدى اضطراب الأحوال على إثر هذا الحادث إلى أن انتهز جاى سنك ابن داهر المقتول هذه الفرصة فانقض على مدينة برهمناباد فاستخلصها لنفسه فلم يستطع حبيب بن المهلب حين ولي السند أن يستردها منه حتى إذا ما بعث الخليفة عمر بن العزيز بعامله عمرو بن مسلم الباهلى أخى قتيبة إلى هذه البلاد فأوصاه بالرفق بأهلها والعمل على ترغيبهم فى الدخول فى الإسلام دون إكراه أو قسر ، صادفه التوفيق والنجاح فيما ندب له حتى اقبل ولد داهر نفسه على اعتناق الإسلام فأقره على إمارته .

وحاول فريق من آل المهلب ,عقب وفاة عمر بن عبد العزيز الذى كان قد ألقى بهم فى السجن لطغيانهم و تبديدهم لأموال المسلمين ؛ أن يشيعوا الفتن فى الجزء الشرقى من الدولة الإسلامية حتى بلغوا بها السند التى لاذوا بها ؛ لكنهم باءوا آخر أمرهم بالفشل وقضى عليهم .

وصار أمر السند فى عهد هشام بن عبد الملك إلى جنيد بن عبد الرحمن المرى . وكان حاكما حازما استرد إمارة برهنا باد من أيدى جاى سنك بعد أن قتله؛ كما سير جنده فى غزوات ناجحة بلغت يوجين ومالوه والسكجرات عند شرقى السند وجنوبه الشرقى . حتى إذا ما خلفه تميم بن زيد العتبى أضاع بتردده وضعفه كل ما بذله سلفه من جهود .

وجاء السند من بعد ذلك الحكم بن عوانه وفى صحبته عمرو بن محمد ابن القاسم الذى انفرد بالحكم من بعده . وفى عهدهما بنيت مدينتا المحفوظة والمنصورة على شاطئ السند ؛ غير بعيد من برهمنا باد . وصارت الأخيرة حاضرة المسلمين

فيما بعد ؛ وموقعها اليوم مشارف حيدر أباد السند .هذا وقد نهج عمرو خاصة نهج أبيه محمد بن القاسم فى الحزم والعدل وأحيا سيرته فى التسامح الدينى وإطلاق حرية العبادة للهنادكة .

واقتحم السند على يزيد بن غرار ؛ خليفة عمرو هناك ؛ ثائر من الخارجين على سلطان الخلافة الأموية يدعى منصور بن جمهور الكلبى فاغتصب هذه الإمارة عام ١٣٠هـ لنفسه .

وقضى العباسيون على الخلافة الأموية فعهد السفاح أول خلفائهم بأمر الأقاليم الإسلامية إلى نصيره أبى مسلم الخراسانى الذى بعث بدوره إلى السند بعبد الرحمن بن أبى مسلم العبدى ؛ ليفشل فى طرد جمهور بن منصور الكلبى منها ويلاقى حتفه على يديه . حتى وفد موسى بن كعب التميمى فما زال بالثائر الكلبى يطارده إلى أن هلك فى الصحراء عطشاً فى حين لقى أخوه نزار مقتله على يده . وطفق موسى من بعد ذلك يستميل قلوب الناس إلى دعوة بنى العباس ويعمل على التفافهم حوله فجدد بناء المنصورة وأقام بها مسجداً جديداً . وبلغ بجنده بعض غزوات موفقة .

وخلف المنصور السفاح فبعث إلى السند بعمر بن حفص وكان هذا الوالى الجديد ، الذى عرف بحسن تدبيره وحزمه ، على تشيع وثيق العلويين دون الجهر ، حتى رحب فى بلاده بأحد زعمائهم حين جاء إليها هرباً من وجه العباسيين . فكان عهده هذا هو بداية انتشار التشيع بالسند . ذلك أن عبد الله بن محمد الأشتر الحسنى العلوى كان قد ورد السند مستتراً فى هيئة التجار(١) ، فما إن عرف بميل أميره إلى أهل البيت حتى كشف له عن أمره فنال عنده كل حظوة ورعية . ولكن كان أن خاف عمر بطش الخليفة فأنزل العلوى مع أتباعه عند أمير هندوكى فى أحد البلاد المجاورة ، مواليا رعايتهم والعناية بأمرهم فى الخفاء . ومضت سنوات عشر

(١) تاريخ الطبرى طبع القاهرة ١٣٢٣هـ المجلد التاسع حوادث سنة ١٥١ ص٢٧٩ – ٨١ .

على هذا الحال حتى علم الخليفة بالأمر ، فكتب إلى عامله السندى يأمره بغزو بلاد الأمير الهندوكى ومطاردة الشريف العلوى . وما إن أحس الخليفة مماطلة عمر فى تنفيذ ما أمره به حتى نقله إلى شمال إفريقية ، بعد أن كاد يفتك به ، وبعث مكانه بهشام بن عمرو الثعلبى .

كذلك قصد السند أيام ابن حفص داعية من الخوارج يدعى حسان بن مجاهد الهمدانى، لكنه لم يجد لدعوته سوقاً رائجة ، فقد لحظ شدة ميل الأهلين إلى التشيع فرجع من حيث أتى .

على أى ، فأن الدعوة الشيعية بالسند لم يظهر أثرها قوياً إلا بعد مضى زمن طويل على هذا الحادث ، فقامت لهم دولة إسماعيلية حكمت هناك سنين عدة حتى قضى عليها محمود الغزنوى حين فتح هذه البلاد .

وحرض الخليفة العباسى عامله الجديد على القضاء على الشيعة وأنصارها بالسند ، ولم يكن يدرى ميل هشام بدوره خفية إليهم . ولكن حدث لسوء حظ العلويين أن خرج السفيح أخو هاشم إلى الحدود فصادف عبد الله ورهطه ، فقتل العلوى وفريقاً من أتباعه ، وبعث برأسه إلى الخليفة ، فأسقط فى يد هشام ولم يسعه بدوره إلا التظاهر بتدبير هذا الأمر اتقاء لنقمة مولاه وعقابه .

هذا وقد سكتت المصادر التاريخية كلها عن ذكر اسم الأمير الهندوكى ، الذى كان العلوى قد لجأ إليه ، أو اسم إمارته .

واتجهت همة هشام إلى توسيع رقعة إمارته ، فغزا إقليم الكجرات واستولى على بروج ميناء بحر العرب ، وكان بها جالية إسلامية كبيرة ، كما أخضع الملتان كله ، وبلغت جنده كابل وكشمير . وكلف هذا الأمير بالأدب حتى قصده فريق من الشعراء منهم مطيع بن إياس .

وتولى المهدى الخلافة ببغداد فعنى بنشر الإسلام بالسند عناية كبيرة صادفه التوفيق فيها ، إلا أن اشتداد النزاع بين القبائل العربية التى كانت قد هاجرت إلى

هناك منذ بداية الفتح العربى ، أخذ يضعف من سلطان الحكومة السندية ويحد من قوتها ونفوذها . فكان من جراء انشغال الولاة بالقضاء على فتن هذه القبائل فى الداخل أن طفق الأمراء الهنادكة بظاهرها يغتنمون كل ما يلوح لهم من الفرص لاقتطاع أراض من أملاك المسلمين السندية وضمها إلى إمارتهم حتى جاء السند . بعد وفاة المهدى العباسى ، الليث بن ظريف فسلك طريق الشدة معهم والعنف فأمكن له أن يؤمن أحوال البلاد ويقضى على ثورات هذه القبائل العربية ولكن إلى حين . ذلك أن داود بن يزيد بن حاتم المهلبى حين آلت إليه إمارة السند عام ١٨٤هـ مال إلى التخلف ببغداد فأوفد أخاه المغيرة نائباً له هناك – وهى سنة ابتدعها كبار الحكام وراجت على الخصوص إبان ضعف الدولة ، أعنى بقاء الأمراء ببغداد تربصاً بالحظوة والنفوذ وزيادة فى الترف وإرسال نواب عنهم إلى ما يتقلدونه من الإمارات – فإذا بهذه القبائل تطالبه بتقسيم البلاد إلى ولايات ثلاث ، فقسم لقريش وثان لربيعة وثالث لقيس . فلم يتمكن المغيرة من كبح جماح هذه القبائل إلا بعد أن استعان عليهم بعساكر الخليفة الذين قدموا من بغداد فحاصروا المنصورة عاصمة السند ، عشرين يوما استسلم لهم الثائرون من بعدها .

ولبث داود بن يزيد يحكم السند عشرين عاما مرض فى أثنائها الرشيد ، فأوفد لعلاجه بعض أطباء الهنود . وكان شفاء الخليفة العباسى على أيديهم من أسباب مضاعفة العناية بعلوم الهند وطبها . وفى كتاب طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ثبت لأسماء الأطباء والصيادلة الهنود الذين نزحوا إلى بغداد فأفاد الناس منهم .

وخلف بشر أباه داود فسار سيرته فى الحزم . حتى إذا ولى السند موسى ابن يحيى بن خالد البرمكى عمد إلى محاسنه زعماء العرب هناك ومحاولة فض ما بينهم من المنازعات بالمودة، ثم صرف همته من بعد ذلك إلى تعمير البلاد فشق كثيراً من الطرق وأقام دور الشفاء وخلفه ابنه عمران فبنى مدينة البيضاء بإقليم قيقان ، بعد أن انتزعه من الزط ، كما قضى على ثورات الميد وقتل بضعة آلاف منهم . وانتهز النزاريون فرصة انشغال عمران بإطفاء فتن الميد والزط ، فثاروا

عليه واتهموه بتحيزه لليمينين وتفضيله لهم عليهم . وانتهت منازعتهم معه إلى مقتله على أيدى زعيمهم عمر بن عبد العزيز الهبارى[1].

وهكذا استولى زعيم القرشيين على المنصورة ليكتب منها عام ٢٤٠هـ إلى المتوكل العباسى معلنا ولاءه له وإخلاصه فيثبته بذلك على إمارة السند .

والملحوظ أن ولاء أغلب حكام الولايات الإسلامية للخليفة ، لا سيما ما كان منها على مبعدة من بغداد ، غدا قبيل منتصف القرن الثالث الهجرى ، مجرد مسألة شكلية اسمية .

وبلغ من إهمال الخلافة لشأن السند أن رأينا الخليفة الضعيف المعتمد العباسى يقطعها للصفاريين هى وبلخ وطخارستان وسيستان وكرمان عله بذلك يخفف من شدة ضغطهم على العراق .

وولى أمر السند أمراء ضعاف من أبناء عمر بن عبد العزيز الهبارى لم يحالفهم التوفيق فى تأمين الأحوال ببلادهم . وما عتموا أن دب الخلاف بينهم وبين رجالهم من قريش ، حتى اقتصر سلطانهم على ولاية المنصورة التى كانت أرضها تنحصر بين الرور وشاطئ البحر. فى حين حكم إقليم الملتان أسرة قرشية أخرى من بنى منبه[2] ، بقيت فيه حتى انتزعه الأسماعيليون الشيعة منها .

ذلك أنه كان قد قدم السند فى بداية القرن الرابع الهجرى دعاة للفاطميين وعلى رأسهم من يدعى الهيثم رسول عبد الله المهدى . ثم توالى دعاة الإسماعيلية على هذه البلاد حتى جاءها قائد قدير من قوادهم وداعية من خير دعاتهم يدعى جلم بن شيبان . فما غدا حين قدم الملتان ، فالتف حوله القرامطة ، الذين كانوا قد نفذوا

---

(١) كان جد هذا الأمير قد قدم السند مع الحكم بن عوانة الكلبى . البلاذرى ص ٤٤٦ .

(٢) المسعودى ، مروج الذهب طبع القاهرة ١٣٤٦هـ أول ص ٥٩ « أدرك المسعودى عام ٣٠٢ بالمنصورة عمر بن عبد الله بن عمر بن عبد العزيز الهبارى أبو المنذر القرشى ، وأدرك بالملتان أبا اللباب المنبه بن الأسد القرشى وهو من ولد أسامة بن لؤى بن غلب » .

إليها قادمين من البحرين وبلاد فارس – أن استغل ما كان فيها من اضطرابات حتى تمكن آخر الأمر من الاستيلاء على مقاليد الحكم فيها . فكانت حكومته هذه أول إسماعيلية عرفتها شبه القارة الهندية كلها .

وسلك جلم سبيل العنف مع سكان البلاد ، مسلمين وهنادكة على السواء، فاغلق المسجد الجامع الذى كان قد أقامه محمد بن القاسم كما هدم المعبد الهندوكى بها وكان المسلمون يبقون عليه ضماناً لتجنب مهاجمة الهنادكة المدينة .

وتولى حكومة الإسماعيلية ، من بعد جلم ، الشيخ حميد وهو الذى وجده سبكتكين الغزنوى بالملتان فهزمه ليخلفه أبو الفتح داود القرمطى حفيده.وما زال محمود الغزنوى يطارد داود وقومه حتى قضى على حكومته.

وقد انتهى أمر بلاد السند كلها إلى استيلاء الغزنويين عليها حين أقبلوا على الهندستان فاتحين أواخر القرن الرابع الهجرى ، فكانت فتوحاتهم بداية حقبة جديدة فى تاريخ شبه القارة الهندية كلها ، أصحابها من المجاهدين المسلمين ولكن ليسوا من العرب .

نتائج الفتح العربى للسند :

لقد وفد على السند أفخاذ من القبائل العربية ، التى كان قوام جيش الفتوح فى الغالب منهم ، فاستوطنوا هذه البلاد ثم أصهروا إلى أهلها بعد قليل على ما فعل أفخاذ أخرى لهم بأغلب البلاد التى فتحوها . كذلك كانت لهم مشاركة ناجحة فى نشر تعاليم الدعوة الإسلامية ، والعربية ، لغة وكتابة ، بيين السنديين بفضل من صاحب حكامهم وأمرائهم من علماء المسلمين أمثال الربيع بن صبيح البصرى أشهر المحدثين وأولهم تدوينا للحديث . فلم يمض بضع عشرات من السنين على فتح السند حتى طفقت أفواج من أهله تترى تشارك فى بناء الثقافة الإسلامية العربية وتبرز فى ميادينها ، فكان منهم علماء فى الحديث واللغة والأدب مثل أبى معشر نجيح السندى المحدث صاحب المغازى ،وابن الأعرابى اللغوى ، أستاذ ثعلب وابن

السكيت ، وأبى عطاء السندى المخضرم الشاعر[1] ثم أبو على السندى وأبو اليزيد طيفور ابن عيسى البسطامى المتصوف .

وغنى عن البيان أن العرب كانوا فى أول عهدهم بالفتوح يكلون إلى أبناء البلاد المفتوحة أعمال الدواوين ، لقلة درايتهم بها إذ ذاك ، تحت إشرافهم ، وينفردون وحدهم فى الغالب بالقضاء وشئون الجزية والخراج على مقتضيات الكتاب والسنة .

ولئن قيل إن الفتح العربى للسند كان من الناحية السياسة حدثاً لا أهمية له فى التاريخ الإسلامى إلى أنه صير هذه البلاد جزءاً من الدولة الإسلامية تخضع لنظامها وتجرى عليه أحكامها ، لئن قيل ذلك إن العرب لم يكن لهم من آثار بارزة هناك إلا نشر تعاليم دينهم بهذه البلاد وتسرب إلسانهم إليها ، فقد كان لهم الفضل ، أكبر الفضل ، فى إعادة الاتصال الثقافى بين شبة القارة الهندية وبلاد الشرقيين الأوسط والأدنى .

وقد جنى العرب بدورهم من فتحهم هذا كسبا عظيما للثقافة الإسلامية . ذلك أنهم حين قدموا هذه البلاد واختلطوا بأهلها ، وجدوا عندهم من فنون المعرفة وألوان الحضارة ما بهرهم ، فالفلسفة الهندية ، وفروعها من الفلك والطب والرياضيات ، كانت قد بلغت من الرقى والتقدم شأوا بعيداً وغدت تزخر لنظرياتها وقوانينها ومبادئها ، وكذلك الفنون على اختلاف ضروبها ، والدراسات الدينية لا سيما ما كان منها خاصاً بعلم الكلام والتصوف ويقول Havell « إن المسلمين مدينون للهنادكة أولاً[2] ، لا لليونان ، بما وصلهم من مختلف ألوان المعرفة والثقافة الجديدة فى فجر حياتهم سواء فى الفلسفة أو فى الرياضيات أو الفلك أو الطب ، وقد طلبوها من بعد ذلك عند اليونان حين تمكنت من أنفسهم محبة العلوم وأشتد شغفهم بها » ويؤيد رأيه هذا أن أول كتب فى الفك والرياضيات حملت إلى

---

(١) ضحى الإسلام ص ٢٥٢- ٤٤٢

(2) Havell, pp. 254 – 53.

بلاط الخلافة ، وكان ذلك أيام المنصور العباسى ، هى كتاب براهما سد هانتا لمؤلفه العالم برهمكيت ، وتذكره الكتب العربية باسم كتاب السند هند ، وهو أقدم الرسائل الفلكية على الإطلاق إذ يرجع تاريخ تأليفه إلى عام ٤٢٥ق.م ، وكتاب كهند كهاديكا المعروف باسم اركند ، ثم كتاب آريه بهت المعروف باسم أرجبهذ اعظم الفلكيين والرياضيين الهنود . ومن اول هذه الكتب يظن أن العرب تعلموا الأرقام الحسابية والنظام العشرى . وقد وجدت الأولى منقوشة على أعمدة آشوكا قبل أن يستخدمها المسلمون بألف عام[1] .

وقد نقلت هذه الكتب الفلكية والرياضية مع طائفة أخرى من الكتب الطبية إلى العربية ببغداد فى منتصف القرن الثانى الهجرى بمشاركة علماء من المسلمين وإشرافهم من أمثال إبراهيم ابن حبيب الفزارى وأبى الحسن الأهوازى ويعقوب بن طارق .

عرف العرب هذا كله عند الهنادكة قبل أن تصل أيديهم إلى كتاب المجسطى، لبطليموس ، وإلى علوم الرياضة البحتة التى بز فى أغلبها اليونان الهنادكة وغيرهم[2].

ثم جاء البرامكة ، وكان آباؤهم سدنة بوذبين فى الغالب[3] فعنوا بأمر الهند فى دولة العرب ، وأحضروا علماء طبها وحكماءها على حد قول صاحب الفهرست . فجلبوا منكة الطبيب الهندى الذى نجح فى علاج الرشيد فنال الحظوة عنده وبقى يشرف على نقل الكتب من السنسكريتية إلى العربية بدار الخلافة هو وابن دهن الذى عهد بإدارة دار الشفاء ، ثم ابن بهلة الذى تولى علاج إبراهيم بن صالح عم الرشيد فشفى بعد أن كان ابن بختيشوع ، طبيب الخليفة ، قد جزم باستحالة برئه .

---

(١) الهند وجيرانها ص ٢٣٦ ، ٣٧ .

(٢) تاريخ الفلسفة الإسلامية لدى بور ترجمة الدكتور أبو ريدة القاهرة١٩٣٨ ص١٣،١٤.

(٣) بدء العلاقات العلمية بين العرب والهند – الكتور السيد محمد يوسف الهندى ، مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة م١٢ ح سنة ١٩٥٠ ص ١٠٤ وما بعدها .

هذا إلى جانب عنايتهم وتشجيعهم لدراسة علوم الـــهند الأخـــرى وعقائدهـــا وأحوالها ، تلك الدراسة التى وصلت إلى أكمل صورها فيما بعد عند أبى الريحـــان البيرونى فيما تركه من كتب ورسائل عن هذه البلاد .

ويشيد الجاحظ ، علامة العرب ، بذكر الهند فى بيانه فيقول : « إنمـــا الأمـــم المذكورة من جميع الناس أربع : العرب وفارس والهند والروم » .

الغزنويون وخلفاؤهم

لم يكن فتح العرب للسند ، أواخر القرن الأول الهجرى ، إلا احتلالاً لولاية واحدة فى أقصى الغرب ، لا هى بالواسعة الرقعة ولا بذات الموارد الغنية والأرض الخصبة.

وبدا الغزو الإسلامى لهذه البلاد فى أوسع مداه حين شرع الغزنويون الأتراك، أواخر القرن الرابع الهجرى ، يطرقون أبواب شبه القارة الهندية ويتوغلون فيها ، بعد أن أقاموا لهم بخارجها دولة واسعة ضمت غزنة وسيستان ولمغان وخراسان وأغلب بلاد ما وراء النهر .

ولقد وقعت فى الفترة ما بين الفتحين العربى والتركى للهند أحداث خطيرة متنوعة فى العالم الإسلامى . فقد زالت الدولة الأموية التى عرفت بتعصبها للعنصر العربى ، وكان مما عجل بسقوطها اشتداد النزاع القبلى بين العرب أنفسهم من جهة، واستعلاء هؤلاء العرب على غيرهم من المسلمين من جهة أخرى ، الأمر الذى نتج عنه ظهور الشعوبية واشتداد ساعدها . وخلفهم العباسيون فنقلوا العاصمة من دمشق إلى الكوفة ثم بغداد ، وأخذوا ينفضون أيديهم من العناصر العربية فى وظائف الدولة ومناصبها ويستعيضون عنهم بالعناصر الفارسية فى المناصب المدنية على الأخص ، والأتراك فى الجيش والحرس الخاص .

وهكذا أخذ المغلوبون يستردون سالف سلطانهم بالتدريج ، بل ويفرضونه على الغالبين ، حتى دب الانحلال فى أوصال الدولة نفسها وطفق فريق من القواد يستقلون بأجزاء منها مع ولائهم الأسمى لخليفة بغداد ، فظهرت الدولة الطاهرية ثم الصفارية والسامانية وغيرها .

واشتد نفوذ العنصر التركى بالبلاط العباسى ، فما غدا أن طغى على ما كان للعناصر الفارسية من سلطان. فصار الخليفة العباسى آلة فى أيدى رجال بلاطة من الترك ، يرضون عن أمير فيولونه الخلافة ثم يغضبون عليه وينقمون فيسملون عينيه ويعزلونه . ولم يقصروا نفوذهم بطبيعة الحال على دار الخلافة فحسب ، فقد صار كثير منهم حكاماً فى ولايات الخلافة فيما بين مصر وبلاد وما وراء النهر .

وعظم شأن الأتراك فـــى شرقـــى الإمبراطورية الإسلامية فورث الغزنويون والقره خانيون([1]) دولة بنى سامان الفارسية . ودفع بالأولين طموحهم إلـــى التطلـــع للفتح والغـــزو فولوا وجوههم قبل شبه القارة الهندية .

وتعد فتوح الغزنويين الهندية بداية غزو المســـلمين الحقيقـــى لشـــبه القـــارة الهندية، ذلك الغزو الذى سرعان ما انتهى بالفاتحين إلى اتخاذهم من هـــــذه البـــلاد مقاما دائما لهم .

ومؤسس الدولة الغزنوية التى اقتحم أصحابها الهند هـــو ســـبكتكين ، وكـــان غلاما لألبتكين صاحب عزنة ، جلب من تركستان إلى بخارى فنيســـابور([2]) ، ثـــم خلف سيده عليها عام ٣٦٧هـ/٩٦٦م .

واتصف سبكتكين هذا بالطموح وقوة العزيمة، فأفلح فـــى توحيـــد صفـــوف الأتراك والأفغان فى إمارته وسيرهم لفتح لمغان وسيستان وخراسان ثم استدار بـــهم من بعد ذلك واندفع عبر مسالك الهند كوش الوعـــرة يبغـــى الجـــهاد بغـــزو بـــلاد الهنادكة.

هذا وقد كان سيكتكين من الناحية العملية مستقلا عن الساماتيين الذيـــن كـــان مولاه البتكن حاجبا لهم وهم الذين عينوه على غزنه ، ومع أن نفوذه كـــــان يطغـــى

---

(١) وهم الايلكخانيون قوم بغرا بغراستان قشغر الذى دخل وقومه الإسلام فـــى القـــرن الرابـــع الهجرى وتسمى باسم هررن بن سليمان . مقال للأستاذ حمزة طاهر عـــن الســـلاجقة مجلـــة الثقافة عدد ١٩٤٧/٩٦٩ .

Barthold. W. Histoire des Turcs d'Asie Centrale. Paris 1943.p.80.

(٢) يذكر بعض المؤرخين أن سبكتكين هو من أحفاد يزد كرد شهريار آخر ملوك فـــارس قبـــل الإسلام ، وأن أسرته كانت بالتركستان فى عهد عثمان بن عفان لاجئة فاختلطت بأهلها ، فلـــم يمض حيلان حتى تتركت . وهو قول مرفوض ، ذلك أن أغلب الموالى الذين بلغـــوا رتبـــة الأمارة قد ادعوا بدورهم لأنفسهم مثل هذا الإدعاء طلبا لعراقة النسب وفى تاريخ البيـــهقى – نقله إلى العربية يحيى الخشاب وصادق نشأت – ص٢١٦ – ٢١٨ بيان شامل عن أصله .

على نفوذ السامانيين هؤلاء فأنه لم يتنكر لهم بل اعترف لهم بالسلطان وناصرهم في حروبهم .

وحين التقت جنده بجيش جبيال ، راجا بها تنده ، الذى كان يحكم مملكة واسعة تمتد من سر هند إلى لمغان ، أى من الكنج إلى الأفغان ، ومن كشمير إلى الملتان ، روع الهنادكة ، فأرسل أميرهم من فوره ، بظاهر لمغان ، يعرض الصلح على جزية كبيرة مع اعترافه بسيادة أمير الأمراء الغزنوى . لكن الأمير محمود ما زال بأبيه حتى صرفه عن قبول عرض الهندوكى فلا يشترى به مثوبة الجهاد في سبيل الحق .

ولم ييأس جبيال حين بلغة هذا النبأ ، فكتب إلى سبكتكين من جديد يهدده بأن الهنادكة لا يهابون الموت إذا ما ألمت بهم نازلة ، فهم سيفقأون أعين أفيالهم ويلقون بأطفالهم في النار ويخربون بيوتهم بأيديهم ثم يعرضون أنفسهم على سيوفهم ورماحهم فيزهقون أرواحهم بأيديهم ، فلا يجد المسلمون حين يدخلون ديارهم إلا خرائب ورمما .

هنالك قبل صاحب غزنة الهدنة على جزية مقدار ألف ألف درهم ، وخمسون فيلاً من فيول الحرب ، وقدر من الحصون والبلدان .

ونكث الأمير الهندوكى عهده ، حين زج في السجن بفريق من رجال غزنة الذين كانوا يصحبونه لمراقبة تنفيذ ما صالح عليه سيدهم ، فجعلهم عنده عوضاً عن رهائنه لدى سبكتكين . وأثارت أخبار الخيانة والغدر ثائرة الأمير الغزنوى فانطلق من فوره إلى أرض عدوه .

وبرغم التفاف أصحاب آجمير ودهلى وكلنجر وقنوج حول جيبال ، وما تهيأ لهم جميعاً من جند كثيف نيف على مائة ألف من المقاتلة ، فقد أنزل سبكتكين بعصبه الأمراء الراجبوتيين هذه هزيمة حاسمة، اضطروا من بعدها إلى طلب الصلح على أموال كثيرة طائلة عدا مائتين من الفيول وعشرة آلاف من رءوس الخيل سيقت كلها إلى بشاور(¹).

---

(١) تاريخ العتبى على هامش الفتح الوهبى القاهرة ١٢٨٦هـ ص ٨١- ٨٦.

هذا وقد أدار صاحب غزنة دفة القتال فى مهارة فائقة . ذلك إذ عبـــأ جنـــده القليل فى وحدات قوام كل منها خمسمائة من المقاتلين طفقوا يتبادلون مراكزهم فـــى الجبهة حتى أرهقوا عدوهم فأجهزوا عليه .

وكان من أثر انتصارات سبكتيكين الباهرة هذه أن رجعـــت قبـــائل الأفغـــان والخليج عن عصيانها ولزمت طاعته والولاء له .

ولئن لم تكن حروب سبكتكين الهندية هذه إلا مجرد غـــزوات ، فـــهى التـــى مهدت سبيل الفتح أمام جيوش المسلمين فيما بعد على كل حال .

محمود الغزنوى :

ومات سبكتكين فى شعبان من عام ٣٨٧هـ/٩٩٧م بعد أن حكم بلاده عشرين عاماً ، تاركاً من روائه مملكة واسعة مرهوبة الجانب .

ولأمر ما ، كان الأمير الغزنوى قد عهد قبل وفاتـــه إلـــى ابنـــه الضعيـــف إسماعيل برغم ما عرف عنه من اعتداده بابنه الأكبر ، يميـــن الدولـــة محمـــود ، اعتدادا شديداً حتى كان يروى للناس أنه تمثل له فى الرؤيا قبل مولده شجرة نبتـــت فجأة فى بستان داره فأخذت أغصانها تمتد فى كل اتجاه حتى أظلت العالم أجمع .

على أن محمود استطاع بعد اشهر قلائل من وفاة أبيه أن ينزع الملـــك مـــن أخيه على كل حال وينفرد بالأمر .

وما لبث محمود أن ورث ملك السامانيين كله فى خراسان وبـــلاد مـــا وراء النهر ، كما قضى على سلطان البويهيين فى الرى ، وهزم السلاجقة والقره خـانيين، وتوغل فى بلاد فارس ، وملك إقليم قزوين . هذا كما فتح بلاد الغـــور فـــى الـــهند كوش ، فيما بين غزنة وهراة ، ونشر الإسلام بين أهلها على نطـــاق واســـع لأول مرة .

ولقد راح محمود يعلن ، من بادئ الأمر ، أنه قد أخذ علـــى عاتقـــة الجـــهاد بسيفه فى سبيل نشر تعاليم الإسلام الصحيحة والقضاء على الفرق المضللـــة مـــن

رافضة وقرامطة وغيرهم . وكان يكتب فى أثر كل نصر يحـــرزه إلـــى الخليفـــة العباسى ببغداد يزف إليه النبأ فيصل إليه منه التشجيع والتعضيد والدعاء .

وهكذا امتد سلطـــان محمود إلى آفاق بعيدة ، وذاع صيته فى أنحـــاء بـــلاد المسلمين . وما لبث هذا الأمير المحـــارب أن ولى وجهة شطر الهندستان ، التـــى رأى فيهـــا ميدان الجهاد الأكبر ، فغزاها سبع عشرة مرة فى مدى سبعة وعشـــرين عاما ، فيما بين عامى ٣٩١هـ/١٠٠٠م / ٤١٧هـ/١٠٢٦م ، حتى خضع له شمال شبه القارة الهندية من بنارس إلى غزنة ومن الهملايا إلى الدكن .

هذا ومن المعروف أن الهند لم تكن غريبة على محمود فقد سبق له أن شارك أباه فى غزواته لها من قبل مما يسر له الإطلاع على أحوالها والوقوف على قـــدر غير قليل من أساليب القتال عند أهلها .

ولم تعد وأولى غزوات محمود الهندية تملكه بعض الحصون عنـــد الحـــدود فولاها بعض رجاله . ثم رجع إلى الهند من جديد فى شـــوال مـــن العـــام التـــالى ٣٩١هـ/١٠٠٠م على رأس عشرة آلاف مقاتل لاقى بهم جيش عدو أبيه الســـابق ، جيبال راجا بها تنده ، عند بشاور ، وكان الأخير فى اثنى عشر ألفا مـــن الفرســـان وثلاثين ألفا من المشاة معها ثلاثمائة من الفيول .

واستعر القتال بين الفريقين فى المحرم من العام التالى حتى أبيد من الهنادكـــة خمسة عشر ألفا وسقط أميرهم نفسه وفريق من حلفائه فى أسر السلطان الغزنوى .

ورضى محمود آخر الأمر أن يفك إسار خصومه على أموال طائلة وعدد كبـــير من فيلة الحرب ، ورهائن كان من بينها ابن لجيبال صاحب لاهور وواحد من حفدائه .

ولم يقو الأمير الهندوكى على احتمال ما لحقه من عار الاندحار ، فما لبـــث حين آب إلى دياره أن عرض نفسه على النار ، وفق رسوم قومه ، تكفيرا له عمـــا ناله من هزائم متكررة على أيدى غزاة بلاده .

واتجه السطلان الغزنوى فى غزوته الثالثة عـــام ٣٩٥هـــ/١٠٠٤-١٠٠٥م إلى بهيرة ، على جهلم أحد روافد السند ، فضمها إلى ملكه ، ثم تركها إلى الملتـــان

مقام أبى الفتح القرمطى الذى ما لبث على أثر علمه بهزيمة حليفه أمير لا هــور أن سعى إلى محمود يعرض عليه توبته مع طاعته ، علــى جزيــة ســنوية مقدارهــا عشرون ألف درهم من الذهب .

وبلــغ محمودا وهو بالهند أخبــار مهاجمة أمير قشغر لأملاكـــه ، فأســرع بالعودة إلى بلاده بعــد أن عهد بأملاكه هناك إلى حفيد لجيبال كان قــد انضم إليـــه وأسلم على يديه . وهو الذى تعرفـــه الكتب العربيـــة باســم نواســه شــاه حفيــد السنسكريتى .

على أن صاحب غزنة لم يكد يستقر فى عاصمته بعض الوقت ، بعد أن أمــن حدوده ، حتى بلغه خروج نائبه بالهند على سلطانه فسارع إليه مـــن فــوره ، فلــم يرجع عنه حتى افتدى نفسه بأربعمائة ألف درهم .

وتحالف دواد صاحب الملتان مع آننجبالا صاحب لاهور وابن جيبال ســـالف الذكر على خلع طاعة محمود من جديد ، واستنهض الأخير لشد أزره همم الأمــراء الراجبوتيين ، أشجع من عرفتهم الهند ، وفيهم راجاوات أوجين وكواليار وكلنجـــر وقنوج ودهلى وآجمير . ولم يكن أمراء الهنادكة هؤلاء ليتقاعسوا بطبيعة الحال عــن نجدة واحد منهم . وقد تكشف لهم مدى ما يتهددهم من أخطار على أيدى الســلطان الغزنوى .

وزحفت جيوش الهند مجتمعة للقاء جند المسلمين بأرض البنجـــاب ، ومــن ورائها الشعب الهندوكى يتفانى أفراده فى مدها بالزاد والعتاد فى حماس بالغ دفـــع النساء إلى تقديم حليهن فى سبيل الدفاع عن الوطن . وبرغم كثرة من هلك من جنــد المسلمين ، فقد واصل محمود القتال برجاله الستة الآلاف فى عنف بالغ وجلد زائــد. حتى إذا ما لوى آننجبالا زمام فيله طلبا للهرب ، أفزع الرعب صفـــوف الهنادكـــة الكثيفة فراحت الجند بدورها تلتمس الفرار . وهكذا قضى صاحب غزنة آخر الأمــو القضاء التام على جيوش الهند المتحدة واستولى على ما كان معها من عتاد طـــائل وكنوز ، لينطلق من بعد ذلك قائداه عبد الله وأرسلان يطاردان فلول العدو المنـــهزم يومين كاملين .

واندفع محمود إثر هذا الانتصار الكبير إلى حصن نكركت ، الــذى يعـرف أيضا باسم بهيمنكر ، وكان يقوم على تل فى منطقة السهول الغنية بسفوح الهملايا ، وبه كانت تكدس الأموال الكثيرة مما كان يتقرب به الهنادكة إلى آلهتهم . وما لبـث حراس هذا الحصن ، وكانوا كهنة مسالمين ينكرون الحروب وإراقــة الدمــاء ، أن استسلموا للغزاة دون قتال . وقد وصف العتبى مؤرخ السلطان محمود ، ما كـانت عليه كنوز هذا الحصن من الكثرة البالغة فقال : « نقل منها (أى محمود) ما أقلتـه ظهور رحالة واستحمل سائرها أعيان رجاله[1] » .

هذا والواقع أن الهند كانت ومازالت إلى قرون قليلــة تزخـر دور أعيانـها وحصون أمرائها بثروات وكنوز طائلة مما لا تكـاد الأذن تصدقـه . وقـد رجـع محمود من إحدى غزواته ذات مرة ومعه أربعة آلاف بعير تكاد تنوء بأحمالها مـن الأموال والغنائم . بل لقد كان جنده كثيرا ما يتركون وراءهم أوانى الفضة لثقلها بما كانوا يحملون من ذهب كثير وجواهر . ومن المعروف المشهور أن أدوات المعـابد الهندية وأكثرها الآنية التى كان يزخر بها دور الأغنياء ، لم تكن فى الغالب إلا مـن الذهب الخالص ، وكذلك السكة المتداولة بين الناس .

ولئن كانت فكرة الجهـاد التى تسلطت على محمود ورجاله وأشـربت بـها نفوسهم ، هى التى دفعت بهـم إلى توالى غزوهم للهند ، هذا بالإضافة إلى ما كـان لكنوز هذه البلاد وثرائها الطائل من إغراء ، فقد كان من العوامـل البـارزة التـى ساعدت على انتصارهم كذلك ما كان يغلب على الأمــراء الهنادكـة مـن تحلـل اجتماعى جعلهم أبدا يقدمون مصالحهم الخاصة ومآربهم الشخصية على كـل شـئ فـلا يبغون عنها حـولا ، ولو عنى بقدر ضئيل ، فى سبيل الهند أمهـم الكـبرى . وهكـذا كانت الثقــة والتمـاسك والتعاون لا وجود لها بينهم ، فلـم تغـن بذلـك كثرتهم البالغة عنهم شـيئا أمام الغزاة الذين كانوا على قلة عددهم مجتمعين علــى إخلاص تام لهدفهم فى تعاون ونظام وثيق محكم .

(١) العتبى ثان ص ٩٩

وضاق محمود آخر الأمر ذرعا بمؤامرات داود القرمطى ، صاحب الملتان ، فخرج إليه من جديد عام ٤٠١هـ/١٠١٠م بعد أن قضى على فتن بلاد الغور ، فما زال به حتى أوقعه فى أسره فحبسه فى حصن جوراك ، فلم يرجع عن الهند حتى قضى على دولته قضاء تاما وخرب المنصورة قاعدته.

هذا كما طارد جند غزنة راجا بهيمبال ، حفيد جيبال ، حتى كشمير وإلى محمود يرد الفضل فى نشر الإسلام بهذا الإقليم الجبلى الواسع .

كذلك تمكن السلطان الغزنوى من انتزاع حصن ثنيسر من جموع الهنادكة الحربية التى استماتت فى الدفاع عنه ، فحطم ما كان به من أصنام واستولى على ما وجده به من أموال ونفائس كثيرة .

وهكذا دان للغزاة إقليم البنجاب كله وما حوله ، فأصبح الطريق إلى سهول الهند نفسها ممهدا أمامهم وها هم أولاء يتضاعف عددهم يوما بعد يوم بفضل ما كان يفد إليهم من محاربى خراسان والتركستان وبلاد ما وراء النهر الذين استهوتهم انتصارات محمود الكثيرة وغنائمه التى لا تدخل تحت حصر فسار بهم وجهته قنوج ، درة ولايات الهند الشمالية وأقدمها . فما أن عبرت جند المسلمين جمنه حتى برز إليهم هاردانا ، راجا باران التى تعرف اليوم ببلند شهر ، ومعه عشرة آلاف من رجاله طفقوا ، على حد قول ابن الأثير ، ينادون بكلمة الإخلاص طلبا للخلاص.

وما لبث حصن مهاون على جمنه أن سقط بدوره فى أيدى الغزاة بعد أن هلك من حماته خمسون ألفا ابتلعهم النهر . ولم يطق صاحبه الأمير الهندوكى كلجند وقع الهزيمة على نفسه فقتل زوجه ونفسه حزنا على ما أصابه .

كذلك لم تغن فتيلا مقاومة أصحاب مترا فسقطت مدينة الهنادكة المقدسة هذه وما بها من أموال فى أيدى محمود .

وأشرف محمود آخر الأمر على قنوج عام ٤١٠هـ/١٠١٩م وكانت أخبار انتصاراته قد سبقته إليها ، فاستسلم له صاحبها راجا بياله من فورة دون أدنى مقاومة وفتح خزائن كنوزه .

على أن الأمراء الرجبو تيين الذين ملكهم الغيظ فحنقوا على زعيمهم لاستسلامه لجند المسلمين ؛ ما لبثوا ، غداة رحيل محمود عنهم ، أن ندبوا فيديا هار بن جند له راجا كلنجر يعاونه راجا كواليار ، فما زالا براجا يياله حتى أوقعاه في الأسر فقتل صبراً .

وأثار الخبر ثائرة السلطان الغزنوى فارتد من فوره إلى الهند ليعاقب هؤلاء الأمراء على فعلتهم . ولقد هم محمود حين رأى حشود الهنادكة الكثيفة أن يرجع عن قتالها لولا أن مجرد ظهوره فى الميدان ألقى الرعب فى قلوب أعدائه فانفرط عقدهم لساعتهم وانطلقوا هاربين لا يلوون على شئ .

وعاد محمود إلى الهند من جديد فى عام ١٤١٢هـ / ١٠٢١ /١٠٢٢م فاخضع كواليار لسلطانه . كما صالح راجا جندله على أموال طائلة مع طاعته .

ولئن كان غزو قنوج يعد من بين وقائع محمود الحربية الباهرة ، فإن فتح الكجرات وسومنات هو دون شك أعظم انتصاراته الهندية جميعاً ، فقد فاق ما لاقاه محمود من مصاعب ومتاعب فى هذه الغزوة ، ما عاناه كل الذين سبقوه إلى دخول هذه البلاد وفيهم الإسكندر المقدونى نفسه .

وقد انتهت هذه الواقعة ، التى تعد آخر غزوات محمود الهندية الكبرى، إلى إنزال أكبر ضربة بالأمراء الراجبو تيين ، فضاع من بعدها كل أمل لهم فى استرداد سابق هيبتهم بالهند : وما لبث خلفاء محمود آخر الأمر أن اضطروهم إلى الهجرة إلى المنطقة الصحراوية الوعرة التى تعرف اليوم باسمهم حيث أفلح فريق منهم الاحتفاظ باستقلاله هناك إلى حين .

ولقد اقتحم محمود فى طريقه إلى الكجرات عام ٤١٦-٤١٧هـ / ١٠٢٥-١٠٢٦م ، مفازة جرادء قاحلة مترامية الأطراف واسعة المسالك هى صحراء الثار أكبر صحراوات الهند ، فكانت قوة جلده واحتمال رجاله وشدة بأسهم مثار الدهشة والعجب .

واستولى محمود ، وهو فى طريقه إلى هدفه ، على آجمير ونهروالـــه ، ثــم ظهر آخرالأمر أمام سومنات فوجد الأمراء الراجبو تيين قد حشدوا جموعهم الغفيرة لحماية معبد الهنادكة الأكبر بها ، وعليهم بهيم ديو صاحب الكجرات ومعـــه راجــا نهرواله وأمراء بهاتى . والتحم الفريقان فى قتال عنيف انتهى إلى مذبحــــة داميــة سقط فيها خمسون ألفا من الهنادكة مر الغزاة على أشلائهم إلى داخل الحصون .

هذا ولمعبد سومنات قداسة عظمى عند الهنادكة ، حتى إنـــهم بـــادروا مـــن فورهم إلى تجديده غداة قيام جمهورية الهند الجديدة ، أى بعد مضى أكثر من تسـعة قرون على تدمير محمود له .

ويصف المؤرخون مصلى الهنود هذا بأنه كان بناء عجيبا ذا ست وخمســـين سارية صفائحها من ذهب مرصع بالجواهر ، وذا ألوف من التماثيل المصنوعة مـــن الذهب والفضة والمحيطة بهيكله ، وذا صنم ضخم فى وسطه وقد رصع بـــالجواهر والحجارة الكريمة الكثيرة .

ويعتقد الهنادكة أن الأرواح تتناسخ فى الأبدان عنده ، فهو ينشئها فى الأبـــدان كيف يشاء، وأن المد والجزر إن هما إلا صلاة البحر يؤديها لصنمهم الأكبر هنـــاك . هذا وقد كان الناس يحجون إليه فى جموع زاخرة لا سيما عند خسوف القمر(١) .

وكان فيه من السدنة ألفان من البراهمه ، ومن الراقصات المنشدات خمسـمائة وكان هؤلاء جميعا أن يقوموا عند الدجى ، على جلجلة سلسلة غليظة مـــن الذهـــب فيقضوا مناسكهم لمعبودهم الأكبر. .

ومن البديهى أن محمودا لم يكن ليخاطر بعبور صحراء مهلكة مثل صحـــراء الثار هذه لمجرد تحطيم صنم أو الاستيلاء على ما بمعبد هندوكى من أموال . فواقع الأمر أن هذا المعبد كان أخطر مراكز المقاومة والعدو الد الهندوكى طــــرا ، كمـــا كان يتخذ فى الوقت نفسه مثابة للأموال التى كان ينفق على الأعمال الحربية .

---

(١) ابن الأثير تاسع ص١٤٢ ، ١٤٣ حوادث سنة ٤١٦ .Havel p. 288

ولم يغفر محمود لراجا نهروا له وأمراء بهاتى معاونتهم لراجاكواليــار فــى الدفاع عن سومنات فهاجم بلادهم وهو فى طريقه إلى عاصمته عائدا من ســومنات واستولى عليها .

وكان آخر غزوات صاحب غزنة الهندية حملة نهرية لتأديب قبائل الزط عنـد الحاجز الملحى بالبنجاب ، وكانت هذه القبائل قد اشتد نشاطها بعد انفراط عقد إمـارة لاهور الهندية فأخذت تعيث فى الأرض فسادا حتى هاجمت أطراف جيوش غزنـة مرات متكررة إبان زحفها بأرض الهند .

هذا ولو كانت غاية محمود من غزواته الهندية عموما هــى مجـرد جمـع الأموال فحسب ، كما يقول بذلك بعض المؤرخين ، إذن لقبل مــا عرضــه عليـه الهنادكة من افتداء صنم سومنات بالأموال الطائلة ، ولما رد عليهم بقوله المشـهور بأنه يؤثر أن ينعته الناس بأنه محطم الأصنام على أن يقولوا عنه بأنه بائع الأوثان .

وفى هذا يتحدث عنه المؤرخ الهندوكى براساد فيقول([1]) « إن محمودا ليعـد فى نظر المسلمين حتى اليوم غازيا ومجاهدا كبيرا أخذا على نفسه مهمـة القضـاء على الشرك فى مهاد الوثنية . وهو فى نفس الوقت عند الهنادكة طاغيـة مخـرب حطم مقدساتهم ودمر معابدهم وآذى شعورهم الدينى فى كثـير . ولكـن المـؤرخ المنصف حين لا يسقط من حسابه تقاليد العصر الذى كان يعيـش فيـه ، وسـماته واعتباراته ، لا يسعه إلا أن يقرر أن محمودا كان زعيما بارزا من خـيرة القـادة والزعماء وحاكما حازما عبقريا من الطراز الأول ، اتصف بالعدالة ورعاية الفنـون والعلوم فهو جدير بأن يعد من بين أعاظم الملوك طرا([2]) » .

والحق أن محمود الغزنوى كان من أعظم سلاطين المسلمين ، وقد وسع ملكه الأول إلى سلطنة مترامية الأطراف امتدت من بهار فى شرق الهند إلـى فـارس .

---

(1) Prasad, Medieval India 71.77.

(٢) كذلك يشيد المؤرخ لين بول بمحمود فيقول : « إن ذلك السلطان الذى أقـام تلـك المنشـآت الفخمة بغزنة وأقام دور العلم ورعى العلماء حتى كان يجود عليهم بما لا يقل، عمـا يعـادل مائتى ألفا من الجنيهات كل عام ، فضلا عما كان يجرى على طلبـة العلـم مـن الأرزاق ، لايمكن أن يسلك فى زمرة الطغاة البرابرة ». Med. India pp. 81.2

وكان ممن ساعد على انطلاق عبقريته الحربية اطمئنانه إلى تأمين مؤخرتـــه حيــن أقبل على الهند غازيا ، فضلا عن شيوع الخلاف بين أمراء الهنادكة أنفسهم . وقــد تيسر لمحمود ، إلى جانب ذلك كله ، عون رجال أكفاء تمكنت عقيدة الجـــهاد مــن أنفسهم فتفانوا فى خدمته ، وإن خلوا ، مع الأسف من الخبرة الكافيـــة فـــى الإدارة والحكومة .

وقد شغف محمود بالهندستان شغفا زائدا وأعجبه جو الكجرات خاصة فمـــال إلى الإقامة الدائمة هناك ، على أن ينيب ابنه عنه بغزنة. لكن رجاله عاودهم الحنين إلى منازل قبائلهم ومراعى بلادهم الخضراء وبساتينها ، كما ضايقـــهم حـــر الـــهند وعجزوا عن احتماله .

هذا وقد عرف محمود ، إلى جانب شهرته الحربية ، برعايته للعلــوم والآداب وعظيم بذله لأربابها والمشتغلين بها ، حتى قصدوا بلاطه مــــن مختلــف الأقـــاليم الإسلامية . وكان من بين علماء محمود ، البيروني العلامة الرياضى والفليســـوف الفلكى العالم بلغات الهند وثقافاتها وحضارتها ، والذى تعد كتبه أعظم مــــا عــرف المسلمون عن حياة الهنادكة الاجتماعية والسياسية والعقلية على السواء ، ثم العتبـــى الوزير صاحب تاريخ اليمينى والبيهقى صاحب تـــاريخ آل ســـبكتكين ، والفـــارابى الموسيقى الفليسوف[1] .

أما الشعراء فكان على رأسهم العنصرى للفارســـى الـــذى بايعـــه الزعامـــة أربعمائة منهم ببلاط محمود ، ثم الفرخى والعسجدى . كما نزل فى بلاطه ، وعـــاش فى كنفه فترة من الزمن ، الفردوسى صاحب الشاهنامة وأبعد شعراء الفرس صيتـــا وأخلدهم ذكرا . وإن كان محمود قد خيب رجاء الشاعر فيه فضن ، من أثر الوشـــاة بما كان يأمله عنده[2] .

---

(1) تاريخ فرشته لملا محمد قاسم هندوشاه -طبع لكنو ١٣٢٣هـ جلد أول ص ٣٩ .

(2) قيل إن محمودا كان قد ندم على ضنه بمكافأة الفردوسى حين قـــدم لـــه الشـــاهنامة ، فـــأمر بإرسال هداياه إليه . فدخلت العير بأحمالها من باب رودبار فى طبران حيث كان يقيم الشـــاعر فى الوقت الذى كانت جنازة الفردوس تخرج فيه من باب رزان بنفس المدينة. (جهار مقالـــه لنظامى السمر قندى ترجمة عبد الوهاب عزام ويحيى الخشاب – القاهرة ١٩٤٩ص ٥٩) .

ومن أسف أن البناء العظيم الذى أقامه محمود سرعان ما أخذ ينهار بين أيدى خلفائه الذين أبطرهم ما تركه سلطانهم بخزائن ملكه من ثروات طائلة . فانصرفوا ورجالهم فى الغالب عن إتمام ما بدأه عاهلهم العظيم ، أو المحافظة عليه ، إلى الجدل وحياة الترف.

خلفاء محمود :

توفى السلطان محمود الغزنوى عام ٤٢١هـ/١٠٣١م بعد أن أوصى بملكه لابنه محمد جلال الدولة دون ولده الأكبر مسعود .

وإذ بلغ مسعود الخبر كتب من فوره إلى أخيه السلطان الجديد يطلب إليه أن يقره على البلاد التى كان قد تولى أمر فتحها ، وهى طبرستان وأصبهان وما حولها، على أن يقدمه على نفسه فى الخطبة . فلم يكن من محمد إلا أن أغلظ فى الرد على أخيه وقد عزم على الخروج لقتاله برغم نصح خلصائه له بالجنوح إلى المهادنة والسلم(١) .

وما لبث جند غزنة أن غدرت بأميرها الجديد فى الطريق فألقت به فى الحبس وهو فى سكره وسملت عينيه ، ثم كتب قوادهم إلى مسعود يستدعونه إليهم ، وكان يؤثرونه على أخيه لشجاعته وطموحه .

هذا والواقع أن السلطان محمود كان قد عهد لابنه الأكبر أول الأمر عام ٤٠٦هـ/١٠١٦م ، ثم ولاه هراه وبعث به لمحاربة الغوريين . وبرغم حسن بلاء مسعود ، فإن أباه ما لبث بفعل الوشاة أن غضب عليه وعزله من ولاية العهد ، ثم طابت نفسه من جديد فعفا عن ولده ورده إلى هراة دون ولاية العهد .

وكانت صفات مسعود العالية كفيلة بأن تسير به فى طريق المجد الذى سلكه أبوه من قبل لولا ما كان من سرعة استجابته ، فى الغالب ، لدسائس الدساسين فى بلاطه وإعراضه مرات كثيرة عن الاستماع لنصح وزيريه المجربين ، خواجه أبى

---

(١) تاريخ البيهقى . القاهرة ١٩٥٦ ص٨١ وما بعدها .

القاسم بن الحسن الميمندى وخواجة أحمد عبد الصمد، فأدى ذلك كله آخر الأمر إلى التعجيل بنهاية الدولة الغزنوية ، المترامية الأطراف ، وتقويض أركنها .

فلقد بعث السلطان بقائده أحمد بن ينالتكين نائبا له على أملاكه الهندية فكان من جراء استيلاء هذا القائد على بنارس وما غنمه فيها من كنوز وأموال كثيرة أن دب الحقد والحسد فى نفس عبد الله قاضى شيراز الذى كان يشاركه الحكومة الهندية، طفق يبعث برسائله تترى إلى بلاط غزنة طافحة بالتهم لقائد مسعود بالهند. حتى أفلح منافسوا ابن ينالتكين هناك فى أن يلقوا فى روع السلطان ، آخر الأمر ، أن نائبه يهم بالاستئثار بالأمر كله بالهند واستخلاصها لنفسه[1] .

والحق أن مسعودا قد اصطنع التريث طويلا هذه المرة قبل أن يقطع برأى فى شأن قائده بالهند . حتى إذا خرج من غزنة للقضاء على القوافل التى نشبت فى ختلان وخراسان وبخارى فبلغ العراق من بعد ذلك ، وافته الأخبار باشتباك قوات ابن ينالتكين مع جند قاضى شيراز عند لاهور ، وكان الأخير قد أفلح فى تأليب سكان البنجاب على منافسه . فخشى السلطان استفحال شأن نائبه بالهندستان فسير إليه هندوكيا من رجاله ، يدعى تلك كان على قدر كبير من الشجاعة وعلو الهمة[2].

وما إن ظهر مبعوث السلطان بقواته عند لاهور حتى انتشر الفزع بين صفوف عدوه ، فانفض أغلب الجند من حول بن ينالتكين الذى ظل يحارب فى شجاعة خارقة ، مع قلة ثبتت ، معه حتى نالته عيلة سهام فريق من الزط وسيوفهم طمعا فى مكافأة مالية كان قد جعلها تلك لمن يأتيه برأس غريمه[3].

وأيا ما كان الحال . فلو أن مسعودا لم يسىء الظن بقائده وسلك معه سبيل المودة واللين ، دون الاستجابة آخر الأمر لدسائس قاضى شيراز وعصبيته ، لما

---

(١) كان الوزير الميمندى يكن للقاضى كراهية شديدة منذ أن رشح للوزارة بدله أيام محمود. البيهقى ص ٢٩٤ .

(٢) تاريخ البيهقى ص ٤٣٠ .

(٣) تاريخ البيهقى ص ٤٦٠ ، ٦١ .

احتاج إلى تسييره لجيوش لقتال ذلك القائد الحازم الذين كان كفيلا بتدعيم سلطان الغزنويين فى الهند والوقوف فى وجه السلاجقة الذين كانوا قد طفقوا يهددون بلاد السلطان .

واستبد بمسعود الفرح بانتصارات تلك فعقد العزم على الخروج إلى الهند غير ملتفت إلى تحذيرات وزيره الشيخ له من حرج الحالة عند حدوده الغربية بسبب الخطر السلجوقى([1]) .

وهكذا بارح السلطان الغزنوى عاصمته مستهل عام ٤٢٩ /١٠٣٧م لتحقيق حلمه القديم بالاستيلاء على حصن هانسى الهندوكى الكبير فلم يبلغه إلا أواخر ربيع الأول . ذلك أن الداء أقعده أسبوعين بأكملهما عند جهلم أحد روافد السند حتى نذر إن رزق الشفاء أن يقلع عن تناول الشراب ويحرمه على رجاله وأهل بلاطه . وقد بر فعلا بعهده .

وما إن فرغ مسعود من أمر هذا الحصن ، بعد قتال عنيف ، حتى واصل زحفه إلى سنبات عند الشمال القريب من دهلى ، فإذا بأهلها تنطلق منها إلى الغابات القريبة فرارا من وجه الغزاة الذين أصابوا فيها مغانم كثيرة .

وانتهز السلاجقة فرصة غياب صاحب غزنة بالهند ، فهاجم بهم زعيمهم طغرل بك بلاد السلطان حتى استولوا على نيسابور وبسطوا سلطانهم على خراسان ضاربين عرض الحائط بما كان بينهم وبين مسعود من مواثيق التزموا بها بعد هزيمة جنده لهم عام ٤٢٤هـ/١٠٣٢م([2]) .

---

(١) تاريخ البيهقى ص ٥٧٥ وما بعدها.

(٢) كان السلاجقة أول أمرهم جند مرتزقة عرفوا بالجرأة والكبرياء ، والاستهانة بمن سواهم ، حتى اضطر محمود إلى سلوك سبيل العنف معهم . حتى إذا ما استعان بهم مسعود لتقوية جيشه فسلك معهم سياسة غير رشيدة ، تفاقم خطرهم لينتهى أمرهم بالاستيلاء على ملك الغزنويين – البيهقى (المقدمة) ص ٢٦ ، ٣٥ .

وحين خرج مسعود لملاقاة هؤلاء الغزاة فى رجب من عام ٤٣٢هـ - ١٠٤٠م فالتحم بهم عند دنداتقان بالقرب من مرو ، ومنى بهزيمة حاسمة تقرر على أثرها مصير الدولة الغزنوية فى خارج الهند وداخلها .

ذلك أن مسعود أصر بعد هذه الواقعة على الهجرة إلى الهند برغم إلحاح وزيره أحمد عبد الصمد عليه بالبقاء فى غزنة .فخرج فى ركب كبير شمل أهل بيته وخلصائه مع كنوزه وأمواله ، وفى خاطره أن يتهيأ له بالهند جمع جيش قوى كبير يدحر به السلاجقة ، فلم يكد يعبر السند فيبلغ قلعة هاريكله بين أتوك وروالبندرى ، حتى وثب عليه غلمانه من الأتراك والهنود طمعا فى خزائنه ، فخلعوه وزجوا به فى القلعة ، ثم نادوا مكانه بأخيه محمد، وكان ناظراه قد سملا كما ذكرنا من قبل . وحبس مسعود فى حصن كيرى حتى قتله الأمير أحمد ابن أخيه فى عام ٤٣٣هـ :

ويموت مسعود طويت صفحة حاكم مسلم نابه رعى العلم والعلماء والتفت التفاتا كبيرا إلى الإنشاء والتعمير حتى غصت بلاده بالكثير من المدارس والمساجد والرباطات التى أقامها .

ولقد استطاع هذا السلطان الكبير أن يحتفظ مدة غير قصيرة برقعة ملكه التى امتدت وقت ما من العراق حتى حدود الهند الشرقية . لكن القدر ، على حد قول مؤرخه البيهقى ، دفعه إلى ارتكاب الخطأ الأكبر الذى قرر مصير دولته ، وذلك حين أصم أذنيه عن الاستماع إلى مشورة رجاله فقرر الرحيل إلى الهند بعد واقعة دنداتقان بدلا من التحصن فى غزنة ومحاولة دفع خطر السلاجقة عن حدوده[1] . ذلك أن الحوادث قد برهنت على قيام مخاوفه على غير أساس ، إذ كان هم السلاجقة الأكبر فى التوسع منصرفا فى الواقع صوب فارس ، دون التفات جدى كبير نحو غزنة والشرق عموما . فمراعى خراسان كانت أحب إليهم وآثر من تلال الأفغان وما وراءها ، وناهيك ببلاد فارس الغنية التى كانوا استولوا عليها ثم طفقوا يوسعون فى فتوحاتهم حتى بلغوا شواطئ بحر الروم .

---

(١) البيهقى (المقدمة) ص ٣٧ ، ٣٨ .

ولم يطل الأمر بمحمد على عرش غزنة ، فقد برز إليه من خراسان ، مودود بن مسعود يطالب بدم أبيه . فالتقى به عند الدينور ، على طريق كـابل وبشـاور ، فهزمه . ودخل غزنة حيث انتقم لمقتل أبيه من عمه وأولاده ، وجميع مـن خـانوا عهد مسعود .

وقوى انتصار مودود من عزيمة الأهلين فى الأقاليم الغزنويـة التـى كـان السلاجقة قد دخلوها ، فثاروا فى وجه المحتلين وأجلوهم عن أغلبها .

وما لبث السلطان الجديد أن بوغت بعصيان أخيه مجدود ، وكان أبوه قـد ولاه البنجاب فأعلن استقلاله به ثم سار على رأس قواته نحو غزنة ولكن الأجل وافاه بلا هور بعد قليل .

وكان من جراء ثورة مجدود هذه أن ركن بعض أمراء الهنادكة بدورهم إلـى الثورة حتى بلغوا لاهور نفسها وحاصروها . لكن جند الغزنويين ردتهم آخر الأمـر عنها وثبتت ما تزعزع من نفوذ المسلمين وهيبتهم فى شمال شبه القارة الهندية كله.

ووافى مودود أجله عام ٤٤١هـ/١٠٤٩ ، وهو يعد العدة لحرب السـلاجقة الذين كانوا قد غدوا يرهبون جانبه ، بعد أن أتيح له الوقوف فى وجههم واسـترداد جزء كبير مما بأيديهم من أملاك الغزنويين .

وخلف مودود طائفة من الأمراء الضعاف ، استطاع السلاجقة فـى عـهدهم اقتطاع أجزاء كثيرة من أراضى الدولة . حتى رقى العرش إبراهيـم بـن مسـعود فأفلح بحزمه فى تنظيم شئون الدولة ، كما ألزم قبائل الترك والأفغان طاعته وهـادن السلاجقة ، وأقر الأمور فى الهندستان.

وعن لخليفته علاء الدين مسعود أن يكفى نفسه شر السلاجقة فأصـهر إلـى سلطانهم سنجر ، ففتح بصنيعه هذا الباب على مصراعيه لتدخل السلاجقة فى شئون الدولة حتى قضوا على استقلالها .

ذلك أن السلطان السلجوقى سرعان ما ظهر بجنده فى غزنة على أثـر وفـاة عـلاء الدين فأنزل عن عرشـها الأمير أرسلان تلبية لدعوة أخته أرملة السـلطان

الغزنوى وكانت على شقاق مع هذا الأمير الجديد الذى اضطر من بعد ذلك إلى النزوح إلى الهند حيث وافاه أجله هناك عام ٥١١هـ - ١١١٧م .

وارتقى الأمير بهرام عرش غزنة فى ظل السلاجقة ، فعمل على أن يفيد من تحولهم صوب فارس بالنهضة بدولته من جديد ، جهد فى إقرار الأمور فى الهندستان ، خصوصا ، فقضى على فتن النبجاب والملتان ورد عصبية الأمراء الهنادكة عن لاهور ، وكانت الآمال قد بعثت فى أنفسهم من جديد لطرد الغزاة من بلادهم .

وهكذا كاد بهرام أن يستعيد الغزنويين ما ضاع منهم من أراض ونفوذ ، وقد انجلى عنهم خطر السلاجقة وثبتت أقدامهم بالهند من جديد ، لولا ما كان من قيام النزاع بينه وبين ملوك الغور الذين كانوا ينزلون فيما بين غزاة وهراه .

وكان هؤلاء الغزاة المحاربون من خيرة جند محمود الذين نصروه فى أغلب حروبه وغزواته ، ولكنهم حين بدا لهم الضعف فى حلفائه لم يترددوا فى الجهر بالخروج عليهم .

وبلغ التوتر بين الفريقين غايته حين سيق إلى القتل ، بأمر من بهرام زعيم غورى يدعى الأمير سورى . هنالك والى الغوريون هجومهم على غزنة حتى أفلح زعيمهم علاء الدين حسين فى دخولها ، ليستردها بهرام منهم ثانية بفضل قواته الهندية .

ومات بهرام عام ٥٤٧هـ - ١١٥٢م فخلفه ابنه خسرو الذى ما لبث أن فر إلى الهند على إثر اقتحام قبائل التركمان لعاصمته بعد هزيمتهم للسلطان سنجر السلجوقى . وانتهز الغوريون فرصة الفوضى التى عمت البلاد أثر الغزو التركمانى فانقضوا على غزنة فأعملوا فيها التخريب والنهب والتدمير حتى نبشوا قبور السلاطين الغزنويين جميعا إلا مثوى السلطان محمود .

هذا وقد قصد خسرو عاصمته من جديد ولكنه ما أن أحيط بمقتل السلطان سنجر على أيدى التركمان وضياع ملكه حتى أرتد ثانية إلى الهند حيث قضى بلاهور عام ٥٥٥هـ - ١١٦٢م.

وتفاقم خطر الغوريين واشتد ساعدهم فحارب زعيمهم ؛ غياث الدين ابن سام ، الغز التركمان ، وبسط سلطانه على غزنة التى عهد بها وإقليم كابل إلى أخيه معز الدين بن سام الذى تذكره كتب التاريخ باسم محمد الغورى .

وما زال الغوريون بخسرو وابنه بهرام شاه الثانى آخر سلاطين الغزنويين يطاردونهما بالهندستان حتى قتلوهما . وبذلك انتهت سيرة دولة عمرت قرنين من الزمان ومهدت بفضل فتوحاتها العظيمة لتوطيد أقدام المسلمين فى أرض الهند .

ولئن كان ظهور الدولة الغزنوية يمثل أول انتصار كبير للعنصر التركى فى صراعه مع العنصر الفارسى على سيادة العالم الإسلامى الشرقى على الخصوص إذ ذاك ، فإن هذه الدولة لم تستطع ، على كل حال ، إلا أن تترسم فى الحكم نظم ما سبقها من الدويلات الفارسية كالصفارية والسامانية . بل إن أصحابها بذلوا جهدا مشكورا فى تشجيع الثقافة الفارسية فقربوا إليهم كل من استطاعوا دعوته إليهم من شعراء الفرس وعلمائهم إلى جانب غيرهم من أعلام البلاد الإسلامية الأخرى .

على أن اعتماد السلاطين الغزنويين على قوة السيف وحده فى المحافظة على ملكهم ، دون النظر ، فى الغالب إلى إقامة الحكومة والإدارة على أساس صالح ونظام سليم ، قد أدى إلى تداعى بناء الدولة كله حين تراخت الأيدى التى كانت تقبض على هذا السيف .

هذا إلى جانب تهالك أغلب الحكام ورجال الدولة أنفسهم على حياة البذخ والترف بسبب ما أصابوه من ثروات الهند وكنوزها الطائلة ، حتى تمكن منهم السلاجقة ثم التركمان وأخيرا الغوريون الذين ورثوهم .

الغوريون

ما إن انهارت الدولة الغزنوية على أيدى السلاجقة والغُز ، فأخذت الاضطرابات والفتن تحتاج غزنة وكابل وكافة أملاك المسلمين فى الهندستان، حتى ظهر أمراء الغور والأفغان وعلى رأسهم زعيمهم معز الدين ابن سام المعروف باسم محمد الغورى ، وكانوا رجال حرب مبرزين ، فسيطروا على غزنة وما حولها ثم انطلقوا بجندهم إلى أرض الهند ليحافظوا على أملاك المسلمين هناك من الضياع .

ذلك أن أمراء الهند الراجبو تيين كانوا ، منذ أن لمسوا ضعف الدولة الغزنوية ، قد طفقوا ، هم وبقايا القرامطة الإسماعيلية يتخطفون أملاكها ويثيرون الفتن والاضطرابات بين سكانها .

ولقد جاب السلطان الغورى الهندستان غازياً من البنجاب إلى البغال فى فتوحات متواصلة خلال ثلاثين عاما بدأها باستخلاص الملتان من أيدى القرامطة عام ٥٧٠ هـ / ١١٧٤م ثم استولى على بشاور وأخضع السند جميعه لسلطانه حتى البحر برغم ما تعرضت له جيوشه من خسائر فادحة على أيدى بهيم دبوا راجا نهرواله .

واستعصى حصن لاهور ، أول الأمر ، على صاحب غزنة الجديد فهادن صاحبه الأمير خسرو ملك الغزنوى ثم قفل راجعاً إلى عاصمته .

وزينت قبائل الكهكر الهندية ، على أثر ذلك لخسرو أن يزحف على حصن سيالكوت ويستولى عليه .فما أن علم بذلك السلطان الغورى حتى خرج إليه من فوره ، فلم يزل فى زحفه حتى استولى على لاهور نفسها وأوقع فى أسره الأمير الغزنوى الذى سيق إلى قلعة فيروز ببلاد الغور حيث أورد الردى عام ٥٩٨ هـ / ١٢٠١م .

وقد لاقى ابنه بهرام شاة الثانى نفس المصير من بعد ذلك بقليل . وبموت هذين الأميرين قضى على كل سلطان لآل سبكتكين ، وانتقلت أملاكهم ، سواء فى داخل الهند أو فى خارجها إلى أيدى الغوريين .

ولئن كان صاحب غزنة الجديد قد أصبح وله السلطان المطلق على البنجاب والسند ، فقد كان عليه أن يقطع شوطا بعيدا حتى يسترد كافة الأراضى الهندية الغزنوية التى سقط على كثير منها الأمراء الراجيوتيون ، وكانوا قد عقدوا فيما بينهم حلفا حربيا لمدافعة من يقدم عليهم من غزاة المسلمين .

على أن هؤلاء الأمراء ، على شدة مراسهم فى الحروب وكثافة جندهم، كانت طباعهم الإقطاعية ومصالحهم الفردية غالبا ما تطغى ، حتى فى أوقات المحن ، على مصلحة الوطن الهندى العليا . هذا كما كان نظام الطبقات الهندوكى وقيوده الصارمة من أخطر العوامل التى كانت تحطم معنويات عامة المحاربين فتزعزع كيان النظام الحربى كله بالتالى . ذلك أن المحارب الهندوكى العادى ، مهما أوتى من الجرأة والبسالة فى القتال ، لم يكن له أن يتطلع إلى مناصب القيادة التى كانت وقفا على أبناء الطبقات العليا بغض النظر عن كفأتهم الحربية . على نقيض الأمر فى جيوش المسلمين حيث الباب مفتوح أما كل جندى للوصول إلى أعلى مراتب القيادة ما أظهر من شجاعة وتمرس بالقتال وكفاءة فى الحرب .

وإلى هذه النقائض مجتمعه يرد أغلب السبب فى تقاعس جحافل الهنادكة أمام جند المسلمين الذين كانت عقيدة الجهاد تتمكن من نفوسهم تمكنا ثابتا يعيد الغور .

هذا وكان أشهر الأمراء الراجبوتيين هم أصحاب قنوج ودهلى ، ويليهم فى المكانة أمراء آجمير وبهار والبنغال والكجرات وبند لخاند . وجميع هذه الإمارات تقع فى شمال شبة القارة الهندية ، وهو القسم الذى اصطلح المؤرخون على تسميته بالهندستان ، وفيه تقع أعظم أنهار هذه البلاد وأخصب أراضيها ، وأكثف مناطقها السكنية بالتالى :

وخرج السلطان الغورى إلى الهند عام ٥٩١هـ / ١١٩٤ فى قوات كثيرة . فما إن بلغ سر هند ، عند حدود البنجاب الشرقية ، حتى علم بحشود الهندوس التى بلغت مائتى ألفا من المحاربين وثلاثة آلاف من الفيول .

والتقى الجمعان عند ترين ، على مقربة من تنيسر ، فلم يستطع جند المسلمين الثبات أمام عنف حملات الهنادكة وتدفق قواتهم ، ودق مركز السلطان نفسه حتى

أصيب بجراح شديـدة وهو يقاتل بنفسه ، وكاد يضيع فى الميدان من فرط ما بـذل من جهود خارقة ، لولا أن بصر به أحد الجند الخلجيين فانطلق بـه حتـى أبلغـه مأمنه. ولم يستطع جند غزنة أن يلم شمله من جديد إلا بعـد ارتـداد طويـل بلـغ الأربعين من الأميال ، فثبتوا فى مراكزهم ، ودفعوا عنهم كل هجوم شُن عليهم .

ولم يكن محمد الغورى ليسكت عن هذه الصدمة العنيفـة التـى لـم يتلقـى المسلمون مثيلا لهـا بأرض الهند من قبل ، فعـاد إلى أعدائه فى العام التالى علـى رأس مائة وعشرين ألفاً من المقـاتلين الأشداء ، من أتراك وأفغان وغيرهم ، كـان عليهم أن ينازلوا ثلاثمائة ألف من فرسان الهنادكة ، مع ثلاثـة آلاف مـن فيلـة الحرب ، استعدوا للقائهم يقودهم بريتى راجا صاحب دهلى وقنوج .

ولم يفت تفوق الهنادكة الساحق فى عضد صاحب غزنة ، فرسم خطته علـى أن ينطلق من بين صفوفه أربع فرق ، قوام كل واحدة منها عشـرة آلاف رجـل ، فتوالى مهاجمة العدو من كل جانب ثم يرتد أفرادها متفرقين على أثر كـل هجـوم بهيئة من يفر من الميدان .

وإذ أدى نجاح هذه الخطة إلى إرهاق قوى العدو إرهاقـاً شـديداً وتشـتيت جموعه ، برز السلطان بنفسه على رأس اثنى عشر ألفا من فرسانه راحوا يشـيعون الموت والدمار فى صفوف أعدائهم حتى هلك من الهنادكة ألوف كثيرة وفيهم جملـة من الأمراء . أما زعيمهم بريتى راجا فقد اتخذ سبيله إلى عاصمته هرباً . ولكنه لـم يكد يبلغ سرسوتى بإقليم سنهل حتى لحق به مطاردوه فقضوا عليه .

هذا وتعد هذه الواقعة البداية الحقيقية لانهيار سلطان الأمراء الراجبوتيين التـام ونهايته الحاسمة فى شمال الهند . وقد استولى المسلمون على أثرها على سرسـوتى وسمنه وكهرام وهنسى ثم آجمير التى أمر السلطان بتحطيم ما بمعابدها من أوثان ، ثـم هدم هذه المعابد نفسها واستخدم أعمدتها وأحجارها فى إقامة مساجد ومدارس المسلمين.

وعهد محمد الغورى ، قبل أوبته إلى عاصمته ، بإدارة أملاكـه إلـى قـائده قطب الدين أيبك الذى وصل فى فترة قصيرة بفتوح سيده إلى دهلى فاتخذها قـاعدة لحكومته .

هذا وكان يقع بقلب الدوآب ، فيما وراء دهلى حتى حدود بنـــارس ، إمـارة قنوج أعظم إمارات الهند التى ذاع صيتها فى أساطير هذه البلاد وفى تاريخها علـى السواء .

وبدأ لصاحبها جايا جندار أن يجمع حوله شمل الأمراء الراجبوتين من جديـد، بعد هلاك بريتى راجا دهلى ، فى أمل أن يصير بهم سيد الهندستان كلها بعد طـــرد المسلمين منها .

على أن السلطان الغورى ما لبث أن فطن لتدبير عدوه فـــأيقن أن حكومتــه الهندية لن يكتب لها الاستقرار إلا بالقضاء على سلطان هؤلاء الأمـــراء ، فخـرج إليهم فى جيش كثيف التقى بهم عام ٥٩١هـ / ١١٩٤ فى الســهل المنبســط بيـن جندوار وأتاوه .

وفضلا عن هزيمة الهنادكة الساحقة ومقتل زعيمهم راجا قنوج ، فقــد كـان أخطــر أثر لهذه المعركة هو انسحاب كبار الأمراء الراجبوتين جميعا من وجـــه المسلمين والهجرة إلى صحراء الراجبو تانا التى حملت اسمهم فيما بعـد .

وواصل السلطان الغورى الظافر زحفه بعد فتح قنوج حتى بنارس فأقام بـــها مسجدا كبيرا ثم آب إلى حاضرته .

ولــم يتــردد قطب الدين أيبـك نائب الغوريين بالهنــد فــى اســتغلال مــا أشاعته انتصارات المسلمين القوية هــذه من رهبة وفزع فى نفوس محاربى الــهند فغزا آجمير من جديد كما فتح نهرواله واستولى على بيانه وكواليار ومــا حولــها ، فى الوقت الذى انطلق فيه محمد بن بختيار الخلجى ثانى قــواد الغوريــن بالــهند صوب الشــرق ففتح بهار ونفــذ إلى البنغال . ومن عجب أن تجمــــع الروايـات على أن جنــد الأمير الخلجى لم تكن تعدو فى هذه الفتوح بضع مئات .

هذا وكان إقليم بهار (فهار) ، الذى استولى عليه محمد بن بختيــار ، هــو الإقليم الهندى الوحيد الذى صادفت البوذية فيه ازدهــارا كبـيرا بفضــل الرعايـة العظيمة التى كان يحبوها بها ملوك أسرة بالا الهندوكية . وظلت هذه العقيدة رائجـة

فى هذه الإمارة حتى افتحها القائد الخلجى فخرب معابدها واستولى على ما كان بها من أموال وكنوز .

وتابع هذا القائد زحفه من بعد فتح هذه الإمارة فى ثمانية عشر رجلا من رجاله ، ليس غير ، بلغ بهم نادية عاصمة البنغال عام ١١٩٩/٥٩٥ ، وكان عليها ملك شيخ من أسرة سنا[١] يدعى لكشمن سنا عرف برعايته العظيمة للفنون والآداب .

وفتح الحراس بوابة المدينة للوافدين وقد خيل إليهم أنهم من تجار الخيول فلم تخالجهم أدنى ريبة فى أمرهم . هنالك اتجهت العصبة الغازية من فورها إلى قصر الراجا ، فما إن بلغ أذنى لكشمن العجوز صريخ الضحايا من رجاله بخارج إيوانه ، وكان يتناول غذاءه ، حتى هب لوقته فاتخذ سبيله هربًا .

ولم يغادر محمد بن بختيار المدينة إلا بعد أن خربها تخريبا تاما ، ومن ثم تركها إلى لكهناوتى فاتخذها قاعدة له ، وصلى فيها بالناس ودعى فى الخطبة للسلطان الغورى ، وضرب السكة باسمه .

كذلك خرج قطب الدين أيبك عام ٥٩٩هـ / ١٢٠٢م لحرب برمودى، أمير بُند لخند ، فانتزع منه حصن كلنجر ، أمنع قلاع الهند إذ ذاك واشدها بأسا ، ثم أردف ذلك بالاستيلاء على بداون وكالبى .

وبهذا خضع شمال الهندستان كله ومعه إقليم كواليار لسلطان الغوريين خضوعاً تاماً[٢] .

واطمأن محمد الغورى إلى ترك أملاكه بالهند فى أيدى قواده الأمناء الأقوياء، فأخذ يتطلع إلى بلاد ما وراء النهر ومدن إيران الزاهرة ، فاندفع يغزو خوارزم عام ٦٠١هـ/١٢٠٤م ، ولكنه أصيب هناك بهزيمة شديدة أخذ على

---

(1)prasad India pp 118 - 20

(٢) تاريخ فرشته أول ص ٥٦ ، ٥٧.

أثرها كثير من الولايات والقبائل الخاضعة لنفوذه الخروج عليه ، حتى أقفلت غزنة نفسها أبوابها فى وجهه .

ولم يقف الأمر عند استيلاء تاج الدين يلدز ، أحد قواده الذين خرجوا عليه ، على غزنة والاستقلال بها ، بل سار أحد القواد الغزنويين بدورة ببراءة مزيفة ، إلى الملتان حاكما عليها ،كما انقلبت قبائل الكهكر بالبنجاب تعبث فى الأرض فسادا.

على أن محمد الغورى ما لبث بمضاء عزيمته أن استرد غزنة والملتان بعد قليل، كما أفلح قواده بالهندستان فى إخضاع الخارجين عليه من جديد .

وراودت السلطان الغورى ، كرة ثانية ، أحلامه بالتوسع غربا برغم ما أصابه من خسائر فادحة كادت تقضى القضاء التام على سلطانه . وفيما كان يمهد لهذا الأمر ويعد له عدته ، أغتاله أحد الهنادكة ، عند نهر جهلم وهو فى طريقه من لاهور إلى غزنة ، فقضى فى شبعان ٦٠٢هـ / ١٢٠٦م([1]) .

ولئن كان محمود الغزنوى قد مهد بغزواته الهندية الطريق أمام خلفائه من السلاطين وجعل لجند المسلمين المهابة والرهبة أينما زحفوا وحيثما حلوا، فإن محمدا الغورى هو الذى ثبت أقدام المسلمين كذلك فى شمال الهند بأكمله ، وأقام الحكم الإسلامى هناك . بفضل رجاله ، على أساس راسخ وطيد ، وهو أمر لم يتح لمحمود من قبله ، إذا كان الغزنويون عموما ، فضلا عن خلو رجالهم من كفاءة الإدارة والتمرس بالحكم ، عجلين على إثر كل فتح بالعودة إلى منازلهم ومعهم كنوز الهند ما بهرهم وسحر ألبابهم .

وعلى أيدى رجال الغورى بدأ الحكم الحقيقى للمسلمين بالهند . فقد تحول الغزاة إلى الاستقرار والإقامة الدائمة بالبلاد التى فتحوها ، وبهذا احتفظت الهند بأموالها وثرواتها فى نطاق شبه القارة نفسها ، فلم يعدو الأمر انتقال أجزاء منها من أيدى الهنادكة إلى أيدى المسلمين الذين صار لهم هناك دولة مرهوبة الجانب وسيعة الرقعة عظيمة السلطان .

---

(١) طبقات ناصرى لمناهج السراج أبىعمرو عثمان (الترجمة الإنجليزية لرافرتى) ص ٤٨٤ ، ٨٥.

دولة المماليك

لم يترك السلطان معز الدين محمد بن سام الغورى وريثا للعرش من بعده إذ يذكر عنه المؤرخ منهاج السراج أبو عمر وعثمان ، صاحب طبقات ناصرى أنه كان يقول ، بأن الله قد عوضه عن الأبناء بمواليه المخلصين من الأتراك يحافظون على ملكه ويجرون الخطبة بذكره فى كافة أنحاء سلطته .

ونصب قطب الدين أيبك نفسه سلطانا على الهندستان فى عام ٦٠٢ / ١٢٠٦م عقب وفاة مولاه محمد الغورى[1] .

وكان أيبك هذا في طفولته مملوكا لقاضى نيسابور الذى ضمه في الدرس إلي أولاده ، فقرأ معهم علوم الكتاب والسنة ، كما نبغ في الفروسية وركوب الخيل، واشتهر بالشجاعة والمروءة .

وحين مات القاضي بيع المملوك إلي أحد التجار الذى عرضه بدوره علي السلطان محمد الغورى . وكفلت لأيبك خصاله الحميدة أن ينال الحظوة عند سيده الجديد بلغ حتى مرتبة القيادة . وزاد من قدره عند السلطان عظم وفائه و إخلاصه حين بادر من فوره لنجدته علي أثر الكارثة التي نزلت بجيوش الغوريين عند أبواب خوارزم وما نتج عنها من انتقاض أمراء وقبائل كثيرة علي صاحب غزنة . وعرف له سيده فضله هذا كله فكافأه عليه بتثبيته نائبا له على أملاكه الهندية التى كان له اليد الطولى فى توسيع رقعتها حتى صارت تمتد من البنغال شرقا إلى آخر حدود البنجاب غربا .وبادر سلطان الهندستان الجديد من فوره ، إلى إقامة علاقات طيبة مع زملائه من الأمراء والقواد المماليك، فبنى ، فى سبيل تحقيق ذلك ، بأخت تاج الدين يلدز ، وكان أيبك قد استرد غزنة منه ثم عاد فردها إليه كرما منه . كما زف ابنته إلى التمش وأصهر كذلك إلى قباجه ، وكان كلاهما من زعماء المماليك الغوريين .

واشتهر قطب الدين فى حكمه بإقرار الأمن فى كافة نواحى بلاده ، وحرصه على قيام العدل بين الناس مع حسن معاملته للهنادكة خاصة .

---

(١) تاريخ فرشته أول ص٦٣

وقد بنى بالهند مسجدين كبيرين أحدهما بدهلى والآخر بآجمير .

وسقط به جواده سقطة قاتلة عام ٦٠٧هـ/١٢١٠م فخلفه شمس الدين التمش أحد قواده ، وكان من مماليكه وأصهاره كما ذكرنا من قبل ، فى حين استقل قائده قباجة بالملتان والسند ، كما تولى الخلجيون الأمر فى بهار والبنغال ، وكانوا هم أيضا بدورهم من رجال السلطان محمد الغورى .

على أن أمراء آخرين من رجال الغورى ، ومعهم طائفة من أتباع السلطان الراحل قطب الدين أيبك ، لم يتقبلوا هذا الوضع الجديد بقبول حسن ، فلم يرضوا بأن ينصب عليهم سلطان هو فى الواقع مملوك لمملوك .

وإلى جانب هؤلاء الناقمين ، كما هناك جملة من أقيال الهنادكة ، الذين أغتصب المسلمون أراضيهم ، مازالوا يرون في سيادة المسلمين بلادهم مجرد محنة عابرة ، عليهم ألا يغفلوا أبدا عن انتهاز أى فرصة تلوح لهم للخلاص منها .

لكن التمش بدوره عرف كيف يواجه جميع ما صادفه من مشاكل وصعاب فى حزم وقوة . فما إن أقر الأمور فى سلطنة دهلى وتوابعها ببدوان وأوده وبنارس وسوالك ، حتى خرج إلى البنجاب الذى أغار عليه يلدز ، فهزمه وناصر الدين قباجه حاكم السند واستولى على الإقليم كله .

ذلك أن يلدز هذا كان قد خرج من غزنة التى ثبت ملكه بها ، فى غزوات ناجحة فيما وراء الهند كوش حتى بلاد خوارزم التى استعصت عليه، ومن ثم استدار إلى الهند . على أن التمش ما زال يطارده حتى أسره ثم قتله، كما رد قباجة إلى إمارته المسلوبة بعد أن تعهد بالولاء له .

كذلك أفلح التمش فى القضاء على جميع الفتن التى آثارها بعض أمراء الهنادكة على إثر وفاة السطان أيبك سالف الذكر.

ولم يكن جميع ما تعرض له التمش من متاعب ليعد شيئا مذكورا بالقياس إلى الخطر الداهم الذى أقبل على الهند فى ركاب المغول حين ظهروا عند حدودها عام٦١٨هـ/١٢٢١ يقودهم الخان الأعظم جنكيز . وكان هؤلاء قد خرجوا من

ديارهم بصحراء جوبى فاكتسحوا فيما اكتسحوا بلادما وراء النهر وخربوا أغلب مدنه الزاهرة وقتلوا كثيرا من أهله .

ولقد اجتاحوا ، فيما اجتاحوا ببلاد ما وراء النهر ؛ مملكة خوارزم التى كانت تمتد إذ ذاك من خيوه إلى سمر قند وبخارى ويدخل فى دائرة نفوذها هراة وأصفهان . هذا وكان خصام أميرها مع المغول من أسباب تعجيل الأخيرين بزحفهم على البلاد الإسلامية .

ولجأ جلال الدين ، آخر سلاطين خوارزم ؛ إلى الهندستان هربا من وجه هؤلاء الغزاة ، فتعقبوه وساروا فى أثره حتى أنزلوا به هزيمة حاسمة على ضفاف السند[1] .

هذا وكان جلال الدين ، حال وصوله السند ، قد بادر بالكتابة إلى التمش يسأله الالتجاء عنده بدهلى بعض الوقت . لكن الأخير خاف مغبة ما قد يؤدى إليه نزول شاه خوارزم عنده من التفاف الجند الأتراك حوله ، وكانوا فى دهلى كثيرين، فبعث يعتذر إليه متعللا بما قد يجلبه له حر الهند من متاعب صحية لا قبل له وباحتمالها .

هنالك لم يجد جلال الدين بدا من منازلة المغول . وحالفه التوفيق أول الأمر فأشاع الاضطراب فى صفوف عدوه . لكن جموعهم المتدفقة سرعان ما عاودت حملاتها العنيفة فلم تكتب النجاة إلا لسبعة آلاف من الجند الخوارزمى من بين الثلاثين ألفا الذين كانوا يحاربون تحت لوائه .

واستطاع السلطان ، فى فريق من رجاله ، أن يعبر السند تحت وابل من سهام العدو فى شجاعة وجرأة ، فانقض من فوره على قباجه ، والى السند من قبل دهلى ، فأسره وحبسه فى حصن الملتان ثم أخذ ورجاله يعملون السلب والنهب فى الإقليم كله .

---

(١) تاريخ المغول لعباس إقبال . طهران ١٩٣٣ . جلد أول ص ٦٣ .

على أن الأجل لم يمتد من بعد ذلك بجلال الدين ، فقد أنبىء باستعداد جند العراق لشد أزره وعونه ، فسار على هدى أمله الجديد ، إلى إيران ليقع في الطريق بأيدى بعض الناقمين فيقتلوه .

وكان من حسن طالع الهند أن جيوش المغول لم تطق حرها فاستدارت صوب الغرب من جديد لتنجو هذه البلاد من جحافلهم وشرورهم .

هنالك تنفس ألتمش الصعداء ، فراح يعمل على إخضاع الخارجين على حكمه . ذلك أن الأمير غياث الدين الخلجى ، وكان من أحسن الأمراء المسلمين سريرة بالهندستان ، كان قد بسط نفوذه على جاينكر وكمروب وترهوت وجور إلى الشرق من دهلى وأعلن استقلاله بها . وقبل هذا الأمير مهادنة التمش أول الأمر على جزية كبيرة دفعها له ، كما أعاد قراءة الخطبة باسمه . لكن جند دهلى ما كادت ترجع عنه حتى انقض على إقليم بهار فاستولى عليه . وسرعان ما سار إليه ناصر الدين محمد شاه ، حاكم أوده من قبل دهلى ، فهزمه وقتله ، كما أوقع في أسره جميع أعوانه من الخليجيين ، وأخضع كافة الأراضى الممتدة حتى لكهناوتى ورنتنبهور ومندوار .

هذا وكان قباجه بدوره قد استطاع ، بعد زوال الخطر المغولى ، أن يسترد الملتان لنفسه من جديد . وما لبثت قواته أن تضاعفت على أثر هزيمته لجند الخوارزميين والخليجيين الذين كانوا يطمعون في أراضيه وطردهم منها . حتى أوجس صاحب دهلى خيفة منه ، فاوعز إلى نائبه في لاهور بالزحف على الملتان، في حين خرج هو بنفسه على رأس جيش قوى إلى أوكا مقام خصمه . هنالك لجأ قباجه ، بجنده وأمواله ، إلى قلعة بهكر فتحصن بها . وما لبث أن قضى غرقا في السند بعد قليل وهو يحاول عبوره هربا من وجه عدوه .

وكان قد أعلن الخليفة العباسى المستنصر بالله عام ٦٢٦هـ/١٢٢٨م تثبيته لالتمش على عرش الهند ولقبه بناصر أمير المؤمنين ، فكان من أثر هذا الإعلان أن قوى مركز صاحب دهلى بين مسلمى الهند قوة عظيمة ومكن من نفوذه بينهم.

وقـد قابـل التمش صنيع الخليفـة هذا بتقديمه فى الخطبة عليه وضـرب السـكة باسمه .

واغتنم التمش فرصة تأييد الخليفة له فخرج يبغى القضـاء علـى خصومـه وتوسيع رقعة ملكه . فهزم الخلجيين فى المناطق الشرقية مرة أخرى ، وكانوا قـد سارعوا باسترداد نفوذهم القديم عقب وفاة ناصر الدين محمد شاه فى البنغال . هـذا كما خرج إلى كواليار فاستردها من الأمير الهندوكى منجال دوبـا وأرغمـه علـى الفرار منها .

كذلك استولى التمش على مالوه ، فدخل حصن بهيلسا ثم رحل منه إلى أويـان عاصمة فكر ماديتا القديمة فحطم ما كان بمعابدها من أصنام مشهورة ثـم آب إلـى عاصمته .

وكان من أثر هذه الحروب ، التى ظل هذا السلطان يمارسها مدى ربع قـرن من الزمـان ، أن انـهكت صحتـه . فقضـى بدهلـى فـى شـعبان مـن عـام ٦٣٣هـ/١٢٣٥م بعد أن ارسخ نفوذه فى كافـة الأقاليم التى فتحها سـلفه وسـيده قطب الدين أيبك .

هذا والمعروف أن حروب التمش على كثرتها لم تمنعه من أن يمـد رعايتـه إلى المشتغلين بالعلوم والفنون . وقد لاقى فى عهده فن العمـارة بالـهند ازدهـارا كبيرا. ومن آثاره الباهرة منارة القطب بدهلى التى يبلغ ارتفاعها ٢٤٢ قدما والتـى تعد من أروع العمائر الإسلامية بالهند قاطبة . وينسبها بعض المؤرخين خطأ إلـى قطب الدين أيبك ، وحقيقـة الأمران التمش قد أطلق عليها هذا الاسم نسبة إلى ولـى بغدادى ، يدعى قطب الدين ، تبركا .

وقد أفاض صاحب طبقات ناصرى فى ذكر فضائل هذا السـلطان ، وكـان معاصرا له ، وذكر الكثير عن شدة تقواه وعدله وبره برعاياه . وأوصى التمش قبل موته بالملك لابنته رضيه دون أبنـائه من الذكور الذين لم ير من بينهم مـن هـو جدير بحكم الهند . لكن رجال البلاط ما لبثوا أن عهدوا بالملك إلى الأمـير ركـن الدين فيروز شاه أحد أبنائه ، لتنتهز شاة تركان فرصة انصـراف ابنـها السـلطان

الجديد إلى الاستمتاع بمباهج الحياة وملذاتها فتستأثر بتصريف شئون البلاد في استبداد أدى إلى إثارة ثائرة الأمراء في أوده وهنسي وبداون والملتان ولاهور. وجرى في خاطر أم السلطان المستبدة أن تكون الأميرة رضية من وراء هؤلاء الأمراء في خروجهم عليها، فحاولت، في وسط هذه الاضطرابات، أن توقع بها، لكن تآمرها باء بالفشل فقضى عليها وعلى ابنها.

هنالك التف الأمراء حول السلطانة رضية من جديد وأجلسوها على عرش أبيها، فاستطاعت بما أوتيت من حسن السياسة والحزم أن ترغم على طاعتها جميع الأمراء ببلادها، ومن غرائب المفارقات أن صادف حكمها بالهند تولي شجرة الدر، قاهرة الصليبيين، الأمر بدورها في مصر.

على أن هذه السيدة التي قادت بنفسها حملات عديدة ناجحة للقضاء على عصيان الأمراء من مسلمين وهنادكة، والتي كانت تجوب الأسواق في ملابس الرجال وتجلس إلى الناس تستمع إلى شكاواهم، غلبتها أنوثتها آخر الأمر فتعلق قلبها بأمير الخيل بلاطها، وكان عبدا حبشيا يدعى جمال الدين ياقوت[1]، فأثارت بذلك عليها حفيظة الأمراء جميعا، فقتلوا ياقوت ثم انقلبوا يحاربونها بزعامة أخيها بهرام شاه.

وبرغم توصلها بدهائها إلي كسب بعض القواد إلى صفها، إلا أنها أصيبت آخر الأمر بالهزيمة. وفيما كانت تهيم على وجهها فرارا وقعت في أيدي عصبة من الهنادكة فقضوا عليها.

على أن بهرام شاه ما لبث بدوره أن سلك سبيل الشدة في حكمه حتى إذا ما أقبل المغول ٦٣٩هـ/١٢٤١م على البنجاب استطاعوا أن يخربوا لاهور، دون أن يصادفوا مقاومة تذكر، وذلك بسبب نفور القواد المسلمين بالهند من سلطانهم واستبداده وطغيانه حتى اجتمعوا عليه آخر الأمر فقتلوه.

وولي الأمر من بعده علاء الدين مسعود شاه حفيد التمش. وفي عهده دخل المغول الهند من جديد، عام ٦٤٣هـ/١٢٤٥م، بقيادة مانكو وتوغلوا في السند

---

(1) Lane – Poole India, p. 75.

حتى تصدى لهم بلبن قائده ، فردهم عن سلطنه دهلى بعد أن أنـــزل بـــهم خســـائر فادحة ، وإلى هذا القائد يرد أيضا الفضل على ثورات الحكام المسلمين فى كواليـــار وجندرى ومالوة ونروا .

وبرغم أعمال هذا القائد الباهرة فقد أفلحت الوشايات فى إقصائه عـــن بـــلاط دهلى بضع سنين .

وخلف ناصر الدين محمود شاه أصغر أبناء التمش أخاه عـــلاء الديـــن بعـــد عزله. فانصرف إلى مصاحبة العلماء والدراويش تاركا عبء الحكـــم كلـــه علـــى أكتاف وزيره القائد بلبن الذى اضطلع به فى قدرة وكفـــاءة تامـــة ، وحيـــن وافـــى السلطان أجله عام ٦٦٤هـ/١٢٦٦م رقى الوزير العرش مكانه .

وينتسب غياث الدين بلبن هذا إلى قبيلة إلبارى التركية التى كان من أبنائـــــها التمش نفسه ، وكان أبوه من بين زعمائها وشيوخها المقدمين .

ولكن حدث أن سقط بلبن بأيدى المغول فى إحـــدى غزواتهم ، وكـــان إذ ذاك فى صدر شبابه ، فبيع بالبصرة إلى من يدعى خواجه جمال الدين ، فأحسن مثـــواه ثم صحبه معه إلى دهلى حيث باعه بدوره إلى شمس الدين التمش سلطانها إذ ذاك ، فلم يزل يرقى بجده واجتهاده حتى غدا من خاصة حرسه المقربين .

وبلغ بلبن مرتبة أمير الصيد عند الملكة رضية . حتى إذا ما ثار أمراء الدولة فى وجهها لما شاع من أمر كلفها بامير خيلها ياقوت الحبشى : بـــادر مـــن فـــوره بالانضمام إليهم وبذل الجهد لنصرتهم .

واعترف له السلطان بهرام ، حين خلـــف أختـــه رضيـــة، بصـــادق عونـــه وإخلاصه فولاه روارى وضم إليها بعد قليل ولاية هنسى ، فـــانصرف إلـــى إدارة هاتين الإمارتين إدارة حكيمه استقام معها حال الأهلين وتقدمت الزراعـــة عندهـــم وراجت أحوالهم الاقتصادية .

وأقبل المغول بقيادة مانكو على الهند عام ٦٤٣هـ/١٢٤٥م فغـــزوا الســـند وحاصروا حصن أوكا ، فكان بلبن ، دون سائر الأمراء الآخرين ، هو الذى انـــبرى

لهم وحده حتى أوقع بهم هزيمة قاصمة ، ارتدوا على أثرها عن الهند سراعا تاركين وراءهم ما كان بأيديهم من أسرى كثيرين ما بين مسلمين وهنادكة .

وقلد هذا القائد القدير الوزارة فى عهد السلطان ناصر الدين محمود ، الذى عرف بانصرافه إلى أهل التصوف والأدب ، فطفق ينظم شئون الدولة فى حزم بالغ. حتى إذا ما تم له ذلك ، انطلق يبغى تأمين سلطان دهلى ويثبت من هيبتها ، فعبر على رأس قواته نهر راوى ، أحد روافد السند ، إلى منازل الكهكر وغيرها من القبائل الثائرة فاقتحمها عليهم . كما خرج كذلك مرات عديدة إلى الدواب فقمع الفتن التى كان يثيرها أمراء الهنادكة بها، واستولى على حصن تلسنده فى قنوج ، وأخضع رانا ملكى مع كافة الأراضى الواقعة بين كالنجروكره .

هذا كما استخلص كذلك موات ورنتنبهور من أيدى هنادكة الراجبوتانا فى حين أوقع قائده شيرشاه فى أسره عز الدين زعيم الثوار عند أوكا . فلم ترجع جيوش دهلى إلى قواعدها فى ربيع الأول من عام ٦٥٠هـ/١٢٥٢م حتى كانت كواليار وجندرى ومالوه ونارور قد دانت جميعها للسلطان ونالـه منها أسلاب وأموال طائلة .

ونفس فريق من الأمراء والقواد على بلبن أعماله الباهرة هذه فانتهزوا فرصة خروج السلطان إلى الملتان وأوكادون قائده الأكبر فأقبلوا ، بزعامة القائد عماد الدين ريحان ينصبون شباك الدس له عند سيدهم حتى بلغوا غايتهم فأبعد بلبن إلى اقطاعه عند سولك وهنسى ، واستبدل به الوزير محمد جنيدى ، فى حين رقى القائد ريحان إلى منصب الحجابة .

ولم يكن أمراء الترك وقادتهم ببلاط دهلى ليقبلوا ، فى بساطة ، الخضوع لهندوكى قريب العهد بالإسلام مثل القائد ريحان . فسرى التذمر بينهم إلى كافة أرجاء البلاد ، وانهالت رسائل الحكام والأمراء على مقام السلطان بطلب إقصاء هذا القائد عن شئون الدولة

وتفاقم الحال بالتفاف أمراء كره ومانيكبور وأوده وترهوت وبداون وسمانه وكوهرام وسونام وتبار هنداه وإقليم سوالك حول الوزير المعزول . وما عتم أن

انضم إليهم من الأمراء الكبار ألغ خان وجلال الدين مسعود شاه فزحفوا جميعا على رأس قواتهم إلى العاصمة .

ولقد كان حريا بالقائد ريحان أن يبادر من فوره بالتخلى عن منصبه حقنا للدماء ، لكنه ركب رأسه وحمل السلطان على الخروج بجيشه حيث دارت الدائرة عليه عند تبار هنداه فأرغم على إبعاد حاجبه إلى بداون .

ورد الوزير القديم إلى منصبه ، فاستقبلته العاصمة ، فى ذى الحجة من عام ٦٥٢هـ/١٢٥٤م ، استقبال الغزاة والفاتحين بعد غياب استغرق عامين من الزمان.

وشمر بلبن عن ساعد جده المعهود فقضى على فتن الدوآب المتكررة وأقر الأمور فى أوده والسند حيث كان قتلغ خان زوج أم السلطان ومعه القائد عز الدين بلبن قشلو خان وفريق من أمراء الهنادكة قد جنحوا هناك إلى نبذ طاعة السلطان وإعلان العصيان .

وأقبل المغول على السند من جديد ، عام ٦٥٥هـ/١٢٥٧م يقودهم نوبيين سارى ، فما إن أحيطوا بتدبير الوزير القائد لنزالهم حتى ارتدوا على أعقابهم من حيث أتوا .

وكان آخر وقعة كبير ذات خطر خاضها الوزير بلبن هى التى خرج فيها عام ٦٥٧هـ/١٢٥٩م للقضاء على ثوار الهنادكة الذين راحوا بزعامة أميرهم ملكا يعملون السلب والنهب فى قرى سوالك وبيانه وهريا إلى جانب انتهابهم لأملاك المسلمين فى موات ، أفيردهم عن غيهم ما نزل بهم من ضربات شديدة قبل ذلك بسنوات ثلاثة على أيدى ألغ بك أحد قواد دهلى . وأفلح الوزير فى تطهير المنطقة كلها ثم عاد إلى العاصمة ليقف إلى جانب سلطانه فى استقبال مبعوث من لدن هولا كوخان المغولى حفيد جنكيز خان .

وهكذا أظهر بلبن فى الفترتين اللتين ولى فيهما الوزارة جدارة فائقة فى تصريف أمور الدولة وإقرار النظام فيها والأمن والقضاء على ما كان يتهددها من أخطار سواء فى الداخل ، حيث قضى على عصيان الأمراء فى الدوآب والسند ،

وفى الخارج حيث دفع عنها عدوان المغول وحصن حدودها الشمالية الغربية فى وجههم .

ورقى غياث الدين بلبن عرش الهند على أثر وفاة السلطان ناصر الدين كما ذكرنا من قبل ، فعمل على أن يسترجع لمنصب السلطنة سابق هيبته ونفوذه الذى زعزعه ضعف السلاطين من أبناء التمش من جهة وازدياد سطوة المماليك من أتباع التمش من جهة أخرى ؛ هذا إلى جانب الخطر المغولى الذى ما برح يطل على السند من آن لآخر.

وفى سبيل تحقيق هذه الأغراض جميعها أعاد بلبن تنظيم قواته وتدعيمها حتى تمكن بها من إقرار الأمن حول عاصمته وفى الدواب والبنجاب: ومن ثم وجهاً لدفع خطر المواتيين ، وكانت عصاباتهم قد تفاقم أمرها بدرجة مخيفة حتى طفقت تهدد دهلى نفسها ، فلم يزل جنده تطاردهم وتتعقبهم فى الأدغال والغابات حتى طهرتها منهم تماماً . كذلك عمل بلبن على تأمين الطرق والمسالك فى أنحاء بلاده من عبث اللصوص وقطاع الطرق وكانوا من الكثرة بدرجة مخيفة لاسيما فى الدوآب ، حتى كان يستحيل فى أغلب الأحيان نقل المؤن والبضائع من موضع إلى آخر بأمان .

ودعم السلطان عملياته الكثيرة هذه بإقامة كثير من المعاقل والحصون فى مختلف أنحاء البلاد وتعميرها بالجند والسلاح ، كما أمر بشق كثير من الطرق عبر الأدغال والأحراش .

هذا وقد استعان بلبن على ضبط الأمور ، فى مملكته المترامية الأطراف بشبكة محكمة من العيون كانت توافيه بكل ما كان يجرى فى البلاد من حوادث وما كان ينزع إليه عماله من تصرفات فى دقة وسرعة وتفصيل تام .

وبلغ من حرص صاحب دهلى على إلزام عماله جادة الصواب والعدل أنه لم يتردد فى الاقتصاص من أكثر من واحد منهم فى عنف وشدة حين بلغه قتلهم بعض السكان ظلما .

على أن بلبن ، برغم ما كان له من جند كثيف عالى التدريب . فقد لبث فـــى هم مقيم خوف قدوم المغول . فلزم عاصمته موجهاً كل جهوده إلى تـــأمين حـــدوده بإزاء غزوات جحافل هؤلاء البدو الآسيويين غلاظ الأكباد الذين أنزلـــوا الخـــراب والدمار بأغلب بلاد المسلمين . فهاهم أولاً . قد اقتحم بهم خانهم هولاكـــو ، حفيـــد جنكيز ، بغداد مدينة الخلافة فدكوها على أهلها وقتلوا المستعصم أمير المؤمنين بـــها شر قتلة ، وهاهم بالهند قد احتلوا إقليم لاهور ثم راحو فى غاراتهم تترى يكتســحون أرض السند والبنجاب .

وبلغ من فرط تحوط سلطان دهلى وشدة حذره أن أبعد عن بلاطه كـــل مـــن كان يخالجه أدنى شك فى إخلاصه له ، حتى عزل فى سبيل ذلك جميع الهنادكة عن مناصبهم وأصبحت موارد الدولة كلها وجهودها وقفاً على تحصين البلاد ووقايتـــها من خطر المغول .

وكان من ذلك أيضاً أن عهد إلى ابنيه ، محمد وبغراخان ، بالمرابطـــة فـــى الملتان وسمنه أقرب مراكز الحدود الشمالية تعرضا للخطر وأمدهما بجيوش قويـــة حسنة التدريب .

وجر على بلبن لزومه عاصمته ، دون الخروج منها للغزو والجهاد على سنة أسلافه ، كثيراً من المتاعب فى مختلف ولايات الدولة لاسيما ما كان منـــها علـــى مبعدة من مقره . بل أن هيبته بدأت تقل فى أعين سكان دهلى نفسها الذين لـــم تعـــد تهز أسماعهم أنباء الانتصارات السلطانية أو يشاهدوا عســاكر المســلمين خارجـــة للغزو والجهاد .

وأرغمت اضطرابات البمنغال بلبن آخر الأمر على الخروج من عاصمتـــه . ذلك أن أميرها طغرل كان قد جهر باستقلاله بعد أن أوقع بحملات دهلى إليه مـــرات متكررة(١).

هذا والواقع أن نفوذ دهلى فى البنغال كان قد طفق يتضاءل عموماً منذ حكـــم الخلجيين هناك . وساعد أمراء هذا الإقليم على نبذ طاعة دهلى بعد بلادهم الشاســـع

---

(١) رياض السلاطين أو تاريخ بنكالة لغلام حسين سليم ، كلكته ، ١٨٩م ص ٧٧ – ٨٥

عنها مع سوء المواصلات معها ورداءة الطرق إليها ، فضلاً عن انتشار الملاريا بها انتشاراً وبائياً شديداً .

ولقد أتيح لألتمش من قبل أن يقر الأمور في هذا الإقليم وقتاماً حتى نصب عليه ابنه ، لكن الأحوال ما لبثت بعد موته أن عادت هناك إلى سيرتها الأولى نتيجة للاضطراب والتفكك الذى دب إلى الحكومة المركزية دهلى بما فصلناه من قبل .

وزين لطغرل خان نائب بلبن على هذا الإقليم ، مستشاروه خلع طاعة دهلى، وقد خيل إليهم أن السلطان قد شارف على الهلاك لشيخوخته ، في حين شغل والده بقتال المغول فلا قبل إذن لأحد المسير إليهم .

ودفعت بهذا الأمير أطماعه إلى مهاجمة جاجنكر ، فانتهبها واستولى فيها على أسلاب ثمينه طائلة . ومن ثم راح يجهر باستقلاله فاتخذ لنفسه لقب السلطان مغيث الدين وأمر بضرب السكة وقراءة الخطبة باسمه ، ثم راح يفيض على رجاله مما استحوذ عليه من الغنائم جلباً لولائهم ورضائهم .

وبعث بلبن ، أول الأمر ، بقائده آبتكين المعروف بأمير خان إلى البنغال فأصيب بهزيمة شديدة انفرط على أثرها عقد الجند ، فمنهم من بادر بالانضمام إلى صفوف المنتصر ومنهم من ركب طريق الفرار . وبلغ من شدة انفعال بلبن وفرط غضبه ، حين بلغه خبر هذه الهزيمة ، أن أمر بقائده أمير خان فشنق على أسوار أوده ، مركز اقطاعه ، فجاءت قسوة هذا الإجراء مذهلة لرجال الدولة مثيرة لقلقهم.

وسير بلبن حملة ثانية إلى البنغال لم يكن نصيبها بأفضل من نصيب سابقتها. ذلك أن طغرل كان على أثر انتصاره قد زحف خارج حدود بلاده حتى بلغ لكهناوتى فانقض على جيش دهلى فأباده .

هنالك بلغ ارتياع السلطان أشده ، فقرر لوقته الخروج بنفسه إلى البنغال فعهد بشئون الدولة إلى ملك فخر الدين ثم قصد إلى سمانه وسنام فطلب إلى ابنه بغراخان أن يصحبه فيما اعتزل عليه من حرب ، في حين أوصى ابنه الآخر محمداً بمزيد الالتفات إلى ما بيده من أقاليم ، وأن يرقب الحدود بعين ساهرة حذر المغول .

وبرغم عنف موسم الأمطار وكثافة الوحل وكثرة المستنقعات فقد جذ السلطان السير ، حتى إذا بلغ حاضرة البنغال وجد أن طغرل قد غادرها فرارا إلى جاجنكر وقد صحب معه كنوزه وصفوة من رجاله الأشداء هذا كما اختفى من لكهناوتى كذلك أغلب أعيانها خوف بطش السلطان ونقمته عليهم لتقاعسهم فى الحد من نفوذ الأمير البنغالى .

وأقسم السلطان ألا يبرح البنغال إلى دهلى قبل أن يوقع بطغرل ، ولو اقتضاه ذلك ركوب البحر وراءه . واستطاع رجال المخابرات السلطانية آخر الأمر الاهتداء إلى معسكر الأمير الثائر فى مخبأ يتوسط الغابات ، فسقطوا عليه فى غفلة من الحرس . وأصاب أحد الجند طغرل بسهامه وهو يحاول عبور أحد المجارى المائية ، فقطع رأسه وأسرع بها إلى مقام السلطان .

ولم يرجع بلبن إلى حاضرته إلا أن أنزل بسكان لكهناوتى مذبحة قاسية لم تعرف الهند لها نظيراً فى تاريخها إلا القليل . وأوصى ابنه بغراخان ، بعد أن ولاه البنغال ، بسلوك طريق العنف والحزم معهم .

وظل هذا الأمير وخلفاؤه من بعده يحكمون البنغال ما ينوف على نصف قرن، فى حين لم تستطع أسرة بلبن نفسها أن تحتفظ بعرش دهلى بعد وفاة عميدها أكثر من سنوات ثلاث .

ولم يكتف السلطان بما أراق من دماء غزيرة فى الأقاليم الشرقية ، فبادر حال وصوله حاضرته إلى القصاص من كل من ثبت عليه أدنى اتصال بالثائر طغرل ورجاله .

هذا وكان بلبن قد وكل بابنه الأكبر محمد أمر الجبهة الغربية كما قلنا من قبل، وكان بها حاميتان قويتان إحداهما بالملتان والأخرى بسمانة أقرب المراكز إلى المناطق التى كان يحتلها المغول .

وخرج هذا الأمير عام ٦٨٤هـ/١٢٨٥ لدفع خطر المغول عن لاهورود يبالبور فنالته رماحهم . وقد حزن أبوه عليه حزناً شديداً عجل فى نهايته بعد قليل .

ويذكر عن هذا الأمير ميله الشديد إلى مجالسه العلمـاء والأدبـاء . وكـانت ندواتهم عنده تدور على دراسة كتب الشعر والتاريخ والفلسفة كالشـاهنامة وديـوان سنائى والخاقانى وخمسه نظامى . وكان من بين كبار رواد هذا الأمير شاعر الـهند الكبير خسرو الدهلوى تلميذ نظام الدين أوليا .

وبعث بلبن على أثر هذه الكارثة إلى ابنه الآخر بغراخان يدعوه إليه ليوليـه عهده ، لكنه آثر البقاء بالبنغال بعيداً عن مشاكل الملك بالعاصمة . ومن ثم أوصـى السلطان بالملك من بعده لحفيده كيخسر وابن الأمير الشهيد محمد .

ولقد ولى محمد بلبن عرش الهند أربعين عاماً حكم فيها البلاد بحزم ومقـدرة عظيمة ، فدفـع جحـافل المغول عن حـدودها كما قضى على كل ما أشاع فـى ملكه من فتن واضطرابات كثيرة .

وأضفى هذا السلطان على بلاطه تقاليد راقية رفيعة فألزم حاشـيته ورجـال دولته بمراسم معينة فى لباسهم وفى سلوكهم ومناصبهم على السواء. كما ألزم نفسـه ورجالـه بالتمسك الشديد بآداب الإسلام وفضائله ، ونشأ أولاده عليها ، ودفع بنـى قومـه على التحلى بها ، حتى ليرد المؤرخون صفوة عادات المجتمع الهندى اليـوم وتقاليده الرفيعة إلى ما أستنه منها هذا الأمير وخلفاؤه من بعده([1]) . وشهر بلبـن ، إلى جانب ذلك كله ، برعايته للعلماء والأدباء مع برة الشديد بالناس جميعاً لا فـرق عنده بين مسلم وهندوكى ، وإن كانت ظروف البلاد فى حربها مع المغول قد دفعتـه اعتباراتها إلى إبعاد الأخيرين عن مناصب الدولة .

وضرب رجال البلاط فى دهلى صفحاً عن مشيئة سلطانهم الراحل ووصيتـه لهم ، فاجلسوا على العرش الأمير كيقباذ بن بغراخان ، فكان اختياراً غـير موفـق حمل فى ثناياه نهاية هذه الأسرة .

ذلك أن السلطان الجديد لم يكن له من الجدارة ما يليق بسد الفراغ الكبير الذى تركه جده العظيم بعد موته .

(1) Prasad. Med. Indiapp.171,2 –I.

ولئن كان هذا الأمير قد نشيء فى الواقع تنشئة طيبة منذ حداثتـــــه ، وجـــهد القائمون على تربيته فى تثقيفه تثقيفــًا عاليا وبث الفضائل وحميـــد الخصـــال فـــى نفسه، إلا أن توليه العرش فى سن المراهقة إذ لم يكن يعدو السابعة عشـــرة ، دون وجـــود نصحاء مخلصين من حولـــه ، قد أسلس قياده لزمرة من أصحاب الأهـــواء أخذوا يزينون له الاستمتاع بمباهج الحيـــاة وعبثها ، حتى استجاب لهم وانصـــرف عن شئون الملك بسكليته إليهم .

واستطاع رجل من أصحاب الطموح والأطماع بالبلاط يدعى نظام الديـــن ، أن يستأثر بتصريف الأمور بتعضيد ختنه فخر الدين أمير الجند بالعاصمة ، فـــراح ينتقص من حقوق الأمراء ويقصى عن مراكز الحكم أكفاءهم ، وفيهم أولئك الذيـــن كانوا يخدمون الدولة بوفاء وجد وإخلاص منذ أمد طويل .

وما لبث نظام الدين أن تطلع إلى العرش نفسه . فهاهم أولاد الأمراء والقـــادة قـــد ألزمهم طاعتـــه والخضوع لمشـــيئته ، وهاهو ذا بغراخان ، أقـــوى أبنـــــاء بلبن ، يقيم بالبنغـــال التى تبعد عن العـــاصمة مئات الأميال فلا سبيل يســـيرة لـــه إليه . فرتب خطته على أن يبدأ أولا بالتخلص من الأمير كيخسروا، وهو الذى كـــان بلبن قد عهد إليه أصلا بالعرش قبل موته فما زال بالسلطان حتى زين له اغتيالـــــه وحمله عليه ، فقتل عند رهتـــان وهو قادم فى طريقة من الملتان إلى دهلـــى تلبيـــة لدعوة السلطان .

وحين أثار مقتل هذا الأمير سخط رجال الدولة ، برز نظام الدين يلقى بالتبعـــة على خواجه خاطر وزير السلطان ، فمثل به شر تمثيل وطوف به المدينـــــة علـــى حمار ثم قتل . ولقى فى هذه الفتنه كذلك جملة من رجال بلبـــن المخلصيـــن نفـــس المصير بتدبير ، هذا الأمير الذى عرف كيف يجعل من السلطان أداة طيعة لتنفيـــذ مآربه وتحقيق أغراضه وأهدافه .

ونظر نظام الدين ومعه ختنه فخر الدين فرأيا معارضيهما والساخطين عليهما يلوذون بالأمراء الخلجين ويتطلعون إليهم فى هذه المحنه الجارفة .فحزما أمرهمـــا

على الإيقاع بهؤلاء الأمراء الذين ، فضلا عن توليهم لمناصب هامة فى الدولة ، كانوا وآباؤهم هم الذين أرسخوا فتوحات المسلمين فى البنغال والأقاليم الشرقية .

ولقد حاول بغراخان صاحب البنغال أن يرد السلطان إلى صوابه فالتقى به فى جيش كبير عند أوده ، لكنه ما لبث أن ارتدا بعد قليل إلى طريقة القديم حتى انتهى به انغماسه فى العبث والمجون إلى الإصابة بالفالج.

وأدى اضطراب الأحوال وتناحر الأمراء فيما بينهم إلى أن ذهب فريق منهم إلى حريم القصر فأتوا بغلام من أبناء السلطان المريض ورفعوه على العرش.

هذا وكان الأمراء الخلجيون بدورهم قد أحسوا بما كان يدبر لهم فى الخفاء فخرج بهم زعيمهم جلال الدين فيروز مع أتباعم وجندهم إلى ظاهر العاصمة.

هنالك حسبها الأمراء الأتراك بدورهم فرصة سانحة لخلاص الأمر لهم لكن أبناء الأمير فيروز الخلجى سرعان ما أحبطوا خططهم باختطاف السلطان الصبى والفرار به إلى معسكرهم .

وإن هى إلا أيام قليلة حتى اجتاح الخلجيون المدينة بجندهم فقصد فريق منهم قصر المرايا حيث كان كيقباذ طريح الفراش ، فقتله رجل منهم انتقاما منه لأبيه . وألقيت جثته بنهر جمنة فى التاسع عشر من المحرم عام ٦٨٩هـ/١٢٩٠م.

وبمقتل كيقباذ انهى أمر سلاطين المماليك وانتقل الملك إلى أيدى الخلجيين .

الخلجيُّون

يرجح محمد قاسم هندو شاه ، صاحب تاريخ فرشته ، نسب الخلجيين إلى الترك ، ويحتج على ذلك بترداد ذكرهم فى تاريخ ملوك غزنة خصوصاً أيام حكم سكتكين وابنه محمود(1) . فى حين ينسبهم نظام الدين أحمد ، صاحب طبقات أكبرى ، إلى قليج خان أحد أصهار جنكيزخان(2) ، حيث تقول الرواية بأنه نزل بجبال الغور بعد هزيمة شاه خوارزم ثم حرف اسمه بعد ذلك إلى خليج الذى ينسب إليه الخلجيون . ويقول بهذا الرأى كذلك ضياء الدين بارانى صاحب تاريخ فيروز شاه محتجا بكراهية الخلجيين للترك .

ومهما يكن الأمر فإن الخليجيين قد تأثروا بالبيئة التى عاشوا فيها، فصاروا يعدون أنفسهم أفغانيين أكثر من أى شئ آخر .

وبدأ نجم هؤلاء الأمراء فى الظهور بالهندستان أيام محمد الغورى وقطب الدين أيبك وشمس الدين التمش ، فكانوا حكاما على البنغال والأقاليم الشرقية كما ولوا كذلك من المناصب الرفيعة الأخرى فى الدولة . والتف الأمراء الأفغان حولهم ببلاط بلبن وخلفائه فى جبهة تناهض نفوذ الترك الآخرين وغيرهم حتى انتهى بهم الأمر إلى أن ارتقى زعيمهم جلال الدين فيروز شاه عرش دهلى ٦٨٩م/١٢٩٠م ، وكان فى السبعين من عمره .

ولم يتقبل أهل العاصمة حكم الخلجيين أول الأمر بقبول حسن لفرط ما ارتكبته قواتهم معهم من ضروب القسوة من جهة ، ولبشاعة مقتلهم لسلطانهم المفلوج من جهة أخرى ولكن السلطان الشيخ ما لبث بحسن سياسته وعدله ومودته أن تألف القلوب حوله من جديد . فقد أثر عنه أنه ، لفرط بغضه لإراقة الدماء ، كان يكتفى بنفى قطاع الطرق إلى البنغال دون قتلهم . كما بلغ من تسامحه كذلك أن

---

(١) تاريخ فرشته لمحمد قاسم هندوشاه –ص ٨٨ ، ٨٩ .

(٢) لا تزال بعض قبائل الهزار بمناطق بلاد الأفغان الجبلية محافظة على المقومات الجنسية واللغويةالمغولية غالبا حتى اليوم ، وقد نشر الأستاذ جابيلنز بحثا شيقا فى هذا الموضوع بمجلة المستشرقين الألمانية S 326 – 8 ZDMG Bd Xx

عفا عن ملك ججو ، ابن أخى بلبن وحاكم إقليم كره، حين وقع أسيرا فى يده ، وكان قد زحف إلى العاصمة فى جيش كبير بدعوى أحقيته فى العرش ، فاكتفى فيروز شاه بخلعه عن إمارته وتنصيب ابن أخيه جلال الدين الخلجى مكانه .

ولم يكن تسامح جلال الدين وقفا على المسلمين دون غيرهم . فقد خرج من عاصمته إلى جهاين ومالوه بعد ما بلغه من انتهاب راجا رنتنبهور لهما ، فما إن رأى هذا الأمير الهندوكى يحتمى بإحدى حصونه خوف بطشه حتى رجع عنه حقنا لدماء الرعية .

على أن بغض السلطان الخلجى الشيخ لإراقة الدماء لم يكن ليقعده بطبيعة الحال عن الذب عن بلاده إذا ما اكتنفتها الأخطار أو تهددها الغزو . فما إن عاد المغول إلى الهندستان من جديد يهاجمونها بجحافلهم حتى تصدى لهم جلال الدين وأنزل بهم هزيمة منكرة أسر فيها بضعة ألوف منهم أنزلهم بضواحى دهلى ، وهم الذين عرفوا هناك بالمسلمين الجدد ، وقد صارت محلتهم مثابة للتآمر والاضطرابات التى جرت على دهلى كثيرا من المتاعب فيما بعد .

وأذن جلال الدين لابن أخيه علاء الدين عام ٦٩٤هـ / ١٢٥٤م بالخروج إلى الدكن غازيا ، وكان هذا الأمير واسع الأطماع طموحا فبيت فى نفسه أن يبتعد عن دهلى ويقيم لنفسه هناك ملكا .

وبرغم ما كان معه من جند قليل لا يجاوزون ثمانية آلاف فارس ، فقد استطاع أن يغزو بهم إمارة ديوكر الهندوكية الواسعة ويهزم صاحبيها رام جندرا وسنكره ديوا ثم عاد إلى مقره بكره محملا بغنائم طائلة كانت تضم أكداسا من الجواهر الثمينة وأربعين من الفيلة وبضعة آلاف من رءوس الخيل .

وطار السلطان فرحا بما حازه ابن أخيه من انتصارات ، وكان إذ ذاك فى نواحى كواليار ، فعزم على الخروج بنفسه للقائه .

وكاد جلال الدين يستجيب لتحذيرات بعض خلصائه وارتيابهم فى نوايا ابن أخيه . حتى إذ ما أقبل عليه الماس بك ألغخان برسالة من علاء الدين يلوح له فيها بقتل نفسه أو أن يضرب وكنوزه فى الأرض على غير هدى إذا ما عدل السلطان

عن تشريفه بالقدوم إليه ، – أصم أذنيه عن مقاله رجاله برغم مزيد إلحاحهم عليه وتبصيرهم إياه بسوء نواياه ، فعزم على الخروج إليه من فوره.

وهكذا عبر جلال الدين الكنج فى فئة قليلة من رجاله ، فما إن بلغ مقام علاء الدين فأقبل يحييه ، حتى انهالت ضربات السيوف عليه وعلى رجاله ثم نودى فى الناس من بعد ذلك بالأمير الغادر سلطانا عليهم.

وروع الخبر دهلى فبادر الأمراء ورجال البلاط بالالتفاف حول ملكه جهان زوجة جلال الدين وقد بلغ بهم الغضب والحزن مبلغه لاغتيال السلطان الشيخ الرحيم بهذه الأساليب الوحشية الوضيعة.

وبادرت هذه السيدة بحسن تدبيرها ، فغمرت الزعماء بالهبات والعطايا كما نثرت الفضة والذهب على عامة الشعب بالمجانيق حتى اجتمعوا جميعاً على تنصيب ابنهاركن الدين إبراهيم على عرش دهلى .

على أن علي الدين سرعان ما اقتحم المدينة على أهلها وأرغم سلطانها الشاب على الفرار إلى الملتان . وهكذا جلس هذا الأمير المغامر الطموح على عرش الهند عام ٦٩٥هـ/١٢٩٥م فأجريت الخطبة له وضربت السكة باسمه .

وغزا المغول أرض الهند من جديد فانبرى لهم علاء الدين فى حروب طويلة استمرت إلى عام ٧٠٥هـ/١٣٠٤ م حتى رد غائلتهم عن البلاد . وكان أكبر عون له فى حروبه هذه قائده الكبير غازى تغلق ومعه ظفر خان وألغ خان . وكان علاء الدين قد نهج كذلك نهج سلفه العظيم بلبن بإقامة حصون قوية مستديمة عند الحدود الغربية وتزويدها بالجند المدرب القوى والعتاد الحربى .

ولقد بدأت هذه الحروب فى السنة الثانية من حكم هذا السلطان حين خرج الأمير داود المغولى من بلاد ما وراء النهر فى عشرة آلاف مقاتل يبغى الاستيلاء على الملتان والسند والبنجاب ، فتصدى له ألغ خان قائد دهلى وأنزل به هزيمة شديدة .

على أن هؤلاء الغزاة لم يثنيهم عن عزمهم ما أصيبوا به من خسائر فادحة ، فعادوا إلى الهند بعد قليل ، فالتقى بهم القائد الخلجي ظفر خان في معركة كبيرة أسر فيها منهم ألفين ومعهم قائدهم فسيقوا جميعاً إلى دهلي مصفدين في الأغلال وكان أخطر هجوم مغولي تعرض له علاء الدين هو الذي وقع عام ٦٩٨هـ/١٢٩٨م ، حين زحف قتلق خواجه على رأس قوات كثيفة صوب دهلي . لكن السلطان ومعه ألغ خان وظفر خان ثبتوا لهم حتى تم لهم النصر بعد قتال عنيف تضاعفت فيه خسائر الفريقين وسقط في ميدانه القائد الخلجي المحنك ظفر خان.

وظهر في الميدان على أثر هذه الواقعة جيش جديد من المغول بقيادة زعيمهم تارجي ، لكن الأمير نظام الدين تصدى له وشتت شمله .

ولئن كان حدة الخطر المغولي قد انكسرت على أثر هذه الهزائم المتلاحقة التي نزلت بهم ، إلا أن غزواتهم طفقت مع ذلك تتوالى على مناطق الهند الغربية حتى تمكن غازي ملك تغلق، بفضل حنكته الحربية وشدة مراسه وما أنزله بهم من ضربات شديدة ، من أن يبعد خطرهم عن سلطنه دهلي تماماً .

وإذ ساد الاستقرار والأمن سلطنة دهلي من جديد ، انصرف تفكير علاء الدين إلى الغزو والفتوح . فأخذ يمهد لذلك بالعناية البالغة بأمر الجيش وتقويته مع تهيئة ما يحتاج إليه من مصانع للسلاح وعمال لها ، إلى جانب إنشاء الحصون لاسيما بمناطق الحدود عند سمانه وديبالبور بالبنجاب . وكان يعاونه في ذلك كله نخبه من قواده الممتازين الذين كادت فتوحاتهم تشمل شبه القارة الهندية بأكملها .

ولقد بعثت فتوحات هؤلاء القادة وما جلبوه من كنوز طائلة ، نشوة مشوبة بقدر من الغرور في نفس علاء الدين حتى تراءى له أن يسير بهم إلى فتح الدنيا بأسرها على غرار ما فعل الإسكندرية المقدوني من قبل . بل لقد ذهب به الحال إلى أبعد من ذلك ، فغدا يصرح بأن قادته منه بمنزلة الخلفاء الراشدين من النبي الأكرم ، فهو قادر بهم على تنظيم الدعوة لدين جديد يخرجون للتبشير به في أركان المعمورة وسيوفهم مشهرة .

وهنا يقول المؤرخ ضياباراني صاحب تاريخ فيروزشاهي ، وكان معاصراً له ، إن القاضي علاء الملك عم السلطان بادر باعتراضه على علاء الدين في قوة وحزم حين سأله النصيحة في هذا الأمر . فقال له بأن الدين إنما هو وحي من عند الله وليس بأمر وضعي من صنع البشر ، وأن النبوة لم يختص بها الملوك أبداً أو كانت من نصيبهم عموماً وإن كان بعض الرسل قد أوتي من الملك نصيباً . وهذا خان المغول جنكيز ، برغم ما اهرق من دماء في بلاد المسلمين ، لم يمكنه حمل المقهورين على الدخول في ملته ، بل إن ما حدث هو العكس ، فقد أقبل المغول الفاتحون أنفسهم يدخلون في دين الله أفواجاً .

أما عن مسألة فتح العالم فقد أبان القاضي للسلطان بان العصر يغاير تمام المغايرة زمان الإسكندر فلا يقاس عليه ، هذا فضلاً عن أنه كان للمقدوني وزير ناصح حكيم هو أرسطو وهو ما لا نظير له عند علاء الدين.

وختم القاضي نصيحته للسلطان بأن أوصاه بقصر جهوده وتركيزها في إخضاع الهندستان كلها لحكمه وإقرار الأمور فيها بالقضاء على الثورات والفتن وتأمين الحدود في وجه المغول .

ولقي كلام القاضي أذنا مصغية من علاء الدين فبعث بقائديه ألغ خان ونصرت خان عام ٦٩٩هـ / ١٢٩٩م للاستيلاء على حصن رنتنبهور فنفذا إليه في قوات كبيرة عبر صحراء الراجبوتانا بعد أن استوليا في طريقهما على حصن جهاين .

وفيما كان يحاصران هذه القلعة ، أصابت إحدى قذائف المدافعين الحجرية نصرت خان إصابة قاتلة جرته إلى حتفه في مدى يومين . وما لبث رانا همير صاحب الحصن أن خرج إلى المسلمين في مائتي ألف من الجند اجتمعوا له ، فأرغم بهم ألغ بك على الارتداد إلى قلعة جهاين بعد خسائر كثيرة .

هنالك بادر السلطان بالخروج بنفسه إلى هذا الحصن ، ولكنه فوجئ في الطريق بتآمر ابن أخيه سليمان شاه اتكخان على حياته ، ومعه أتباعه من المسلمين الجدد، قصد انتزاع العرش منه على غرار ما فعله هو نفسه بعمه جلال الدين من

قبل . على أن علاء الدين ، برغم ما أصابه من جروح شديدة ، أفلح آخـــر الأمـــر بالقضاء على المتآمرين جميعاً.

وتابع الأمير الخلجى سيره إلى غايته فاكتسح فى طريقه مالوه ودهار . حتـــى إذا ما وصل حصن رنتنبهور قابلة أصحابه بمقاومة عنيفة أطال من أمدهـــا جنـــوح بعض رجال الدولة بدهلى إلى التآمر على السلطان فى غيبته وإشاعتهم الفوضى فى المدينة .

وأصر السلطان على ألا ينصرف عن الحصن قبل الاســـتيلاء عليـــه فبعـــث بقائده ألغ خان إلى دهلى فأقر الأمور فيها بعد عناء شديد .

واستمات الهنادكة فى الدفاع عن قلعتهم فى شجاعة خارقة وثبات عظيم فلـــم تسقط فى أيدى علاء الدين ألا بعد عام من المقاومة المجيدة ومن ثم آب الســـلطان إلى عاصمته فى نهاية عام ٧٠٠هـ/١٣٠١م بعد أن أمر بالحصن فـــهدم وســـويت أسواره بالأرض. وصارت الإمارة كلها لألغخان .

وأغرى هذا الانتصار الكبير علاء الدين على التطلع إلى اقتحام موار أمنـــع إمارات الراجبو تانا وأعظمها . ولم يفت فى عضده ما حصنت بـــه الطبيعـــة هـــذا الإقليم من جبال شامخة ودروب وعرة وغابات كثيفة موحشة ، إلى جانب حصونـــه الكثيرة وفيها حصن جيتور الذى قد بنى من الصخر على قمة جبل وعر كفلت لـــه مناعته رد كل فاتح أو غاز عنه ، فلم يفكر أحد من قواد المسلمين بالهند مـــن قبـــل فى محاولة النفاذ إليه .

على أن علاء الدين ما عتم يدبر لراتا بهيم صاحب جيتور ما يدبر حتى أفلـــح فى استدراجه إلى خارج حصونه ثم أوقعه فى أســـره . وهنـــا تقـــول الروايـــة أن السلطان عرض على أسيرة أن يرده إلى مقامة إن سير إليه ابنته بدمنى . وكـــانت هذه الأميرة الهندوكية على جمال رائع وفتنة ذاع أمرها فى كافة أرجاء الهند .

وأجمع رجال الحصن ، حين بلغهم الخبر ، على أن يبعثوا إلى سيدهم ســـراً بقدر من السم يضع به حدا لعذابه فى الأسر وينقذ معه بذلك شـــرف قومـــه، فـــإذا بالأميرة الجميلة ، وكانت ذات عقل راجح وتدبير سديد ، تنبرى لهم معارضة فتعلن

إليهم عزمها على المسير إلى مقام السلطان على خطة محكمة ، أسرتها إليهم ، فيها الخلاص والسلامة لأبيها ولها معاً .

وبلغ ركب الأميرة معسكر السلطان ومعها أحمالها في الهوادج . فما إن توسطت القافلة مضارب علاء الدين حتى انشقت هوادجها عن سبعمائة من فدائي الهنادكة الأشداء الذين أفلحوا بعد قتال مرير في إنقاذ أميرهم وردوا بنته إلى حصنه بسلام .

ولم يكن علاء الدين ليسكت عن هذا الحادث ، فاقتحم الحصن بنفسه في الغداة وأعمل ورجاله السيف في حاميته في عنف بالغ ، وإن لم يستطع على كل حال أن يظفر بالأمير الهندوكي وابنته أحياء ، إذا آووا مع جملة من الأعيان إلى بعض الكهوف حيث أهلكوا أنفسهم(1) .

وتبع سقوط هذا الحصن استيلاء قوات السلطان على ما لوه ثم ماندو ويوجين ودهرا نجرى وجندرى . وهكذا لم ينصرم عام ٧٠٦هـ/١٣٠٥م حتى كانت مملكة علاء الدين الخلجي تمتد من البنجاب إلى البنغال ومن جبال الهملايا إلى تلال الوندهايا ، وهي الرقعة التي اصطلح المؤرخون على إطلاق اسم الهندستان عليها .

واتجهت أنظار صاحب دهلي من بعد ذلك إلى الدكن . وكان هذا الإقليم إلى جانب بعده عن العاصمة، يقوم على حراسته عصبة من أمراء الهند الأقوياء .

وخرج جيش المسلمين من حاضرتهم وعليه القائد كافور . وكان مملوكا حبشياً قديراً جلبه القائد نصرت خان إلى سيده من منطقة خليج كمباى .

واخترق الجند مالوه ثم الكجرات أعظم أقاليم الهند التجارية وأغناها وأطيبها مناخاً ، ثم هاجموا راى كران الذى ما عتم أن فر مع ابنته إلى صاحب ديوكر .

وهنالك انضم ألغخان ورجاله إلى قوات كافور فساروا جميعا إلى ملجئ غريمهما ، فما لبثا أن ظفرا به وبمجيره بعد قتال عنيف . على أن السلطان ، بعد

---

(1) تاريخ فرشته ص ١١٥ – هذا وتذكر بعض المصادر الهندوكية على أن الأميرة كانت زوجة لصاحب الحصن لا ابنة له .

أن زف ابنة راى كران إلى خضر خان ولى عهده ، ما لبث أن رد صاحب ديوكر وابنه إلى بلادهما مكرمين ، فضمن بصنيعه هذا دوام ولاء هذا الأمير الهندوكى ووفائه له .

وعلى أى ، فقد بعثت انتصارات كافور الرعب فى قلوب أمراء الدكن وما يليها جنوبا ، فما عتمت تلنجانا قاعدة إقليم أورانكل أن فتحت أبوابها للغزاة المسلمين عام ٧٠٩هـ/١٣٠٩م ، وافتدى أميرها ،براتاب رودرا ديوا كما كاتيا ، قومه وعشيرته بكنوز طائلة حملها إلى دهلى ألف بعير كادت تنوء بها ، عدا مئات من الفيلة وألوف من رءوس الخيل .

وشجع ما وصل دهلى من أسلاب وغنائم حكومتها على المضى فى الفتح طلبا للمزيد من الأرض والكنوز . فغادر كافور بجنده العاصمة من جديد فى جمادى الآخر من عام ٧١٠هـ/١٣١٠م فبلغ إقليم مبر ، فى الجنوب الشرقى من الدكن ، ليخرج له صاحبه ، فير بلال ، من أكداس الجواهر والأموال ما لم ينل من ضخامتها ما وهبة السلطان منها لرجاله وجنوده فى سخاء بالغ .

ولم يرجع المحارب الجسور عن الدكن حتى تم له إخضاع الجنوب . الهندى كله فلم يهل عام ٧١٢هـ/١٣١٢م حتى كان سلطان الخلجيين يظل شبه القارة الهندية بأكملها .

واتجه علاء الدين من بعد ذلك إلى تنظيم شئون ملكه الواسع وتدعيم سلطانه بعد أن تحققت آماله فى الفتح ، وقد صار له جيش قوى غدت به البلاد فى مأمن تام من الغزو المغولى ، من جهة أخرى .

ولقد قامت سياسة هذا الأمير الخلجى الداخلية على قدر غير قليل من الشدة والعنف إذ وضع يده على جميع الملكيات الزراعية وأثقل كاهل الهنادكة خصوصا بالضرائب . كما نهج نهج سلفه بلبن فى إقامة شبكة قوية من الجواسيس لتنقل إليه أخبار الناس خاصتهم وعامتهم على السواء .

وتعرض هذا السلطان لنقد رجال الدين الشديد حين راح يستأثر لنفسه، دون بيت المال ، بأموال الدولة وما حمله جنوده إليه من كنوز الهند الوفيرة، إلى جانب

مغالاته فى فرض الضرائب بما يتنافى مع قواعد الشرع الشريف. وقد اعتذر لشيوخه هؤلاء بضرورة ما ذهب إليه طلبا لاستتباب الأمن فى بلاده الواسعة وللقضاء على ما ينشب فيها من فتن واضطرابات .

وبهذا كان علاء الدين أول سلطان مسلم بالهند جعل من إرادته المطلقة وحدها دستور الحكم ، فقلده فيها كثيرون ممن جاءوا بعده .

وتشدد هذا الأمير فى تحريم الشراب ببلاده ، وجعل من نفسه القدوة لقومه فحطم كل ما كان ببلاطه من أدواته . على أنه اشتط فى معاملة الهنادكة فمنعهم من اتخاذ المراكب أو التزين بثمين الثياب أو السلاح .

وصادفت النظم الإدارية والمالية التى وضعها علاء الدين قدرا كبيرا من التوفيق والنجاح . وأدت رقابته على الأسواق والأسعار مع تشدده فى معاقبة مدلسى التجار إلى أن عم اليسر والرخاء البلاد([1]) . هنا تقول الرواية بأنه كان يأمر بالمطفف فيستكمل الميزان بقطعة تقد من لحمه حيا ، عظة لغيره وعبرة.

كذلك لم يهمل علاء الدين تعمير بلاده فأقام بها كثيرا من المنشآت النافعة ، كما عنى بنشر الثقافة وأسبغ رعايته على علماء زمانه وشعرائهم من أمثال الشيخ نظام الدين أوليا والعالم الفقيه ركن الدين والشاعر خسرو الدهلوى .

ومن البديهى أن أمراء المسلمين والهنادكة على السواء ، الذين سلبهم السلطان كل ما كان لهم من نفوذ وامتيازات ، ومعهم التجار الذين غدت أرباحهم لا تعدو القدر الضئيل الذى تحدده الدولة لهم وتراقب تنفيذه فى صرامة بالغة حرصا منها على رخاء الشعب ؛ هؤلاء جميعا كانت نفوسهم تختزن الغضب وتفيض بالسخط ، فلم يكن يمنعهم من الجهر به إلا ما يعلمونه ، علم اليقين ، من عظم بطش الأمير الخلجى وشدة بأسه .

(1) Prasad, India p. 210.

على أن علاء الدين حين تقدمت به السن ذهب في كثير من شئونه ينقاد إلى آراء قائدة كافور الحبشى وعصبته من حثالة القوم الذين كان قد أتى بهم ليقوموا على خدمته مكان الأمراء الذين أبعدهم عن بلاطه ، فما عتموا أن بلغوا أعلى المناصب . وبلغ من تأثيرهم عليه أن أهمل تعليم أبنائه بتحريض من قائده هذا .

وما إن مات علاء الدين فى عام ٧١٥هـ/١٣١٦م حتى ولى الأمر كافور وصيا على العرش بعد أن أجلس عليه حدثا صغيرا من أولاد سيده ، يدعى شهاب الدين عمر خان ، كان قد حمل السلطان قبل وفاته على البيعة له .

وعلى أى ، فإن علاء الدين الخلجى يعد بحق من أعظم ملوك المسلمين فى عصره . فقد توفرت له صفات الجندى الطموح الجسور والإدارى الحازم الموفق ، فقاد جنده حتى دانت له شبه القارة الهندية كلها ، كما دفع عن حدوده الخطر المغولى الرهيب ، وأقر الأمن فى كافة ربوع بلاده ، ونظم الجهاز الحكومى تنظيما شاملا مكينا كان من ابرز مظاهره توفير الأقوات لسكان الهند جميعا بأسعار فى متناول أدنى طبقاتها ، وهو صنيع انفرد به علاء الدين دون حكام عصره جميعا .

وساق كافور البلاد إلى ما يشبه الحرب الأهلية ، إذ طفق يعمل على إزاحة الأمراء الكبار من طريقه ، إما بالقتل أو بسمل الأعين ، ما استطاع إلى ذلك سبيلا . فلم يسلم من بطشه أحد حتى ملكه جهان[1] ، زوجة علاء الدين نفسه ، إذ جردها من إملاكها وأموالها وألقى بها فى الحبس . وكتبت النجاة من هذه المحنة للأمير مبارك خان ، الذى ولى العرش من بعد ، إذ اكتفى كافور بزجه فى السجن .

كذلك أقصى المغتصب كل من بقى من رجال علاء الدين القدامى بالبلاط وعهد بوظائفهم إلى رجال من أتباعه وبطانته ، حتى وفق فريق من مماليك علاء الدين آخر الأمر ، بمعاونة أمير دعى ملك شير ، فى الفتك بكافور وتخليص البلاد من شروره وعصبته فعهدوا بالملك إلى الأمير الخلجى مبارك خان[2] .

---

(١) تعرف بهذه التسمية الزوجة الأولى لكل سلطان ومعناها « ملكة الدنيا » .

(٢) يختص الأمراء عادة بلقب خان فى حين يلقب السلطان بالشاه .

وارتقى قطب الدين مبارك شاه عرش الهند ٧١٦هـ/١٣١٦م فبدأ حكمه بداية طيبة ، فأطلق سراح المعتقلين ورد الأراضي والأملاك المغتصبة إلى أصحابها ورفع كثيرا من الضرائب عن كاهل التجار .

ثم وجه قائدة خسرو إلى الكجرات والدكن للقضاء على الثورات التي نشبت هناك ، فهزم راجا هربال ديوا في ديوكر ثم سار إلى تلنجانا فباغت في ثلاثمائة من رجاله أورانكل ، وكان يحميها عشرة آلاف من الفرسان مع عدد كبير من المشاة ، فانزل بهم مذبحة قاسية غنم من ورائها كثيرا من الأموال والكنوز . وما لبث أميرها أن خرج على أثر ذلك من حصنه فأعلن استسلامه له على جزية سنوية طائلة وأموال كثيرة .

على أن السلطان الجديد ما عتم بعد قليل أن انقلب ينغمس في الشهوات والمباذل إلى درجة بشعة حتى اتخذ لباس النساء وخرج به في الطرقات قاصدا دور الأمراء ليواصل مجونة بها . بل لقد كان كثيرا ما يحرض من في صحبته من بنات الهوى على معابثة كبار الأمراء الذين كانوا يرغمون على مجالسته بالبلاط .

ووثب عليه آخر الأمر قائده خسرو فقتله وجملة من الأمراء الخلجيين وبموت هذا السلطان انتهى حكم الخلجيين بدهلي .

وجلس خسرو من بعده على عرش الهند ، عام ٧٢٠هـ/١٣٢١ وتلقب بناصر الدين ، وكان من أصل هندوكي وضيع بالكجرات . فما لبث أن أطلق أيدي أتباعه في البلاد يعيثون فيها فسادا ، فنهبوا الناس وانتهكوا الحرمات وأشاعوا الظلم. ولم يترك هو نفسه أي أميرة من زوجات علاء الدين وقطب الدين وبناتهما إلا وقد استحياها ثم خلعها على بعض أصحابه . هذا كما اغتصب أموال الدولة وراح يبذل منها لبعض كبارها بغية شراء تعضيدهم له وتأييدهم .

وهدف خسرو إلى إحياء الهندوكية من جديد واسترجاع مجد الهنادكة القديم وسلطانهم بالتالي ، فجمع حوله عصبة من مواطنيه عاهدوه على المضي معه في هذا الأمر ، فراحوا يحطون من قيم الإسلام في استهتار وجرأة

بالغة حتى اقتحموا المساجد[1] فأقاموا أصنامهم وأوثانهم بها وجعلوا من المصاحف قاعدة لها . ولو لم يشغل الأمراء الهنادكة فى هذه المحنة الجامحة بتحقيق أطماعهم ومآربهم الخاصة عن الاستجابة التامة لدعوة خسرو هذه ، لنزل بالحكم الإسلامى وأصحابه بالهند ضربات قاصمة دون شك .

وآثار سلوك خسرو وقومه ثائرة الأمراء العلائيين وأتباعهم فبعثوا من فورهم بأمير منهم يدعى فخر الدين جونه إلى أبيه غازى ملك تغلق مستنجدين بهذا القائد الحازم صاحب الفضل الأكبر فى دفع المغول عن سلطنة دهلى .

وخرج تغلق من ديبالبور فسارع جميع الأمراء بالانضمام بجنودهم إليه فى زحفه صوب العاصمة .

ودفعت الكبرياء بمغولتكن أمير الملتان إلى التقاعس عن نصرة المسلمين إذ كان يرى فى نفسه ندا لتغلق فلا ينطوى تحت إمرته ، فبادر القائد بيرم خان بالقضاء عليه وضم قواته إلى الجيش الزاحف .

ولم يغن خسرو ما بذله من أموال كثيرة لشراء الجند والقادة إلى صفوفه، فأصيب بهزيمة حاسمة انطلق علىأثرها هائما على وجهه ليختفى فى مقبرة وهو فى طريقة إلى جلبت ، ولكن مطاردية ما لبثوا أن قبضوا عليه وعلى أخيه فأوردا مورد الردى فى آخر رجب من عام ٧٢١هـ/١٢٢١م .

وهكذا أنقذ غازى ملك تغلق مرة أخرى ملك المسلمين بالهند من محنة قاسية قاصمة ، كما أنقذه من هول المغول من قبل .

واستقبلت المدينة منقذها استقبالا منقطع النظير ثم راحت تعرض عليه عرشها ، فلم يقبله إلا بعد أن تأكد لديه عدم وجود وريث شرعى له من صلب السلطان علاء الدين الخلجى ولى نعمته .

---

(١) تاريخ فرشته أول ص ١٢٨ .

آل تغلـق

ارتقى غازى ملك تغلق عرش دهلى فى شعبان من عـام ٧٢٠هـ/١٣٢١م باسـم السلطان غياث الدين تغلق . وهو تركى الأب من قوم جغتاى زطى الأم مـن البنجاب ، بدأ حياته جنديا(١) بسيطا فظل يرتقى بجده واجتهاده حتـى بلـغ مرتبـة القيادة . وما لبث أن لمع إبان حكم السلطان علاء الدين الخلجى حين ساهم بجـهود بارزة فى دفع المغول عن الحدود الغربية ، ثم طفق ينزل بهم من بعد ذلك مزيـدا من الهزائم حتى إنجاب خطرهم عن البلاد .

وجهد تغلق فى تدعيم ملكه واستعادة سلطنة دهلى سابق هيبتها ونفوذها فبدأ بإحياء تعاليم الإسلام فى حكومته ، ورد للأمراء والأعيان ما اغتصب من إملاكـهم وامتيازاتهم ، كما أحاط بالإكرام والعناية كل من بالبلاد من الآمراء الخلجيين .

كذلك نجح غياث الدين فى استرداد الأقاليم الدكنية والشرقية التى كـانت قـد ضاعت من حوزت دهلى . فبعث بابنه ألغ خان إلى الجنوب فانتزع تلنجانـا مـن أيدى براتاب ديو الثانى راجا أورنكل وضمها إلى ملكها . ذلـك أن هـذا الأمـير الهندوكى كان قد انتهز فرصة ضعف الدولة أيام مبارك شاه الخلجى فنفـض عنـه طاعة السلطان ورفض إرسال الجزية إليه . وبأسره ختم دور هام لعبته هذه الإمارة فى تاريخ جنوب الهند . وسار هو بنفسه إلى الأقاليم الشرقية حتى بلغ البنغال فـأقر له بالطاعة أميرها ناصر الدين حفيد بغراخان ابن بلبن .

ونهج هذا السلطان نهج علاء الدين الخلجى فى الاحتفاظ بجيش نظامى قـوى تقوم الدولة بالإنفاق عليه كما نظم الأداة الحكومية وطهرها مما لحق بها من فسـاد أيام مبارك شاه الخلجى وقائده خسرو ، وحرص على إشاعة العـدل بيـن النـاس جميعا .

كذلك أنشأ غياث الدين نظاما محكما للبريد لم تعرف الهند له ضريبا من قبـل فى دقته وسرعته ، حتى بلغت العاصمة أخبار الرحالة العربى ابـن بطوطـة بعـد

---

(١) تاريخ فرشته أول ص ١٣٠ .

وصوله مصب السند بأيام خمسة قطع فيها البريديون ما يزيد على تسعمائة ميل ، هى المسافة بين المكانيين ، فى طريق آمن معبد . وقد أشاد هذا الرحالة بما كانت عليه الهند من تقدم ومدنية فى عهد هذا السلطان وخلفائه . وسنشير إلى ذلك كله فى موضعه بقدر من التفصيل .

وشجع تغلق الناس على تعمير الأرض وفلاحتها فأصلح من طرائق السرى ، وشق كثيرا من الترع والقنوات وخفض من خراج الأرض .

ولقى هذا السلطان حتفه فى ربيع الأول من عام ٧٢٥هـ/١٣٢٥م على أثر انهيار أحد قصوره به . وينسب بعض المؤرخين تدبير هذا الأمر لابنه وولى عهده فخر الدين جونه ألغ خان مع الشيخ نظام الدين أوليا الذى كان على خلاف كبير معه ، فى حين يقول آخرون بانقضاض صاعقة على البناء فهدمته .

وخلف الأمير فخر الدين أباه وتسمى بمحمد تغلق ، فاستهل حكمه يبذل المال والعطايا لرجاله ورعاياه فى سخاء بالغ ، حتى قيل إنه حين وفد العاصمة قادما من تغلق آباد كان ركابه جملة من الفيلة المحملة بالذهب والفضة راح فيالوها ينثرون أحمالها على الناس . وترامت أخبار هبات السلطان وكرمه إلى خارج حدود الهند فوفد إلى بلاطه جموع من أهل العراق وخراسان وفارس وبلاد ما وراء النهر طمعا فى نواله وعطائه .

وكان من بين الوافدين عليه كذلك طائفة من المشتغلين بالعلوم والفنون والآداب . ذلك أن محمد تغلق لم يكن من رعاة العلوم والفنون فحسب بل كان هو نفسه من بين طليعة المشتغلين بها والضليعين فيها فى عصره . فمنثوراته ومنظوماته الفارسية والعربية على السواء ، تشهد له بالذوق الأدبى الرفيع مع حسن السبك وجمال الصورة . هذا إلى جانب عنايته الفائقة بتجويد فن الخط والنقش ، وتمكنه المكين فى علوم الفلسفة والحكمة والمنطق حتى نبغ فى تشخيص الأمراض وقام على علاج الناس بنفسه . ولعل تعمقه فى دراساته وأبحاثه الطبية إنما كان استجابة وصدا لإنسانيته الرقيقة التى دفعته إلى إقامة الكثير من دور الشفاء وملاجئ العجزة وموالاة الإشراف عليها بنفسه .

وقد تحدث ابن بطوطة حديثا طويلا عن هذا السلطان فذكر له كثيرا من الفضل والعلم ، ولم ينكر ما عرف عنده من غرائب الأطوار الطباع التى كانت تدفعه فى بعض الأحيان إلى أن يأتى بأى شحاذ يصادفه على بابه فيرفعه بسخائه المذهل إلى مصاف الأثرياء المعدودين ، أو يسقط على أحد سراة قومه فيذيقه ألوان الفاقة والحرمان .

وقد عاش الرحالة العربى بالهند سنوات ثمانية ، فولى قضاء دهلى كما سفر لها بالصين ، وغادرها عام ٧٤٣هـ/١٣٤٢م بعد أن سجل فى مذكراته الكثير عن عادات المسلمين والهنادكة هناك فى دقة يؤيدها مؤرخوا الهند أنفسهم عن ذلك العصر(١) .

وعلى أى ، فقد كان هذا السلطان صاحب مثل فى تفكيره وخططه . ولو أن الظروف كانت قد واتته فى تحقيق مشروعاته العمرانية والاجتماعية التى رسمها لأفادت الهند منها خيرا كثيرا .

وتعرض محمد تغلق بدوره لخطر الغزو المغولى ولما تستقر بعد أمور الدولة عقب وفاة أبيه ، ذلك أن ترمشيرين خان بن داود خان زعيم قبائل الأولوس الجغتائيين ، كان ذا شهرة ذائعة بين المغول لعدله وشجاعته ، اقتحم حدود الهندستان عام ٧٢٧هـ/١٣٢٧م على راس جيش كبير بنية فتح هذه البلاد ، فاستولى على لمغان والملتان عند الحدود الشمالية الغربية ثم اتخذ طريقة إلى دهلى نفسها .

وبدا لمحمد تغلق أن يتجنب الالتحام بهذا العدو القوى ، فاحتال لذلك بأن بعث من فوره بوفد من رجاله حملوا معهم قدرا كبيرا من الأموال والهدايا إلى الزعيم المغولى ، وطفقوا يخطبون وده ويبالغون فى تملقه حتى ارتضى آخر الأمر الرجوع عن بلادهم ، فانسحب منها عبر السند والكجرات بعد أن انتهبها وأسر كثيرا من أهلها .

---

(١) رحلة ابن بطوطة طبع باريس ثالث ص ٢١١ – ٢١٧ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ .

وحين انجابت هذه المحنة، راح السلطان يدبر الأموال اللازمة لتحقيق مشروعاته الإصلاحية ، فتغالى فى فرض الضرائب بإقليم الدوآب ، أخصب مناطق الهند وأغناها ، حتى هجر الأرض أصحابها إلى الغابات فرارا مما ألزموا به من أموال عجزوا عن أدائها ،فعم الإقليم الخراب واجتاحته المجاعة . ويرد فريق من المؤرخين مسلك محمد تغلق هذا إلى ما عرف من ميل أعيان هذا الإقليم إلى الجنوح للثورات وإشاعة الاضطرابات على الدوام، حتى نهج علاء الدين الخلجي معهم مثل ذلك من قبل ، وإن كان احتباس الأمطار الموسمية عنهم في بعض السنوات قد زاد من خطورة الحال هناك .

وأعجب السلطان بموقع مدينة ديوكر الطبيعى الحصين، وكان قد سار إلى جوارها للقضاء على ثورة ابن أخيه بهاء الدين كشتاسب بالدكن ، فعزم على أن يتخذ منها حاضرة له ، أطلق عليها اسم دولت آباد فيما بعد ، ليبتعد بذلك عن مواطن الخطر المغولى من جهة ، ويتوسط ، من جهة أخرى ، دولته الواسعة التى كانت تمتد من الهملايا إلى جنوب الدكن ومن البنغال إلى أرض كابل .

ولو كانت خطة السلطان هذه قد اقتصرت على البدء بنقل دولاب الحكومة إلى العاصمة الجديدة ثم إجراء هجرة السكان إليها بالتدريج لهان الأمر وأمكن تحقيقه فى شئ من اليسر . لكنه شرع من فوره يشق الطرق من الشمال إلى الجنوب ، ثم زود سكان دهلى بالمؤن وأعد لهم وسائل النقل، وأمرهم جملة بالرحيل إلى العاصمة الجديدة مع متاعهم . ولقد كان من الطبيعى أن يعم السخط أولئك الذى أرغموا على ترك عاصمتهم ، التى عاشوا فيها أجيالا ، إلى بلد آخر لا يدرون من أمره شيئا ، هذا فضلا عما تعرضوا له من متاعب لا قبل لهم بها فى طريق يبلغ طوله سبعمائة ميل، فنزلت بهم الأمراض وفتكت بهم الأوبئة فتكا ذريعا حتى هلك منهم خلق كثير. وأما الذين كتبت لهم النجاة فبلغوا العاصمة الجديدة سالمين ، فقد انتباهم شعور من أرسل بهم إلى المنفى[1] .

---

(١) ابن بطوطة ثالث ص ٩٥ – ٩٧.

ويبالغ بعض المؤرخين فى وصف ما ارتكبه محمد تغلق من ضروب القهر لحمل الناس على الهجرة إلى حاضرته الجديدة ، فيرون أنه لم يتردد فى إعدام رجل مكفوف وآخر كسيح تخلفا بدهلى عن الركب . ولئن كان هذا السلطان قد حرص حرصاً بالغاً على تنفيذ مشاريعه الإصلاحية حتى استقدم إليه فى سبيل ذلك جملة من الخبراء وأجزل لهم العطاء فى كرم زائد آثار ثائرة من حوله ، هذا كما كان يقسو مع كل من كان يحاول معارضة خططه أو عرقلة تنفيذها . إلا أنه حين استبان له مدى الكارثة التى حلت بالناس فى هجرتهم هذه ، أباح لهم من فوره العودة إلى دهلى من جديد لمن يرغب فيها. ولم يكتف بذلك فحسب بل شرع يقيم لهم على مقربة منها مدينة جديدة هيأ لهم فيها كثيراً من أسباب الراحة والاستقرار. ذلك أن العاصمة القديمة التى كانت تضارع لوقتها القاهرة وبغداد كان الخراب قد دهمها بدورها على آثر هجرة أهلها منها .

واستبان لمحمد تغلق حاجته الشديدة لجيش كبير يستطيع به إقرار الأمن فى ربوع ملكه الواسع ، فتفتق ذهنه ، بسبيل تدبير الأموال لهذه القوات، عن خطة انتهى فشلها إلى تصدع كيان البلاد الاقتصادى تصدعاً شديداً . فقد أمر بضرب عملة نحاسية تقوم فى التعامل بين الناس مقام الذهب والفضة بضمان بيت المال ، فنتج عن ذلك أن انقلبت أغلب الدور الخاصة إلى مسابك لضرب هذه العملة الجديدة طلباً للثراء . وإن هى إلا فترة قصيرة حتى أخذ التجار المحليون يرفضون التعامل بها إلا على أساس قيمة معدنها ، فى حين طفق غرباء التجار لا يبيعون وارداتهم إلا بالذهب ،ويشترون صادراتهم بالنحاس .

وحين أدركت الحكومة مدى ما هم البلاد من الخراب من جراء ذلك فأعلنت رفع هذه العملة من الأسواق ورد قيمتها إلى أصحابها ذهبا وفضة ، أقبل الناس على بيت المال ومعهم ما كانوا قد زيفوه من الأكداس الطائلة النحاسية ، فاستنزفوا الكثير من أموال الدولة .

ولم يكن محمد تغلق على كل حال هو أول من لجأ إلى استعمال العملة المعدنية بضمان الذهب ، فقد كانت هذه الطريقة معروفة بفارس وكذلك بالصين

التى كانت تتداول العملة الورقية أيضا قبل أن يعرفها العالم بزمن طويل ، بضمان خاتم الإمبراطور . فما أعوز هذا السلطان إنما كان تمام الضبط والحيطة .

واستجاب محمد تغلق لتحريض المماليك المصريين له على غزو خراسان والعراقين . وشجعه على هذا الأمر ما كان من تحقيق أحد أحلامه الكبرى بالحصول على تأييد الخليفة العباسى بمصر له وخلعه عليه ، فأعد لهذا الغرض جيشا قوامه ثلاثمائة وسبعين ألفا من الجند ، ولكنه ما غدا أن سرحهم بعد أن ظل يؤدى لهم نفقاتهم من بيت المال عاما كاملا ، وذلك حين عدل المصريون عن ذلك إلى محالفة أبى سعيد ميرزا صاحب بلاد ما وراء النهر وإطلاقهم ليده فى بلاد الفرس والتركمان .

هذا كما بعث محمد تغلق كذلك بحملة قوية إلى ولايات الهملايا العليا فدهمتها الثلوج فقضت على أكثر أفرادها . وقد أدعى بعض المؤرخين بأن سلطان دهلى إنما سير هذه الحملة لغزو الصين طمعا فى كنوزها ، فى حين أنه لم يرم من ورائها فى الغالب إلا إلى نشر الإسلام فى هذه المناطق وتأمين الدروب إلى خراسان .

وانتهى ماجره فشل السلطان فى مشروعاته ، ومانتج عن ذلك من محن قاسية إلى أن اجتاحت البلاد موجة قوية من الاضطرابات والثورات التى زاد من حدتها جنوح حكومة دهلى إلى مصادرة الكثير من أموال الأعيان والتجار حين ألحت عليها الحاجة إليها .

وكان أول من رفع لواء العصيان فى وجه محمد تغلق هو الأمير جلال الدين إحسان الذى أعلن استقلاله بمبر فى الدكن فضرب السكة باسمه عام ٧٣٥هـ/١٣٣٥م . وبرغم ما كانت تعانيه دهلى من مجاعة قاسية فقد خرج السلطان نفسه لقمع هذه الفتنة ، لكنه لم يبلغ تلنجانا حتى أخذ وباء الهيضة (الكوليرا) يفتك بجنده فرجع عن خصمه .

وعمت الاضطرابات البنغال بدورها على نطاق واسع . ذلك أن قائدا هناك يدعى فخر الدين سقط عام ٧٣٧هـ على أميره قدرخان صاحب

لكنهاوتى فقتلــه وجلس مكانــه ، ثم ما لبث أن جهر مطمئناً باســتقلاله ، إذ كــان على علم تام بما يعــانيه سلطان دهلى من متاعب لا يستطيع معها أن يزحف إليه .

وارتدت الدكن إلى الثورة من جديد ، فطلب السلطان من قائده عيــن الملــك صاحب أوده وظفر آباد ن يتوجه بقواته إلى دولت آباد ويشرف منها علــى إقــرار الأمور هناك .

على أن هذا القائد الذى كان له وأخوته جهود كبيرة فى معاونة السلطان علــى تخفيف وطأة المجاعات والمحن التى اجتاحت البــلاد ، ترامــى إلــى خــاطره أن السلطان إنما يرى من وراء ندبه لهــذا الأمــر ، إلــى الاســتيلاء علــى أملاكــه وأراضيه فاعتصم وجنده بإقطاعه حتى أقبل عليه محمد تغلق بنفســه فباغتــه فــى مضاربه واسره ثم ألقى به فى الحبس ، وإن عفا عنه بعد قليــل لســابق خدماتــه وإخلاصه .

وبلغ السطلان من بعد ذلك خبر انقضاض بعض زعماء الزط علــى لاهــور وقتلهم لتاتار خان نائبه هناك ، فسير إليهم من فوره قائده خواجه جهان فأسر كثــيراً منهم وساقهم إلى العاصمة حيث أعلنوا إسلامهم بها .

والتفت محمد تغلق إلى الدكن من جديد بعد أن اقر الأمور فى الشمال ذلك أن استقلال الأمير جلال الدين إحسان شاه بإمارة مبر قد أغرى بعض الأمراء الآخرين على أن يحذوا حذوه . وكان من بين هؤلاء الأمير الهنوكى هارى هار الذى أســس هو وأخوه إمارة فيا يانكر فيما بعد . وما لبث هندوكيوا الجنوب بزعامـــة كرشــانا ياك أن شدوا من أزر هذه الإمارة التى اتسعت رقعتها وازدادت قوتها حتى قــامت على حماية الجنوب كله من أى غزو إسلامى يفد إليه من الشمال .

وسرت الاضطرابات بدورها إلى الكجرات وديوكر التى غدت تعرف بدولــت آباد ، فلم يكد السلطان يغادرها ، بعد أن خيل إليه استتباب الأمــور فيــها ، حتــى نهض عام ٧٤٨هـــم١٣٤٧م أمير أفغانى شاب يدعى حسن كانكوى فوضع يده على الإقليم كله . ويعرف هذا الأمير فى التاريخ باسم علاء الدين أبى المظفر صـــاحب سلطنة بهمنى الدكنية التى لعبت دوراً هاماً فى تاريخ المسلمين بشبه القارة الهندية .

ووافى محمد تغلق أجلـه عام ٧٥٢هـ/١٣٥١م إبان إحـدى حملاتـه فـى السـند وقـد انفـرط عقـد سلطنته ذات الولايـات الثـلاث والعشرين إلى عـدد من الإمارات القوية المستقلة ، فلم يبق تابعـاً لدهلـى مـن الولايـات الكبـيرة إلا الكجرات .

هذا وينسب بعض المؤرخين ما صادف هذا السطلان من الفشل فى مشـاريعه الكثيرة إلى سوء طالعه وما كان حوله من مستشارين تنقصهم الخبرة والإخـلاص . ويذكر ابن بطوطة لهذا الملك كثيراً من الفضائل ، كما يثنى المؤرخ ضيـاء الديـن باراني ، معاصره على تمسكه بأهداب السنة وحرصه على إقامة العدل بين النـاس . ويشير أغلب مؤرخى الهنادكة المحدثين إلى تسامحه حتى قرب إليـه كثـيراً مـن الهنادكة وولاهم عدة مناصب فى الدولة ، وينفون عنه ما أشيع مـن ميلـه لسـفك الدماء وتعطشه لارتكاب العنف والقسوة ، ويقولون بأن تشنيع بعـض المؤرخيـن عليه بهذه التهم لم يكن إلا لقتله بعض الدراويش والفقـهاء . ولعـل قيـاس هـذه الحوادث جميعاً على ضوء مجتمع القرون الوسطى وتقاليده قد يربأ بهذا السـلطان عن أن يحشر فى زمرة جلادى عصره(١) .

ولم يكن لمحمد تغلق ولد فعهد بالملك من بعده إلى ابن عمه فيروز تغلـق ، وكانت أمه السلطانة كدبانوا هندوكية الأصل ، فأبوها هورانا محل بـهاتى . وقـد قبلت هذه الأميرة الجميلة أن تتزوج من والد فيروز أخى غازى تغلق دفعاً للضـر عن أسرتها(٢) .

وعرف السلطان الجديد بميله إلى المسالمة وبعده عن إراقة الدماء مع شـغفه الشديد بمخالطة رجال الدين وأهل التصوف . بل لقد قيل إنه أبدى كثيراً من الـتردد

---

(1) Prasad, India, 227,8.

(٢) كان آل تغلق قد وفدوا إلى الهند قادمين من خراسان أيام علاء الدين الخلجـى حيـث ولـى غازى تغلق إمارة ديبالبو . هذا ويرد لين بول فى كتابه عن الهند فى العصر الوسيط – Lane poole. Medieval India pp.298. أسباب ضعف المسلمين إلى مصاهرتهم للهنادكة مع أن كثيرا من سلاطين المسلمين العظام بالهند كانت أمهاتهم من الهندوكيات .

فى قبول الحكم ، إذ كان يؤثر عليه الخروج إلى الأراضى المقدسة طلباً للحج والاعتكاف بها متعبداً إلى آخر عمره .

وأيا ما كان القول . فقد أدى قبول هذا الأمير لمنصبه إلى القضاء على النزاع الذى قام بين قادة الجيش حول ولاية العرش . هذا وكان خواجه جهان أحد الأمراء الكبار ، قد بادر بتنصيب طفل بدهلى نسبه إلى محمد تغلق ، لكنه ما إن علم بقدوم فيروز تغلق إلى العاصمة حتى سعى إليه معتذراً يطلب الصفح .

وهكذا جلس على عرش دهلى فى رجب من عام ٧٥٢/١٣٥م سلطان جديد اكتسب فى عهد سلفه دراية كبيرة بشئون الحكم وتمرس بأساليبه .

ونتج عن الاضطرابات التى شغلت بها الدولة عقب وفاة محمد تغلق أن انتهز حاجى إلياس هذه الفرصة فأعلن استقلاله بالبنغال ولقب نفسه بالسلطان شمس الدين ، ثم ما برح ينشر قواته فى إقليم بهار حتى بلغت بنارس .

هنالك عزم فيروز على الخروج لرد هذا المغتصب عما استولى عليه من أرضين ، فسبق حملته بمنشور ، أذاعه فى أهل النبغال وما حولها ، أعلن فيه أنه إنما يتولى السلطنة بتفويض من الخليفة العباسى أمير المؤمنين، فمن خرج عليه فقد خرج بالتالى على إجماع أهل السنة . كذلك دعا الأهلين إلى الانضمام إلى صفوفه والخروج على عدوه واعداً إياهم بإعفائهم ، مسلمين وهنادكة ، من دفع الضرائب عاماً بأكمله مع بذل الأمان لهم .

وأفلح سلطان دهلى الجديد آخر الأمر فى أن يستدرج خصمه من حصن إكداله الذى كان يعتصم فيه إلى ضفاف الكنج حيث نشب بين الفريقين قتال عنيف دارت فيه الدائرة على الثوار فارتدا ثانية إلى حصونهم .

ووجدت ضراعة النساء فى حصون العدو طريقها إلى قلب السلطان ، فاعرض عن نصح رجاله بالتوغل فى البنغال محتجاً ببدء الأمطار الموسمية، وآب إلى عاصمته قانعاً بالصلح مع خصمه .

وبعثت الآمال فى النفوس من جديد لاسترداد النبغال حين استنجد الأمير ظفرخان بالسلطان من عسف ختنه شمس الدين فخرج فيروز شاه عام

٧٦٠هـ/١٣٥٩م كرة أخرى إلى هذه الإمارة ليجد أميرها الجديد إسكندر شاه يحذو حذو أبيه فى الاعتصام بإكدله ثم يبعث إليه بالهدايا الكثيرة مشفوعة بتوسلاته التى رق لها قلب السلطان المسالم مرة أخرى . فرجع عن البنغال للمرة الثانية مكتفيا باصطحاب الأمير ظفر خان معه ، وقد كان فى مقدوره ضمها إلى ملكه فى غير عناء كبير .

ونزل فيروز شاه عند أوبته من النبغال بمدينة جونبور التى كان قد أمر بتشييدها تذكارا لابن عمه فخر الدين جونه(1) ، ومن ثم أتجه إلى إقليم ججنكر (أوريسه الحالية) الذى يشتهر بخصبة ووفرة الأرزاق فيه من الحبوب والفاكهة والماشية ، فانطلق جنده ينهبونه ويحطمون معابده حتى أقبل أميره الهندوكى راجا أديساران آخر الأمر يعلن ولاءه للسلطان على جزية كبيرة . وما لبث أن حذا حذوه جملة من الأمراء الهنادكة المتاخمين لحدوده .

كذلك وفق سلطان دهلى فى العام التالى فى إخضاع حصن نكركت ، وكان صاحبه قد جنح أواخر أيام محمد تغلق إلى خلع نيردلهى عن كاهله . وصار هذا الحصن يعرف فيما بعد باسم محمد آباد تخليدا لذكرى السلطان الراحل .

ولعل أكبر حملة خرج فيها السلطان فيروز هى تلك التى قصد بها إلى إخضاع الهنادكة من الزط وغيرهم ، وكانوا قد جنحوا بدورهم عندئذ بمصب السند إلى العصيان أواخر عهد محمد تغلق . ونجم عن سد الأمطار الغزيرة للطرق وإتلافها ، شح الأقوات بين القوات حتى اضطر فيروز إلى الارتداد بجنده إلى الكجرات . على أن قائده ووزيره خان جهان مقبول ، وكان من مسلمى الهنادكة ، ما لبث ، مع إمدادات وفدت إليه من الدوآب وبهار ، أن خاض مع الثوار معركة حاسمة انتهت بأسر زعيمهم جام بابينيا ، ليعفو السلطان آخر الأمر عنه ويجرى عليه معاشا مجزيا بدهلى ، ويقيم أخاه مكانه .

---

(١) وهو السلطان محمد تغلق سالف الذكر .

وأدى إهمال السلطان لشأن الدكن أن أمكن لإمـــارتى بـــهمنى وفيايـــانكر أن يرسخا إقدامهما ويوسعا من رقعتيهما هناك على حساب سلطنة دهلى التى انحسـوت حدودها الجنوبية إلى الشمال من تلال الوندهايا .

ولئن أدى ميل فيروز تغلق للسلم وتجنب الحروب إلى ضياع مساحات واسعة من أراضيه ، إلا أنه هيئ له على كل حال الفرصة للانصراف إلى شـــئون الدولـــة الداخلية والتفرغ لرسم خطط الإصلاح والتنظيم التى أتاحت للأهلين قدرا من الحيـــاة الطيبة المستقرة . وقد طفق كبار سلاطين الهند المصلحين يترسمون منـــاهج هـــذا السلطان الإنشائية ونظمه من بعده قرونا عدة ، وكان من بين هـــــؤلاء الســـلطان أكبر المغولى أعظـــم حكام العـــالم فى عصره على الإطلاق .

ذلك أن هذا الحاكم المصلح قسم أراضى الدولة إلى إمارات عهد بإدارتها إلـــى جملة من الرجال الأكفاء كما عنى بأمر الزراعة فعمل على اســـتصلاح مســـاحات واسعة من الأراضى البور ، وأحكم نظام الرى ، وجد فى حفر الآبـــــار والقنـــوات حتى توافرت الأرزاق وعم الرخاء كاد الناس معها أن ينســـوا قســـوة المجاعـــات الجارفة التى ألمت بهم من قبل .

كذلك التفت فيروز تغلق إلى الضرائب فأحكم نظامها ، ورفع الكثير منها عـــن كاهل الأهلين ، وأمر ألا تعدو جبايتها حدود الشرع ، وراقب ذلك كله بنفســـه فـــى حزم وشدة .

أما غنائم الحرب فقد خص بيت المال بنصيبه الشرعى منها وأطلـــق البـــاقى لرجاله وفقراء شعبه .

وأدى تمسك السلطان بقواعد الشرع إلى توفير العدالة لرعاياه وإبطال الكثـــير من العقوبات والعادات غير الإنسانية التى كان يمارسها الهنادكة على الخصــــوص ومنها عادة الساتى حيث تقبل الأيم التى ليس لها ولد على حرق نفسها مـــع جثمـــان زوجها .

ولم تقف جهود فيروز تغلق عند هذا الحد حيث شاع اليسر والرخاء والعـــدل بين أوساط الناس وعامتهم خاصة ، حتى ذهب فى سبيل إصلاحـــه الاجتمـــاعى ،

يأمر بإحصاء العاطلين فى بلاده وحصرهم ، فمن كان منهم يجيد القراءة والكتابة ألحقه بخدمة الديوان ، ومن كان منهم على دراية بحرفة أو صنعة هيأ له ما يناسبه منها سواء بمنشآت الدولة أو بغيرها من المنشآت الأهلية ، ومن بقى منهم من بعد ذلك ألحقه بخدمة الأمراء ورجال الدولة .

وإلى جانب ذلك كله أنشأ السلطان ديوانا يعرف بديوان الخيران ليعين بماله على تزويج الفتيات الفقيرات ، ويرعى المرضى والضعفاء والشيوخ بما يجريه عليهم من أموال وما يقيمه لهم من دور للشفاء ورباطات .

وبلغت دور الشفاء عند فيروز تغلق المائة ، وكان الدواء والغذاء يقدمان فيها للناس بالمجان . وإلى جانبها أقيم دور للعلم عديدة كان من بينها ثلاثون مدرسة جامعة لدراسة العلوم الشرعية والنقلية على السواء .

وأدى شغف هذا السلطان بالعلم إلى قدوم طائفة من علماء المسلمين بلاده ليضطلعوا بالتدريس فى مدارسه . وقد دون هذا السلطان سيرته بنفسه فى كتابه المعروف « فتوحات فيروز شاهى » .

وعمل فيروز كذلك على إحياء الدراسات الهندية القديمة ، وحض البراهمة على حل نقوش أعمدة آزوكا القديمة ، وكان قد استخدم جملة منها فى منشآته . كما أمر بترجمة جملة من أمهات الكتب السنسكريتية ، التى وقعت بأيديه فى حصن نكركت ، إلى الفارسية[1] .

ومنشآت هذا السلطان التى بلغت التسعمائة ما بين مدارس ومساجد ودور للشفاء ورباطات وقصور وحمامات ، وإلى جانبها مدن ثلاث كبيرة بالقرب من دهلى ، وهى فيروز آباد وفتح آباد وجونبور ، عدا الحدائق الكثيرة التى بلغت الألف عدا ، استلزمت هذه كلها استخدام عدد كبير من الأيدى العاملة مما ساعد على تخفيف أزمة البطالة بين العمال[2] .

---

(1) Prasad, India pp.266,67,91,2.

(٢) تاريخ فرشته من ١٥٠ .

وركبت العلل السطلان الشيخ على كر السنين وتوالى الحدثان ، فما غـــدا أن أطلق يد وزيره خان جهان ظفر خان فى تصريف شئون الدولة .

وتراءى لهذا الوزير ، فى سبيل تثبيت سلطانه المطلق ، أن يزيح من طريقـــه ولى العد الأمير محمد فاتهمه عند أبيه بتآمره على العرش هو وجملة من الأمـــراء الذين عرفوا بكراهية فيروز تغلق لهم .

على أن الأمير حين وقف على ما كان يبيت له طفق يصطنع الحيلة حتى لقى أباه ، فمازال به حتى أقنعه بخبث طوية وزيره فعزله وولاه مكانه.

وحين أطمأن محمد إلى إمساكه بزمام الدولة كلها حتى دعى له فى الخطبـــة مع أبيه ، انصرف إلى مآربه الخاصة ومتعه لا يلقى بإلا إلى مشورة رجال البـــلاط وكبار الأمراء الذين حدا بهم حرصهم على سلامه الدولة إلى الالتفاف حول ابنـــى أخى السطلان الأمير بن بهاء الدين وكمال .

وأدى هذا الانقسام آخر الأمر إلى الصدام الحربى بين الفريقيـــن ، فشـــهدت شوارع دهلى التحامات بشعة سقط فيها الكثير من رجال الفريقين . ولم يوقف ســير هذه المجازر العنيفة إلا ظهور السلطان الشيخ على محفته فى الميدان ، فإذا الجنـــد تبادر إلى الالتفاف حوله والانضمام إلى صفوفه مكبرة مهللة ، فى حين بادر الأمـير محمد إلى الهرب فتحصن فى تلال سرور .

وعهد فيروز بالملك على أثر هذه الفتنة إلى حفيده غياث الدين ابن فتح خـــان. وإن هو إلا زمن يسير حتى قضى الســـلطان الشـيخ فـــى رمضـــان مـــن عـــام ٧٩٠هـ/١٣٨٨م وكان قد جاوز التسعين من عمره .

وبعث السلطان الشاب فور ارتقائه العرش برجاله يطاردون الأمـــير محمـــد الذى استطاع آخـــر الأمر التحصن فى قلعـــــة نكركـــت التـــى امتنعـــت علـــى المهاجمين.

وما غـــدا غيـــاث الدين تغلق الثـــانى هـــذا أن غلبتـــه فتنة الشـــباب علـــى أمره فانصرف عن شـــئون الدولـــة إلى متعـــــه الخاصـــة وملاهيـــة . حتـــى إذا

ماركب الشطط فى معاملة ذوى قرباه من الأمراء ورجال الدولة فسلك معهم سبيل العنف ، اجتمع عليه ابن عمه أبو بكر ونفر من أفراد أسرته فأطبقوا عليه فى قصره .

ولئن أفلح الأمير فى الخروج من باب جمنه ووزيره سالمين ، إلا أن الثوار سرعان ما لحقوا بهما عند النهر فقتلوهما لوقتهما ، ولم يكن قد مضى على السلطان الجديد فى الحكم إلا شهور خمسة وبضعة أيام .

ولم ترض عصبة الأمير محمد بن فيروز عن جلوس الأمير أبى بكر على العرش فتربصوا لوزيره شاه خو شدل عند سمانه وهو فى طريقه لقتال زعيمهم فقتلوه وبعثوا برأسه إلى أميرهم فى حصنه وحرضوه على القدوم إليهم والدفاع عن حقوقه الشرعية فى الحكم .

وبرغم ما جمعه الأمير محمد من قوات الدوآب فقد توالت هزائمه أمام ابن عمه بظاهر دهل . حتى إذا ما ضاق الناس فى العاصمة ذرعا بشدة وطأة أبى بكر عليهم وعنفه معهم ؛ - بعثوا يحرضون ابن عمه على الزحف إليهم من جديد ، فلم يملك أميرهم إلا الهرب وفئة من أنصاره إلى بهادر نهير صاحب موات لاجئين .

وما إن جلس السلطان الجديد ناصر الدين محمد تغلق الثانى على عرش دهلى فى رمضان من عام ٧٩٣هـ/١٣٩١م حتى عهد بالوزارة إلى إسلام خان ، ثم أمره وولى عهده همايون بالخروج فى طلب أبى بكر ، فمازالا به حتى اوقعاه ومضيفه فى الأسر ، ليعفو السلطان من بعد ذلك عن صاحب موات ويلقى بابن عمه فى الحبس فيقضى بعد قليل .

كذلك أنفذ ناصر الدين إلى الكجرات قائده ظفرخان ، وهو الذى استقل بها فى أوائل القرن التاسع الهجرى وأسس بها أسرة مالكة . وحذا حذوه فيما بعد أمراء مالوه وخاندش فلم تسترد دهلى نفوذها هناك إلا أيام الدولة المغولية .

وأفلح إسلام خان فى القضاء على ثورات بعض الأمراء الراجبوتيين فى الدوآب ، فى حين سار السلطان بنفسه إلى إتاوة فهدم حصونها . وكان الثوار يتعرضون منها لقوافل الحجاج والمسافرين .

وفيما كان محمد تغلق الثانى فى طريقه إلى العاصمة بلغه تآمر إسلام خـــان للاستحواذ على لاهور والملتان لنفسه حتى راح ، فى سبيل تحقيق مآربـــه هــذا ، يهيئ لقيام الاضطرابات بها ، فساقه حال وصوله إلى حتفه .

وخـــرج السـلطان عــام ٧٩٥هــ/١٣٩٣م بنفســه إلى مــوات ، برغـــم مرضه للحد من طغيان صاحبها بهادر نهير الذى غــره عفو صاحب دهلـــى عنـــه فأقـــدم على انتهـــاب ما حول العاصمة من أماكن ، فهزمه وأرغمه على الفرار .

وما إن بلغ السلطان حصن محمد آباد بظاهر دهلى حتى أودت به العلة ولـــم يجلس ابنه همايون الملقب بسكندر إلا أياما قليلة على عرش دهلى حتى فارق الدنيـــا بدوره .

ورقى العرش من بعده أخوه ناصر الدين محمود فخلع على وزيره خواجــــه جهان لقب وكيل السلطنة فى حين ولى سارنك خان إقليم ديبالبور .

وأدى تنافس أمراء ورجال الدولة فيما بنيهم على مظاهر النفـــوذ وانقســـامهم شيعا وأحزابا ، مع ضعف السلطان ، إلى أن جنح كثيرون مــــن حكـــام الولايـــات وأمراء الهنادكة إلى نبذ سيادة دهلى والاستقلال بما بأيديهم من إمارات وحصون بل إن الوزير خواجه جهان نفسه أعلن استقلاله بجونبور وأسس فيها أسرة حاكمة هـــى التى تعرف فى التاريخ باسم أسرة ملوك الشرق (شاه شرقى) . وقد امتد نفوذهـــا فى أوقات كثيرة إلى البنغال جارتها الشرقية . هذا فى حين لم يكتف سارنك خـــان باستقلاله بديبالبور حتى سقط على الملتان فهزم الكهكر ودخل لاهور .

ولم يقف الحال بالدولة عند هذا القدر من التفكك . فقد خرج الســـلطان عـــام ٧٩٦هــ/١٣٩٤م إلى بيانه وكواليار وفى صحبته جملة من الأمراء وفيهم ســـادات خان ، فما إن أحس هذا الأخير بتآمر بعض زملائه عليه حتى سقط علـــى بعـــض منهم فقتلهم ، ثم قفل راجعا إلى العاصمة ليجد مقرب خان نائب السلطان قد ســـبقه إليها فقفل أبوابها فى وجهه .

هنالك بعث هذا الأمير الثائر يستدعى أحد أحفاد فيروز شاه ، فنادى به بمدينة فيروز آباد سلطانا على الهند باسم نصرت شاه . ولئن كان سادات خان قد لاقى حتفه بعد قليل على أيدى أعدائه إلا أن صنيعه هذا قد أدى إلى قيام شيعة قوية ، التفت حول السلطان الجديد ، تناهض حزب صاحب دهلى وصارهم كل فريق منهم القضاء على غريمه دون أدنى التفات إلى مصالح البلاد أو إشفاق عليها حذر الهاوية التى كانت تتردى فيها . فها قد أقبل تاتار خان ابن ظفر خان صاحب الكجرات ومعه قتلغ خان بجنودهما لشد أزر نصرت خان ، فى حين قدم راجاموات ومعه ملو إقبال خان أخى سارنك خان صاحب ديباليور والملتان فنزلا بقواتهما بظاهر المدينة متربصين بالفريقين اللذين ظلا يقتتلان طوال أعوام ثلاثة هلك فيها خلق كثير حتى كان يجاوز عدد القتلى بضعة آلاف فى اليوم الواحد .

وجاءت الأنباء فى هذه الأثناء بعبور بير محمد جهانكير ، حفيد تيمور السند فى مستهل عام ٧٩٩هـ/١٣٩٧م واستيلائه على حصن أوكا وتوغله فى الملتان ؛ والأحزاب المتقاتلة سادرة فى غيها .

فهذا إقبال خان يبادر بالانضمام إلى نصرت خان الذى ما يلبث بعد قليل أن يقف على ما يدبر له من كيد فيتركه إلى بانى بت ؛ فى حين ما يزال السلطان محمود يتحصن مع مقرب خان وبهادر نهير بدهلى القديمة .

وتمكن إقبال خان آخر الأمر من أن يقضى على مقرب خان ، وبهذا غدا السلطان محمود فى قبضته يوجهه كيف يشاء .

ولئن كانت الفتنة قد تكسرت حدتها وطفق إقبال خان يبذل الجهود لتنظيم شئون الدولة وأمورها من جديد ، فإن الأوان كان قد فاته على كل حال . ذلك أن تيمور كان قد أقبل بنفسه على الهندستان فما برح يسوى حصونها بالأرض ويحرق مدنها ويهلك الجموع الغفيرة من أهلها حتى بلغ دهلى التى استعصت من قبل على المغول وغيرهم من الغزاة قرونا أربعة([1]) .

---

(1) Lane. Poole India , p. 159.

الغزو التيمورى وآثاره :

تروى « ملفوظات تيمور »(1) أن هذا المحارب الجبار حين حدثته نفسه بالخروج للغزو والجهاد استشار رجاله إلى أى البلدين يخرج ، الصين أو الهند . فبينوا له أن من يقصد الهند عليه أن يواجه عقبات أربعا كبيرة إن اجتازها وتغلب عليها دانت له هذه البلاد بكنوزها وثرواتها التى يخطؤها الحصر ولا يحصيها العد . أما أولى هذه العقبات فنهر السند بفروعه الخمسة التى لا يتسنى اجتيازها إلا بالسفن والجسور ، والثانية آجام الهند وغاباتها كثيفة الأشجار متشابكة الأغصان وعرة المسالك ، والثالثة أمراء هذه البلاد من مسلمين وهنادكة وكلهم على دراية تامة بدروب السير فى هذه الآجام والعيش فيها ، والرابعة فيول الحرب المدربة التى يستخدمها أهل هذه البلاد فى مهارة فائقة ، حتى لتنتشر مسرعة خفيفة فى حومة الوغى فتطوى الفارس وفرسه بخرطومها ثم ترفعها فى الهواء وما تلبث تضرب بهما الأرض حتى يقضيا نحبهما . وهذا هو السلطان محمود الغزنوى ، وكان فى قلة من الجند لا تصل إلى ما فى ركاب تيمور ، قد تغلب على ذلك كله من قبل وآب من هناك بأكداس طائلة من الذهب والفضة والجواهر .

وانبرى من بين الحاضرين شاه رخ ، أحد أبناء تيمور ، يحرض أباه بدوره على فتح هذه البلاد حتى يصير سيد الأقاليم السبعة بلا منازع ، فقال له : « إذا كان صاحب الروم يكنى بالقيصر وسلطان التتر بالخاقان وإمبراطور الصين بالفغفور ، وملك إيران وطوران بالشاهنشاه ، أى ملك الملوك ، وذلك لخضوع أمراء الهند وراجواتها له ، وقد صرت ، والمنة لله شاهنشاها على إيران وطوران فمن المؤسف ألا تمد سلطانك إلى الهندستان » .

هذا وقد نبه تيمور رجاله بأن عليه عند فتح هذه البلاد ألا يطيل وجنده الإقامة بها . ذلك أن البيئة الهندية من شأنها أن تبعث الخور والضعف فى النفوس،

---

(1) وتعرف أيضا باسم توزك تيمورى ، وهى سيرته التى أملاها بنفسه (وهى بالجغتائية) انظر من ٣٩٤ – ٩٦ من الترجمة الإنجليزية لها فى Elliot and Dowson, History of India. London 1871. Vol.3

فتفترهمم الجند علي ممر الزمن ويفقدوا بالتدريج صفـات الشـجاعة ومسـتلزمات البطولة .

وفيما كان تيمور يعد العـدة لغزو الهندستان وافاه بريد حفيـده بـير محمـد جهـا نكير ينبئه فيه بأنـه ، بعـد أن دانت لـه بلاد كابل وغزنـة ومـا حولـها استطلع أحوال الهندستان فوجدها بعد وفاة فيروز شاه قد استبد بالأمر فيها اثنان مـن أمراءها أخوان ، فأقـام أكبرهم ، ويدعى ملو إقبال خـان ، بدهلى إلـى جـانب سلطـانها محمود ، في حين استقر الثـانى ، وهو سارنك خان ، بالملتان(١) .

وتقـدمت طلائع تيمور وعليهـا حفيده هذا فعبرت السند فى مسـتهل عـام ٧٩٩هـ/١٣٩٧م واستولت على حصن أوكا ثم اتجهت إلى الملتان كما ذكرنا مـن قبل .

وحاول سارنك خان أن ينقذ هذه المدينة ، لكن القائد التركى(٢) فاجـأ قـوات هذا الأمير الكثيرة وهى تعبر السند فضاع أغلبها . وكان من غرق من رجالها أكـثر ممن سقط تحت ضربات السيوف .

وسقطت المدينة نفسها بأيدى جهانكير بعد حصار دام ستة أشـهر اسـتطاع سارنك خان إبانه أن ينجو بنفسه منه .

وأقبل تيمور لذلك بنفسه على الهندستان فعبر السند بقواته فى المحرم من عـام ٨٠١هـ/١٣٩٧م فالتقى بقوات شهاب الدين مبارك ، أمير بهيت وكان قد خضـع أول الأمر لبير محمد ثم انقض عليه . وقضى تيمور على أول قـوات اعـترضت سبيله ليعبر جيناب ، رافد السند الكبير ، من بعد ذلك إلى حصن تولمبه عند ملتقـى هذا الرافد بأخيه راوى حيث انتشر جنده ينتهبون ما حوله من أرضين طلبا للمـؤن ،

---

(١) يوحى هـذا الحديث كله بأن تيمور لم يكن يقبل على غـزو بلـد ما قبـل الوقـوف علـى أحواله .

(٢) تيمور وأولاده هم من عروق الترك لا المغول وسنبين ذلك تفصيلا فى القسم الثانى من هـذا الكتاب فى حديثنا عن الدولة المغولية إن شاء الله .

ويجمعون الأموال التى لم يعف من أدائها إلا العلماء والشيوخ : ولم يبرح الغزاة المكان إلا بعد أن أعملوا سيوفهم فى حماة هذا الحصن وكانوا يزيدون على الألفين من الكهكر .

وبلغ تيمور من بعد ذلك ديبالبور ، وكان أهلها قد فتكوا بمظفر كابلى نائب جهانكير عليها ، فوجد أكثرهم قد نزحوا عنها فرقا فاعتصموا بحصن بهتنير القوى المنيع . على أن دفاع راى دل جند ورجاله الأشداء عن هذه القلعة لم يغنهم فتيلا أمام بأس الغزاة الذين اقتحموها عليهم فاعملوا سيوفهم بمن كان فيها من هنادكة ومسلمين ثم سووا البناء بالأرض . وأعجب تيمور ببسالة الأمير الهندوكى وشدة مراسه فى القتال فعفا عنه وخلع عليه .

وانطلق الغزاة من بعد ذلك إلى سرسوتى فلم يمنعهم استسلام أهلها لهم بعد مقاومة قصيرة – وكان أغلبهم من الهنادكة – من أن يعملوا سيوفهم فيهم، فلم ينج منهم من القتل إلا من نطق بكلمة الإخلاص طلبا للخلاص .

ونزل تيمور من بعد ذلك بمدينة فتح آباد لينفذ منها فريقا من جنده ليتعقب – فى مناطق التلال والغابات القريبة – قبائل الزط التى دأبت على قطع الطريق على المسافرين والتجار والحجاج وإلحاق الأذى بهم .

ووافى الغازى التركى عند كهيتل ، على مقربة من سمانه ، جيوشه التى كانت تنتشر فى الملتان ولاهور فانضمت إلى قواته فأخذ يعد العدة بها جميعا لاقتحام دهلى .

وسارت جموع الغزاة إلى حاضرة الهند فإذا بالبلدان والقرى على طول الطريق قد هجرها أغلب أهلها هربا من وجه الغزاة ، فلم يتركوا بها من الأرزاق والمتاع ما قد يجد العدو فيه نفعا له أو مددا .

وبلغ تيمور بانى بت فنزل فى جهانمه ، إحدى منشآت فيروز تغلق الفخمة ، لينتقل منها بعد قليل ، عبر جمنه ، إلى الدوآب فيستقر بقلعة لونى بعد أن أفنى حاميتها على بكرة أبيها . وقد توفر له فى مقامه الجديد هذا تموين قواته بما تحتاجه من مؤن وأرزاق .

وندب تيمور من فوره ، قائديه سليمان خان وجهان خان لاستكشاف الأرض عند مشارف دهلى الجنوبية والجنوبية الشرقية ، فى حين عبر هو النهر فى نفس اليوم فى سبعمائة فارس ليدرس موقع المدينة عامة .

هنالك أراد سلطان دهلى ومعه وزيره ملو إقبال أن يباغتا عدوهما وهو فى قلة من جنده فسيروا إليه خمسة آلاف من الفرسان ومعهم سبعة وعشرون من الفيلة لكنهم باءوا بالفشل وقتل قائدهم محمود سيف .

وآب تيمور إلى معسكره ليأمر قواته بالتحرك فى الصباح التالى صوب الشرق من مواقفهم . حتى إذا ما أنهى إليه بعض رجاله بشيوع الفرح والسرور بين الأسرى فى معسكره حين علموا بمباغتة قوات دهلى له فى حملته الاستكشافية – خشى أن يركنوا ، والمعركة دائرة ، إلى تهديد مؤخرته وتخريب معسكره ، فأمر من فوره بقتل كل من كان منهم فوق الخامسة عشرة ، وتوعد كل من قد يتوانى من رجاله فى تنفيذ ذلك بضرب عنقه ؛ فكان من بين مرافقيه من العلماء من اضطر إلى ارتكاب إثم القتل لأول مرة فى حياته إبقاء على نفسه . وناف عدد من سقط من الأسرى فى هذا اليوم على المائة ألف(1) .

وعبرت القوات الغازية النهر فى مستهل جمادى الأولى من عام ٨٠١هـ ، وكان تيمور على قلب الجيش ، فى حين قاد الجناح الأيمن بير محمد جهانكير ويادكر برلاس ، وقاد الجناح الأيسر سلطان حسين والأمير خليل وجهان شاه .

وبرز محمود تغلق سلطان دهلى ومعه وزيره إقبال خان على رأس عشرة آلاف من الفرسان وأربعين ألفا من المشاة ومعهم مائة وخمسة وعشرون من فيول الحرب المدربة . على أن بعض قوات تيمور سرعان ما أفلحت فى التسرب خلف مقدمة عدوهم مباغته ، فقتلت منهم ستمائة فى هجمة واحدة ، فى حين نجح بير محمد فى تشتيت شمال جناح جيش دهلى المواجه له حتى اضطر رجاله إلى الفرار من الميدان .

---

(1) ملفوظات تيمور ص ٤٣٦ .

ويرغم ما نزل بجند دهلى من ضربات شديدة ، فقد استمات السلطان ووزيره في القتال بشجاعة واستبسال فاندفعا يهاجمان بقواتهما قلب الجيش الغازى فى بأس شديد . حتى إذا ما تصدعت الصفوف أمام شدة وطأة العدو، انسحبا من الميدان عجلين فنزلاً بحصن جهانباه ، ثم ما لبثا أن غادراه فى اليوم التالى إلى منطقة الجبال ، فلم تصل إليهما أيدى المطاردين . وأستقر المقام آخر الأمر بالوزير فى بيرن فى حين سار السلطان إلى الكجرات .

وفى الثامن من جمادى الآخر كانت بنود تيمور ترفرف بأعلى أسوار دهلى وقد وقف العلماء والأعيان تحتها فى انتظار قدوم الخاقان الفاتح ليقدموا له فروض الولاء ويسألوه العفو والأمان .

ودخل تيمور المدينة بعد أن تم له انتهاب مضارب أعدائه فأجريت الخطبة له ودعى له على المنابر([1]) .

ولم يكن ما أنزله تيمور باعدائه من خسائر فادحة فى ساحة الوغى ليقاس بما ارتكبه رجاله فى دهلى – ولما يمض عليهم أيام قلائل بها – من مذابح رهيبة ونهب وسلب ندر وقوع مثله فى التاريخ .

ومجمل الأمر كما يذكره تيمور نفسه فى سيرته ، هو أن فريقا من جنده الأتراك كان قد نزل المدينة قصد الترفيه ، فما غدا أن استهوت رجاله معروضات التجار فراحوا ينتهبونها . وما لبث الجند الذين بعث بهم تيمور لكف أيدى هؤلاء الناهبين أن انضموا بدورهم إليهم ، هذا فى الوقت الذى انطلق فيه جند آخرون من الغزاة يجمعون ما فرض على أهل المدينة من غرم مالى ، فى حين كانت هناك فرقة رابعة تجمع التموين للجيش من زيت وحب وسكر ودقيق . وفيما كانت المدينة تغص بهؤلاء جميعاً ، بلغ تيمور تحصن التجار والأعيان فى دورهم وامتناعهم عن دفع ما فرض عليهم من غرم ، كما بلغه أيضاً نزول جمع كبير من الهنادكة المدينة ومعهم أسراتهم وبضائعهم وأحمالهم قادمين من المناطق المجاورة ، فأنفذ قوة أخرى من الجند لتأتيه بهم جميعاً من فورهم .

---

(١) ظفر نامه لشرف الدين يزدى طبع كلكتا ١٨٨٥ – ١٨٨٧ مجلد ٢ ص ١١٥ وما بعدها .

هكذا غدت العاصمة تغص بما لا يقل عن خمسة عشر ألف جندى كان أغلبهم من المشاغبين باعتراف تيمور نفسه ، فاتخذوا من مقاومة الأهلين لهم ذريعة للفتك بهم ونهب أموالهم ومتاعهم .

وإذا رأى الهنادكة أموالهم تنتهب ونساءهم تسبى ، بادروا بإغلاق أبواب المدينة ونبحوا نساءهم وأطفالهم بأيديهم ، ثم برزوا مع الأهلين لقتال جندتيمور الذين توالت عليهم الإمدادات بدورهم « فجرت فى المدنية مذبحة شنيعة مدمرة بلغ من هولها أن سدت جثث القتلى لكثرتها المسالك والطرق . ولم يمنع استسلام أهلين الغزاة من متابعة التقتيل فى قسوة بالغة . حتى إذا ماكلت سيوفهم ، سلكوا فى أسرهم من كتبت لهم الحياة من السكان ، فكان من الجند من ضمت قيوده الخمسين منهم ، ولم يكن فيهم من قل أسراه عن العشرين فضلاً عما حملوه معهم من الذهب والفضة وكل ثمين وغال من المتاع . ويقدر المؤرخون عدد ضحاياهم من القتلى بهذه المدينة وحدها بما يزيد على المائة ألف .

ويحاول تيمور فى سيرته أن يبرئ نفسه من إثم هذه المجاوز البشعة فيعتذر برد الأمر كله إلى المقدور وفق المشيئة الإلهية . وإذا كان هو حقاً جاداً فى أسفه على فعله جنده هذه ، فما باله إذن لم يأمر بإطلاق سراح الأسرى على الأقل وردهم إلى دورهم تكفيراً له ضعيفاً عما ارتكبه رجاله من إثم وأى إثم ذلك أنه حين دخل المدينة من بعد ذلك فأتى له بكنوزها وغنائمها ، أمر بأصحاب المهن والحرف من بين الأسرى فخص بهم عماله وأمراءه ، بعد أن احتجز لنفسه منهم البنائين ورجال المعمار وفيهم أولئك الذين أقاموا لفيروز تغلق مسجده الذى سجل سيرته على جدرانه . وهؤلاء أنفسهم هم الذين بنوا من بعد ذلك للخاقان التركى مسجده الكبير بسمرقند على نمط مسجد فيروز ، كما صوروا مشاهد وقائعه الهندية كذلك عل جدران قصوره ، إلى جانب منشآت أخرى كثيرة أقاموها له[1] .

---

(١) بابرنامه نشر السيدة بفريدج ، ليدن ١٩٠٥ . ورقة ٤٤ .

وأزمع تيمور لتك الإياب إلى بلاده ، فغادر دهلى غاية جمادى الآخرة بعد أن قضى بها خمسة عشر يوماً ، فما إن بلغ فيروز آباد حتى أقبل عليه بهادر نهير صاحب موات ومعه خضر خان مستسلمين .

وسار تيمور من بعد ذلك إلى يانى بت فبعث منها بعشرة آلاف من رجاله إلى حصن ميرات (ميروت) لكن حسن دفاع أصحابه عنه ، وكان فيهم الياس أفغان وابنه مولانا أحمد تنيسرى ، منعه عليهم ، حتى خرج إليه الخاقان بنفسه فاقتحمه على حماته وانتهب أموالهم ، ثم أمر بالبناء كعادته فسوى بالأرض ومن ثم صعد المنتصرون فى تلال سوالك بالبنجاب حتى بلغوا حصن جامو فاستولوا عليه، لينطلق فريق منهم من بعد ذلك فى أثر شيخا ككهر ، وهو أمير هندوكى كان قد استسلم لتيمور عند قدومه الهندستان فقربه إليه ثم ما لبث أن انتهز فرصة ابتعاد قوات الغزاة عنه فطرد رجالهم من لاهور والملتان واستقل بهما . وما لبث رجال تيمور أن استردوا لاهور بعد حصار قصير وجاءوا بالثائر الهندوكى نفسه إلى سديهم عند جامو فأمر به فأعدم . وفى جامو عهد تيمور لنائبه خضرخان بالملتان ولاهور وديبالبور ثم تابع سيره إلى سمر قند عاصمته عبر طريق كابل[1] .

وكان من أثر الغزو التيمورى ، وما أشاعه فى البلاد من خراب ودمار أن اجتاحت الفوضى والاضطراب كافة الأقاليم التى دخلها الغزاة . وبدأ أخطر مظهر لهذا كله فى العاصمة التى عانت من هذه المحنة ما لا يبلغ وصفه بنان أوبيان فقد هلك أغلب أهلها ونهبت دورها ومتاجرها وتفشت فيها المجاعات الطاحنة والأوبئة الفاتكة . وظل زمام الأمور فيها منفلتا حتى أطبق عليها الأمير نصرت شاه قادما من مخبئه من ميروت بالدوآب فى ألفين من الفرسان .

على أن إقبال خان ، وكان ينزل فى بيرن غير بعيد من دهلى ، ما لبث أن استخلص العاصمة لنفسه وأرغم هذا الأمير على الارتداد إلى مخبئة من جديد وما إن انصرم عام ٨٠٣هـ/١٤٠٠م حتى كان هذا القائد قد بسط نفوذه على منطقة الدوآب فيما بين لكهناوتى وبيانه .

---

(١) ظفر نامه ص ١٤٨ .

واستقدم إليه من بعد ذلك السلطان محمود تغلق ، وكان قد غـــادره ، بـدوره ملجأه بالكجرات إلى مالوه على أثر ما لاحظه من فتور صاحبها ظفرخان نحـــوه ، فأجرى عليه رزقاً حسناً قنع به عن التطلع إلى الحكم .

وبلغ إقبال خان خبر وفاة مبارك شاه شرقى صاحب جونبور ، فبرز بقواتـــه إلى قنوج وفى صبحته محمود تغلق ، وكان إبراهيم شـــاه شـــرقى أخـــى سـلطان جونبور الراحل قد شخص إليها بدوره .

وانفلت السلطان محمود إلىمعسكر خصمه وقد أمل أن يســتعين بــه علــى استرداد نفوذه ، لكنه رده عنه خائباً حسيراً . وتغاضى إقبال خان عن فعلته هــذه ، وقد نصبه آخر الأمر على قنوج ثم عاد إلى دهلى .

وغزا صاحب دهلى من بعد ذلك كواليار وأتاوه ، وكانتا فى حــوزة عصبـة من الأمراء الهنادكة فألزمهم بدفع جزية سنوية له . ثم تطلـــع لاســترداد الملتــان فزحف إليه مع أمراء سمانه وما حولها ، لكن خضر خان نائب تيمور هناك ألحــق بهم جميعاً هزيمة حاسمة فى جمادى الأولى عام ٨٠٨هـ/١٤٠٥م ، ســقط فيــها إقبال خان نفسه صريعاً ، فما إن بلغ الخبر دولت خان لودهى حاكم دهلـــى حتــى بادر من فوره باستدعاء السلطان محمود تغلق وأجلسه على العرش .

ولم يلتفت محمود تغلق إلى الخطر الجديد الذى بدأ على أثر قضـــاء خضــر خان على قوات إقبال خان وحلفائه ، فبعث بقائده دولت خـــان لودهـــى لإخضـــاع بيروم خان فى سمانه فى حين سار هو إلى قنوج فالتحم مع إبراهيم شـــاه شــرقى الذى رده عنها .

وأدى سوء معاملة السلطان لجنده أن انصرف أغلبهم عنه ، حتى كاد إبراهيـم شاه شرقى أن يدخل دهلى نفسها فلم يمنعها عنه إلا ما بلغه من استيلاء مظفر خــان صاحب الكجرات على مالوه ومتابعته الزحف إلى جونبور .

وأقبل خضر خان نائب تيمور بدوره آخر الأمر على العاصمة فضرب عليـها الحصار فى عامين متتاليين فلم يكن برده عنها فى كل مرة إلا نفاذ مؤنه .

ووافى السلطان محمود تغلق أجله بعد ذلــك بقليــل فــى ذى القعــدة عــام ٨١٤هـ/١٤١٢م فخلفه دولت خان لودهى .

ولئن كان هذا الزعيم الأفغانى قد أفلح فى ضم بعض أمراء البلاد المجـاورة للعاصمة إلى صفة فإنه آخر الأمر لم يقو على الوقوف فى وجه خضر خان الـذى أقبل هذه المرة فى ستين ألف فارس دخل بهم دهلى فــى ذى الحجــة مــن عــام ٨١٦هـ/١٤١٤م بعد حصار دام أشهر أربعة .

ملوك الطوائف

لئن كان الضعف قد بدأ يتسرب إلى كيان الدولة الإسلامية بالهندستان منذ أواخر عهد محمد تغلق وبداية حكم خلفه فيروز[1] ، إلا أن الغزو التيموري كان هو بلا مراء العامل الأكبر الذى أدى إلى تفكك هذه الدولة . ذلك أن أغلب ولاياتها الكبرى الهندية كمالوة والكجرات وجونبور والبنغال والدكن ، ما لبثت على أثر هذا الغزو أن انفصلت عنها انفصالاً تاماً وأعلن أصحابها استقلالهم بها ، فلم يفلح سلاطين دهلى فى بسط نفوذهم على هذه الولايات عموما من جديد ، إلا فى عصر الدولة المغولية التى أقامها أحفاد تيمور لنك نفسه بالهندستان فى القرن العاشر الهجرى فعمرت قرون ثلاثة شهدت فيها شبه القارة الهندية على أيديهم حضارة رائعة قوية ومدنية مزدهرة بزت ، بإجماع الثقات من المؤرخين ، نظائرها عند أرقى الدول لذياك الوقت .

على أن أغلب سلاطين هذه الولايات المستقلة التى سنتحدث عنها فيما يلى ، وهم فى غمرة كفاحهم لتوسيع رقعة ملكهم أو دفع من عساه يطمع فى أراضيهم ، قد حرصوا كثيرا على العمل على رقى بلادهم والنهضة بها :

الكجرات : تعد هذه الإمارة ثانى إمارات الهند الإسلامية بعد دهلى ذلك أنه فضلا عن خصب تربتها وما تحويه من ثروات طبيعة هى أولا وقبل كل شئ ، باب التجارة الهندية الغربى منذ القدم ومنفذها إلى إفريقية وآسيا . فمن شاطئها عند سورات وخليجها كمباى كانت تبحر السفن بمنتجات الهند من توابل وثمار وعطور وسيوف ومنسوجات حريرية وقطنية وأحجار كريمة إلى بلاد العرب والبحر الأحمر فتنتقل من بعد ذلك برا إلى موانئ البحر الأبيض المتوسط لتحملها فلك أخرى من هناك إلى ثغور أوروبا لهذا كان الإقليم محط أنظار أغلب غزاة الهند حتى قبل عصر الإسكندر .

---

(١) الواقع أن فيروز تغلق بإصلاحاته ومشروعاته العمرانية المفيدة وميلة إلى ما فيه خير رعايله قد أفلح فى حمل الناس على التعلق به والركون إلى الهدوء ، ولكنه لم يصل بذلك إلى تدعيم هيبة الملك إذ غلبت طيبته ومسالمته على حزمة.

وكان أول من اقتحم الكجرات من أمراء المسلمين محمود الغزنوى ليحطم معبد سومنات أحد مقدسات الهنادكة العظمى . على أن سلطان المسلمين لم يرسخ فيها إلا على أيدى علاء الدين الخلجى عام ٦٩٧هـ/١٢٩٧م . وقد أعلن مظفر خان ، حاكم هذا الإقليم من قبل سلطنة دهلى ، استقلاله به عام ٨٠٤هـ/١٤٠١م وذلك على أثر الغزو التيمورى للهندستان .

وخلف هذا الأمير حفيده أحمد شاه الذى قضى أغلب حكمه فى حروب متواصلة أتاحت له توسيع رقعة ملكه . وعنى هذا الأمير بتنظيم شئون الحكومة ، كما أقام كثيراً من المنشآت وبنى مدينة أحمد آباد وحض التجار والصناع على النزوح إليها والإقامة بها . هذا كما بذل نشاطاً كبيراً فى نشر الدين الإسلامى بين السكان والقضاء على الشرك وعبادة الأوثان وقد هدم فى سبيل دعوته هذه كثيراً من معابد الهندوكيين هناك .

ويعد السلطان محمود بيكر ، حفيد أحمد شاه ، أعظم حكام الكجرات طراً . وكان مما ساعد على ذيوع صيته وانتشار شهرته ما عقده من عزم فى أواخر حكمه على طرد البرتغاليين من سواحل الهند الغربية وإبعاد خطرهم عنها . وكان هؤلاء المستعمرون قد نزلوا على مقربة من بمباى وأخذوا يقطعون الطريق على سفن التجارة والحجيج .

وعاون المماليك المصريون والسلاطين العثمانيون محمود بيكر وخلفاءه على محاربه هؤلاء الدخلاء([1]) . وبرغم حسن بلاء أساطيل المسلمين فقد انتهى الأمر

---

(١) امتد خطر البرتغاليين إلى مدخل البحر الأحمر فبلغ مياه الأراضى المقدسة حتى سارع المصريون إلى تحصين موانئ الحجاز . كذلك لبى قنصوة الغورى سلطان مصر دعوة سلطان الكجرات فبعث بسفنه لمحاربة البرتغاليين الذين أضروا بتجارة البحر الأحمر وكانت من مصادر ثروة المماليك ، كما أتت سفن سليمان القانونى سلطان العثمانيين بدورها لمساعدة الكجراتيين . وتبادل الفريقان الانتصارات مرات عدة حتى كتبت الغلبة آخر الأمر فيما بعد للبرتغاليين . حقائق الأخبار لإسماعيل سرهنك أول ص ٥٤٨ وثان ص ١٨٨ .

Cambridge Hist. Of india vol 3 pp. 21216. 536, 7.

بالبرتغاليين إلى تثبيت أقدامهم فى بضع مواطئ بالشاطئ الغربى للهند ، من بينـهما مقاطعة جوا البحرية التى أرغموا أخيراً على الجلاء عنها .

وقضى هذا السلطان بعد أن حكم اثنين وخمسين عاماً بلغ فيها صيته محـافل أوروبا لما كان عليه بلاطه من أبهة بالغة وتقاليد رفيعة ، إلى جانب ما أثـر عنـه نفسه من ميل إلى العدل واتصاف بالحزم والشجاعة .

ولم يأل بهادر خان ، آخر حكام الكجرات الكبار ، جهداً فى توسـيع رقعـة ملكه فاستولى على أغلب مالوه واقتحم قلعة جتور بالراجبوتانا . وبرغـم هزيمتـه أمام همايون ثانى سلاطين الدولة المغولية بالهند ، فقد أفلح من بعد ذلك فى استرداد جزء كبير من أراضيه ، وذلك حين أخرج شيرشاه ، همايون من الهند . وقد بـذل هذا السلطان جهوداً صادقة لطرد البرتغاليين من جزيرة ديو التى كانوا يتحصنـون بها ، وكادت جهوده تكلل بالنجاح لو لا أن دبر أعداؤه أمر مقتله غرقاً وهـو فـى طريقة للمفاوضة معهم .

وصار أمر الكجرات إلى أن ضمها أكبر ، ثالث سلاطين المغول وأعظمـهم ، إلى ملكه عام ٩٨٠هـ/١٥٧٢م .

مالوه : وإلى الشرق من إقليم الكجرات تقع إمارة مالوه . وكان علاء الديـن الخلجى هو كذلك أول سلطان مسلم ضمها إلى ملكه .

وانتهز أميرها دلاور خان الغورى ، وكان من رجال فيروز تغلق ، فرصـة الفوضى التى عمت الغزو التيمورى فأعلن عام ٨٠٣هـ/١٤٩١م اسـتقلاله بـها ، واتخذ من مدينة دهر حاضرة له . وخلفه ابنه ألب خان الملقب بهوشنك شـاه عـام ٨٠٧هـ فنقل حكومته إلى ماندو التى زخرت بجملة مـن المنشـآت الفخمـة فـى عصره .

وجر خصب أراضى هذا الإقليم عليه أطماع حكام دهلى وجونبور والكجرات وكانت جميعاً تجاوره . حتى إذا ما منى هو شنك شاه بهزيمة شديدة فى حروبه مـع الكجرات خلفه على العرش ابنه غازى خان الذى غلبه محمود الخلجى على أمـره فقتله واتخذ مكانه .

وأعلى السلطان الجديد من شأن مالوه بما أحرزه من انتصارات كثيرة في حروبه العديدة مع أمراء الراجبوتانا ومملكة بهمنى الدكية حتى امتدت حدوده شمالا إلى موار وجنوبا إلى ساتبورا وشرقا إلى بند لخند وغربا إلى الكجرات ولم تقعد به همته حتى كاد يدخل دهلى نفسها لولا صمود بهلول لودهى قائد سلطانها محمد شاه إذ ذاك فى وجهه(1) .

وقد عرف هذا السلطان إلى جانب حروبه الكثيرة باشتغاله بالعلوم والفنون والآداب مع حرصه البالغ على إشاعة العدل بين رعاياه جميعا هنادكة ومسلمين على السواء .

وهان شأن خلفاء محمود الخلجى من بعده بانصرافهم عن الاهتمام بشئون الدولة من جهة ، واستوزارهم للهنادكة الراجبوتيين من جهة أخرى ، حتى انتزع البلاد منهم آخر الأمر بهادرخان صاحب الكجرات عام ٩٣٧هـ/١٥٣١م ليستخلصها همايون ، ثانى سلاطين المغول ، لنفسه منه بعد ذلك بسنوات أربع .

خاندش : كذلك كانت هذه الإمارة واحدة من بين الإمارات الهامة التى انسلخت عن دهلى ، وموقعها إلى الجنوب من مالوه فيما بين تلال الوندهايا والدكن، ويحدها ، إقليم برار فى الشرق ثم الكجرات فى الغرب . وقد شجع ثراء الإقليم وخصب أراضيه حاكمه ملك راجا فاررقى على الاستقلال به اقتداء بدلاور خان الغورى أمير مالوه . ودخل هذا الأمير ، على سنة عصره ، فى حروب كثيرة مع جيرانه لا سيما مع مظفر شاه صاحب الكجرات فكسر فيها ، ليركن إلى السلم من بعدها وينصرف إلى العناية بشئون بلاده . وأفلح ابنه ناصر شاه فى انتزاع بعض الحصون من ايدى جيرانه الهنادكة كان أهمها حصن أسيركاه ، لكن خلفاءه من بعده غلبهم الضعف فصاروا فى الغالب خاضعين لنفوذ سلاطين الكجرات لا سيما فى عهد السلطان محمود بيكر الكجراتى ، حتى ضم السلطان أكبر المغولى هذه الإمارة إلى ملكة عام ١٠١٠هـ/١٦٠١م .

---

(1) تاريخ فرشته ص ٢٣٦ .

جونبور : هو إقليم واسع كبير يقع إلى الجنوب الشرقى من دهلى ويجرى فى أراضيه جمنه وكوكرا أكبر روافد الكنج . وعاصمته ، التى يعرف باسمها الإقليم كله ، تقع عند شاطئ جمنه على مقربة من ظفر آباد . وقد أنشأها فيروز تغلق عام ٧٦٠هـ/١٣٥٩م عند عودته من حملته الثانية بالبنغال . ذلك أن هذا السلطان رأى، فى سبيل ضمان إقرار الأمن فى هذه الولاية البعيدة ، أن ينشئ على مقربة من حدودها مركزا حربيا تقيم فيه قوات كبيرة كافية تبادر من فورها إلى القضاء على كل ما قد يقوم من اضطرابات فى هذه النواحى ، وبهذا يتفادى ما تتعرض له جيوشه فى سيرها من دهلى من مصاعب طريقها الطويل لا سيما إبان فصل الأمطار الموسمية ، فوقع اختياره على هذا المكان الذى أطلق عليه هذا الاسم تمجيدا لذكرى ابن عمه الأمير فخر الدين محمد جونه ، ثم لم يأل جهدا من بعد ذلك فى تعمير هذه المدينة وتجميلها بالمنشآت الفخمة الكثيرة .

وأراد محمود تغلق أن يكافئ وزيره وقائده خواجه جهان سرور على ما بذل له من همة فى القضاء على فتن الخارجين على سلطانه فأنعم عليه عام ٧٩٧هـ/١٣٩٤م بلقب شاه شرقى (ملك الشرق) وعهد إليه بحكومة كافة الأراضى الواقعة فيما بين القنوج وبهار.

وما لبث هذا الحاكم أن بسط نفوذه على الدوآب واتخذ لنفسه مقاما فى جونبور . ولم يمض إلا القليل حتى أعلن أصحاب لكنهاوتى وجاجنكر خضوعهم له بدورهم ، فصاروا يبعثون إليه بالجزية التى جروا على إرسالها إلى دهلى من قبل .

وانتهز هذا الأمير فرصة تعرض الهندستان للغزو التمورى فاعلن استقلاله بما فى يده من أرضين . حتى إذا ما انقلب الفاتح المخرب عائدا إلى بلاده فسار إقبال خان فى قوات كبيرة إلى جونبور ، دفعه أميرها عنها ولم يمكنه منها .

كذلك لجأ محمود تغلق بدوره إلى إبراهيم شاه شرقى خليفة مبارك شاه، على أمل أن يعينه على استرداده لعرشه من أيدى إقبال خان ،لكن صاحب جونبور كان أحذر من أن يزج نفسه فى متاعب هو فى غنى عنها .

وأفلح إبراهيم شاه شرقى فى استرداد إقليم قنوج على أثر هزيمة إقبال خان ومقتله فى الملتان ، ثم تابع سيره إلى دهلى ، حتى إذا علم بزحف مظفر خان صاحب الكجرات بدوره إليه ، بادر بالتراجع إلى مواطنه .

وركن سلطان جونبور إلى السلم من بعد ذلك خمسة عشر عاما انصرف فيها إلى تنظيم حكومة بلاده والاشتغال بمختلف فنون المعرفة حتى غدت جونبور من أعظم مراكزها الإسلامية فى زمنه . وساعد على قيام هذه النهضة طائفة كبيرة من العلماء كانوا قد لجئوا إلى البلاد هربا من وجه الغزو التيمورى فلقوا بها كل ترحيب وإكرام([1]) .

هذا ولا تزال بهذه الإمارة حتى اليوم جملة من العمائر والمنشآت الفخمة التى أقامها هذا السلطان هناك .

وظل ملوك الشرق هؤلاء يحكمون فى جونبو فترة طويلة تعرضوا فيها لغزوات اللودهيين الأفغان أصحاب دهلى حتى انتزعوها منهم .

البنغال : ذكرنا من قبل أن فيروز تغلق قد أضاع بتردده وضعفه هذا الإقليم الذى يعد أخصب مناطق الهندستان الشرقية وأغناها ، وإن لبث أمراء هذا الإقليم يبعثون من حين لآخر بهداياهم إلى سلاطين دهلى .

وقد صار هذا الإقليم فى أواخر القرن التاسع الهجرى وأوائل العاشر من أقوى الإمارات الهندية وأعزها جانبا([2]) .

ويشتهر من بين حكام البنغال حسين شاه أول من استقل به . ويذاع عنه ابتكاره لدين جديد يجمع بين عقائد الهنادكة ومذاهب المسلمين ، وهو نفس الأمر الذى نسب إلى أكبر أعظم سلاطين الدولة المغولية من بعد. كذلك عنى نصرت شاه بن هذا الأمير بتوسيع رقعة ملكه وإقامة جملة من العمائر الفخمة ببلاده ، إلى

---

(1) Lane Peole, Medieval India p.199.

(٢) تحدث ابن بطوطة حديثا طويلا عما شاهده بهذا الإقليم من رواج وتقدم فى رحلته رابع ص ٢١١، ١٢ .

جانب حرصه الشديد على رواج الحياة الثقافية فى عهده. وهذا الحاكم الـــذى ظـــل ممسكا بزمام أمور البنغال من عام ٩٢١هـ إلى عام ٩٣٩م قد وصفه ظهير الديـــن بابر مؤسس الدولة المغولية فى سيرته بأنه أحـــد الأمـــراء الخمســـة الكبـــار فـــى الهندستان .

وخلف الأمراء الأفغان هذه الأسرة الحسينية بهذه الإمـــارة حتـــى انتزعـــها السلطان أكبر من أيديهم أواخر القرن العاشر الهجرى .

الدكن : لم يتيسر لأحد من سلاطين دهلى منذ وفاة محمد تغلق أن يبسط نفوذه فى الواقع إلى ما وراء تلال الوندهايا جنوبا ، فقد راح أمير يدعـــى عـــلاء الديـــن كانكوى (جنجو) ظفر خان يتزعم حركة اضطرابات واسعة فى الدكـــن ، فـــأعلن خروجه على سلطان دهلى عام ٧٤٣هـ ثم راح يبسط نفوذه علـــى كافـــة الأقـــاليم الدكنية التى كان كل من علاء الدين الخلجى ومحمد تغلق قد انتزعاها من الأمـــراء الهنادكة فى الهضبة الهندية الوسطى والسهل الجنوبى . وصـــارت بـــلاده تعـــرف بسلطنة بهمنى نسبة إلى جد له كان يدعيه هو بهمن ابن اسفنديار أحد ملوك الفـــرس الأقدمين . وموقعها اليوم هو إقليم بمباى وولاية حيدر آباد الدكنية(1) .

وحـــارب سلاطين هـــذه الأســـرة راجا تلنجانا وضموا إلـــى ملكـــهم إقليـــم غولكونـــده وأورانكل وأجـــزاءا من أوريســـه فى شرق بلادهم . وبلغت بلادهـــم أوج قوتها بفضل وزيرهـــم محمود جـــوان الذى كان أول من أنزل هزيمة ســـاحقة براجا إمارة فيايانكر الهندية ، واستولى على أجزاء من بلاده التى ظلت مدى قرنيـــن من الزمان مصدر متاعب لما كان يجاورها من الإمارات الإسلاميـــة . وبجـــهود هذا الوزير ازدهرت كذلك الحركة العلمية هناك ، فظـــهرت مؤلفـــات قيمـــة فـــى الرياضيات والطب والأدب . واشتهرت مكتبة هـــذا الوزير بمدرســـته فى مدينـــة بدر بمـــا كانت تحويه من نفائس المخطوطات الكثيرة(2) .

---

(1) تاريخ فرشته ص ٢٧٨ .

(2) Prasad. Medicval India p.373.

ولقد أجمع جمهرة من المؤرخين على الإشادة بحسن تدبير هذا الوزير وشجاعته وحدبه على تدعيم أركان السلطنة وتوسيع رقعتها . هذا مع حرصه البالغ على قيام العدل بين الأهلين ، وشدة ورعه وزهده إذ كان لا ينام إلا على حشيه بسيطة خشنه ، ولا يتناول طعامه إلا فى آنيه رخيصة من الفخار، مع بره الشديد بالفقراء حتى كان يخرج أغلب دخله لهم . على أن عنفه البالغ فى معاملته لمنافسيه وأعدائه من أمراء الهنادكة والمسلمين على السواء ، قد دفعهم آخر الأمر إلى التآمر عليه بهتانا عند السلطان محمد الثالث الذى أورده حتفه بأيدى جلاده الحبشى جوهر(١) ؛ فجاء مقتله إيذانا بانهيار هذه الدولة الدكنية الكبرى .

وبلغ عدد سلاطين بهمنى أربعة عشر حاكما ، كانوا فى الغالب على غلظة شديدة وميل بالغ إلى سفك الدماء ، وإن لم يمنعهم ذلك من العناية بشئون بلادهم ، فأمنوا الطريق وشقوا الترع والقنوات ، واهتموا بالزراعة والصناعة والتجارة ، ورعوا العلوم والفنون . كما أقاموا كثيرا من المنشآت والمدارس والمساجد ، وإن لم تبلغ العمارة عندهم من الروعة ما بلغتها عندهم من الأمراء المسلمين بالهند : ولقد هال جوابوا هذه البلاد ما رأوه عندهم وعند رجالهم من الثراء الفاحش والبذخ البالغ ، إلى جانب البؤس الذى كان يقيم فيه أغلب العامة ، وهى سنة من أسوء سنن العصور الوسطى التى كانت شائعة فى كل بلد على كل حال .

ولم يمض عامان على مقتل الوزير محمود جوان حتى طفق عقد سلطنة بهمنى ينفرط بالتدريج . حتى إذا ما أهل عام ٩٣٣هـ/١٥٢٥م أسدل الستار نهائيا على هذه الدولة التى عمرت قرابة قرنين من الزمان ، فقسمت أراضيها إلى خمس ممالك إسلامية مستقلة متحاربة على الدوام هى برار وبيجابور وأحمد نكر وغولكونده وبدر .

وكانت برار هى أول إمارة انسلخت عن أسرة بهمنى ، ليستقل بها عام ٨٩٠هـ/١٤٨٤م فتح الله عماد شاه ، وكان فى أصله هندوكيا اعتنق الإسلام.

---

(١) تاريخ فرشته ص ٣٥٧ .

ولبثت أسرة عماد شاه هذه تحكم تلك الإمارة حتى عام ٩٨٢هـ/١٥٧٤م ليضمها أمراء نظام شاهى أصحاب إمارة أحمد نكر من بعد ذلك إلى ملكهم .

أما سلطنة بيجابور فيقال إن يوسف عادل شاه ، أول سلاطينها ، كان في الواقع من أبناء السلطان العثمانى مراد الثانى ، وكانت أمه قد فرت به من وجه أخيه محمد الفاتح حين بلغها ما انتواه من قتل جميع أخواته الذكور صونا لعرشه ، فاحتالت على تقديم ولد آخر بدل ابنها الذى عهدت به إلى تاجر فارسى . ولم يطل المقام بالأمير العثمانى بإيران ، فقصد إلى الدكن مع قوافل الفرس والأتراك الذين كان يجتذبهم صيت بلاط بهمنى الذائع ، فالتحق بخدمة الوزير محمود جوان الذى أنزله فى نفسه منزلة ولده .

وحين بدأ الضعف يدب فى سلطنة بهمنى عمد يوسف هذا عام ٨٩٥هـ/١٤٨٩م إلى إعلان استقلاله بهذه الإمارة .

وتعرض هذا السلطان لهجوم هنادكة فيايانكر مع فريق من جيرانه بتحريض من قاسم بريد وزير سلطنة بدر ، فأدى ما أنزله بهم من هزائم ، مع استيلائه على معسكراتهم ، إلى توطيد أقدامه وذيوع صيته .

وخان هذا السلطان التوفيق بعد قليل حين أعلن اعتناقه لمذهب الشيعة وراح يحمل قومه على الدخول فيه قسرا ، حتى تألب جميع جيرانه عليه ، واضطروه إلى الخروج من بلاده . وحين لجأ إلى عماد الملك صاحب برار ، نصحه بإعلان رجوعه إلى مذهب أهل السنة والإقامة بخاندش حتى تهدأ الأحوال .

وآب يوسف عادل إلى بلاده من جديد ، فاتجه عام ٩١٧هـ/١٥١٠م على رأس قوة من الجند استرد بهم جوا من أيد البرتغاليين .

ولم يمض أشهر قلائل على موت هذا السلطان حتى استعاد المستعمرون هذا المرفأ الهام فبقى بأيديهم حتى استردته الهند منهم بعد التقسيم بسنوات طويلة .

ويثنى المؤرخون على هذا السلطان الذى عرف عنه تمسكه بالفضائل وميله إلى العلماء والأدباء ، حتى دعى إليه جملة منهم من التركستان

وفـارس والدولـة العثمـانية ، كمـا لم يتنكب طريق الحسـنى فـى معاملتـه لرعايـاه من الهنـادكة أو يبخل بمنـاصب الدولة على الأكفاء منهم([1]) .

وحافظ أبناء هذا السطلان على تراثهم سنين طويلة ، حتى إذا ولـى الملـك على عادل شاه فى منتصف القرن العاشر الهجرى بادر بدوره إلى إعـلان تشـيعه وأردف ذلك بتحالفه على جيرانه مع هنادكة فيايانكر الذين اجتاحوا إمارة أحمد نكـر فأنزلوا بأهلها مذبحة شنيعة نبهت السلطان إلى مدى الخطر الذى يتـهدد المسـلمين على أيدى هؤلاء الهنادكة فنفض يده منهم .

وقد انتظم أمراء الدكن المسلمون من بعد ذلك فى جبهـة واحـدة متماسـكة استطاعت أن تنزل بهذه الإمارة الهندوكية ضربات متلاحقة كـان أشـدها موقعـه تاليكوتا عام ٩٧٣هـ/١٥٦٥م .

وآخر سلاطين بيجابور هو إبراهيم عادل شاه الثانى الذى قضى على إمـارة أحمد نكر وضمها إلى ملكة . وقد ذاع صيت زوجته جند بيبى لدفاعها الباسل عـن هذه الإمارة فى وجه قوات الدولة المغولية عام ١٠٠٣هـ/١٥٩٤م .

أما ولاية أحمد نكر فرأس أسـرة نظـام شاهى التى استقلت بها هـو نظـام الملك بحرى الذى وزر لسلاطين بهمنى عقب مقتل الوزير محمود جـوان ، وكـان لـه فيـه مشـاركة . وقضى على هذا الوزير أطماعه بعد قليل ، فما لبـث ابنـه أحمد أن أعلن استقلاله بما فى أيديه من أراضى جونير عـام ٩٠٤هـ/١٤٩٨م ، ثم انتقل من بعد ذلك إلى مدينـة أحمد نكر الجديدة فجعلها قصبة لملكة . وجهـد هذا الأمير من بعد ذلك فى الاستيلاء على دولت آبادو توابعها فبلغ غايته فى العـام التالى .

ودخل خلفاء هذا السلطان فى حروب متصله مع جيرانهم حتى انتـهى أمـر هذه الولاية إلى الدخول فى حوزة الدولة المغولية عام ١٠٠٩هـ/١٦٠٠م.

---

(1) Prasad. India P.382.

هذا وكان قطب الملك ، مؤسس أسرة قطب شاهي بغولكونده ، في أول أمـره من رجال السلطان محمود بهمنى المقربين . وأعلن هـذا الأمـير اسـتقلاله بـهذه الإمارة عام ٩٢٧هـ/١٥١٨م ، وظل يحكمها حتى اغتـاله ابنـه جمشـيد عـام ٩٧٣هـ/١٥٦٥م وكان قد بلغ التسعين من عمره .

وليس لسلاطين هذه الإمارة ما يذكر إلا مشاركتهم جيرانهم في محاربة إمـارة فيايانكر الهندوكية ، حتى صارت بلادهم أوائل القرن الحادى عشر الـهجرى مـن أملاك السلطان المغولى أورنكزيب .

كذلك استبد بالأمـر كلـه في إمـارة بـدر الوزير قاسـم بريد ، وذلك فـي عهد السلطان الضعيف محمود شاه بهمنى ، ثم خلفه في الوزارة ابنه الأمير بريـد فظل يتمتع بنفوذه الواسـع هنـاك . حتى إذا ما فر كليم الله آخر سلاطين بـهمنى إلى بيجابور ، أعلن هذا الوزير عام ٩٣٥هـ/١٥٢٦م استقلاله بهذه الإمارة . وظل أمراء بريد شاهي يحكمون في بدر حتى عام ١٠١٨هـ/١٦٠٩م ليضمـها أمـراء عادل شاهي أصحاب بيجابور من بعد ذلك إلى ملكهم .

ومنع أمراء الدكن الإسلامية الأربعة سالفة الذكر هذه من التوسع في جنـوب الهند ما كان من اقتتالها مما سهل على هذه الأراضى الهندوكية الواسعة المحافظـة على استقلالها .

ولقد ذكرنا من قبل أن قوات علاء الدين الخلجى كانت قد اجتاحت الجنـوب الهندى كله على أيدى قائده كافور . لكن اضطراب الأمور فـي سـلطنه دهلـى ، أواخر أيام محمد تغلق، أضعف من سلطان المسلمين في الدكن وما ورائها مما مـهد لقيام إمارة فيايانكر القوية التى شغلت رقعة واسـعة مـن الأرض بـأدنى سـلطنه بهمنى.

وأمراء فيايانكر هؤلاء هم خلفاء الكوليين الذين ورد ذكرهـم فـي مراسـيم آشوكا والذين ورثوا ملك بنديا في الجنوب ، تلك المملكة التى ذاع صيتها في القـرن الأول الميلادى والتى كانت عاصمتها ما دورا تعد من أجمل بلدان الهند .

ومؤسسا هذه الإمارة هما هارى هارا وأخوه بوكا اللذان ينحدران من صلـــب أمراء يادافا أصحاب دواكر.

ووزر هذان الأخوان أول أمرهما لراجا أنا غوندى بالملبار ، ووقعاً معه فـــى أسر سلطان دهلى محمد تغلق الذى ارتأى أن يبعث بهما نائبين عنه بـــهذه الإمـــارة فيعاون وجودهما بها على الحد من ثورات الهنادكة هناك .

لكن الوزيرين الهندوكيين ما لبثا أن عملاً بنصيحـــه حكيـــم هنـــدى يدعـــى فيديارانيا فنزعا إلى الاستقلال بما فى أيديهما من أقاليم ، وبادرا من فورهـــم إلـــى إقامة مدينة فيايانكر الحصينة على شاطئ تنجبهاردا لتكـــون لـــهم مـــن غـــزوات المسلمين ردءاً ، فأطلق اسمها من بعد ذلك على الإمارة كلها .

وانفرد هارى هارا بالملك بعد قليل فعمل على توسيع رقعـــه إمارتـــه، فلـــم ينصرم عام ١٣٤٠م حتى كان سلطانه يظل وادى تونجبهاردا إلـــى الجنـــوب مـــن بيجابور مع أجزاء من كونكان وساحل المليار .

واشتبك هذا الأمير وخلفاؤه فى حروب طويلة مع جيرانهم ، وفيهم ســـلاطين بهمنى الأقوياء ، مما عرض إمارتهم الناشئة إلى خسائر فادحة.

وكان أعظم حكام فيايانكر هو كرشناديو الذى حكم فى أوائل القرن الســـادس عشر الميلادى . وفى عهده ازدهرت عبـــادة وشـــنا ولقيـــت الآداب السنســـكريتية والتلنجو رعاية كبيرة وراجت العمارة والنحت([1]) .

ووسع هذا الأمير رقعة ملكه على أثر انتصاراته المتكررة على حكام الدكن ، فضم أو ريسه إلى بلاده مع منطقة مدراس وميسورى الحالية .

وسعى إليه البرتغاليون يخطبون وده فأقاموا معه علاقات اقتصادية وسياســية هدفوا من ورائها كسبه لصفوفهم فى حروبهم مع الإمارات الإسلامية عنـــد ســـاحل الهند الغربى . وحين بلغ هذا الأمير سقوط جوا بأيدى هؤلاء المستعمرين لم يكتـــف

---

(1) Prasad Medieval India d 408.

بإيفاد رسله يحملون إليهم التهنئة فحسب ، بل سمح لهم كذلك بإقامة حصـــون لـــهم عند بها تكال بشواطئ بلاده الغربية .

على أن خلفاء هذا الأمير القدير لم يستطيعوا الوقوف فى وجه جبهة أمـــراء الدكن المسلمين الذين اقتحموا عليهم بلادهم فأعملوا فيها التخريب والتدمير . ولـــم تنته انتصارات تليكوتا عام ١٥٦٥م إلى إضعاف سلطان الهنادكـــة فـــى الجنـــوب فحسب ، بل أدت كذلك إلى القضاء على نفوذ البرتغال الاقتصادى هناك .

وأضاع من ثمار هذه الانتصارات الإسلامية ما كان من قيام النزاع والخـلاف بين الفاتحين على الأسلاب . حتى بدأت قوات الدولة المغولية ، منذ أيام الســـلطان أكبر ، تتوغل فى الدكن ، فلم ينته عهد أورنكزيب حتى كانت رأيتهم تظـــل القـــارة الهندية كلها ، إلى أن ظهر المراهتها فنازعوا المسلمين الجنوب من جديد .

أسرة السادات بدهلى :

تلك كانت هى حال الهند – على ما قدمناه عن انفراط عقد الدولة الإسلاميـــة بها – حين استخلص خضر خـــان نائب التيموريين لنفســـه عرش دهلى من أيـــدى فلول التغلقيين عام ٨١٧هـ/١٤١٤م ، فأسس أسرة حاكمة عرفت فى التاريخ باســـم أسرة السادات ، إذ كان يقول بامتداد نســـبه إلى النبى الأكرم[1] .

ولم يكن خضر خان فى الواقع غريبا عن الهندستان أو فى أصله رجلا مـــن رجالات تيمور ، فقد نشـــأ عند ناصر الملك مردان دولت أمير الملتان ، ثم ما لبـث فيروز تغلق أن أقامه عليها بعد موت سيده .

وحين شاع الاضطراب فى الدولة عقب موت فيروز تغلق ، سقطت الملتـــان وأميرها فى أيدى سارنك خان أخى مالو إقبال خان . لكن خضر خان احتال علـــى الهرب من آسريـــه ثم اتصل من بعد ذلك بتيمورلنك حين غزا هذه البلاد ، فرضـــى عنه ونصبه عند رحيله نائبا له هناك .

---

(١) تاريخ فرشته ص ١٦١ .

ولئن كان خضر خان قد غدا صاحب دهلى دون منازع ، فإن سلطنته الجديدة لم تكن إلا كفلك فى بحر لجى تحيط به الأمواج العاتية من كل جانب. فالدوآب ما فتئ منذ أيام بلبن مقيم على الاضطرابات ، وهذه هى أتاوه وقنوج وبداون وكاتبهر قد ضؤل شأن دهلى فى أعين أصحابها ، من مسلمين وهنادكة ، فكفوا أيديهم عن مدها بالخراج ، وهؤلاء أمراء الكجرات ومالوه وجونبور، الذين استقلوا ببلادهم ، لم يمنعهم اقتتالهم من مهاجمة سلطنة دهلى والتطلع إلى الاستيلاء عليها ما سنحت لهم الفرصة واستطاعوا إلى ذلك سبيلاً . وإلى جانب هؤلاء جميعاً كانت قبائل الككر لا تنفك تثير الاضطرابات العنيفة عند الملتان ولاهور .

وبقى صاحب دهلى الجديد على ولائه الإسمى لتيمور وأولاده من بعده، فكان يجرى الخطبة باسمهم ثم باسمه ، وكذلك فعل بالسكة . كما لم يفته كذلك أن يبعث بين الفينة والفينة بقدر من المال والهدايا إلى أصحاب سمرقند .

وبادر هذا الأمير من فوره إلى إعادة تنظيم شئون حكومته مستعيناً فى ذلك بطائفة من الرجال الأكفاء ، حتى أتيح له أن يخفف كثيراً من آلام الفقراء والمعوزين الذين كانت تموج بهم العاصمة من أثر الاضطرابات والأحداث السياسية الطويلة التى اجتاحت الدولة .

ثم اتجهت همته من بعد ذلك إلى العمل على استعادة هيبة الدولة السابقة ومحاولة استرداد ما ضاع منها من أرضين ، فبعث بقواته ، وعلى رأسها وزيره تاج الملك تحفة ، إلى الدوآب وكواليار وجندوان وأتاوه وبارن وجاليسر وكهور وتنبل ، فمازالوا بأصحابها حتى ردوهم إلى طاعة دهلى ومسالمتها . وكذلك صار حال الملتان والسند .

وحين مات خضر خان عام ٨٢٦هـ/١٤٢٢م بكاه الناس فى العاصمة إذ كان بهم بارا ورفيقاً(١) .

---

(١) تاريخ فرشته ص١٦٣ .

ونهج ابنه السلطان معز الدين أبو الفتح مبارك شاه فى تثبيت الأمــراء علــى اقطاعاتهم وولاياتهم عساه يضمن بذلك ولاءهم ومؤازرتهم له فى القضاء على الفتن والاضطرابات التى فتئت تجتاح البلاد . فهذا هو جسرت كهكر ومعه طغاى تــرك مازالا يعيثان فى المناطق الشمالية الغربية فساداً، حتــى ســولت لــلأول أطماعــه بالزحف على دهلى نفسها فعبر رافد ستلج السندى واستولى على حصن سر هنــد، فلم يمنعه عن التقدم إلى العاصمة إلا خروج السلطان إليه بنفسه فاسترد منه أغلــب الأراضى التى كانت فى حوزته وأقر الأمور فى لاهور وما حولها . على أنــه لــم يكد يعود إلى حاضرته حتى انحدر هذا الثائر إلى لاهور مــن جديــد ، فلــم يلفــح حاكمها فى دره عنها إلا بعد أن وصلته إمدادات السلطان لتنزل بالعدو هزائم قويــة أرغمته على الاعتصام بالمناطق الجبلية هناك .

والتفت السطلان من بعد ذلك إلى الاضطرابات التى نشــبت فــى الــدوآب وكتيهر وأوده وكواليار وبيانه وجندوار وكالبى فقضى عليها جميعــاً ، كمــا هــزم قوات إبراهيم شاه شرقى أمير جونبور ليتحول كرة أخرى إلى المنــاطق الشــمالية الغربية حيث انضم أصحاب كابل هذه المرة إلى الكهكر فاجتــاحوا البنجــاب كلــه والملتان ونهبوا أراضيه .

ولئن كان السلطان قد خرج من هذه المعارك جميعاً ظافراً منصوراً إلا أنه لم يفلت آخر الأمر من سيوف فريق من رجاله الذين كانوا ينفسون على وزيره كمــال الملك نفوذه البالغ .

وعادت عجلة الثورات ، على سنة العصر ، إلى الدوران من جديد ، إذ كــف إبراهيم شاه شرقى وراى كواليــار ومعهم طائفة من أمراء الهــنادكة عن دفــــع ما لدهلى عندهم من خراج وأتاوات . وشجع هـــذا الإجــراء محمــود الخلجــى صاحب مالوه ، فخرج بجنده زاحفاً إلى دهلى ، فلم يرجع عنها إلا حين برز أحمــد شاه صاحب الكجرات يهدد عاصمته ماندو . وقد تعقبه فى ارتــداده بــهلول خــان لودهى ، حاكم لاهور وسرهند ، الذى كان قد أسرع لنجدة السلطان ، فانتهب مؤنــه وأسلحته.

وكان مما دفع هؤلاء الأمراء إلى الخروج على سلطان دهلى من جديد، هو عودة الوزير كمال الملك إلى منصبه كرة أخرى . ذلك أن سرور الملك الذى كان قد خلفه فى الوزارة راح ، عقب تولى السلطان الجديد محمد شاه حفيد خضر خان الملك ، ينعم على أولئك الذين تآمروا على حياة السلطان السابق وفيهم سيدهو بال الهندوكى ويجزل العطاء لهم مما آثار عليه ثائرة كمال الملك وعصبته فبادروا بالقضاء عليهم جميعاً .

واستمع بهلول لودهى ، على أثر ما أحرزه من نصر ، إلى تحريض الكهكر الذين زينوا له وبعض الأمراء الأفغان الزحف على دهلى وانتزاعها من أصحابها[1] .

ولم يكن صد دهلى للقائد اللودهى على كل حال إلا إلى حين . فما إن ولى العرش عام ٨٤٩هـ/١٤٤٥م علاء الدين علم شاه ، وكان أميراً ضعيفاً، حتى انتقل ببلاطه إلى بيانه ليدفعه قصر نظره بعد قليل إلى محاولة التنكيل بوزيره حميد خان الذى سارع من فوره إلى الاستنجاد ببهلول لودهى ، وكان هذا الأخير قد بسط نفوذه على النبجاب الشمالية كلها من لاهور وديبالبور وسرهند إلى هانسى وحصار وبانى بت .

وهكذا واتت الأمير اللودهى الفرصة المرتقبة سريعة ميسرة للجلوس على عرش دهلى ، فلم يلق من آخر سلاطين السادات أدنى مقاومة ، اللهم إلا رجاء بتأمين إقامته ورزقه فى بداون . فبقى بها إلى آخر أيام حياته حتى قضى عام ٨٥٣هـ/١٤٤٨م .

---

(١) نظام الدين أحمد بخشى : طبقات أكبرى كلكتا ١٩٢٣ ، ص ١٤٨ .

اللودهيون الأفغان

لقد أمل الحكام السادات حين صار لهم عرش دهلى أن يستعيدوا لسلطان المسلمين بالهندستان سابق وحدته ويستردوا للحكومة المركزية ما ضاع منها من نفوذ وأرضين ، فبذلوا فى ذلك جهودا مضنية ذهبت كلها أدراج الرياح ، فانتكس الحال فى أواخر أيامهم إلى أسوأ مما كان عليه أول عهدهم بالحكم . فالدكن والكجرات ومالوه وجونبور والبنغال ما برحت فى أيدى أمرائها الذين كانوا قد استقلوا بها ، وأغلب البنجاب قد صار بأيدى القائد الأفغانى الثائر بهلول لودهى ، كما غدت مهروالى وما حولها حتى سراى لادو القريبة من دهلى فى حوزة أحمد خان مواتى . أما سنبهل حتى ضواحى العاصمة فكان يسيطر عليها دريا خان لودهى ، فى حين كان يقتسم النفوذ فى الدوآب جملة الأمراء الآخرين منهم قطب خان وعيسى خان ترك . هذا كما كانت بيانه من نصيب داود خان لودهى يشاركه فيها أمير هندوكى ، فى الوقت الذى كان فيه راجا برانات سنغ يبسط نفوذه على باتيالى وبكبيله وما وراءهما .

وهؤلاء الأمراء اللودهيون ، الذين تراهم مع فريق من الأمراء الهنادكة قد انتشروا حكاما فى شمال الهند على أراض غير بعيدة عن العاصمة ، ينتمون إلى إحدى القبائل الأفغانية التى كانت تضطلع بالمتاجرة ونقل السلع بين فارس وأواسط آسيا والهندستان .

وفى أيام فيروز تغلق التحق جد هؤلاء الأمراء الأكبر ، ويدعى بيرم لودهى وكان من الأثرياء ، بخدمة مردان دولت الذى سرعان ما عهد إليه بحكم الملتان .

وحين صار أمر هذا الإقليم إلى خضر خان ، عهد بقيادة جنده الأفغان إلى ملك سلطان بن بيرم لودهى . حتى إذا ما تمكن هذا القائد من القضاء على حاكم دهلى إقبال خان كافأة سيده بتقليده ولاية سر هند وأنعم عليه بلقب إسلام خان . وعهد هذا الأمير اللودهى ، حين شعر بدنو أجله ، بقواته وأملاكه إلى ابن أخيه وختنه الفتى اليافع بهلول لودهى وكان أثيرا عنده لشجاعته وحزمه برغم صغر سنه.

ولئن كان الأمراء اللودهيون قد انقسموا على أثر وفاة إسلام خان إلى شيع ثلاثة متعادية ، إلا أن بهلول لودهى أفلح آخر الأمر ، بحسن تدبيره ، فى لم شملهم فى جبهة موحدة ثبتت مراكزهم ودفعت عنهم أخطار الكهكر فى البنجاب وأخطار دهلى معاً .

وكان أن استنجد محمد شاه سلطان دهلى بالأمير اللودهى لدفع خطر السلطان محمد الخلجى صاحب مالوه عن عاصمته ، فأمده بعشرين ألفاً من الفرسان الذين أشاعوا الفوضى فى صفوف العدو ونهبوا معسكراته . وانطلق بهلول لودهى ، بعد هذا النصر الذى أحرزه ، يطوى تحت نفوذه أراضى واسعة كثيرة بالبنجاب ثم استدار من بعد ذلك يهاجم دهلى نفسها حتى سقطت فى يده على ما فصلناه فى موضعه(1) .

ولم يكن بهلول لودهى ، وهو المحارب الطموح ، يرى فى استيلائه على العاصمة إلا وسيلة إلى غايته الكبرى فى تحقيق حلمه وحلم كل سلطان سبقه باستعادة مجد دهلى على الصورة التى كانت لها أيام الغزنويين والخلجين من قبل .

ولم يتردد زعيم اللودهيين فى سبيل تثبيت أقدامه وتدعيم سلطانه عن سلوك كل سبيل إلى غايته ، فتآمر ورجاله على التخلص من الوزير القوى حميدخان ، وهو الذى كان قد مكنه بتدبيره من دخول دهلى وتسلمه لمقاليد الأمور بها .

وتفصيل ذلك أن بهلولاً عمد ، أول الأمر ، إلى توفير ضروب التبجيل والتوقير لهذا الوزير حتى إذا ما قصد هذا الأخير إلى مقر الأمير الجديد فى إحدى زيارته له أوعز بهلول إلى بعض رجاله أن يصدروا عنهم من الإشارات ما يوحى إلى من يراهم بترجيح بلاهتهم وسذاجتهم ، مما أشاع السرور والبهجة فى نفس زائره . وخرج الأمير اللودهى يرد الزيارة بدوره للوزير وفى صحبته فريق كبير من هؤلاء الرجال . حتى إذا ما بلغت أسماع حميد خان ما أثروه من ضوضاء وضجيج عند أسوار داره ، أمر حراسه من فوره بفتح الأبواب لهم مبتهجاً ، فما

---

(1) تاريخ فرشته ص ١٧٣ – ١٧٥.

كادوا يستوون بمجلسه حتى رفعوا سيوفهم فى وجهه ، وقد قام زعيمهم يعتذر غليه عن قسوة هذا الإجراء بضرورات السياسة وترك له حرية اختيار المكان الذى يرغب فى لزومه بعيدا عن العاصمة ، فقد أعفى من القتل اعترافا بسابق إياديه على بهلول .

وقصد المتآمرون من بعد ذلك إلى السلطان علاء الدين بمقامه فى بيانه يعلنون ولاءهم له ، ولكنه كان فيه من الزاهدين .

وطفق بهلول لودهى يغدق بدوره على الجند وقادتهم الهبات والعطايا ، لكن طائفة كبيرة من الأمراء الذين لم يرضوا عن سلوك هذا الزعيم الأفغانى وعصبيته ، ما غدوا أن انتهزوا فرصة خروجه إلىالولايات الشمالية الغربية فاتصلوا بالسلطان محمود شاه شرقى صاحب جونبور وتعجلوا زحفه إلى العاصمة.

وما إن أحيط بهلول بالخبر حتى بعث برسله ترحب بالسلطان الزاحف الذى كان على معرفة تامة بأساليب هذا الأمير الأفغانى وحيله الماكرة ، فلم يلق بالا إلى سفرائه وضرب الحصار على دهلى فى مائة وسبعين ألفا من الجند ومعهم أربعمائة من الفيلة .

على أن انسحاب الأمراء الأفغان المفاجئ مع قواتهم من جيش الشرق ، أرغم السلطان محمود على النكوص عجلا إلى جونبور مع من بقى معه من قوات قليلة . ونتج عن هذا الفوز الباهر الذى أحرزه الأمير اللودهى ، أن اشتدت هيبته بين أعدائه وأصدقائه على السواء ، فخفتت أصوات معارضيه فى بلاده فى حين سارع كثير من أمراء الأقاليم المجاورة يعلنون ولاءهم له ودخولهم فى طاعته .

ولئن كان الأمر قد استتب كذلك للسلطان اللودهى فى إقليم الدوآب فإن أصحاب جونبور من ملوك الشرق ، فيما وراء هذا الإقليم ، لبثوا يرون فى بهلول، برغم ما قام بينه وبينهم من مواثيق وعهود ، مغتصبا لعرش دهل غير جدير به على كل حال . فتوالت المعارك بينهم وبينه حتى كاد السلطان القدير حسين شاه شرقى أن يوقع بالزعيم الأفغانى ، لولا ما عمد إليه هذا الأخير من الحيلة المشوبة

بالغدر على أثر إحدى مرات التصالح والهدنة، إذ سقط على مقام ملكه جهان ، زوجة ملك الشرق ، فأخذها فى أسره ، وإن ردها من بعد ذلك مكرمة إلى بلادها .

وبلغ بهلول بغيته آخر الأمر على كل حال بالاستيلاء على إقليم جونبور فأقام ابنه باربك عليه ، كما بسط سلطانه كذلك على كالبى ودهلبور وبارى وموار وموات .

وفيما كان السلطان اللودهى فى طريقه إلى عاصمته ، بعد استيلائه على كواليار ، دهمته الحمى فلقى حتفه عام ٨٩٣هـ/١٤٨٨م .

ولئن لم تترك الحروب المتواصلة التى خاضها بهلول أودهى وقتا كافيا له للالتفات إلى تنظيم شئون حكومته ، فقد أدت انتصارته إلى استرداد الكثير من هيبة الحكم الإسلامى الضائعة بالهندستان . وقد عرف هذا الجندى الموهوب بإجراء العدل فى بلاده مع الكرم والعطف الكثير على الفقراء وتقدير العلماء ، وفرط الزهد والتقوى حتى قيل بأنه أمر برفع اليواقيت والأحجار الكريمة عن العرش .

واختلف الأمراء فيما بينهم حول من يجلسونه على عرش بهلول ، فمنهم من رشح له همايون حفيد السلطان الراحل ، ومنهم من انتصر لباربك خان أكبر أولاده . حتى أفلحت السلطانة زينة آخر الأمر ، بحسن تدبيرها ومعونه خان جهان لوحانى وخان خانه فرمل ، – فى تغليب الرأى القائل بإلقاء مقاليد الحكم إلى الأمير نظام خان ، وهو الذى رقى العرش باسم سكندر شاه[1] .

وسار السلطان الجديد سيرة أبيه فى تدعيم ملكه ، فبرز من فوره للقضاء على أولئك الذين أعلنوا الخروج عليه من جديد – وهى ظاهرة إقطاعية كانت تلازم كل سلطان جديد يلى الحكم ، فإن أنس الأمراء فى أميرهم الجديد القوة والحزم بادروا بإعلان ولائهم له ودخولهم فى طاعته ، وإلا فهم يتمادون فى طغيانهم ، ويحاكيهم فى ذلك غيرهم من جيرانهم إلى حد أنهم قد لا يترددون فى تهديد العاصمة نفسها بقواتهم .

---

(١) طبقات أكبر ص ١٥٩ .

وانتزع سكندر شاه قلعة ربرى ومعها حصن دجندوار من أخيه الثائر علم خان ، وما زال يطارده من بعد ذلك حتى استسلم له عند أتاوه ، كما استسلم له بدوره ابن عمه عيسى خان عند باتيالى .

وسار السلطان اللودهى من بعد ذلك إلى جونبور ، وكان بها أخوة باربك الذى رفض الإقرار له بالولاء . وقد أدى إلى انهيار مقاومة هذا الأمير الثائر انضمام قائده محمد خان فرملى المعروف بكالا بهار إلى صفوف صاحب دهلى . على أن سكندر شاه ما لبث أن رد أخاه إلى إمارته ، وسير معه فريق من القادة الأفغان لتدعيم تلك الجبهة الشرقية التى كان يكمن فيما وراءها بيهار السلطان حسين شاه شرقى فى انتظار الفرصة المواتية لاسترداد أراضيه .

ولم يرجع سكندر شاه إلى عاصمته فى عام ٨٩٧هـ/١٤٩٢م حتى كانت كالبى وكواليار وبيانه قد دخلت جميعها فى طاعته بدورها([1]) .

ونزع أصحاب الأراضى فى جونبور إلى الثورة من جديد بتحريض من أميرهم السابق ، حتى اضطر باربك خان للفرار إلى محمد خان فرملى فى كالبى . وأدى تفاقم أمر العصاة الهنادكة هناك إلى خروج السلطان بنفسه إليهم ، حتى بلغ جنار فأنزل بهم هزيمة شديدة . لكن خسائره الكثيرة فى هذه المعارك وانتشار الأمراض والمجاعة فى صفوف جيشه ما لبثت أن أيقظت الآمال كرة أخرى فى صفوف الثوار ، فبعثوا يحرضون السلطان حسين شرقى على القدوم إليهم . وقد أفلح خانه خان فرملى أن ينزل بقوات هذا السلطان الشرقى الكبيرة ، ومعها قوات جيرانه من الهنادكة ، هزيمة حاسمة على كل حال عند بنارس ، فر حسين شاة على أثرها إلى بهار ، فما برحت قوات دهلى تطارده هناك حتى لجأ آخر الأمر إلى كلجام من أعمال لكهناوتى فقضى بقية عمره فى ضيافة صاحب البنغال .

وشجع سقوط بهار فى أيدى قوات دهلى عام ٩٠٠هـ/١٤٩٥م السلطان سكندر على الزحف إلى البنغال ، فبلغ حدودها بعد أن دخل ترهوت وأخذ الولاء من أميرها الهندوكى . وبرغم مسير دانيل خان فى قوات كبيرة لمدافعة الغزاة بأمر

---

(١) مخزن أفغانه وتاريخ جهان لودى لنعمت الله ترجمة برنهارد ص ٥٦ .

من أبيه علاء الدين أمير البنغال ، فقد تحاشى الطرفان آخر الأمر النزال الجدى على تعهد من علاء الدين بعدم إيواء الخارجين على سلطان دهلى ببلاده .

ورجع السلطان اللودهى عن هذه الأقاليم الشرقية بعد أن عهد إلى درياخان لودهى بإقليم بهار على أن تكون شئون الخراج فى ترهوت وما حولها لأعظم همايون بن خان جهان فرملى .

وضاق سكندر شاه ذرعا بمضايقات أمرائه الأفغان الإقطاعيين ، بعد أن كشف عن تآمرهم على قتله ، فلم يكتف بما أنزله بهم من عقوبات صارمة حتى استقر رأيه آخر الأمر ، فى سبيل إحكام رقابته عليهم ، إلى اتخاذ مقام حصين يتيسر له منه تضييق الخناق عليهم فى أتاوه وبينه وكول وكواليار ود هلبور ، فأنشأ مدينة آكرا الحالية على نهر جمنه إلى الجنوب من دهلى عام ٩١٠هـ/١٥٠٤م . ومن أسف أن هذه المدينة التى زخرت بكثير من المنشآت الجميلة فى وقت قصير ، ما لبث أن اجتاحها فى العام التالى زلزال مدمر خرب أغلبها .

وقضى سكندر شاه بقية أيامه ، حتى لقى ربه عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م ، فى مواجهة عصيان أمرائه الأفغان بأغلب نواحى بلاده ، ذلك العصيان الذى دفع بالأمراء الهنادكة فيما بعد إلى الجنوح للثورة بدورهم واقتطاع كثير من أراضى الدولة لأنفسهم .

وبموت هذا السلطان فقدت دهلى اقدر حاكم عرفته من بين اللودهيين وأعدلهم. فقد راقب سلوك عماله نحو رعاياه فى حزم ويقظة أعانه فيها شبكة قوية من العيون كانت منتشرة فى أنحاء سلطنته(1) . وبلغ من بره وعدله كذلك أنه كان يجلس للاستماع إلى شكاوى الأهلين بنفسه ، كما عمل على توفير الأقوات لهم ، وضبط أسعارها ضبطا محكما . هذا كما كان يأمر من حين لآخر بإحصاء الفقراء والمعوزين ومنح كل واحد منهم من المؤن ما يكفيه لأشهر ستة .

---

(1) طبقات أكبرى ١٧ .

وكان من أثر شدة شغف هذا السلطان بالمعرفة أن انقلت فى عهده إلى اللغة الفارسية – لسان العصر العلمى بالهندستان إذا ذاك – جملة من المؤلفات السنسكريتية المهمة خصوصا فى الطب .

هذا كما قضى كذلك على عصابات اللصوص وأمن الدروب والطرق. وعنى عناية فائقة برواج التجارة ، وشجع الحرف والصناعات ، والتفت التفاتا كبيرا إلى اشتغال الجند ورؤسائهم بها فى أوقات السلم والفراغ .

ولئن أدى اهتمام هذا السلطان البالغ بنشر الإسلام فى ربوع بلاده ، إلى هدمه لبعض المعابد الهندوكية وإقامة مساجد للمسلمين مكانها ، أو قتله بعض من رفض اعتناق الإسلام من الهنادكة فإن مثل هذا الصنيع ، وإن كنا لا نقره اليوم ، لم يكن إلا ظاهرة ظواهر العصر العامة التى كانت تنشر فى أوربا بدورها كذلك[1] .

وخلف سكندر ابنه إبراهيم على عرش الهند ، ولكنه لم يكن له من حزم أبيه وشدة باسه نصيب . فانطلق الأمراء الأفغان من عقالهم يجهرون بالعصيان حتى أخذ بناء السلطة يتصدع ينتهى به الأمر إلى الانهيار التام على يد الأمير التيمورى ظهير الدين محمد بابر حين دخل الهند غازيا .

ولقد حاول هذا السلطان اللودهى الجديد أن يخطب ود الأمراء الأفغانيين أول الأمر بالرفق والصلات وحسن المودة ولسكنهم ، وقد كانوا يعتقدون أن إقطاعاتهم وإماراتهم لم تصر إليهم إلا بقوة سيوفهم ، ما كانوا ليركنوا إلى السلم إلا إذا استشعروا فوق رقابهم يدا قوية مثل يد سكندر شاه .

وإلى جانب هؤلاء الأمراء الأفغان ، كان الأمراء الهنادكة بالراجبوتانا تفيض نفوسهم بالكراهية لبيت اللودهيين ، تلك الكراهية التى زاد من رسوخها عندهم سياسة سكندر لودهى الدينية التى أشرنا إليها من قبل .

---

(1) Prasad Medieval India p. 482.

وما لبث فريق من هؤلاء الأفغان المتآمرين ، أن أجمعوا أمرهم على المناداة بجلال الدين بن سكندر شاه سلطانا على جونيور ، على أن يقتصر سلطان إبراهيم على دهلى وما حولها .

ولئن أفلح خان جهان لوحانى ، أحد كبار رجال السلطان سكندر، فى حمل طائفة من المتآمرين على الرجوع إلى صفوف سلطان دهلى ، إلا أن ذلك لم يثن جلال الدين وطائفة أخرى معه عن المضى فيما كانوا قد اعتزموه من الأمر .

هنالك لم ير إبراهيم اللودهى مناصا من الخروج لقتال أخيه ، فحبس أخوته الآخرين بحصن هانسى فبقوا به إلى آخر حياتهم ، ثم ما زال بجلال الدين حتى انفض عنه فريق كبير من جنده وقادته وفيهم أعظم همايون شيروانى ، واضطر هو نفسه للفرار إلى كواليار .

ولم يطل بالأمير الثائر المقام فى هذا الإقليم ، إذ سير إليه أخوه قائده أعظم همايون لودهى ، فقصد إلى مالوه التى غادرها بدورها بعد قليل لما لحظه من فتور سلطانها محمود الخلجى نحوه . وفيما كان فى طريقه إلى راجا كرفته وقع فى أيدى عمال غوند فسيروه فى الأغلال إلى أخيه ، ليلاقى مصرعه وهو فى طريقه إلى حصن هانسى(1) .

وضاق السلطان ذرعا بأمرائه آخر الأمر فانقلب يشتط فى معاملتهم ويمعن فى إنزال ألوان التعذيب والهوان بمن تصل يده إليه منهم .

وجاء زجه فى الحبس بقائده أعظم همايون شيروانى وابنه فتلغخان بعد استدعائهما من كواليار ، بمثابة الزيت على النار . فما لبث فريق من القواد الناقمين على مسلكه الغاشم ، أن التفوا حول أعظم همايوان لودهى وإسلام خان بن أعظم همايون شيروانى ، فالتحموا بقواتهم التى كانت تنوف على أربعين ألفا من الفرسان وخمسمائة من الفيلة ، مع جند إبراهيم اللودهى فى قتال عنيف عند أوده ، كاد يكتب لهم الظفر فيه لولا سقوط إسلام خان وأسر قائد كبير آخر هو سيد خان .

---

(1) تاريخ فرشته أول ص ١٩٠ .

وضاعف هذا النصر من قسوة هذا السلطان الذى ذهب يطيح برءوس أعدائه فى تهور بالغ فكان من بين قتلاه أعظم همايون شيروانى وحسين خان فرملى ثم ميان بهوره وزير والده سكندر .

وسار إبراهيم من بعد ذلك بقواته إلى ميوات فانزل بجموع الأمير الهندوكى رانا سنكا ، أعظم أمراء الراجبوتانا ، ضربات قوية برغم استبسالها الشديد ، فلم يكتب للرانا نفسه ، وقد أثخنته جراحه ، الهرب من الميدان إلا بمشقة بالغة .

وكثر عدد الخارجين على هذا السلطان السفاك نتيجة لعنفه هذا ، حتى نادى بها درخان لو حانى بنفسه سلطانا على بهار باسم محمد شاه ؛ وانضم إليه كثير من الأمراء فى الأقاليم المجاورة له فاستقام له قوة عسكرية كبيرة بلغت مائة ألف من الفرسان ، زحف بهم حتى سنبهل حيث أوقع بجيش دهلى هزائم متكررة .

ولم يدر السلطان اللودهى حين أرسل يستدعى إليه دولت خان لودهى أمير البنجاب – وكان قائدا قديرا قوى الشكيمة مرهوب الجانب – أن لفتته هذه ستنتهى إلى القضاء الشامل على ملك اللودهيين كله بالهندستان .

ذلك أن هذا الأمير حين استدعى إلىآكرا ، مقر اللودهيين الجديد لزم داره قطنا ، حذرا ، وبعث بابنه دولار خان إلى هناك بدلا منه ، معتذرا باشتغاله بجمع الخراج . وعاد الولد إلى أبيه ليروى له ما أطلعه عليه السلطان إبراهيم بنفسه من كبار الضحايا العديدين الذين ما زالت جثثهم معلقة على الأسوار جزاء العصيان .

هناك رحل دولار خان من عند أبيه كرة أخرى ، ولكن كانت وجهته هذه المرة كابل ليحرض صاحبها السلطان ظهير الدين محمد باربر باسم أبيه على غزو سلطنة اللودهيين . وكذلك فعل علاء الدين علم خان عم صاحب دهلى([1]).

---

(١) تاريخ فرشته ١٩١ .

ولم يكن الأميران اللودهيان يرميان من وراء دعوتهما هذه إلا القضاء على إبراهيم اللودهى وخلاص الأمر لهما من بعد ذلك بالهندستان . لكن أمير كابل مضى يفتح الهند حتى جلس هو نفسه وأولاده من بعده على عرشها ، وذلك بعد أن قضى على السلطان اللودهى فى موقعة يانى بت الشهيرة عام ٩٣٢/١٥٢٦م . وبهذا انتقل حكم الهندستان من أدى الأفغان اللودهيين إلى أيدى الأتراك الجغتائيين .

الدولة الإسلامية

في دورها الأول بشبه القارة الهندية

كان الفتح الإسلامي للهند بداية عهد جديد مزدهر تجلت آثاره الأولى أيام الحكم العربي في السند بإعادة الاتصال الثقافي بين هذه البلاد ومهاد الحضارة في أرض الفراتين .

وكان الغزاة الأول لهذه البلاد من العرب أشد تمسكا في الغالب بمبادئ الإسلام الرحيمة من الأتراك والأفغان الذين وفدوا على الهند من بعدهم ومعهم كثرة من الفرس ، فبسطوا نفوذهم على شبه القارة الهندية ودفعوا بعجلة الحضارة الهندية إلى السير من جديد .

ذلك أن هؤلاء الغزاة كانوا كذلك قد صحبوا معهم جملة من علماء المسلمين وحملة الثقافة الإسلامية التي كانت قد بلغت بدورها خارج الهند إذ ذاك درجة كبيرة من الكمال ، فكان لهم أياد وآثار بارزة لا تنكر في رقي الهند وتقدمها وازدهار المدينة والحضارة بها .

هذا وكانت الهند بدورها ، على الرغم من تفككها السياسي ، ما تزال للحياة العقلية بها سوق رائجة ، حتى دهش المسلمون لما وجدوه بها من صنوف المعرفة وضروب المدنية والحضارة . وفيما كتبه أبو الريحان البيروني ثبت قيم لما رآه بها وشاهده في أغلب هذه النواحي(1) .

وبرغم اختلاط هذه الثقافات المختلفة وامتزاجها وتأثر المسلمين والهنادكة ، كل بنصيب من عادات الآخر وتقاليده ، مما يرد عادة إلى إدمان الجوار في البيئة الواحدة المشتركة ، فقد ظل كل فريق منهم على كل حال محتفظا بصفات جوهرية، تميزه عن الفريق الآخر تميزا ملحوظا ، منشؤها اختلاف العقائد وأسسها الاجتماعية من جهة ، وتباين أصول الثقافات المنبنية عليها من جهة أخرى .

---

(1) وأشهرها كتابه « ذكر ما للهند من مقولة للعقل أو مرذولة » وقد نقل إلى لغات أوربية عدة .

ولم يكن سيف الفتح هو الذى ساعد فى الغالب على انتشار الإسلام بالهند ، أو ميل بعض القوم إلى تقليد حكامهم والتقرب منهم ، أو حتى طموح فريق من أهل البلاد إلى تقلد بعض المناصب الكبرى التى كانت وقفا على المسلمين فى الدولة ، إنما كان العامل الأول فى دخول كثرة من الهنادكة فى الدين الإسلامى هو ما لمسوه من قيام المساواة التامة بين أصحابه وانعدام نظام الطبقات عندهم ، ثم الهروب من استبداد البارهمة والتخلص مما كان يلزم به غير المسلمين عادة من الجزية

ولقد قامت الدولة الإسلامية فى الهند على أيدى رجال الحرب فى الغالب ومن ورائهم رجال الدين ينكون فيهم روح الجهاد لنشر الإسلام فى هذه البلاد دون إكراه فيه ، فمن دخله صار له ما لأهله من الحقوق ، ومن أعرض عنه فرض عليه ما يفرض عادة على غير المسلمين من جزية دون عنت أو إرهاق .

وشهد المسلمين بما سبق عدول من مؤرخى الهنادكة أنفسهم(1) ومعهم طائفة من المؤرخين الأوربيين ، فذكروا أن أهل البلاد كانوا يعيشون فى أمان بكنف المسلمين ، فلم يكن ما تعرضوا له من مضايقات فى بعض العهود إلا حالات فردية عارضة لا تمت إلى تعاليم الإسلام نفسه بسبب(2) .

ولئن كان بعض السلاطين من أمثال سكندرلودهى قد حدوا من حرية الهنادكة الدينية فحرموا عليهم إقامة معابد جديدة أو حتى ترميم القديم منها ، فهناك كثيرون غيرهم من أمثال محمد تغلق ضربوا صفحا عن احتجاج فريق من رجال الدين المسلمين ، فأظهروا تسامحا مطلقا نحو هؤلاء الذين لم ينعموا بحرية العبادة كاملة فى أيامهم فحسب ، بل وشاركوا مشاركة فعالة كذلك فى أداة الحكم ومناصب الدولة(3).

---

(1) Prasad Nedieval India 509.10,Havell p. 257.

(2) Arnold, The Preaching of Islam p.420.

(٣) يقول لين بول أن الإسلام يلائم ، ببساطته ، العقلية الهندية أكثر من المسيحية ، وأن الحكومة الإسلامية ، مهما يكن من عيوبها ، كانت أفضل حكومة عرفها الهنود ، ويجعل ذلك من الأسباب التى أدت بالأهلين فى الغالب إلى الدخول فى هذا الدين وطاعة أصحابه .Med. Indiap 4.

هـذا وكان سلاطين الهند المسلمين عموما مستقلين تمام الاستقلال عن الخلافة العباسية ، فلم يكن ما سعى إليه فريق منهم ، مثل التمش وآل تغلق ، من خطب ود الخليفة إلا من باب التشريف الدينى طلبا لمزيد النفوذ بين بنى قومهم ، فقد ضربوا السكة باسمه وأجروا الخطبة بالدعاء لهم وحدهم فى الغالب .

ولقد بهرت كنوز الهند الطائله أنظار غزاتها الأولين فشغلوا بها وبالفتوح عن الالتفات الجدى لتنظيم شئون الحكم وإرساء قواعده ، حتى جاء السلطان بلبن فطفق يعمل على إقرار الأمن فى البلاد وبذل غاية الجهد فى القضاء على قطاع الطرق وعصابات اللصوص فى رقعة بلاده الواسعة ، فانتعشت بذلك تجاره الهند وزراعتها .

وواصل الذين جاءوا من بعده عنايتهم بالحالة الاقتصادية ، فوضع علاء الدين الخلجى نظاما ثابتا للضرائب وعنى بالزراعة عناية فائقة حتى توفرت الأقوات فى البلاد وعم اليسر والرخاء . وكان هذا السلطان هو كذلك أول من أحكم ضبط الأسعار فى بلاده الواسعة . وقد شاهد ابن بطوطة بنفسه أهراء الحبوب التى كانت علاء الدين قد أقامها بدهلى .

وما برحت هـذه المخازن السلطانية أمدا طويلا تمد السكان بالأرزاق والحبوب إبان المجاعات العنيفة التى كانت تجتاح الهند عادة حين تتحبس الأمطار الموسمية عنها . هـذا كما كانت الخانقاهات والمطابخ السلطانية ، المنتشرة فى أنحاء البلاد ، تقوم يوميا بإطعام حشود الأهلين فى هـذه الأزمات المخيفة .

ويعرض علينا الرحالة العربى ابن بطوطة صورا مفصلة لألوان الحياة فى الهند التى زارها فى القرن الثامن الهجرى ، ويشيد بقيام العدل وشيوعه وانتشار الأمن والطمأنينة بالبلاد .

كذلك يتحدث ابن بطوطة عن انتشار الرقيق فى الهند ، وقد كانوا علىٰ كل حال ينعمون فى ظل سادتهم بالكثير من الرعاية حتى رأينا الكثيرين منهم

خون مراتب القيادة والوزارة ، بل لقد حكمت الهند يوماً ما أسرة كلها من ماليك(1) .

هذا ويذكر الرحالة العربي أيضاً أن الخوانق والحمامات البيمارستانات(دور الشفاء) كانت منتشرة في طول البلاد وعرضها ، كان يقدم في الأخيرة منها الغذاء والدواء للفقراء بالمجان .

ولعل من أهم ما يلفت النظر فيما ذكره ابن بطوطة عن الهند أنه وجد دينة هناور ثلاث عشرة مدرسة للبنات وثلاث وعشرين مدرسة للصبية ، مما وم دليلاً على عناية الدولة بتنشئة أبنائها تنشئة صالحة ، وعدم إهمالها لشأن مرأة بصفة خاصة(2) .

كما يشير كذلك إلى منع الحكام المسلمين ممارسة الهنادكة لعادة الساتي بشعة ، فلم يبيحوها لهم إلا في أحوال قليلة نادرة وبإذن من السلطان نسه(3) .

كذلك تحدث ابن بطوطة عن رواج الحركة التجارية بالهند ، وقد أى بنفسه التجار الأجانب يزحمون موانيها الغربية ، لا سيما بروج وكاليكوت ، شراء منتجات هذه البلاد الوفيرة ، أو بيع ما كانوا يأتون به من منتجات ارس وخراسان والعراق ومصر(4) .

وكان إقليم الكجرات ، أهم مراكز الهند التجارية منذ القدم ، ينعم أهله صفة خاصة بقدر وافر من الثراء ، وكانت أرضه تنبت أجود الكروم والقطن .

---

(1) ابن بطوطة ثالث ص127 – 193 – 236 .

(2) ابن بطوطة رابع ص 67 .

(3) عادة الساتي هي إقبال المرأة الهندية على حرق نفسها حية مع جثة زوجها ما لم يكن لها ولد في الغالب .

(4) ابن بطوطة ثالث ص 405 ورابع ص 86 .

ومن ميناته كمباى كانت تصدر البهارات والنيلة فيقايضها التجار بالذهب والفضة والنحاس .

هذا كما كانت الصناعات تقوم فى أنحاء متفرقة به ، ومنها النسيج مختلف أنواعه . واشتهرت الكجرات كذلك بضرب من المصنوعات الجلدية عليها نقوش الطير والحيوان ومكفته بأسلاك الذهب والفضة[1] .

على أن اقتصاديات البلاد ما عتمت على أثر الغزو التيمورى أن أخذت فى الانهيار . ذلك أن هذا الغزو ، فضلا عن استنزافه لثروات البلاد وتخريبه لكثير من المدن الهندية ، قد أدى إلى انفراط عقد الدولة الإسلامية فى الهند وتفككها إلى ولايات صغيرة كثيرة حتى اقتصر سلطان دهلى على ولاية صغيرة كانت أقل الولايات الهندية جميعا دخلا وثروة .

وقد نعمت الولايات التى لم تتعرض لهذا الغزو وآثاره ، فى نفس الوقت بكثير ، من الرخاء إذ أوقفت بدورها دخلها ومواردها على نفسها . وكانت البنغال أوفر الأقاليم الهندية جميعا حظا فى هذه النواحى .

وبلغ فن العمارة والنقش فى عهد الحكم الإسلامى بالهند درجة رفيعة من الروعة والرقى يدل عليها مسجد آجمير ومسجد القطب بدهلى ومنارته، التى ترتفع إلى ٢٤٢ قدم ويتوجها المرمر فى أجزائها العليا ، وكثير من المدارس والبيمارستانات التى نجت من تخريب الحروب .

وهذا ابن بطوطة لا يفوته فى كتاب رحلته أن يشيد بما كان عليه قصر محمد تغلق ، ذو الألف عمود بدهلى من الروعة والبهاء[2] .

وكان من الطبيعى أن يستخدم الحكام المسلمون رجال المعمار من أبناء الهند فى إقامة منشآتهم هناك ، فقد كان للعمارة فى الهند القديمة سوق رائجة تدل عليها آثارها القديمة الخالدة ، فجاءت الأنماط هندية فى نواتها ، وللبقاع تأثير فى الطباع

---

(1) Marco Polo Vol 2 pp.328,33

(٢) ابن بطوطة ثالث ٢١٧ – ٢٢٠.

كما يقول المقدسى الجغرافى . على أن هؤلاء الفنانين حرصوا فـــى تصميماتـــهم ، بتوجيه من حكامهم ، على أن توائم النهج الإسلامى وتساير التطور الفنى فى البـــلاد الإسلامية ، دون أن يطغى شئ من ذلك كله علـــى طابعـــها الأصيـــل ، فـــأضيفت النقوش والزخارف العربية والفارسية إليها ، كما اقتبست بعـــض الطـــرز بدورهـــا منها[1] .

ولقد رأينا كيف بهرت العمارة الهندية السلطان محمود الغزنوى ثـــم الغـــازى تيمورلنك من بعده حتى صحب معه إلى بلاده مئات من رجال المعمار الـــهنود الذين عهد إليهم بإقامة منشآت كثيرة بعاصمته سمرقند ، من بينها مسجدها الجـــامع « مزار شاه » الذى بناه حول مقام الصحابى قيم بن العباس فـــاتح المدينـــة ، كمـــا سجلوا له كذلك فتوحاته وحروبه الهندية بنقوشهم على جدران قلعته هناك[2] .

وحين اســـتقر بالهند ســـلاطين المســـلمين ، من بعد الغزنويـيـــن ، طفقـــوا يستخدمون فى الغالب أطلال المعابد الهندوكية ومخلفاتها فى إقامة منشآتهم هناك .

وصادفت العمارة الإسلامية بالهندستان رواجا كبيرا على أيدى السلطان علاء الدين الخلجى ، الذى أنشأ كثيرا من القصور والحصون والخزانات ويروى أن كـــل عمود من عمد قصره الألف بأساسه رأس مغولى من الذين أســـرهم فـــى حروبـــه معهم. وقد أطلق هذا السلطان يد البذخ فىالإنفاق على منشآته بفضل كنوز الدكـــن والجنوب التى أتى له بها قائده كافور:

وحين تفككت عـــرى سلطنة دهلى أعقـــاب الغـــزو التيمـــورى ، رأينـــا ملوك الطوائف بدورهـــم يبذلون عناية كبيرة بالعمارة التى اختلـــط فيـــها عندهـــم الطراز الهندى بالطرز الإسلامية التى كانت شائعة خارج الهند ، وهى التـــى أتـــى لهـــم بهـــا فريق من رجال المعمار الفرس والترك الذين وفدوا إليهم فيمن وفـــد من رجال الفنون والعلوم . ولايزال كثير من هذه الآثار قائمـــا حتـــى اليـــوم فـــى جونبور والكجرات ومالوه وبلاد بهمنى الدكنية وبيجابور وأحمد نكروفياپا نسكر .

---

(1) Arderry, Legacy of Parsia, p.64.

(٢) بابر نامة ورقة ٤٥ب وما بعدها .

ولقد رأينا كيف كان يعج بلاط محمود الغزنوى بالشعراء والعلماء والمؤرخين وفيهم البيهقى صاحب تاريخ آل سبكتكين والعتبى الوزير صاحب تاريخ اليمينى (يمين الدولة محمود الغزنوى) ، ثم العلامة أبو الريحان البيرونى صاحب التآليف المشهورة عن الهند والعارف بلغاتها وعلومها وعوائدها[1] .

ولم يكن الذين خلفوا محمود فى الهندستان دونه فى رعاية العلوم والآداب والفنون ، إذ كانوا قد وفدوا إلى هذه البلاد من أماكن راجت فيها أنواع المعارف والثقافات الإسلامية ، فرحبوا على الدوام بالعلماء والأدباء المسلمين الذين لم ينقطع قدومهم إلى بلاط دهلى وغيرها من الإمارات الإسلامية بشبه القارة .

هذا وكانت لغة التأليف والكتابة عند علماء المسلمين بالهند هى الفارسية وقد نبغ فريق منهم فى الكتابة بالسنسكريتية نفسها كذلك ، وفيهم الشاعر خسرو الدهلوى « غز يد الهند » الذى تتجلى فى أشعاره دقة الأحاسيس والعواطف وسمو الغزل والوصف فى الحرب والحب على السواء. وقد عاش هذا الشاعر حقبة طويلة من عمره ببلاط السلطان محمد تغلق كتب فيها ديوانه (غرة الكمال) وترجم للولى الزاهد الشيخ نظام الدين أوليا . ويشهد على وفرة محصول خسور هذا فى كافة نواحى المعرفة ما تركه من منثورات ومنظومات بالفارسية والسنسكريتية والعربية تجدها فى أشهر كتابين له وهما « إعجاز خسروى » و«خزانة الفتوح » . وعاصر الدهلوى ، من شعراء القرن الثامن الهجرى بالهند ، بدر الدين المعروف ببدر شاخ (نسبة إلى مدينة طشقند) ، والقاضى عبد المقتدر الشانهى صاحب المنظومات العربية والفارسية ثم فقيه آل تغلق معين الدين عمرانى .

---

(١) أجمع المؤرخون على أن البيرونى كان يجيد السنسكريتية ، وأنه أفاد من الحكماء الهنود فى التاريخ والرياضة والعلوم الطبيعية . وقد أخذ كثيرا من معلوماته التى قيدها فى كتبه التى أربت على المائة ، من أفواه العلماء لا من بطون الأسفار . (تعليقات القزوينى على كتاب جهار مقاله لنظامى السمر قندى ترجمة عبد الوهاب عزام ويحيى الخشاب ص ٥٣٠) .

أما كتاب النثر فمنهم مولانا خواججى ، وأحمد تنيسرى صاحب أخبار الأخبار ، والقاضى الشانهى بليغ العربية ، وعين الملك الملتانى صاحب ديوان الرسائل عند الخلجين ثم آل تغلق من بعدهم . وقد ترك هذا الكاتب مجموعة من الرسائل الديوانية تعرف باسم « إنشاء ماهرى » تعد ثبتا لأحوال الهندستان الاجتماعية والسياسية فى زمانه .

أم المؤرخون فنذكر منهم أبا عمر وعثمان منهاج السراج صاحب «طبقات ناصرى» ، وضياء الدين بارنى صاحب تاريخ فيروز شاه الذى سجل فيه كثيرا من فنون المعرفة فى عصره ، وقد أكمله من بعده شمس السراج عفيف فى عناية بالغة. وأخيرا غلام يحيى بن أحمد صاحب تاريخ مبارك شاه .

هذا إلى كثير غيرهم من المشتغلين بعلوم الحكمة والفلسفة([1]) والفقه ، ومنهم أولئك الذين ذاع صيتهم فى إقليم جونبور ، على الخصوص ، من علماء دهلى الذين كانوا قد لجئوا إلى هناك هربا من وجه الغزو المغولى ، ومعهم فقهاء اللودهيين من أمثال القاضى شهاب الدين الدولتا بادى صاحب حواشى الكافية والإرشاد ، والفقيه إله داد شارح الهداية ، والفيلسوف مغيث حسنوى. ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن حركة النقل من السنسكريتية التى كان العرب قد بدءوها فى القرن الثانى الهجرى لم تتوقف ،وإنما صارت ببلاط دهلى إلى الفارسية بدلا عن العربية . وكان المسلمون فى الهند هم الذين يقومون على ذلك بأنفسهم فى الغالب ، فقد رأينا فيروز تغلق ، حين ظفر بمكتبة سنسكريتية فى حصن نكركت ، يعهد إلى مولانا عز الدين خالد خانى بأن ينقل إلى الفارسية جملة من كتبها فى الفلسفة والفلك، وتعرف هذه المجموعة باسم دلائل فيرز شاه .

كما نقلت كتب طبية سنسكريتية أخرى إلى الفارسية كذلك أيام سكندر لودهى، هى وأقسام من المهابهارتا وغيرها من كتب الهند الدينية والتاريخية القديمة والملاحم .

([1]) Prasad. India P. 569. 72.

وكما أطلق الحكام المسـلمون للهنادكة الحرية الدينية فى أغلـب الأحيـان ، فكذلك تركوهم يمارسون الكتابة والتأليف بلغتهم فى حرية تامة حتى فـى المذاهـب الدينية والفلسفية الخاصة بهم .

ولقد أشـرنا من قبل إلى أن اختـلاط المسلمين بالهنادكة فى بيئة جامعة قـد نشأ عنه تبادل كثير من التقاليد والعادات . ويظهر أثر تعاليم الإسـلام قويا بـادى الوضوح عند بعض المصلحين من الهنادكة أمثال نامديوا كبير ونانـك الذين أنكرا عبـادة الأوثان والقول بتعدد الآلهة وتحريم زواج الأرامـل وممـارسة عـادة السـاتى وقيـام نظام الطبقات بين الناس . وقد نادى هؤلاء جميعا بالتوحيد وقـالوا بأن الله هو رب الناس جميعا من مسلمين وهنادكة وغيرهم . بل لقد صرح نـانك ، مؤسس السك ، باحترام شيعته وتقديسهم لرسل الله وأنبيائه كافة، مع الإشادة بذكـر النبى الأكرم والقرآن الكريم خاصة .

هكذا كان الحكم الإسلامى فى الهند عهد ازدهار قوى ومصدر خير وبركـة لهذه البلاد وإن عد من وجهة نظر الهنادكة ، بداهة ، كارثة قضت على اسـتقلالهم وهدمت الكثير من معابدهم ، إذا اغتصب الغزاة المسلمين بلادهم وراحوا يعلنـون العداء لمعتقداتهم باسم القضاء على الشرك والوثنية .

على أن هؤلاء الفاتحين المسلمين ما غدوا بعد قليل أن استوطنوا شبه القـارة الهندية واستقروا بها ، فلم تعد الكنوز والأموال والثروات التى انتقلت إلـى أيديـهم تتسرب بدورها إلى خارج الهند ، ذلك التسرب الذى ينتهى دائما إلى تعرض البـلاد المفتوحة إلى هزات اقتصادية عنيفة .

ولقد بهر أنظار الهنادكة أصحاب التراث القديم ، ما استجلبه المسلمون مـن ألوان الحضارة والمدنية الإسلامية التى تميزت فنونها على الأخص ببعدهـا عـن التجسيم الذى كان شائعا فى كافة نواحى الحياة الفنية الهندية ، هذا فضلا عن التقاليد الاجتماعية الرفيعة التى اعترف مؤرخوا الهنادكة أنفسهم بسمو أصولها الإسـلامية الأولى . وإلى جانب ذلك كله شهدت الهند جملة من الحكام الأكفاء من أمثال عـلاء الدين الخلجى وآل تغلق الذين عملوا فى إخلاص على النهوض ببلادهـم وترقيـة

الزراعة والصناعة والتجارة حتى توفرت الأقوات والأرزاق ونعم الناس قرونا عـدة باليسر والرخاء . وإلى جانب هؤلاء السلاطين العظام ظهرت طائفـة مـن القـواد الأفذاذ الذين دفعوا عن هذه البلاد أخطار الغزو المغولى المدمر مرات عديدة .

وكانت النهضات العلمية والأدبية والفنية التى عرفتها الهند على أيدى هـؤلاء الحكام فسادت هناك قرونا عدة ، هى بمثابة حجر الأساس لحضـارة أكـبر دولـة عرفتها هذه البلاد ، وهى الدولة المغولية التى أرسى دعائمـها الأمـير التيمـورى ظهير الدين محمد بـابر فـى النصـف الأول مـن القـرن العاشـر الهجـرى (٩٣٢هـ/١٥٢٦) فعمرت قرونا ثلاثة اتسعت فيها رقعتها حتى شملت شبه القـارة الهندية بأكملها ، وهى موضوع القسم الثانى من هذا الكتاب بإذن الله ...

القسم الثاني

الدولة المغولية

الترك والمغول

سلاطين الدولة المغولية الذين حكموا الهند قرابة قرون ثلاثة . فشهدت هذه البلاد على عهدهم أعظم نهضة وحضارة عرفتها فى تاريخها ، تمتزج فى عروقهم دماء الترك والمغول . فأبوهم ظهير الدين محمد بابر ، فاتح الهندستان ومؤسس هذه الدولة ، ينتهى نسبه من ناحية أبيه إلى الخاقان التركى تيمور لنك ويمتد عرقه من ناحية أمه إلى خان المغول الأعظم جنكيز .

والمغول والترك كلاهما قد سبق إلى غزو شبه القارة الهندية ، وكان لهما شأن خطير ودور هام فى تاريخ آسيا الوسطى بعامة ، وبلاد الشرق الإسلامى بخاصة مما يقتضى أن نتحدث عنهم وعن تاريخهم فى قدر من الإجمال قبل أن نفصل فى تاريخ الدولة المغولية نفسها .

فكم من مدن إسلامية زاهرة انتهبها برابرة الترك والمغول ثم دمروها، وكم من حصون وقلاع أفنوا حامياتها نبحاً ، ثم لم يتركوها حتى سووا أبنيتها بالأرض، وكم من ألوف كثيرة من السكان المسلمين نهبوا متاعهم ثم ساقوهم فى الغالب إلى حتوفهم ، وناهيك بالعدد الوفير من أصحاب الحرف الذين كانوا يسوقونهم من بعد ذلك للعمل عندهم .

على أن هؤلاء المخربين ، حين دخلوا فى دين الله أفوجاً وتمكن اتصالهم بالحضارة والثقافة الإسلامية ، ما غدوا أن انقلبوا فى الغالب إلى حماة للعلوم والفنون والآداب ، وإن لم يتخلوا أبداً عن ميلهم إلى سفك الدماء وإعمال السلب والنهب . فكنت تراهم فى الغالب يكدسون هامات ضحاياهم على هيئة المنائر والأهرامات ثم ينصرفون من بعد ذلك إلى تعمير المنشآت النافعة الكثيرة ويبذلون المال والتشجيع للعلماء والأدباء وأرباب الفنون ، حتى كان منهم من شارك أهل المعرفة نشاطهم ودروسهم ، لتشهد من بعد ذلك على أيديهم جملة من المدن ، التى خربتها أجدادهم من قبل ، نهضة ثقافية وحضارية فذة(١) .

---

(١) تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٩٥ – ٩٨ .

إن سلسلة الجبال الآسيوية الرئيسية العظمى التى تمتد من الصين شرقاً إلى شاطئ البحر الأبيض المتوسط غرباً ، والتى تبلغ غايتها من الارتفاع فى منطقة التبت ، وبجبال الهملايا التى تعرف بسقف الدنيا على وجه التحديد ، هى فى تشعبها وتفريعاتها ، كانت تعد بحق ، فى القديم ، حاجزاً بين الشعوب المتحضرة والقبائل التى لا تزال بآسيا على البداوة فى الغالب . فما من شعب سكن إلى الجنوب من هذه الجبال إلا وكان له فى التاريخ دور هام وفى الحضارة والثقافة نتاج قوى وإسهام كبير . ولدينا فى الهند القديمة وعلومها وفلسفتها ، وفارس وما كان لها من ملك عتيد وماض تليد ، ما يؤيد هذه الدعوى ويقوم دليلاً عليها .

وفى حين كانت الأراضى الواقعة إلى الجنوب من سلسلة الجبال الآسيوية تعج بالمدن الكبيرة والوديان الخصبة ، كانت المناطق الواقعة إلى ما ورائها شمالاً – باستثناء الصين وبلاد ما وراء النهر وما حول نهرى سيحون وجيحون – ما تزال تتجول فى أغلب مناطقها مجموعات عديدة من قبائل البدو ، ثروتها قطعان الأنعام، ومدنها وديارها صفوف من الخيام ، ودستورها العرف القبلى البدائى المتوارث .

وعرفت هذه المناطق الشمالية عند القدماء باسم بلاد السيث ثم أطلق عليها أهل الصين من بعد ذلك اسم بلاد التتار .

وظل لفظ التتار يطلق على كافة القبائل التى تجاور الصين وتقطن الأقاليم الممتدة فى أواسط آسيا إلى الجنوب الشرقى من أوروبا حتى ظهور جنكيز خان فى القرن الثانى عشر الميلادى(1) . وبرغم اشتهار أمر المغول من بعد جنكيز خان فقد ظل صيت التتار القديم غالباً ، وصار اسمهم ساريا على المغول أنفسهم فى بعض بلاد أواسط آسيا وفى سوريا ومصر(2) .

---

(1) التتار عند الصينيين هم الغرباء والشعوب البعيدة والنور من الجماعات غير المتمدينة واللصوص . انظر : هارولد لامب : جنكيز خان ص ٢٤ .
ثم المقدمة الإنجليزية لترجمة تاريخ ريد لكاتبها H.Elias p.83.

(2) تاريخ الكامل لابن الأثير مجلد١٢ – المختصر فى أخبار البشر لأبى الفداء ، م٣ ، ٤ هذا ولعل تعريف المغول بالتتار ، وقد كانوا فى مبدئ أمرهم على بداوة وتأخر تام ، إنما هو من إطلاق التجار المسلمين نقلاً عن جيرانهم من الصينيين والأتراك .

هذا ؛ وقد سلك كثير من المؤرخين سكان هذه المناطق الشمالية فى عروق ثلاثة هى : العرق المنشورى أو المنغورى ، ثم العرق المنغولى أو المغولى(١) ، ثم العرق التركى .

أما المنشوريون فهم أغلب سكان الصين ، وإلى الغرب منهم منازل المغول ، ثم مواطن الأتراك الذين يجاورون الصينيين فى بعض المناطق .

وإلى الجنسين الأخيرين ينتمى سلاطين الدولة المغولية وكثير من القادة والجند الذين دخلوا معهم الهند واستقروا بها .

منازل الترك :

جاء اسم الترك صراحة ، أول مرة فى نقوش أورخون التى اكتشفها الأثريون فى منتصف القرن الماضى ، والتى يرجع تاريخها إلى القرن الثامن الميلادى . وتذكر هذه النقوش أن سلطان الأتراك كان فى القرن السادس الميلادى يمتد بين حدود الصين وحدود إيران وبيزنطة، وكانت قبائلهم تنتشر فى هذه المنطقة كلها(٢) .

وأدى اختلاط الأتراك بجيرانهم من أمم العالم القديم العريقة فى المدنية إلى وصول قدر غير قليل من حضارات هذه الأمم إليهم ؟، وناهيك بما أتاحه هذا الجوار من تسجيل للكثير من رسوم الترك ووقائعهم التى أغفلت الصين جارتهم الأولى ذكر أغلبها ، فلم يكن حديثها عنهم ليعدو ذكر قبائلهم .

ومما ترويه أخبار الصينيين القدماء أن قبائل « هونج نو » كانت تجاور بلادهم قبل ميلاد المسيح بعدة قرون . حتى إذا ما اشتد خطرها وتفاقم عداؤها عمدت أسرة تسن الحاكمة إلى بناء سور الصين العظيم لحماية بلادهم منهم ، فولوا

---

(١) نقصد بالعرق هنا الجنس . هذا ؛ والتسمية الصحيحة الواجبة هى منغول لا مغول واللفظ الأخير هو خطأ مشهور شائع .

(٢) ويؤكد الأستاذ بارتولد كذلك أن هؤلاء الأراك هم الحفاد الهون .
Barthold – Donskies : Hist. Des Turcs d'Asic centrale. Pp.6,16.

وجوههم من بعد ذلك صوب الغرب ونزلوا فى ولاية كانسوه إلى جوارتــل علـى هيئة الخوذة ، وهى « دور كاى » بالصينية ، فنسبوا إليها[1] .

وتم لهذه القبائل التركية فى القرن الثانى قبل الميلاد ، السيطرة على منــاطق متسعة الأرجاء فى أواسط آسيا[2] ، فكان الأويغور ينتشرون فيما بين نــهر تــانو والنهر الأصفر ، وتيان شان والتاريم ، كما مضارب القرغيز فى منطقة بنى ســى ، ومنازل القرلق والتوكوى فى التاى ، والياقوت عند الجنوب من سيبريا ، فى حيــن انتشرت قبائل تركية أخرى حول بحيرة بيكال وبحــيرة بلكــاش وعنــد ســيحون وجيحون حتى بحر الحزر .

ومناطق الأتراك هذه ، فضلاً عن ترامى رقعتها ، كان يتخللها صحـــراوات كثيرة متشعبة ، حتى لتبدو المناطق الزراعية بها أشبه بالواحات فى مواقعها ، ممــا أحال استمرار قيام دولة معمرة بها تعتمد على الزراعة ويتيسر لها فى نفس الوقــت إحكام الرقابة على قبائل البدو التى ظلت أبداً مصدر تهديد دائم لأى أرض تزرع أو مدن تقوم فى هذه النواحى .

ويستثنى من هذا التعميم بلاد ما وراء النهر التى تعرف أيضا باسم بخــارى الكبرى . فهى برغم وقوعها إلى الشمال من سلسلة الجبال الآسيوية ، قد يسرت لــها طبيعة أرضها ، وما بها من مجار للمياه عديدة ، مقومات الحضر ، فازدهرت فــى الغالب ما أفلح حكامها فى ضبط أمورها ورد غائلة كل عدوان خارجى عنها .

وعن طريق هذه البلاد ، التى تعد باب آسيا الوسطى والجنوبية نفذ الأتــراك والمغول إلى العالم المتحضر وأفلحوا فى إحداث تغييرات كثيرة خطيرة به .

---

(١) هذه المتسمية التى أوردها باركر (Engl Hist Rev . 1898 p.431 – 45) يجــب أن يقــابل بالحذر هى وما جاء من إشارات للترك عند هيرودوت ، وما ذكره الأستاذ بلوشيه من اشتقاق اسمهم من كلمة توره الواردة فى الابستاق القديمة RAS 1915 p. 305 - 8

(2) Czaplicka, M.The of Central Asia.

وقبائل « هونج نو » هذه التى تشتهر أيضاً باسم الهون ، تدفقت موجاتها مرات عدة على بلاد ما وراء النهر وفارس والهند ، كما عبرت الفولجا إلى الدانوب ، واكتسحت ولايات الإمبراطورية الرومانية ، وأنزلت ، بقيادة أتيلا ، هنات عنيفة بأوروبا كما هو معروف مشهور(١) .

ونتج عن اختلاط هؤلاء الأتراك بالفرس ، جيرانهم بأواسط آسيا ، أن نفذت إليهم ثقافة الساسانيين وحضارتهم الذين كانوا يسيطرون على كافة مسالك التجارة ودروبها فى العالم القديم .

وبزغ نجم الأويغور من بين الأتراك فى القرن الثامن الميلادى فحكموا فى أواسط آسيا ومنغوليا الحالية فى مكان الترك أو غوز « الغز » الذين اضطروا بدورهم إلى النزوح غرباً ، ليتألق نجمهم فى القرن الرابع الهجرى الموافق الحادى عشر الميلادى ، فيشمل نفوذهم من بعد ذلك بلاد التركستان وقشغر ، ويرثون جزءاً من ملك السامانيين ببلاد ما وراء النهر ويعرفون فى التاريخ باسم القره خانيين ، وكانت عاصمتهم أزقند إلى الشرق من فرغانه .

وإلى جانب هؤلاء كانت منازل القبجاق الترك تمتد حتى الفولجا ، وقد نشأت بينهم وبين بلاد خوارزم الإسلامية علاقات قوية .

وغزا القرغيز عام ٨٤٠م منازل الأويغور الذى آثروا الهجرة إلى حوض الترايم والواحات القريبة منه على معاشرة هؤلاء الذين كانوا على درجة كبيرة من التأخر ،وطفقوا هناك يمارسون التجارة والزراعة(٢) .

واتجه القره ختاى وهم مغول فى الغالب ، صوب الغرب بدورهم ، بعد أن طردتهم أسرة كين الصينية فى أوائل القرن الثانى عشر الميلادى من منازلهم

---

(١) يرجع بعض المؤرخين أن الهون لم يكونوا فى زحفهم أتراكا خلصاً إذ كان معهم كثير من المغول Degiugnes Hist. Gen des Huns Vol Ip212 ولعل المؤلف يقيس فى هذا على ماكان فى جيوش جنكيز وأبنائه من الأتراك .

(2) Grousset, R.L.Ewpire mongol. P.11.

بالصين الشمالية وصحراء جوبى ، فاقتحموا منغوليا على القرغيز ، ودخلوا إقليم خطان وهزموا خان قشغر القره خاني والسلطان سنجر السلجوقى ، وصالحوا أتسزشاه خوارزم على جزية قدرها ثلاثون ألف درهم يؤديها إليهم فى كل عام([1]) ، وبلغوا بلخ بعد أن بسطوا سلطاتهم على التركستان وبلاد ما وراء النهر كلها .

ولئن أدى زحف القره ختاى إلى فتح أبواب منغوليا لهجرات من المغول ، فقد لبثت القبائل التركية ، وغالبيتها من الأويغور والغز وبطونهما، هى صاحبة النفوذ فيما بين منغوليا وبحر الخزر . والأويغورهم أغلب الأتراك الذين وجدهم الغزاة المسلمون من العرب ببلاد ما وراء النهر حين دخلوها فى أواخر القرن الأول الهجرى .

حضارة الترك وإسلامهم :

تجمع كافة المصادر على أن الأويغور كانوا أرقى قبائل الترك قاطبة . وقد اجتمعت لهم مقومات الدولة بعد أن ارتقت الزراعة عندهم واتسعت رقعتها ، واستقرت حياتهم فى كثير من المدن التى أقاموها ، حتى بعثوا بسفرائهم إلى خارج بلادهم وعقدوا المعاهدات مع غيرهم من الدول .وبلغ ارتقاء الوعى القومى عندهم إلى أن ثاروا على بعض حكامهم لإمعانهم فى تقليد الصينيين أعدائهم .

وآثر هؤلاء الأويغور فى الغالب حضارة الصغد على حضارة الصين ، فاتخذ ملوكهم لأنفسهم لقب « شاد » مقابل لقب « شاه » الفارسى ، واستخدموا أبجدية ترد إلى أصول صغدية ، فكانت بذلك تتلاقى مع الأبجدية الفارسية الساسانية فى النسب ، وكتبوا بها قبل تدوين نقوش أورخون بزمن طويل([2]) .

---

(١) جرى القره ختاى أو الكورخانيون فى تقدير الجزية وفق النظم الصينية ، فعرضوا على كل بناء ديناراً واحداً .Barthold – Donskies p. 98

(2) Czaplicka p.24.

وانتشرت الكتابة الأويغورية بين شعوب آسيا الوسطى انتشاراً واسعًا[1] بعد سقوط دولتهم[2] ، إذا لبثوا ، برغم أفول نجمهم السياسي ، كدولة ، يلعبون ، كأفراد ، دوراً سياسياً وثقافياً كبيراً عند دول الترك والمغول . فقاموا على تنشئة أولاد جنكيز خان واضطلعوا بالعمل في دواوينهم ، وأرخوا لهم كما أرخوا لتيمورلنك من بعد .

واستخدام خواتين فارس من المغول ، الأويغورية في تراسلهم مع بعض أمراء أوروبا في القرن الثالث عشر الميلادى ، فكتبوا بها إلى بابا روما وفيليب ملك فرنسا وإدوارد ملك إنجلترا لغرض قيام حلف بينهم لحرب المماليك المصريين[3] .

وما تزال بدار الكتب الأهلية بمدينة فينا نماذج من هذه الكتابة ، كما كان بحاضرة الأتراك العثمانيين في القرن العاشر الهجرى من هم على دراية تامة بهذه اللغة التي تعد الأساس الذى قامت عليه الجغتائية لغة الترك التقليدية[4] .

هذا وكانت الديانات السائدة في الأوساط التركية ، قبل اعتناقهم الإسلام هي الشامانية التي تقضي بعبادة الأسلاف وتعترف بالإله العظيم ولكنها لا تؤدى له الصلوات وإنما تقوم بها لآلهة الشر اتقاء لخطرها ، ثم البوذية والزرادشتية الفارسية التي كان لها نفوذ راجح ببلاد الصغد في الغالب .

وجاور المسلمون قبائل الترك ببلاد أواسط آسيا ابتداء من أواخر القرن الأول الهجرى ، وكان الإسلام قد اكتسح مراكز الزرادشتية ببلاد فارس .

---

(١) في بلاد الأويغور هذه عرف العرب المسلمون ورق الكتابة لأول مرة، ليطلعوا العالم القديم عليه بدورهم من بعد ذلك . وكان الصينيون كذلك يستخدمون منذ زمن طويل .

(2) Crousset. R. Hist de L'extreme Orient. TII. P.407.

(3) Czapilcka p.27.

(٤) تاريخ الحضارة الإسلامية لبارتولد ص ١٠٠ – ١٠١ – ولا تزال هذه اللغة قائمة كذلك في التركستان الروسية .

وطفقت قوافل التجار المسلمين تتوغل فى مسالك آسيا الوسطى حتى بلغت الصين شرقاً وحوض الفولجا غرباً ،فكان هؤلاء التجار من أنشط الوسطاء فى نشو تعاليم الدين الإسلامى .

وغنى عن البيان أن المسلمين لم يلجأوا عموماً إلى العنف لحمل الناس على الدخول فى ملتهم ، كما كانوا يكفلون لغيرهم فى الغالب ممارسة عقائدهم فى حرية تامة كذلك ، حتى رأينا المعتصم العباسى يتشدد فى عقاب بعض المسلمين الذين اعتدوا على بعض معابد للفرس ببلاد الصغد([١]) .

ولئن غدا الإسلام ينتشر ببلاد ما وراء النهر منذ أيام قتيبة بن مسلم أواخر القرن الأول الهجرى ، فإن إسلام الترك الجماعى لم يبدأ فى صورة واضحة إلا أيام السامانيين فى القرن الرابع الهجرى ، فأسلم خان قشغر ، ساتوك بغراخان أمير القره خانيين ، وتسمى باسم هرون بن سليمان ، ودخل معه فى دين الله أهل بلاده([٢]) وفريق كبير من سكان التركستان الشرقية وإقليم خطان .

كذلك اعتنق السلاجقة – وهم من غز الخزر – الإسلام فى القرن الرابع الهجرى ، وكانوا يشتهرون بتمسكهم الشديد بتعاليمه وحد بهم على نصرة أهل السنة. وقد شمل سلطانهم بلاد ما وراء النهر وفارس والقوقاز ، ونفذت عروق منهم ومن جيرانهم إلى آسيا الصغرى فقضوا على الدولة البيزنطية الشرقية بها([٣]).

ومهد انتشار الإسلام حتى الفولجا وتكاثر جموع الأتراك عند بحر آرال ما حوله ، لقيام الدولة الخوارزمية التى صار لها شأن كبير فى القرنين الخامس والسادس الهجرى . وروج من أحوالها أن بلادها كانت من أبواب التجارة التى تصل ما بين أواسط آسيا والأقاليم الإسلامية المتحضرة . وكان الخوارزميون

---

(١) تاريخ الحضارة الإسلامية لبارتولد ص٨٦ .

(٢) تاريخ رشيدى ص٢٨٦ .

(٣) الأتراك العثمانيون هم كذلك من الغز « الأوغوز » والتغزغزهم أيضاً من الغز «توقوز» أو غوز قبائل الغز التسع . هذا وتخلط بعض المصادر العربية بين الأويغور والأوغوز وتعتبرهم قبيلة واحدة ، وإن كانوا جميعاً من بيرك .

يعقدون آمالاً كثيرة لمد نفوذهم حتى حدود الصين ، ومعهم حلفاؤهم من القبجاق الذين أسلموا على أيديهم بدورهم فى القرن الخامس الهجرى ، لولا ظهور جنكيز خان .

ونفذت الثقافة الإسلامية إلى الشعوب التركية بأواسط آسيا ، على أيدى شيوخ الفرس المسلمين فى الغالب ، فنقلوا عنهم كثيراً من الألفاظ والمصطلحات العربية والفارسية إلى لغتهم . وما غدوا أن شغفوا بالآداب الفارسية شغفاً كبيراً حتى ازدحمت قصور حكامهم بشعرائها وكتابها،«وكادت العربية لا تجد لها سوقاً رائجة إلا عند بعض المشتغلين بعلوم القرآن والسنة.

المغول فى مواطنهم :

فيما كانت العناصر التركية توثق من علاقاتها وصلاتها بالعالم الإسلامى لتبلغ من بعد ذلك بنفوذها وسطوتها إلى إقامة دول قوية لها متسعة الرقعة عظيمة الثراء كانت قبائل المغول ، عند كريولين وخنجان وفى مناطق الأنون وتولا مما يلى أطراف الصين غرباً ، تعيش عيشة بدائية صرفة ، فى مجموعات من الخيام الحقيرة المتناثرة بين السهول والغابات، لا يدرى العالم المتحضر من أمرها شيئاً منكوراً حتى ظهور جنكيز خان فى القرن الثالث عشر الميلادى .

ولم تهتم الصين ، جارتهم الكبرى نفسها ، بأمر هذه القبائل التى كانت تعرفها باسم منغ وا / منغكوتاتا ، حتى رأى أحد أباطرة أسرة كين التى كانت تحكم بالصين الشمالية فى القرن الثانى عشر الميلادى ، أن يستعين بهم وبالقره ختاى فى القضاء على بعض أعدائه من القبائل التى كانت تنزل حول بحيرة بويونور.

وعلا شأن فتى من المغول يدعى تيموجين فى هذه المعارك وذاع صيته حتى اختارته قبيلته خاناً عليها ، فلقب بجنكيز ، وأحيا اسم المغول من جديد بأن أعلن نفسه خليفة للبطل المغولى الأسطورى قتلق خان الذى كان يمسك بالرجل فيشطره شطرين كما يكسر عود من قصب ، والذى كان يبيت فى العراء ، صيف شتاء ، لا يأبه بالزمهرير ولا يخشى الثلوج ، حتى كانت لفحات اللهب لا تعدو عنده لسع بعوضة(1).

---

(1)Howorth, H. History of the Mongels I P.382.

واعتز خلفاء جنكيز ورهطه بهذه التسمية ، التى كانت فى أول أمرها من صنع جيرانهم[١] ، حتى رأينا رجال البلاط ، المغولى يحذرون الرحالة الأوروبى جون بيرك ، حين زار بلادهم فى منتصف القرن الثالث عشر ، من أن يتحدث عن أميرهم حفيد الخان الأكبر بانه تترى ، بل عليه أن يذكره بوصفه ملك المغول[٢] .

ولم تمض سنوات قليلة على بدء القرن الثالث عشر الميلادى حتى انطوت قبائل المغول ، والأتراك ، فى صحراء جوبى ، تحت راية الخان الجديد ليتجه بها من بعد ذلك إلى الصين فيقضى على أسرة سى هاى ، فى إقليم كانسو ، وأسرة كين ، فى الصين الشمالية ويدخل بكين ، ثم يستدير هناك ليبلغ منغوليا ، فكان ارسلان خان ، أمير القولق هناك أول حاكم يستسلم له .

وما غدا أن أقبل عليه فريق من زعماء الترك فى أواسط آسيا يخطبون وده ، وفيهم نفر من القبجاق ، حلفاء شاه خوارزم وأصهاره ، ومعهم فريق من التجار المسلمين الذين عاونوا الخان المغولى ، فيما بعد ، على فتح كثير من البلاد الإسلامية وتنظيم شئونها .

وحدث أن انتهب عامل شاه خوارزم على اترار بالتركستان قافلة قادمة من بلاد المغول وقتل رجالها ، وكانوا جميعاً من المسلمين ، ظنا منه أنهم من عيون

---

(1) Barthold, W. Turkestan P. 382.

(٢) برغم التفات فريق من كتاب الفرس إلى التفرقة بين المغول والأتراك حتى قبل ظهور دراسات الأجناس – فوصفوا الأولين بالقبح وتغنوا بجمال الآخرين ، فقد اختلط الأمر على بعض من المؤرخين المسلمين بفعل الجوار فى البيئة فعدوهم عرقا واحداً . وساعد على هذا الخطأ ، أن المسلمين الأوائل كانوا يطلقون اسم بلاد الترك على كافة المناطق التى تقع بين آخر حدودهم ، عند بلاد ما وراء النهر والصين .
وبرغم تقرير مؤرخى الأتراك المحدثين بالتفرقة بين العنصرين ، فإن دعاة التورنية من العثمانيين فى القرن العشرين كانوا يقولون بأن الأتراك والمغول جنس واحد ينتهى إلى الأصل التورانى ، فيتغنون بمدائح جنكيز ولاينكرون من أعماله شيئاً، فما خربه ودمره هو عندهم دون ما يتخلف عن الحروب الحديثة بكثير . « تعليقات الأمير شكيب أرسلان على كتاب حاضر العالم الإسلامى م١ ص ١٥٩ .

الخان المغولى ، لتنطلق الحرب بذلك فيجتاح المغول[1] بلاد ما وراء النهر كلها ويخربون جرجان وبخارى وسمر قند أعظم مدنها تخريبا تاما ويفنون حامياتها بعد أن استسلمت إليهم بخداعهم ، ثم يسوقوا الأهلين أمامهم قسرا ليكونوا لهم من سهام أعدائهم درعا.

ولم يواف جنكيز خان أجله عام ١٢٢٧م حتى كان له ، إلى جانب خوارزم وبلاد ما روء النهر ، خراسان وأجزاء من بلاد فارس والهند ثم آذربيجان وأرض كبيرة فى الجنوب الروسى ، لينطلق أبناؤه من بعده فيتوغلوا فى كوريا والصين وإيران ، ويبلغ قوادهم القارة الأوروبية فينفذوا فيها حتى البحر الأدرياتى وأبواب فينا ، ويفر من أمامهم ملوك بولنده والمجر ، وتقضى سهامهم على دوق روسيا ودوق سليزيا وفرسانه التوتونيين .

ولولا أن اضطروا للعودة إلى بلادهم علىأثر ما بلغهم من موت أو كتاى ابن جنكيز خان المغول الأعظم فى قراقورم ، ونشوب الفتن بالصين ، لأوقعوا بأوروبا من الخراب نظير ما أحلوه ببلاد الشرق الإسلامى التى صادفتهم ، إذ قضوا على قواتها العسكرية ودمروا أهم مراكز الثقافة بها . ولقد كادوا يأتون على تراث المسلمين الفكرى كله ،الذى قام على رعايته الخلفاء وزاد فى كنوزه الصفوة من العلماء جيلا بعد جيل وقرنا بعد قرن ، لولا أن تصدى لهم المصريون عند عين جالوت بفلسطين فيما بعد ، فأنزلوا، بهم أول هزيمة قاصمة عرفوها وردوهم على أعقابهم[2] .

---

(١) كانت قوات المغول تضم جندا كثيرا من الترك . بل إن كثيرا من الأتراك ومن أسرى المسلمين وأغلب من عاشر المغول واختلط بهم ، كانوا يدعون نسبتهم المغول جرا المغانم D'Ohsson Hist. Des Mongols T. I. P.4289.

(٢) عام ٦٥٨هـ/١٢٦٠م – كان يقود المصريون سلطانهم المظفر قطز ويعلق المؤرخ أبو الفدا على هذه الواقعة « ٣ ص ٣٠٥ » فيقول : « .. وتضاعف شكر المسلمين لله تعالى على هذا النصر العظيم ، فإن القلوب كانت قد يئست من النصرة على التتار لاستيلائهم على معظم بلاد الإسلام ، ولأنهم ما قصدوا إقليما إلا فتحوه ولا عسكرا إلا هزموه » .

وإذ كان جوجى خان ، الابن الأكبر لجنكيز ، قد مات فى حياة أبيه فقد خلفه ابنه باتوخان على البلاد التى كان يتولاها عند سهول القبجاق والأقاليم الواقعة فيما بين بحرى آرال والخزر ، وعند واد الدون والبحر الأسود ، هذا فى حين عقد لأوكتاى ، أصغر أبناء جنكيز ، زعامة المغول فى قراقورم .

أما جغتاى ، ثانى الأبناء ، فقد صار له بلاد ما وراء النهر وخوارزم وخراسان والتركستان ومغولستان . وهى مناطق يتباين سكانها فى اجناسهم ، من ترك ومغول وفرس وعرب ، كما تتباين طبيعتها كذلك ، ففيها صحراوات واسعة جرداء وبجوارها مراع وسهول فسيحة خصبة نشأت بها مدن كثيرة وقامت بها حضارات .

وكان جغتاى يعد فى حياة أبيه أقدر فقيه فى الياصا[1] ، حتى منعه قومه من المشاركة فى الحروب بعد وفاة خانهم الأعظم . وبوصفه أكبر أبناء جنكيز ، الذين بقوا على قيد الحياة وأقدرهم ، عهدوا إليه كذلك برآسة مجلس الأمراء المغولى لتثبيت أوكتاى أصغر أبناء جنكيز على مقام أبيه وزعامته فى قراقورم .

واتخذ الأمير جغتاى من المالق فى الوادى الأعلى لنهر إللى قصبة لملكه دون بخارى أو سمرقند أعظم مدائن بلادهم ، إذ كان حولها تنزل قبائله وعشائره التى كان يعتمد عليها فى حروبه ؛ وكان رجالها بدورهم يفضلون حياة السهول والوديان الفسيحة على سكنى المدن ومخالطة أهلها الذين كانوا يرون فيهم وفى أهل الزراعة أجناساً منحطه وعبيداً للأرض .

وأطلق اسم هذا الأمير ، دون أبناء جنكيز جميعاً ، على بلاده وعلى أهلها فعرفت هذه المناطق جميعها باسم بلاد جغتاى ، وعرف الأتراك فيها بخاصة وكانوا غالبية بها ، باسم الأتراك الجغتائيين .

---

(١) أصلها دزا صاق ، فذكرها الفرس والعرب « باصا » ترخيماً ، وهى دستور المغول الذى دونه له الأويغور أصحاب ديوانه . وهى مزيج من القوانين الموضوعة على إرادة جنكيز وأنفع العادات القبلية ، ومما تدعو إليه : الاعتقاد بإله واحد والطاعة التامة للخان الأعظم : تاريخ جهان كشا لعطا ملك الجوينى ص ٧٧ وما بعدها .

وبرغم بقاء جغتاى على دين آبائه وكراهية قومه عموما للمسلمين ، فقد اتخذ منهم وزراء ومستشارين ، وبنيت فى عهده جملة من المدارس والمساجد ببلاد ما وراء النهر وغيرها كذلك[1] .

ووافت جغتاى وأخاه أوكتاى المنية عام ١٢٤١م ، وابن أخيهما ، باتوخان يتوغل إذ ذاك فى أوربا مع نفر من ابنائهم ، ليتسع نطاق المذابح والفتن بين أمراء المغول من بعد ذلك ، ويظل أمرها متصلاً حقبة من الزمن كانت بمثابة الهدنة للعالم الإسلامى وأوربا ، حتى قبض على زمام الأمور هولاكو بن تولى خان فعاود السير بقافلة التخريب المغولية من جديد . فعبر بلاد ما وراء النهر إلى فارس حتى بلغ العراق ودمر بغداد حاضرة الخلافة العباسية تدميراً ، وقتل الخليفة العباسى نفسه شر قتلة ، ولولا صد المصريين له بأرض فلسطين ، كما هو معروف مشهور، لقضى على تراث المسلمين كله وخربت ديارهم جميعاً فى الغالب.

ويموت هولاكو بدأ نجم المغول فى الأفول التام . وأتاحت الاضطرابات التى غدت تعم أملاكهم ، الفرصة لكثير من الأقاليم لتنسلخ عن سلطانهم .

وما لبث الأتراك ببلاد ما وراء النهر ، وكانوا غالبية كبيرة ، أن استعادوا كثيراً من نفوذهم القديم حتى غدا تنصيب أمرائهم من الجغتائيين يجرى على هواهم .

---

(١) كان المغول فى الغالب على الشامانية والبوذية حتى اختلطوا بالترك وغيرهم من المسلمين فى فتوحاتهم فأسلم فريق منهم . وكان أول من أسلم من أمرائهم هو بركه خان حفيد باتو خان وزعيم القبيلة الذهبية وذلك فى القرن السابع الهجرى ، وتبعه أحمد تكودرى الإيلخانى حفيد هولا كو بفارس ، حتى جاء غازان خان وأخوه الجايتو محمد خدابنده فاتخذا الإسلام ديناً رسمياً لدولتهما . أما الجغتائيون فلم يبدأ إسلامهم الجماعى إلا فى القرن الثامن الهجرى .
توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ١٨٩ وما بعدها : بارتولد : تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٨٩ وما بعدها .

ولم يعد لأمراء المغول ، من بيت جغتاى ، من النفوذ والسلطان إلا فى قشغر ويرقند وآلا طاغ ومغولستان ، وبقى خوانينهم يحكمون هناك حتى اقتحم الأوزبك[1] أغلب منازلهم فيما بعد .

تيمور لنك وخلفاؤه :

كان ظهور تيمور لنك ببلاد ما وراء النهر فى النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى بداية تحول جديد فى تاريخ آسيا الوسطى ، إذ انتقلت مقاليد الأمور هناك من أيدى المغول الجنكيزيين إلى أيدى الأتراك الجغتائيين، حتى انتهى الحال بحفيد هذا الخان التركى ، ظهير الدين محمد بابر ، إلى بسط سلطانه على الهندستان . وقد والى أبناؤه من بعده فتوحاتهم هناك ، حتى أظلت رايتهم شبه القارة الهندية كلها .

ولقد وصل تيمور فى شبابه بجده وذكائه وشجاعته إلى أن استوزره الأمير الجغتائى إلياس بن تغلق تيمور صاحب سمرقند إذ ذاك ، فما غدا الوزير أن انقلب على أميره ، حتى اتخذ مكانه علىعرش سمر قند عام ٧٧١هـ/١٣٧٠م ، بعد أن استولى على بلخ ونشر سلطانه على القسم الغربى من بلاد جغتاى ، وإن ترك لأمراء المغول به بعض امتيازاتهم وحفظ عليهم مراسم الأمارة[2] .

---

(١) الأوزبك نسبة إلىأوزبك خان حفيد جنكيز من فرع توشى خان

D.Ohsson ; Hist d. Mongol T.11 108.9

(٢) ما تذكره بعض المراجع من نسبة تيمور إلى المغول هو من وضع بعض كتاب الأويغور الذين ذهبوا إلى حد جمع أسلاف جنكيز وتيمور عند جد معين ، أرادوا بذلك أن يضفوا على تيمور عراقة النسب تقربًا منه وتملقًا .

Hammer: Gist de I' Empire Ottoman T. 11 P. 96-121.

بلاد ما وراء النهر

وتملكته شهوة الفتوح ، فضم إلى ملكه مغولستان وخوارزم ، كما أقتحم حدود الهند فبلغ دهلى التى استعصت على المغول من قبل ، فلم يرجع عنها حتى دمرهـا وساق معه كثيراً من أهلها أسارى ، وفيهم خير أصحاب الحرف والمهن ليقموا لـه منشآته ببلاده .

كذلك استولى على فـارس ثم نفذ من العراق إلى بلاد الكرج والشـام ولـم يرجـع عن آسيا الصغرى حتى أوقع فى أسره بايزيد سلطان العثمـانيين[1] . وإن هى إلا بضع سنين من بعـد ذلك حتى كانت بنوده تخفق فيما بين موسكو والكنج .

هذا ؛ وكان تيمور ، على جهله بالقراءة والكتابة ، حفيا وأولاده بـأهل العلـم وأصحاب الآداب والمعارف ، حتى بلغت عاصمتهم سمرقند مركزاً فذاً بين مراكـز الثقافة الإسلامية .

وما غدت هذه المدينة ، التى تأنق الخـاقان التركى فـى تجميلـها بمنشـآته الكثيرة الفخمـة ، والتى شق إليها طرقاً برية جديدة تصلها بفـارس والـهند ، أن انقلبت إلى سوق للتجارة هامة ومركز من أهم مراكز الاتصال بين الصيـن وبـلاد آسيا الوسطى وإيران وآسيا الصغرى بها صنوف السلع وتعج بمختلف الأجناس .

ومات تيمور عام ٨٠٧هـ/١٤٠٥م فى إحدى حروبه مع جيوش الصين عنـد اترار ، فاقتسـم ملكه من بعـده ولداه جلال الدين شاهرخ ومعين الدين ميرانشـاه حتى إذ ما قتل الأوزبكك ثانى الأميرين التيموريين واستولوا على أجزاء من بـلاده، طفق الأول يصطنع الحيلة معهم حتى أبعد خطرهم عنه ليعيد أغلب بلاد أبيه إلـى حظيرته من جديد فيما عدا الشام وجنوب فارس[2] .

---

(١) تذكر بعض الكتب الحديثة أن تيمور قد حمل غريمه فى قفص ، وهو خطأ تاريخى نتج عـن سوء فهم بعض الكتاب لمدلول هذا اللفظ فى التركية ، فهو يطلق أيضاً عن الهوادج والأكشاك التى لها نوافذ تتخللها أسياخ من حديد .

(٢) تاريخ عمومى إيران لعباس إقبال ص ٢٣٢ – ٢٤١ .

وخلف الغ بك أباه شاهرخ عام ٨٥٠هـ/١٤٤٦م ، فدخل في منازعات وحروب متواصلة مع أهل بيته من الأمراء ، ولم يقف الأمر عند ضياع الكثير من أراضيه حتى قضى عليه ابنه عبد اللطيف ميرزا بنفسه ليقتل هو بدوره بعد قليل .

ولئن خبت عند ألغ بك ملكته الحربية فقد تلألأ عنده نور المعرفة حتى هدته بصيرته إلى أن يقيم مدرستيه الجامعتين ، في سمر قند وبخارى التي كتب على أبوابهما طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة »[1] .

وأدى اشتغال هذا الأمير بالعلم وشغفه به إلى أن وفد إليه كثير من علماء فارس وطلبتها ، فكان يشاركهم في الدرس بنفسه ويدرس معهم حركات الكواكب في مرصده ، الكبير الذي أقامه بسمر قند .

وقد نظمت باسمه جداول للهيئة كانت آخر كلمة لهذا العلم في وقته .

وبرغم اعتزاز هذا الأمير بتركيته فقد كان شديد التعلق بكل ما يرجى فيه رقي الإنسانية والفكر البشري عامة .

وجلس على عرش سمر قند من بعده الأمير التيموري أبو سعيد ميرزا، بعون من الأوزبك ، ليقيم له من بعد ذلك ملكاً واسعاً ضم أجزاء من السند وخراسان وسيستان وأمتد إلى العراق . حتى إذا ما هزم التركمان فاقتحم آذربيجان لينحدر منها إلى العراق ، استطاع أوزون حسن زعيم التركمان أن يتسلل إلى جبال آذربيجان فيقطع عنه الإمدادات ، لتتفشى المجاعة في الجيش من بعد ذلك وينفرط عقد الجند وينتهي الأمر بالسلطان أبي سعيد نفسه إلى الوقوع في الأسر ، ثم القتل .

وترك أبو سعيد عشرة من الأولاد ، ولكن لم يخلفه في ملكه الواسع ، الذي كان يمتد من العراق إلى السند ، سوى أربعة منهم . فولي أحمد ميرزا إقليم سمر قند وبخارى ، وولي الغ بك إقليم كابل وغزنه ، وولي محمود ميرزا استراباد

---

(١) تاريخ الحضارة الإسلامية ص ١٠٨ ، ١٠٩.

Barthold – Donskies. P. 181 .2

وهرات ، ليغتصبهما منه ابن عمه السلطان حسين بيقرا ، فيستقر من بعد ذلك فـــى الصاغانيان وبدخشان[1] .

أما رابع هؤلاء الأربعة فهو عمر شيخ ميرزا الذى ولى إمارة فرغانة فــأدى به طموحه إلى أن يدخل مع جيرانه من المغول أصهاره والأتــراك أخوتــه ، فـــى حروب متواصلة ابتغاء توسيع رقعة ملكه ، ليمضى عام ٨٩٩هـــــ ، علـــى أثــر سقوطه من أعلى حصن له ، فيحمل عبىء خصوماته من بعده ابنه الصبى ظـــهير الدين محمد بابر الذى قيض له أن يقيم أعظم دولة عرفتها شبه القارة الهنديـــة فـــى تاريخها .

البيئة فى بلاد ما وراء النهر :

فى بلاد ما وراء النهر ورث ظهير الدين محمد بابر الملك عن آبائـــه صبيـــا وقضى بها سنين غير قصيرة فى كفاح متواصل قبل أن يولى وجهه قبل المشــرق ، لينتهى به المطاف والسعى من بعد ذلك إلى إرساء أسس الدولة المغولية فى الهند .

أو عن طريق هذا الإقليم ، أعنى أرض سيحون وجيحـــون ، نفــذ الأتــراك والمغول إلى بلاد العالم الإسلامى ليغيروا وجه التاريخ بها فى الغالب .

تتوسط جبال أسفرا ، المتفرعة من السلسلة الآسيوية العظمى ، هـــذا الإقليـــم فيقيم إلى الجنوب منها وادى جيحون وإلى الشمال منها وادى سيحون.

وأهم أقاليم جيحون الجنوبية هى بدخشان وبلخ وخـــوارزم وتعد باخ أقدم هذه الأقاليم الثلاثة وأعرقها ، وتعرف عاصمتها ، التى تحمل اسم الإقليـــم كذلـــك عنـــد مؤرخى العرب « أم البلاد » وبظاهرها كان يقوم معبد النوبهار الذى اضطلـــع آل برمك بالخدمة فيه[2] .

---

(١) تاريخ فرشته أول ١٩١ .

(٢) فتوح البلدان للبلاذرى ص٤٨ / ٤٩ .

هذا كما تشتهر خوارزم بقيام أسرة حاكمة قوية لعبت دوراً مهما فى تـــاريخ هذه المنطقة فى القرنين السادس والسابع الهجرى ، وهى الأسرة الخوارزميــة أمــا بدخشان فهى مفتاح الطريق إلى الهند .

والقسم الشمالى من وادى جيحون جبلى فى الغالب تكسو قمته الثلوج شــهوراً عدة فى السنة . وبه أقاليم ختلان وحصار ، الذى يعرف أيضاً باســم جغانيــان أو الصاغيانيان . ثم ولاية كش مسقط رأس تيمور .

وإلى الشمال من كش وإلى الشرق من صحراء خوارزم يقــع وادى الصغـد المعروف بخصب أراضيه ووفرة مغانيه . وتقوم به المدينتان المشهورتان ســمرقند وبخارى .

وسمرقند هى التى اتخذ منها تيمور وأولاده حاضرة لملكهم ، وبــها عــرف المسلمون صناعة الورق لأول مرة . أما بخارى فقد اتخذها السامانيون قاعدة لــهم وبنى بها مسلم بن قتيبة ، من قبل ، أول مسجد بالمنطقة كلها .

وتعد المدينتان من أهم مراكز الثقافة الإسلامية فىالقديم على كل حال.

والأقاليم التى تقع فى حوض سيحون هى فى أهميتها دون سابقتها بكثير وأهـم هذه الأقاليم ولاية فرغانة التى تعرف أيضاً خجند ، وإلى الشرق منها تقع قشــغر ، كما تقع طشقند عند حدودها الشمالية الغربية ، فى حين ينحصر إقليم أشر وسنة بين فرغانة والصاغانيان .

هذا ، وكانت أرض التركستان تمتد إلى الشمال من فرغانة وطشقند فيما بيــن سيرام رافد سيحون وبحر آرال . وقد اتخذ منها الأوزبك ، أيام زعيمــــهم شـيبانى خان ، قاعدة لغاراتهم الكثيرة على جيرانهم .

وإذا ما نظرنا إلى وجه الأرض بإقليم بلاد ما وراء النهر ، وجدنا الخصـــب يتوفر فى أغلب فرغانة وخوارزم وبلخ وبدخشان وكش والصاغانيــان[1] . وفيمــا عدا ذلك فقد كان الجدب يغلب على أرضه .

---

(١) معجم البلدان لياقوت الحموى سابع ص ٣٧٠ – ٣٧٢ .

لذلك كانت الحياة هناك فى الغالب متنقلة منحطة حيث الجدب والصحـــراء ، مستقرة راقيـــة حيث الخصب والنماء الذى يمهد عادة لقيام المدن والدول .

وأول من سكن هـــذا الأقليم ، فيما يرجح كثير مـــن المؤرخيـــن ، عنـــاصر تركية من الســـيث والتورانيين الذين كانوا مصـــدر تهديـــد دائم لبلاد فـــارس[1] . وظلت موجاتهم لا تنحســـر عن هذه البلاد منذ غارات الهون على أواسط آســـــيا فى القرون الســـابقة للميلاد حتى الغزو المغولى فى القرن الثالث عشر الميلادى .

ولم يمنع الســـيث والهون بلاد فارس من مد نفوذها فى هذا الإقليم حتى اتخـذ بعض ملوكها من مدينة بلخ قصبة لهم ، ونزح إليه كثير مـــــن الفـــرس فمارســـوا الزراعة بوديانه الخصبة ، كما لاذ به جمهرة من ســـراتهم حيـــن اقتحـــم العـــرب المسلمون بلادهم عليهم فى القرن الأول الهجرى .

وما غـــدا العرب أن طووا أغلب هذه البلاد تحت رأيتهم بعـــد قليـــل ، فـــإذا بفريق من أبنـــائها من فرس وترك يصيبوا بالدولـــة الإسلامية حظاً وافراً فيبلغـــوا أرقى المناصب بها[2] .

ولم تكتف العناصر الفارسية الإسلامية ، حين عظـــم نفوذهـــم فـــى الدولـــة الإسلامية ، بإقامة دول لهم شبه مستقلة فى أجزاء من هذا الإقليم ، حتـــى راحـــت تعمل لإحياء تراث الفرس القديم والنهضة بالآداب الفارسية من جديد.

وكان السامانيون الذين عمت دولتهم فى القرنين الثالث والرابع الهجرى ، هـــم أصحاب اليد الطولى فى هذا الميدان ، ليأتى سلاطين الترك ، مـــن بعدهـــم ، مـــن الغزنويين والسلاجقة وغيرهم ، فيسيروا على نهجهم فى العناية بالثقافـــة الفارســـية

---

(١) مما يحتج به بعض الباحثين فى ذلك هو شيوع لفظ « قند » فى اسماء المدن هناك كسمر قند وأزقند وطشقند إلخ ، وهو تركى قديم بمعنى مدينة .

Barthold, Turkestan p.96,97

(٢) كانت بلخ من أكثر الأقاليم القديمة مساهمة فى بناء الحضـــارة الإســـلامية ، ومنـــها خـــرج البرامكة ، وزراء العباسيين ، وكثير من العلماء الكبار ، تاريخ الحضارة الإسلامية ص٦٣ .

ويزيدوا عليه[1] ، فلم يمض إلا قليل حتى استردت الفارسية مناطق انتشارها القديم ببلاد ما وراء النهر ، لتتسرب من بعد ذلك إلى مجتمعات الهند كذلك وتبلغ بذلك كله إلى أن تصبح بحق ثانى لغات العالم الإسلامى انتشاراً بعد العربية .

وكان مما ساعد على رواج هذه اللغة بين العناصر التركية ببلاد ما وراء النهر ، تصدى شيوخ الفرس فى الغالب لتلقين الترك تعاليم الدين الإسلامى ومبادئه ، فكانوا يلقنونهم إياها بالعربية ويحببون إليهم آدابهم الفارسية معها .

وطغى نفوذ الترك على سلطان الفرس بأغلب بلاد ما وراء النهر ، حتى كان الأولون هم أصحاب السيادة الفعلية هناك قبل مجئ المغول فى الغالب .

واستقر قسم من القبائل المغولية الوافدة مع جنكيز خان ببلاد ما وراء النهر جنباً إلى جنب مع القبائل التركية التى كانت – خصوصاً فى الشمال وأكثر الوسط – تمثل الغالبية الفعلية للسكان .

وكان من الطبيعى أن تتأثر القلة المغولية الحاكمة ، لبداوتها ، بالكثرة التركية المحكومة ، التى كانت تعيش فى محيط الحضارة والمدنية الإسلامية وتتجاوب معها[2] ، فأخذت عنها لغتها وامتزجت بها ، ليزداد بذلك نفوذ الترك ويعظم شأنهم ويدعم كيانهم السياسى .

وبهذا كان قيام دولة المغول أكثر أهمية فى نظر الترك مما هو فى نظر المغول أنفسهم ؛ فلم يقف الأمر عند حد تفوق الترك الثقافى حتى انتهى بهم المطاف إلى استيلائهم على مقاليد الحكم فى هذه البلاد وإخضاع غزاتهم لسلطانهم .

وساعد على انتشار اللغة التركية بين القبائل المختلفة التى كانت تسكن بلاد جغتاى ، خضوعها جميعاً لحكومة واحدة.

---

(١) المصدر السابق ص ٦٨ ، ٧٢ ، ٨٥

(2) Ameer Ali : The Spirit of Islam p. 382.3

وتسرب إلى هـذه اللغة قدر غير قليل من الألفاظ والمصطلحـات العربيـة والفـارسية ودرجت فى مدارج الرقى ، حتى إذا ما جاء القرن السـابع الـهجرى رأينا التركية الجغتائية تحتل المكان الثالث ، بعد العربية والفارسية ، بأواسط آسـيا . وما تزال هذه اللغة تسمع إلى اليوم فى المدن التى تقع فى نطاق جغتاى القديمة .

هذا ؛ وتعـد أيام الأمراء التيموريين ببلاد ما وراء النـهر بمثابـة العصـر الذهبى للأدب الجغتـائى الذى تتمثل أحسـن نمـاذجه فى أشعار على شـيرنوائى ومنثورات . ظهير الدين بابر حتى لتعد الكتابة التقليدية الأدبية للترك جميعاً[1] .

كانت الحيـاة بهذه البـلاد تميل فى الغالب إلى الاستقرار وتتعـم بمظـاهر الحضارة والمدنيـة ما خضع الإقليم كله لحاكم واحد قوى يقر الأمور فيـه ويدفـع أخطار الغزو عن حدوده .

على أن تيمورلنك ، آخر أصحاب هذا الإقليم الكبار ، لم يكد يمضـى حتـى غدت الفتن والاضطرابات تعم هذه الأرض كلهـا ، لينتهى بها الأمر إلى تمزيقـها إلى ولايات عديدة ، أصحابها متقاتلون متعادون على الدوام ، برغم ما كان يربـط بينهم من وشائج القربى وروابط الدم ، ومن حولهم الأوزبـك والمغول والتركمـان يتربصون بهم الدوائر ولا ينفكون عن مهاجمتهم وتخطف أراضيهم .

ونتج عن تمزيق الإقليم بعد تيمور إلى ولايات عدة وما يستتبع ذلك عادة مـن ضآلة عدد السكان بالتالى ، أن غدت قوات كل أمير لا تعدو أن تكون مجموعـات من العصابات الإقطاعية التى تعتمد فى انتصاراتها على عنصرى المفاجأة وسـرعة الحركة ، فتوقع بعدوها قبل أن يمتنع فى حصونه.

وغالباً ما كانت الهدنة تعقد بين الخصمين بنفس السرعة التى اشـتعلت بـها نيران الحرب .

وفنون الحرب بهذه البلاد كان معظمها بدائياً يقوم على المبـارزة بالسـيوف والتراشق بالسهام ، وتسلق الأسوار بسلالم الحبال .

---

(١) تاريخ الحضارة ص ١٠٢ - ١٠٦ ، ١١١ .

ولم يكن البارود وألغامه غريباً عليهم فقد كانوا يستخدمونه أيام السلم في مناجم الياقوت ومواطن العقيق ببدخشان .

وبرغم استخدام بعض الأمراء لعدد قليل من بنادق العصر ذات الزناد وبعض المدافع ، التي عرفوها عن طريق الفرس نقلاً عن العثمانيين في الغالب ، قد بقيت السيوف والسهام وهجمات الفرسان هي الفيصل في المعارك.

هذا ولم يغفل أحد من هؤلاء الأمراء ، حين كان يتاح له تجهيز جيش كبير، عن إحياء تشكيلات تيمور الحربية وتقاليده العسكرية في تقسيم الجيش إلى قلب وجناحين وإقامة فرق للمناوشة بأقصى الجناحين .

أما التشريع الغالب عند هؤلاء الأمراء جميعاً فكان الفقه الإسلامي ، دون إغفال أمر العرف القبلي المتوارث وتقاليد الياصا المغولية .

ورغم ما كان من اشتغال الأمراء التيموريين بنزاعهم والتحاماتهم المتواصلة في الحروب ،فما يسترعي الانتباه أنهم لم يتخلوا أبداً عن العناية بالآداب والعلوم والفنون والاشتغال بها ، فحرصوا دواماً على الظهور بمظهر رعاة الثقافة والمدنية وكان من أبرزهم في هذا الميدان وأعلاهم كعباً، بعد الغ بك ، السلطان حسين بيقرا الذي جمع ببلاطه في خراسان أساطين الفنون وشيوخ العلم والمعرفة في عصره وبهذا الأمير ختمت صفحة كبار التيموريين ببلاد ما وراء النهر بعد ما كان من إرغام الأوزبك لبابر على الخروج من هذه الديار .

حكام الدولة المغولية :

بابـــــر

في السادس عشر من شهر المحرم عام ٨٨٨هـ/١٤ فبراير ١٤٨٣ بعث عمر شيخ ميرزا صاحب فرغانة برسله إلى مغولستان لتزف إلى صهره يونس ، خان المغول ، مولد حفيد له من ابنته قتلق نكار خانيم[1].

وأطلق الزاهد الولي ، مولانا منير مرغيناني ، على الوليد اسم ظهير الدين محمد ، حتى إذا ما صعب التلفظ بهذا الاسم على عشيرته من الأتراك والمغول الجغتائيين ، وكانت عامتهم ما تزال على عجمتها ، أطلقوا عليه من عندهم لقب بابر ، وهو الذي اشتهر به في التاريخ وعرفه الناس به .

وفي عروق بابر امتزجت دماء الأتراك بدماء المغول ، فأبوه عمر شيخ ميرزا حفيد تيمورلنك التركي ، وأمه هي ابنة يونس خان مغولسان وحفيد جغتاي ثاني أبناء جنكيزخان[2] .

ولقد أدت بصاحب فرغانة أطماعه إلى قضاء أغلب عمره في محاربة جيرانه ، حتى انتهى الأمر إلى تحالف أخيه أحمد ميرزا صاحب سمر قند ، مع صهره محمود خان طشقند على غزوه في فرغانة نفسها .

وحدث أن هوى عمر شيخ ميرزا إلى الأرض من أعلى حصن له بأخشى حيث كان يتفقد حمائم له هناك ، فلم يصرف موته المفاجئ هذا خصومه عن

---

(١) بابر نامه ورقة ١. هذا ولقب خانيم معناه ابنة الخان أو زوجته . وقد حرف هذا اللفظ إلى كلمة (هانم) الشائعة في الشرق . ونظيره لقب بيكيم أي حرم الأمير (البك) أو ابنته ، ولفظ بيجوم الشائع بالهند هو تحريف له .

(٢) ينفر بابر من ذكر المغول نفورا شديدا أثبته بأكثر من موضع بسيرته التي كتبها بنفسه (بابر نامه ورقة ٩٠) ، ويعتز بتركيته اعتزازا شديدا ، ومع هذا فقد نسبت دولته الهندية إلى المغول ، إذ كان الهنود قد درجوا منذ قدوم جنكيز خان إليهم على إطلاق اسم المغول على كل الغزاة الذين وفدوا إليهم من بلاد ما وراء النهر من بعد ، كما صار هذا اللفظ بذاته مدلولا على الأبهة وضخامة الأجسام بصرف النظر عن الجنس .

فرغانة حيث خلفه بها ابنه الصبى بابر الذى لم يكن يتجاوز الثانيــــة عشــرة مــن عمره، فاستيقنوها فرصة مواتية لانتهاب الميراث كله .

ولم ينفع الفتى الصغير ما بذل رجاله من جهود لحمـــل خصـــوم مـــن ذوى قرباه، على الرجوع عن بلاده ، لكن الأقدار أسعفته من بعد ذلك إذ غرق كثير مــن دواب صاحب سمرقند بانهيار أحد جسور نهر قبا وتفشى الوباء فى خيولـــه فقنــع بالهدنة مع ابن أخيه وآب إلى دياره . وكذلك فعل خاله صاحب طشقند حين حــاصر مدينة أخشى فاستعصت عليه ، واعتلت صحته فقرر بدوره الرحيل إلى بلاده .

ودفع جند فرغانة عن أراضيهم كذلك الأمير أبا بكر ، صاحب قشغر وختن ، وكان قد قدم بدوره ينشد غنما .

ومات السلطان أحمد ميرزا بعد قليل فخلفه على عرش سمر قند أخوه محمود ميرزا الذى كان قد وسع من رقعة أراضيه بإقليم حصار حتى بلغت حــدوده الــهند كوش وضمت الصاغانيات وبلاد الختل وبد خشان . وبرغم أن الحيـــاة لــم تطــل بسلطان سمرقند الجديد ، فإن الأهلين عانوا كثيرا فى حكمه لما إتسم به من الظلـــم وما ذهب إليه جنده من انتهاب الدور وسلب الأموال وانتهاك الحرمات .

انقشع عن السلطان الفتى بابر أكبر خطر كان يتهدده بموت عميه أحمد ميرزا ومحمود ميرزا ، فلم يكد يسترد جانبا كبيرا من أملاك أبيه الضائعة حول فرغانـــة ، حتى ضم إليـــه كذلك سمرقند ، حاضرة جـــده تيمورلنـــك القديمـــة ، بعـــد أن انتزعهـــا من أيدى بايســـنغر ميرزا ابن عمه محمود فى مستهل عام ٩٠٣هـــ .

وبقى بابر مائة يوم بسمرقند أعظم مدن بلاد ما وراء النهر التى تزخر بآثـــار التيموريين الفخمة ، ومنها مسجد مزار شاه الذى أقيم حول مقام الصحابى قثم بـــن عباس ، فاتح المدينة فى خلافة عثمان بن عفان ، والذى جلب له خـــيرة الصنـــاع ومواد البناء من فارس والهند ، والقلعة التى تزدان بتصاوير حروب تيمـــور فـــى الهند ، ثم مدرسة الغ بك ومرصده اللذان ذاع صيتهما فى العالم الإسلامى[1] .

---

(١) يصف بابر فى سيرته إقليم سمر قند وصفا دقيقا مفصلا، فيتحدث عن موقعه الجغرافى وما يغلـــه من حاصلات وما به من صناعات ، ويشير إلى تاريخه وأول دخول الإسلام فيه ومن ظـــهر بـــه من العلماء ومشاهير الرجال ومن حكمه من آل تيمور . بابر نامة ورقة ٤٤ ب وما بعدها .

ثم خرج بابر من سمرقند ليقضى على ما أثاره أخوه جهانكير ورجاله من الفتن بفرغانة ، فانتهز على ميرزا صاحب بخارى هذه الفرصة وزحف إلى سمرقند فهزم حاميتها واستولى عليها .

ولئن أتيح لبابر أن يستولى على سمر قند من جديد ، وكانت وقتذاك فى حوزة الأوزبك الذين كانوا قد دخلوها بعد أن غرروا بسلطانها وأمه ، فإن شيبانى خان الأوزبك لم يسكت عنه حتى أخرجه منها بعد شهور قليلة .

وتمكن من بابر اليأس حين رأى أغلب جنده ينفض عنه وذوى قرباه يعرضون عنه حين استنجد بهم ، فعقد العزم على الهجرة إلى إقليم خطان عند الصين الشمالية ، مبتعدا عن بلاد ما وراء النهر كلها وما أصابه بها من أهوال ومتاعب .

ولم يغن بابر فتيلا ما أمدة به خالاه المغوليان ، أحمد ، خان مغولستان ، ومحمود ، خان طشقند ، من جند ، حتى قدم إليه كل منهما بنفسه . ذلك أن خان الأوزبك لم يكتف بما أنزله من هزيمة بهذا الجند عند الجنوب من طشقند ، حتى أوقع الخانين المغوليين[1] ، فى أسره ثم انطلق من بعد ذلك يطارد بابر فى عنف متواصل حتى حمله على النزوح من بلاد ما وراء النهر كلها آخرالأمر .

فى أرض كابل وغزنة :

ظل بابر بعد ، أن أفلت من أيدى شيبانى خان الأوزبك ، يضرب مدة على غير هدى فى منطقة تلال أسفرا ، التى تفصل فرغانة عن إقليم حصار، حتى تغلب طموحه على نوازع اليأس فى نفسه فحزم أمره على السير إلى خراسان لعله يصيب حظاً طيباً عندابن عمه السلطان حسين بيقرا . لذا غادر فى المحرم من عام ٩١٠هـ/١٥٠٤م وهو فى مستهل العام الثالث والعشرين من عمره ، ورجاله دون الثلاثمائة ، فما إن بلغ إقليم حصار وتخطاه صوب الجنوب حتى أقبل عليه خسرو

---

(١) تاريخ رشيدى ١٢٣ ، ١٥٩ – ١٦١ .

شاه صاحب حصار بقواته وجموع من عشائر الإبل والأولوس الهاربين من وجه الأوزبك فانضموا جميعا إليه .

ورأى بابر القوم من حوله فى رعب وهلع خوف الأوزبك ، وتردد شديد فى المسير إليهم ، فآثر أن لا يغامر بما اجتمع له من الجند والمال بالاشتباك مع عدوه من جديد .

ولئن غدت بلاد ما وراء النهر كلها بأيدى الأوزبك ، وهذى خراسان يحكمها سلطان قوى هو حسين بيقرا ، وهو محط أنظار شيبانى ، خان الأوزبك ، وهدفه التالى فى الغالب ، فإن أرض كابل وغزنه – فضلا عن بعدها عن مواطن العراك وقتذاك – قد أخذت الفوضى تعمها حين توفى سلطانها ألغ بك بن السلطان أبى سعيد ميرزا . ويسر اضطراب الأحوال فى هذه البلاد لبابر امتلاكها عام ٩١٠هـ دون إراقة دماء ، بعد أن ضمن لآل أرغون ، أولى الأمر فيها إذ ذاك ، الأمان فى قندهار[1] .

وهذان الإقليمان، أى كابل وغزنه ، كانا يشغلان مساحة كبيرة من بلاد الأفغان الحالية[2] . وتقوم مدينة كابل به وسط حدائق ومروج خضراء ، وإقليمها صعب المسالك والدروب ، إلا أن توسطه بين الهند وخراسان قد ساعد على رواج مركزه التجارى .

ويشتهر الإقليمان بوفرة الفواكه والحاصلات ، وطيب المناخ فى المنخفضات فى الوقت الذى يكسو الثلج فيه مرتفعاتهما شتاءا ، وفيهما قامت دول إسلامية قوية

---

(١) حبيب السير رابع ٣٠٨ .

(٢) هذه التسمية من مصطلحات العصور الحديثة فسكان هذه البلاد كانوا ينتمون فى الواقع إلى قبائل وأجناس مختلفة من فرس ومغول وترك وعرب ، ومن هذا القبائل الهزرا والتكودرى، ثم الأفغان ، ومنهم يوسف زى والأفريدى والبطهان الذين كانت مواطنهم بمنطقة والتلال فيما بين كابل وبشاور . والمعروف من تاريخ هذه البلاد ، على غموض ماضيها ، أن السلوقيين الأغريق والهون والهنود والفرس ثم العرب والصفاريين والسامانيين والغزنويين والغوريين تداولوا الحكم فيها ، كما استولى عليها تيمورلنك فلبثت فى حوزة أبنائه عدة قرون Sirdar Ikbal. Afghansan p. 22 – 29.

مهمة مثل الغزنويين والغوريين . وأدت ضآلة رقعته بالنسبة لأراضي جيرانه الفسيحة إلى طمع أصحابه في الغالب فيما يجاورهم من أرضين ، فانحدروا إلى سهول الهندستان ومراعي خراسان وفارس مرات متكررة في التاريخ .

خيل لبابر أن الأمر قد استقر له في مقامه الجديد حتى انطلق ، بعد أن فرغ من تنظيم شئون دولته الجديدة ، في غزوات خفيفة لمشارق الهندستان ومنازل الخلجيين لينتهي من بعد ذلك إلى الاستيلاء على قندهار .

على أن الأخبار وافته بخروج شيباني خان من سمر قند في خمسين ألف من الجند أواخر عام ٩١٣هـ/١٥٠٧م ، اقتحم بهم خراسان على أبناء السلطان حسين بيقرأ فأعمل السيف في نفر منهم وسبى نساءهم . وأطلق لجنده بلادهم كلها فانتبهوها وقتلوا كثيراً من أهلها وفيهم صفوة من العلماء والوجوه[١] ، ثم استدار بهم من بعد ذلك فطاردهم من مرو حتى بلغ قندهار وأخذ يطرق على بابر أبواب ملجئه بأرض كابل طرقا عنيفا حتى ظن أن لا عاصم له منه إلا أن يلوذ بالهند ، فاجمع ورجاله أمرهم بينهم على الالتجاء إليها .

فهاهم الأمراء التيموريون قد أخرجوا جميعاً من بلاد ما وراء النهر ، وهاهم الأتراك الجغتائيون قد صاروا جميعاً في نطاق دولة الأوزبك خوفاً أو طمعاً . ولئن كان بابر قد قدر له أن يفلت من براثن الخان الأوزبكي ، فإنه وهو في عزلته بكابل أضعف شأنا وأقل جنداً من أن يواجه هذا العدو القوي الذي لا يرتضي مهادنة أو يقبل مسالمة .

وشاءت الأقدار أن تهدئ من روع بابر ، إذا اضطر الأمير الأوزبكي شيباني إلى الارتداد عن قندهار سريعاً ، على أثر ما بلغه من مباغتته بعض الثوار في خراسان لحصن نيره توعند هرات وكان فيه نساؤه وأمواله(٢) ، ليشتبك من بعد ذلك في صراع عنيف مع شاه الفرس.

---

(1) Vambery : Hist, of Bokara pp. 261 – 63.

(٢) لم يمض بابر إلا القليل بكابل بعد عودته إليها حتى رزق بابنه همايون في أواخر عام ٩١٣هـ/١٥٠٨م . وفي هذه الأثناء اتخذ لنفسه لقب البادشاه الذي لم يحمله أحد من الأمراء التيموريين من قبله إذ كانوا لا يعرفون إلا لقب ميرزا . بابر نامه ورقة٢١٥.

ذلك أن شيبانى خان كان قد بعث فى عام ٩١٤هـ/١٥٠٨م إلى الشاه إسماعيل الصفوى يهدده باجتياح بلاده إن هولم يعدل عن مذهب التشيع ويمسك عن حمل الناس عليه قهرا .

حتى إذا ما بعث إسماعيل صاحب فارس إلى خان الأوزبك يسأله فى لطف أن يمنع جنده من التسرب إلى أراضيه عند الجنوب من خراسان وكرمان ويوقف اعتداءاتهم وما يمارسونه من أعمال السلب والنهب ، فرد عليه الأخير برسالة ملأها بالتعريض به حتى سخر منه فى ادعائه ملكا لم يرثه ، وطواها على عكازة وطبق كبير من البوص هما عدة الدراويش[1] ، فكانت الحرب .

وتوغل الشاه الصفوى فى خراسان ودخل مشهد واقتحم هرات ، حتى إذا بلغ مرو فامتنع بها شيبانى خان عليه ، عمد إلى خدعة كان فيها هلاك الخان الأوزبكى وقواته . فقد استدار بجيشه فى اتجاه العراق حتى ظن أنه الرحيل والجلاء ، فكمن على مسيرة عشرة أميال من المدينة ، وحين خرج فى أثره شيبانى خان فى عشرين ألفا من الجند ، مطاردا، وقع فى الكمين الفارسى ولقى وقواده حتفهم فيه .

ولم يرجع إسماعيل الصفوى عن قتال أعدائه حتى خضعت له جميع خراسان وصار نهر جيحون هو الحد الفاصل بينه وبينهم .

عود إلى سمر قند :

بعثت هزيمة الأوزبك واندحارهم على أيدى الفرس الآمال العريضة فى نفس بابر ، وبات يمنى النفس باسترداد بلاد آبائه والعودة إليها . وقوى من عزيمته دعوة البدخشانيين له بالمسير إليهم وقدوم سفراء الشاه الصفوى إليه ومعهم رسالة ود من سيدهم وفى صحبتهم خانزاده بيكيم أخت بابر ، وكانت قد وقعت فى يد

---

(١) أراد بذلك أن يعرض بأبى إسماعيل إذ كان درويشا ، وقد رد عليه الشاه الصفوى الذى كان يعتز بانتسابه إلى أبناء فاطمة البتول ، بأن الرفعة لا تورث وأن الملك لا ينتقل كذلك بالوراثة فى اطراد ، وإلا لما صار من البيشداديين إلى الكيانيين ولما أوتيه جنكيز ... تاريخ فرشته أول ص ٢٠٠ .

شيبانى خان بسمرقند . وأمد شاه فارس نفسه من بعد ذلك بابر بجيش قوى فتوغل به فى بلاد ما وراء النهر حتى سقطت بأيديه بخارى ودخل سمر قند فخطب له من منابرها فى منتصف رجب من عام ٩١٧هـ/١٥١١م .

على أن بابر لم يكد يمضى أشهر قلائل بسمرقند ، بعد أن صرف عنه جند الفرس ، حتى تمكن محمود تيمور بن شيبانى خان من استرداد بخارى وإنزال هزيمة قاصمة بجنده بظاهر سمرقند ، فاستصرخ من بعد ذلك الشاه إسماعيل الصفوى من جديد ، فبعث إليه بقائده أميريار أحمد أصفهانى الذى بلغ من عنفه أن أمر بإنزال مذبحة مروعة بسكان مدينة قرشى ، حين وقعت بأيديه ، فقتل منهم خمسة عشر ألفا فيهم نخبة من علماء السنة والأعيان .

هنالك تراءى للأوزبك ومعهم الأهلون مدى ما يتهددهم من الخطر فى توغل جند القزلباش (أصحاب القلانس الحمراء) للفرس ، فجمعوا جموعهم عند غجديوان واشتبكوا مع أعدائهم فى قتال مرير انتهى فى رمضان من عام ٩٢٠هـ/١٥١٤م بهزيمة الفرس ومقتل قائدهم أحمد أصفهانى المعروف بنجم ثانى(١) .

ويرغم أن ارتداد بابر إلى إقليم حصار من بعد ذلك دون خسارة تذكر ، إذ كانت الصدة كلها من نصيب الفرس ، فقد رأى أن سكان هذه البلاد الذين رحبوا به بالأمس ، حتى أمكن له استرداد أكثر أراضيه السابقة ، وفيها بخارى وسمر قند ، قد انقلبوا اليوم فأصبحوا له جد كارهون لارتمائه فى أحضان الفرس الذين لم يتورعوا ، فى سبيل نشر مذهبهم وحمل الناس عليه قسرا ، عن إنزال المذابح بالسكان والقضاء على فريق كبير من الفقهاء والعلماء السنيين فى قرشى على الخصوص(٢) ، فانهارت آماله ببلاد ما وراء النهر كلها ، وقفل راجعا إلى كابل ،

---

(١) مآثر الأمراء أول ٤٠٩ .

(٢) يشيد مؤرخو الفرس عموما بالشاه الصفوى ولكنهم ينكرون عليه عنفه فى سبيل نشر مذهب التشيع . (تاريخ عمومى إيران ص ٢٥٨) والمعروف أن بابر حاول جهده أن يحمل القائد

ليولى وجهه بعد قليل صوب البنجاب والهندستان التى سار إليها أجداده من قبل ، والتى غدت مسرحا للاضطرابات والفوضى فى ظل حكومة ضعيفة مقطعة الأوصال ، وهى بثرواتها واتساع رقعتها أصلح مكان لتحقيق حلمه الكبير فى إقامة دولة كبيرة له على كل حال .

الفارسى على العدول عن هذه المذابح ولكنه لم يوفق . وكان مما أخذه الناس على بابر ارتدائه لزى الفرس العسكرى .

هذا وقد بلغ الأوزبك من النفوذ وسعة الرقعة أن صار دوق موسكو لا يعين إلا برأيهم ويلزم بدفع الجزية لهم ، فلولا قتال أمراء المسلمين فيما بينهم إذ ذاك – من الفرس والعثمانيين الأوزبك والمصريين – لتأخر قيام روسيا التى أدى ظهورها إلى أضعاف قوة المسلمين فى الدولة العثمانية وفارس ، وانتهى بضياع بلاد الأوزبك كلها وفيها بخارى وسمرقند والتركستان ، وخضوع أربعين مليونا من المسلمين لجبروت القياصرة الروس واستبدادهم .

فتح الهندستان :

لم يكن الهندستان حين أقبل عليها بابر غازيا أوائل القرن العاشر الهجرى شئ من تلك الوحدة المتماسكة التى شهدتها أيام كبار الغزنويين ومن خلفهم عليها من أمثال شهاب الدين الغورى وقواده وعلاء الدين الخلجى وغياث الدين تغلق .

ولقد حاول السلاطين اللودهيون الأفغان ، فى أعقاب الغـزو التيمـورى أن يستعيدوا لهذه البلاد سابق مجدها فصادف نفرا منهم التوفيق ، فأتيح لبهلول لودهى – مثلا – أن يسترد حدود سلطنة دهلى القديمة ويبسط نفوذه علـى كافـة الرقعـة الممتدة بين إقليم بهار فى الشرق وأقصى البنجاب فى الغرب ثم خلفه ابنه سـكندر من بعده فأضاف إلى بلاده منطقة الدوآب وأخضع لسلطانه أغلب الراجبوتانا ووثـق من علاقاته بحكام البنغال .

وكان عمال دهلى على ولاياتها ، عند اللودهيين ، من الأمراء الأفغـان مـن قبائل لودهى وفرمولى ولوحانى . وكانوا جميعا يدركون أن الدولـة إنمـا قـامت بسيوفهم ورجالهم ، فمناصبهم ، والحالة هذه ، ليست بمنحة من سـلطان دهلـى أو هبة منه ، فهى حقهم الثابت الطبيعى معه فى الحقوق والواجبات .

وحين خلف السلطان إبراهيم أباه سكندر فمال إلى امتهان أمرائه والانتقـاص من حقوقهم حتى ركب طريق العنف معهم ، فجمعوا أمرهم علـى الـتراجع عـن بلاطه إلى ولاياتهم ليثيروا فتنا عارمة عليه بأوده وجونبـور وبـهار ويصرحـوا بخروجهم على سلطانه .

وما غدت البنغال ومالوة والكنجرات فأن قطعـت بدورهـا علاقاتـها مـع العاصمة ، وراح رانا سنكا ، صاحب أداييور ، وأقوى أمراء الهنادكة فـى زمنـه يتزعم أمراء الراجبوتانا على حلف عقدوه فيما بينهم بغية القضـاء علـى سـلطان المسلمين فى الهند كلها واستعادة أمجاد أجدادهم الغابرة[1] .

---

(١) كانت أمارات الدكن الإسلامية بدورها مستقلة عن نفوذ دهلى ، فى حين استطاع آل أرغون، بعدأن أخرجهم بابر من قندهار ، أن يضعوا أيديهم على ولاية السند والملتان وينتزعوها مـن أيدى أصحابها الخلجيين. Prasad. Muslim Rula. P. 258 – 60.

وانتهى استبداد إبراهيم اللوادهى بأمرائه إلى أن انطلق فريق من كبارهم ، وفيهم دولتخان لودهى أمير البنجاب وعلاء الدين علم خان عم السلطان يستنجدون ببابر فى كابل ويحرضونه على دخول الهند ومعاونتهم فى إنزال سلطان دهلى عن عرشه .

ما يفتأ ظير الدين محمد بابر يردد القول فى سيرته ، أنه منذ أن استقر به المقام فى كابل كان يعتزم التوجه إلى الهندستان ، وذلك قبل أن يشرع فى فتحه الحقيقى لها ، ففضلا عما كان لجده السلطان أبى سعيد من أملاك عند أطراف البنجاب والسند، كان يرى نفسه الوريث الشرعى لها حتى بعث إلى السلطان اللودهى إبراهيم صاحب دهلى يطالبه بها ، فقد تحقق لديه استحالة استرداد بلاد ما وراء النهر عليه بعد أن ثبت الأوزبك أقدامهم بها ، وبات الصفويون أصدقاؤه وحلفاؤه يسيطرون على خراسان وما حولها . ولقد أتيح لبابر أن ينحدر من الهندكوش إلى مشارف البنجاب وسهولة القريبة فى غزوتين ناجحتين بلغ بهما بهيرة وآب منهما بكثير من الأسلاب والغنائم وبقدر طيب من المعلومات المفيدة عن الهند وأهلها ومحاربيها ، وأحوال حكومتها قبل كل شئ ، حتى إذا ما استعداه بعض أمرائها على سلطانهم خرج إليها فى غزوتين أخرتين بلغ فى أولاهما لاهور قصبة البنجاب ودخل فى الثانية آكرا فجلس على عرش الهند وأقام بها دولة(١) .

غزوة بهيرة :

خرج بابر من حاضرته كابل فى المحرم من عام ٩٢٥هـ/١٥١٩م فسلك طريق بشاور فاجتاح حصن بجور على حاميته برغم استبسالها الذى كلفها ثلاثة آلاف من الأرواح(٢) حتى إذا ما عبر نيلاَب وجهلم من روافد السند أقبل عليه

---

(١) يقدر بعض المؤرخين غزوات بابر الهندية بخمس ، فمنهم من يدخل فى حسابه تجوله عند مشارف البنجاب الاستطلاعى عام ٩١٠هـ ومنهم من يضيف إليهم خروجه إلى بشاور لتأديب القبائل الخارجة عليه .

(٢) رأى رجال هذا الحصن البنادق لأول مرة فراحوا يسخرون من أعدائهم وهم يشعلونها، حتى إذا ما انطلقت فأصابت الكثيرين منهم بلغ الخوف منهم مبلغه . بابر نامه ورقة ٢١٧ .

زعماء القبائل هناك يعلنون ولاءهم له ، فبسط بذلك نفوذه على مناطق جينآب وخوشآب وجينوت ، وكانت جميعها من أملاك التيموريين السابقة ، ثم عبر الحاجز الملحى إلى بهيرة فاستسلم له أهلها على جزية كبيرة دون قتال .

هنالك نصح له رجاله أن يصالح سلطان دهلى على رد جميع أملاك التيموريين بالبنجاب إليه ويعود إلى بلاده .

وحمل بابر على قبول هذا الرأى ما لاحظه من ضيق رجاله بحر الهند اللافح، وإن كان أمير البنجاب قد حبس رسوله إلى دهلى عنده فلا هو أطلقه إلى غايته ولاهو رده إلى بلاده .

على أن بابر لم يكد يمضى بكابل شهرا واحدا، بعد أن عاد إليها ، حتى ارتد إليه نائبه على « بهيرة » وما حولها لخروج الهنود([1]) والأفغان عليه وعجزه في قواته القابلة عن القضاء على عصيانهم .

وأدى إلى تعويق خروج البادشاه إلى البنجاب من جديد ما كان من خروج بعض قبائل الأفغان عليه ببلاده حتى انتهى إلى تعزيز حصن بشاور بحاميات قوية تستطيع السطيرة على منازل الأفريدى والوزيرى([2]) وخضر خيل فيما حولها . على أنه لم يكد يبلغ مشارف بهيرة من جديد عام ٩٢٦هـ/١٥٢٠م حتى بلغه انقضاض شاه بيك أرغون على قندهار وإعماله السلب والنهب فيما حولها من أرضين ، فارتد إليه من فوره فأخرجه منها ونصب عليها ثانى أبنائه كامران ، كما تم له كذلك الاستيلاء على بدخشان فأقام عليها ابنه الأكبر همايون .

حتى إذا ما تم ذلك كله وتوطد الأمن فى ربوع بلاده فوفد إليه رسل بعض الأمراء الأفغان اللودهيين يستنجدون به من طغيان سلطانهم صاحب دهلى([3]) طفق

---

(١) نطلق لفظ الهنود فى هذا الكتاب على المسلمين من أهل البلاد . غير الهنادكة الذين بقوا على ملة آبائهم .

(٢) لهذه القبائل صفحات بطولة مشهودة حين ردت البريطانيين عن دخول بلادهم بطريق الهند. حاضر العالم الإسلامى ثان ص ١٩٨ – ٢١٤ .

(٣) منتخب التواريخ لبداونى ص ٣٣ .

يعد العدة لغزوة هندية كبرى انتهت باستيلائه على أجزاء كبيرة من البنجاب ودخول عاصمته لاهور .

البادشاه فى لاهور : لم يكن بابر ليتردد عن المسير إلى أرض الهند من جديد وقد تكشف له فى غزواته السابقة مدى ما عليه هذه البلاد من الثراء الكثير وما يتيحه له ترامي رقعتها وضعف حكومتها من فرصة مواتية لإقامة دولة كبيرة له ، وهاهم بعض أهلها يدعونه إليهم ويحالفونه على سلطانهم .

هكذا خرج بابر من كابل فى مستهل عام ٩٣٠هـ‍م١٥٢٤م . فما إن أشرف على لاهور حتى التقى بجيش قوى لدهلى فهزمه ودخل المدينة الكبيرة من بعد ذلك فأباحها لجنده أربعة أيام وأشعل النيران فى أبنيتها وأسواقها[1] ، ثم أتجه من بعد ذلك إلىدبالبور فاستولى عليها بعد أن أنزل بحاميتها مذبحة بشعة .

ولحق بالبادشاه فى دبالبور دولتخان أمير البنجاب ، الذى كان قد استنصره على السلطان اللودهى من قبل ، فهاله ما استبان له من سعيه لتثبيت أقدامه فيما استولى عليه من أرضين حتى أقام فريقا من رجاله على شئونها ، وكان الظن أنه ما يلبث حين يتم له دحر عدوه أن يؤوب إلى بلاده ويترك الهند لحلفائه من أهلها . فما غدا حين لمس إهمال بابر أن له انطلق وأولاده يتآمرون بصاحب كابل وقواته حتى كادوا يوقعون بهم . وقد انتهى أمر المتآمرين جميعا إلى الحبس بعد أن انكشف أمرهم .

واتخذ بابر من بعد ذلك طريقه إلى دهلى . حتى إذا ما انتهى إليه خبر فرار دولتخان وابنه غازى من محبسهما ، بادر من فوره بالارتداد إلى لاهور خوفا من قطع خط الرجعة عليه وعلى قواته . ليرغمه ظهور الأوزبك عند بلخ من بعد ذلك على العودة إلى كابل ، وإن ترك بالبنجاب حامية قوية من رجاله كفلت له إقرار الأمور هناك ودفعت عن عاصمة الإقليم قوات دولتخان وأنزلت بها هزيمة شديدة .

---

(1) Lane Poole India p.209.

وغاظ دولتخان ما رآه من حفاوة بابر بعلاء الدين علم خان عم سلطان دهلى حتى ولاه دبالبور ، حتى أمده بالجند الكثير حين قصد إليه فى مقامه بكابل وأمر قواده بلاهور أن يسيروا معه إلى دهلى فإذا دخلوها أجلسوه على عرشها . فما زال يحتال على الأمير اللودهى حتى انقاد له وقبل صحبته فى زحفه إلى عاصمة الهند ضاربا عرض الحائط بتحذير قادة البادشاه فى لاهور له منه . وقد تصدى لهم السلطان اللودهى عند ظاهر دهلى وأنزل بهم فى الليل هزيمة حاسمة تشتت على أثرها شملهم حتى التمس فريق كبير من القادة مخابئ لهم فى الجبال فى حين آثر فريق آخر المبادرة بالانضمام إلى قوات دهلى .

واقعة بانى بت :

لم يكد بابر يؤمن مؤخرته عند بلخ من خطر الأوزبك ، حتى طفق يعد العدة ليتم ما بدأه من فتوحه الهندية معتمدا على قواته وحدها هذه المرة ليس غير .

فخرج من كابل فى صفر من عام ٩٣٢هـ/١٥٢٥م فى غزوة الفتح آخر غزواته الهندية وأعظمها ، فقد تم له فيها القضاء على ملك اللودهيين والجلوس على عرشهم فى آكرا ليبسط نفوذه من بعد ذلك على الشمال الهندى ويمارس حكمه حتى توافيه المنية به .

واجتمع لبادشاه كابل اثنا عشر ألفا من الجند عبر بهم السند ، حتى إذا بلغ شاطئ جهلم بعث إلى قواته بلا هور ليوافوه بمقامه ، بعد ما بلغه من أمر دولتخان مع الأمير اللودهى علاء الدين علم خان وزحفهما معا إلى دهل وهزيمتهما من بعد ذلك .

ولم يشأ بابر أن يواصل زحفه إلى غايته قبل أن يؤمن خطوطه من أى غدر قد تتعرض له . فبعث بفريق من قواته ، فما زالت بدولتخان وأولاده حتى أوقعتهم فى الأسر ، ليدخل بابر من بعد ذلك معقل عدوه فى حصن « ملوت » ويستولى على ماله به من أموال وذخائر[1] .

---

(١) استولى بابر فى هذا الحصن على مجموعة كتب قيمة ، كبيرة فاحتفظ لنفسه بقسم منها وأهدى الباقى ابنه همايون . أكبر شاه ورقة ٣٩ب .

وما غدا أمير البنجاب السابق أن قضى فى محبسه بقلعة بهيرة بعد قليل .

وحين اطمأن الجيش الفاتح إلى تأمين خطوطه فى البنجاب واصل بـــه قـــائده السير حتى بلغوا نهر جمنه فنزلوا فى مواجهة بلدة « سرساوه » وبعثوا بكشـــافيهم ليستطلعوا لهم مواقع العدو ويتسقطوا أخباره .

هنالك استقر الرأى بين القادة البابرين على دخول المعركـــة الفاصلـــة مـــع عدوهم ، فعبأوا قواتهم وفق تشكيلات العثمانيين[1] . فربطـــت عربـــات الحـــرب بالسلاسل وأربطة الجلد جنبا إلى جنب تتخللها التورات[2] ، واصطف حملة البنـــادق من ورائها ، ثم زحف الجمع إلى بانى بت حيث معسكر السلطان إبراهيم اللودهـــى فنزلوا بظاهرها فى آخر جمادى الثانية من عام ٩٣٢هـ ، فجعلـــوا المدينـــة إلـــى يمينهم وألقوا بعربات الحرب فى الجبهة ومـــن ورائـــها المدفـــع وحملـــة البنـــادق والفرسان ، فى حين حفرت الخنادق وأقيمت المتاريس إلى ميســـرة الجبهـــة وقـــد تركت بها ثغرات تسمح لمائة من الجند ، أو ما يزيد عليهم ، بالبروز للقتال منها .

وهكذا كان على بابر وقواته ، التى لم تكن تعدوا اثنى عشر ألفا ، أن تنـــازل ، فى هذا الميدان الذى طالما تقرر فيه مصير الهند قبل ، جيش الســـلطان اللودهـــى الذى كان يصل إلى المائة ألف من الجند عدا ومعها ألف من الأفيال .

ولم يمض على هذه القوات بهذا المكان أيام ثمانية حتى التحمت معا فى قتـــال عنيف أفلحت فيه فرق المناوشة عند جناحى الجيش المهاجم ، آخر الأمر ، فـــى أن تفصل مؤخرة عدوها عن ساقته ، ثم ما زالت تقذفها بوابـــل مـــن ســـهامها حتـــى أخرجتها من الميدان ، فى حين أطبق رجال الجبهة الوسطى ومعهم حملة البنـــادق وأصحاب المدافع[3] ، على قلب جيش دهلى ، فلم ينته اليوم حتى قضـــى البادشـــاه

---

(١) بابر نامه (٢٦٤أ) .

(٢) التورة هى دروع تصنع على هيئة نسيج السلال من الخسك والغصون لتقى رجـــال البنـــادق من السهام .

(٣) لم يكن عند بابر أول أمره إلا مدفع واحد وكان لا يطلق إلا مرات قليلة فى اليوم الواحـــد ، ويستغرق تعبئته مدة طويلة . بابر نامة ٣٣٧ .

على قوات عدوه قضاء مبرما ، وسقط فى الميدان خمسون ألـــف قتيـل توســطهم السلطان إبراهيم اللودهى صريعا([1]) .

هنالك بادر البادشاه المنتصر بتسيير فريق من رجاله إلى دهلى ومعهم قاضيه الشيخ زين الخوافى فدعوا له علـى منابرهـا فـى منتصـف رجـب مـن عـام ٩٣٢هـ/١٥٢٦م ووصلوا فقراءها بقدر من المال هبة منه إليهم ، فى حيـن وجـه ابنه همايون مع نفر آخر من قادته إلى آكـرا مقـر اللودهيين ومثابـة أموالـهم وكنوزهم.

على عرش آكرا :

دخل بابر قلعة آكرا وجلس على عرش اللودهيين بها فى التاسع والعشـرين من شهر رجب عام ٩٣٢هـ/ فكان ثالث غاز مسلم يتوغل فى ارض الـهند ويعـد من بين أعظم سلاطينها .

وأول هؤلاء السلاطين الغزاة هو « محمود الغزنوى » وثانيهم هو «شـهاب الدين الغورى » . ولم يكن الحكام المسلمون الذين خلفوا هذين العاهلين فـى حكـم هذه البلاد إلا من أبنائهم وقوادهم ومواليهم فى الغالب .

ويتميز بابر عن سلفيه بفرط الجرأة والإقدام . ذلك ان محمود الغزنوى حيـن أقبل على الهند غازيا ، كان له ملك سمر قند وبلاد ما وراء النهر كلها وخراسـان وفارس، كما كان له من الجند ما يتجاوز عددهم المائة ألف بكثير، ومن الهيبة مـا ضمن له تأمين مؤخرته كحدوده وأوقع الرعب فى قلوب أعدائه قبل لقائه .

كذلك كان للسلطان الغورى فى زحفه على الهند مائة وعشـرون ألفـا مـن الجند، كما كان حكم خراسان كذلك فى أسرته .

فى حين لم يتيسر لبابر فى غزوة الفتح الهندية إلا اثنا عشر ألفا من الجنـد ، وموارده ضئيلة ، وأرضه ضيقة الرقعة ، والأوزبك ما يزالون ببلاد ما وراء النـهر عند مؤخرته يتربصون به . فواجه جموع الهند الكثيفة ذات الثراء العريـض فـى

---

(١) تاريخ فرشته أول ص٢٢٥ .

طموح وإصرار وعزم ليسجل بانتصاره عليها ، من بعد ذلك ، صفحة من أروع صفحات المغامرات فى التاريخ .

وإلى جانب سلطنة دهلى التى تربع بابر على عرشها فى آكرا ، والتى كانت تمتد من البنجاب إلى بهار وتضم معها إقليم جونبور ، كان بالهند أربع إمارات كبرى إسلامية وأخرتان هندوكيتان ، عدا إمارات عدة أخرى صغيرة متناثرة هنا وهناك .

وأول هذه الإمارات هى الكجرات بباب التجارة الهندية الأكبر ، وكان يحكمها بيت مظفر شاه ، ويليها إمارة بهمنى الدكنية وهى التى أنشأنها الأمير حسن كنكوى بهمن شاه ، ثم إمارة مالوه أوماندو وكان عليها أمراء من بيت الخلجيين ، والبنغال وقد حكمها نصرت شاه وأولاده([1]) .

أما الإمارات الهندوكية فكان أكبرهما اثنتان هما : فيايانكر وموار . وكان يحكم الأولى راجا كرشنادوا . فى حين كان يقوم على الثانية رانا سنكا أعظم الأمراء الراجبوتيين بالهند فى وقته وأعلاهم قدرا وأوسعهم نفوذا .

أخذ البادشاه فى آكرا يغدق على رجاله مما وقع فى أيديه من أموال اللودهيين الطائلة وكنوز الهند ، فلم يكتف بأن جعل لكل جندى سار معه قدرا وافرا من العطاء حتى بعث بهبات مالية وفيرة إلى عماله وذوى قرباه فيما وراء حدود الهند ، ووصل العلماء والفقراء فى كافة المزارات الإسلامية بخراسان وبلاد ما وراء النهر والعراق والحجاز([2]) .

وأبى فاتح الهندستان الجديد إلا أن يكون للمدينة التى بزغ فيها نجمه وعلا بها طالع سعده من العطاء نصيبا فأرسل بقطعة من العملة الفضية (شاهرخية) إلى كل قاطن بكابل ، رجلا أو امرأة ، طفلا أو حدثا عبدا أو حرا .

---

(١) فصلنا الكلام عن هذه الإمارات فى القسم الأول من هذا الكتاب .

(٢) تاريخ فرسته أول ص ٢٠٦ .

ولم ينس ، وهو فى غمرة توزيع هذه الكنوز الطائلة ، أن يلتفت إلى أسرة غريمه السابق السلطان إبراهيم فأجرى على أمه وزوجاته وأولاده رزقا حسنا وأوصى رجاله بالسهر على راحتهم[1] .

وكان مما عرض على بابر من جواهر الهند بآكرا ماسة «كوهينور » الشهيرة وكانت التى تزن ثمانية مثاقيل وقد قدر البادشاه قيمتها فى سيرته بما يوازى نصف نفقات الدنيا فى عصره . وكان قد أهدى هذه الماسة لهمايون بن بابر أسرة بكر ما جيت راجا كواليار لحسن رعايته لها بآكرا بعد أن هلك وليها مع السلطان إبراهيم فى حرب بانى بت .

ورد بابر هذه الماسة على ابنه حين قدمها له فما زالت أيدى السلاطين المغول بالهند تتداولها حتى سقطت بأيدى البريطانيين حين دخلوا الهند فزينوا بها تاج ملكتهم فكتوريا[2] .

على أن استيلاء بابر على هذه الكنوز الكثيرة وجلوسه على عرش آكرا لم يكن ليعنى خضوع سلطنة دهلى لحكمه برغم قضائه على السلطان اللودهى وجيوشه ذلك أن الأمراء الأفغان من حكام الولايات اللودهية أدركوا تماما أن البادشاه إنما قد قدم إليهم ليغتصب بلادهم لنفسه وأنه لن يسكت حتى يقضى على جميع نفوذهم وسلطانهم . فإذا كانوا بالأمس قد دفعهم اعتدادهم إلى الوقوف فى وجه السلطان اللودهى ، وهو كبيرهم وابن جلدتهم على كل حال فكيف يرضون اليوم بالخضوع لقادم غريب عليهم . فمنهم من شايع أمير بهار جلال الدين بن دريلخان فالتفوا حوله ونادوا به سلطانا عليهم ، ومنهم من سار إلى الراجبوتانا فانضم إلى جبهة الأمراء الهنادكة بها . وسهل لهؤلاء الثائرين تحصين مراكزهم ما تهيأ لهم من وقت كاف كان فاتح الهند مشتغلا فيه بتقسيم ما وقع بأيديه من الأموال والأسلاب . حتى إذا ما فرغ من أمر غنائمه ، وجد ما حول آكرا من

---

(١) برغم ذلك فقد احتالت أم السلطان اللودهى على دس السم لبابر فى طعامه ، بابر نامه ورقة ٣٠٥ ، ٣٠٦ .

(٢) Lane – Polle 204.

دساكر وقرى قد هجرها أغلب أهلها وتركوها خرابا بيابا حتى كاد لا يجد الطعام الكافى لجنوده والعلف لدوابه .

وأشاعت قسوة الصيف الهندى روح القلق والتذمر بين صفوف القوات الغازية فقد حسبوا ، بعد أن أصابوا من الغنائم والأموال فوق ما كانوا يأملون أن أميرهم ما يلبث أن يعود بهم إلى ديارهم بعد أن تم له هزيمة عدوه والاستيلاء على ما وجده عنده من أموال طائلة وكنوز .

ولم يكن بابر ليخضع لرأى رجاله فيرتد عن أرض الهند ، كما ارتد الإسكندر ومحمود الغزنوى وتيمور عنها من قبل ، والفرصة مواتية له لإقامة دولة كبيرة قوية له هناك . فما زال بقواده وأمراء جيشه يذكرهم بمبلغ ما صادفهم من متاعب وصعاب تغلبوا عليها آخر الأمر فجنوا ثمار جهودهم بالفوز والغلبة . كما بين لهم أن الدول لا تقوم إلا على ركوب الأخطار ومواجهتها ، وأن الملك لا يكون إلا بالرعية المخلصة والأقطار المفتوحة ، وهاهو ، بعد كفاح طويل وجهاد شاق ، قد تم لهم الاستحواذ على بلاد عريضة ، فليس للمتاعب والصعاب مهما كان من شأنها أن تغلبهم اليوم على أمرهم فينكصوا عن الهدف الذى غدوا على قاب قوسين أو أدنى من تحقيقه وبلوغه ويرتدوا على أعقابهم وكأنهم جند منهزم طحنته الانكسار([1]) وأذله .

وهكذا تم لبابر بشجاعته وقوة عزيمته وإصراره القضاء على روح التمرد والتذمر بين جنوده ليوجه فريقا كبيرا منهم ، بإمرة ابنه همايون ، إلى الولايات الهندية الشرقية ويتجه هو بنفسه من بعد ذلك إلىبيانه وكواليار التى تجاور عاصمته فيضمها إلى ملكه .

ذلك أنه برغم قدوم كثير من شيوخ القبائل الأفغانية فى الدوآب إلى السلطان الجديد ومعهم قواتهم وانضمامهم إلى صفوفه ، فقد ذهب أميران من كبار الأفغان هما نصير لوحانى ومعروف فرملى ، يجمعان الجند حتى صار لهما أربعون ألفا منهم فاستوليا بهم على قنوج ثم اتخذا طريقهما إلى آكرا وطفق

---

(١) تاريخ فرشته ص ٢٠٦ .

همـــايون يطارد قوات الثوار فانتزع منهم جونبور وغازيبور وكالى وخـــير آبـاد حتى إذا ما شرع يتعقبهم بإقليم خريد ، عند حدود البنغال ، بعث إليه أبـــوه يـأمره بالعودة إليه على عجل ليعاونه بقواته على دفع خطر الراجيوتين الـــذى كـان قـد استشرى حتى أمتد إلى كافة المناطق القريبة من دهلى .

معركة خانوه : انتهز الأمر الراجبوتيون فرصة الضعف الذى أصاب الدولـة أيام السلطان إبراهيم اللودهى فعقدوا بينهم حلفا لمناهضة الحكم الإسلامى فى الـــهند تزعمه رانا سنكرام سنك المعروف برانا سنكا صاحب موار وراجا أداپيور . وكـان نجم هذا الأمير الهندوكى قد بدأ يعلو أيام السلطان سكندر لودهى حين فر من أمامـه صاحبا ما لوه والكجرات وبلغت قواته مشارف دهلى. وما تزال القصـــص بالـــهند يروى عن بطولته حتى اليوم.

وعظم شأن هذا الأمير أواخر أيام الدولة اللودهية حتى اتسعت رقعة أراضيـه ودخل فى نطاقها بهيلة وسرنكبور وجندرى ورنتنبهور ، وحتى صار له من الجنـــد مائة وعشرون ألفا ومعهم خمسمائة من الأفيال([1]) .

وانتهز رانـــا سنكا فرصة اشـــتغال صاحب آكرا الجديـد بالقضـــاء علـــى الفتن فى المناطق الشرقية وفيماحول عاصمته ، فاستولى على حصن كـــهندار وراح يهاجم بيانه ودهلبور وكالبى من جديد ، ثم شرع يؤلب الأمراء الأفغان على فـــاتح الهندستان ويدعوهم للانضمام إلى جبهته ، حتى استجاب له فريق منـــهم ، وفيـــهم حسن خان صاحب موات ومحمود خان أخو إبراهيم اللودهى الذى نودى به سـلطانا على قومه ، فأخذوا جميعا يعدون العدة للزحف على آكرا([2]) .

ولم يكن بابر ليسكت عن هذا الخطر الداهم الذى قد ينتهى بالقضاء على كـــل ما جنى من فتوح ، فبرز من عاصمته فى جمادى الأول من عام ٩٣٣هـــ حتى بلـغ

---

(١) Prasad Muslim Rule,PP.258, 7,74p.272 هذا ولقد سبق لهذا الراجا الاتصال ببابر بـــدوره فى كابل قبل زحفه على الهند وتعهد له بمسالمته .

(٢) منتخب التواريخ أول ص ٣٣٨

سكرى فأقام بها معسكرة ، وأخذ يحصن مواقعه ، فهيئت عربات الحرب والمدفعية وحفرت الخنادق وأقيمت المتاريس .

وفى هذا المكان أذاع البادشاه فى قومه وكافة أنحاء بلاده منشورا أعلن فيه عزمه على الجهاد فى سبيل الله بمحاربة الهنادكة ، ورفعة ضريبة التمغة عن كاهل رعاياه ، وإقلاعه عن مقاربة الشراب توبة إلى الله وتقربا إليه منه ، فأهرق ما بالدنان من النبيذ على الأرض وحطمت أدوات الشراب من ذهب وفضة إلى قطع صغيرة كانت من نصيب الفقراء والمساكين صدقة(1) :

« نحمد توابا يحب التوابين والمتطهرين ونشكر ديانا يهدى المذنبين والمستغفرين ... وبعد فإن طبيعة الإنسان على مقتضى الفطرة تميل إلى لذات النفس البشرية . فهى ليست بمنجاة عن ارتكاب الآثام » ﴿ وما أبرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى إن ربى غفور رحيم ﴾(2) .

« وها هى التوبة عن الشراب قد آن أوانها فى هذه الأوقات المباركة التى نعد العدة فيها للجهاد فى سبيل الله ، وقد اجتمع عساكر الإسلام لحرب الكفار .. » ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ﴾(3) فاقتلعنا أسباب المعصية بقرع أبواب الإنابة – ومن قرع بابا ولج ولج ولج – وافتتحنا هذا الجهاد بالجهاد الأكبر وهو مجاهدة النفس ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا ﴾(4) ، ﴿ وإنى تبت إليك وإنى من المسلمين ﴾(5) ، فأعلنا جميعا توبتنا عن الشراب وأمرنا بأدواته من كؤوس الفضة والذهب – زينة مجلس الضلالة – فألقيت إلى الفقراء والمساكين والمعوزين صدقة ..

---

(1) بابر نامه ٣١٢ – ٣١٤ ، وقد أذيع هذا المنشور فى سيرة بابر الجغتائية باللغة الفارسية لأنها كانت اللغة الغالبة فى هذه البلاد .

(2) سورة يوسف : الآية ٥٣ .

(3) سورة الحديد : الآية ١٦ .

(4) سورة الأعراف : الآية ٢٣ .

(5) سورة الأحقاف : الآية ١٥ .

وغايتنا من هذا الفرمان أن يقابل بالطاعة والخضوع ، وينفذ ما نص عليه من تحريم الشراب وصناعته فى كافة أنحاء البلاد ... ورفع التمغة (المكوس) عن كاهل المسلمين ، والجرى على ضوابط شريعة سيد المرسلين .. ﴿ فمن بدله من بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه ﴾(١) .

ورأى بابر الخوف يشيع فى رجاله من قتال الهنادكة ولم يكن لهم بلقائهم عهد من قبل ، وقد تصدى لقيادتهم راناسكا أعظم أبطالهم ، وتشهد على جرأته وبطولته عين فقأتها السهام وذراع بترتها السيوف وثمانون طعنة تناثرت آثارها فى جسده ، وهاهو فريق من أمراء الأفغان المسلمين أنفسهم يؤثر الانضمام إليه على جانب سلطانهم ، فى حين طفق فريق منهم بـ « الدوآب » وما حولها يرتد إلى حوصنه القديمة فينتزعها عنوة من أيدى حماتها الجدد .

هنالك أخذ البادشاه يستنهض همم رجاله ويقوى من روحهم المعنوية فخطبهم قائلا بأن المرء مهما طال به الأجل فمصيره إلى الفناء ، فما أشرف له أن يستشهد فى ميدان الجهاد فيخلد ذكره عن أن يموت خاملا حتف أنفه.

« ولقد أراد الله القدير أن يمتحننا بهذه المحنة ، فإن نسقط فى ميدان الجهاد فقد كتبت لنا الشهادة وإن ننتصر فقد أعلينا كلمته تعالى » .

وجئ بالكتاب فأقسم كل فرد منهم على ألا يلوى وجهه عن القتال أو يتخلى عن أصحابه طالما كان فيه نفس يتردد بين جنبيه(٢) .

لم يفت فى عضد الجند البابرى ما رأوه من انسحاب كثير من أمراء البلاد من صفوفهم ، وما بلغهم من مهاجمة الهنادكة لكواليار ، ونشوب الفتن فى « الدوآب » ، فزحفوا إلى أرض خانوه عند مشارف الراجبوتانا يتقدمهم أصحاب آلاتهم الحربية من رجال المدفعية وحملة البنادق حتى يقيموا من نيرانهم » إذا لزم الأمر ، ستارا يهيئ لهم الفرصة لتشكيل صفوفهم للقتال فى اطمئنان .

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٨١ .

(٢) منتخب التواريخ لبداونى أول ص ٣٤٠ .

والتقى الجمعان قبيل ضحى يوم السبت الموافق ١٣ جمادى الآخر ٩٣٣هـ/١٦ مارس ١٥٢٧م ليخوضوا غمار حرب تعد من أهم الوقائع الحاسمة فى تاريخ الهند كلها .

وتحوى سيرة بابر وصفا دقيقا فيما لهذه الواقعة ننقل عنه مايلى([1]) :

« الحمد لله الذى صدق وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده ... وصلى الله على خير خلقه محمد سيد الغزاة والمجاهدين ... وبعد ؛ فما من نعمة تستوجب الشكر أعظم من النصر على الكفار ، فهى فى نظر أهل البصيرة أعلى درجات السعادة . والمنة لله وحده الذى حقق لنا ، من مكنونات نعمه ، النصر والغلبة ، فكتبنا عنده فى سجل المجاهدين لإعلاء كلمته .. » .

« وتفصيل الأمر فى مصدر هذه السعادة وظهور هذه الدولة ، أنه لما أضاءت ومضات سيوف فرسان الإسلام من جنودنا بلمعات أنوار الفتح والظفر ، وأعانت ايادى التوفيق الربانى على رفع رايات النصر فى ممالك دهلى وآكرا وجونبور وخريد وبهار وغيرها من البلدان بما سبق تفصيله ، سارع بالانضواء تحت لوائنا والخضوع لسلطاننا كثير من طوائف القوم من أصحاب الكفر وأرباب الإسلام على السواء » .

« أما رانا سنكا فقد تظاهر بطاعتنا بادئ الأمر ثم ما لبث أن أظهر ما بطن فأبى واستكبر ورفع رأس الفتنة وقاد جيوشها ، واجتمع حوله طوائف فيها من تمنطق بالزنار وفيها من ارتدى ثياب الكفر والارتداد([2]) .

وهذا وكان سلطان ذلك الكافر اللعين قد اتسع قبل أن تبزغ شمس دولة البادشاه بها ، ولكن لم يحدث قبل هذه الحرب أن شاركه أحد من الراجاوات والحكام حروبه أو خرج معه فيها » .

---

(١) بابر نامه ٣١٧ ب – ٣٢٤ب وهو المنشور الذى عهد بابر بصياغته إلى قاضية زين الدين خوافى ، فحوى بالفارسية أدق تفاصيل القتال وخططه ونتائجه ليذاع فى كافة أنحاء المملكة .

(٢) أصحاب الزنار هم الهنادكة ، أما المرتدون فهم الأمراء المسلمون الذين ظهروا فى صفوف الهنادكة .

« أما السلاطين الأقوياء من أمثال أصحاب دهلى والكجرات ومالوه ومن إليهم ، فمن كانوا فى حالة تسمح لهم بمعارضته والوقوف فى وجهه ، فقد عجزوا عن أن يتكتلوا ضده دون اتفاق الكفار وإياهم ، فغدوا لذلك يداهنونه بدورهم ويدارونه اتقاء لخطرة ودفعا لشره » .

« وهكذا باتت بنود الكفر ترفرف على قرابة مائتى مدينة من مدن الإسلام التى خرب ما بها من مساجد وسبى ما بها من نساء المسلمين وقتل أطفالهم فيها ».

« أما مدى قوته ومبلغ عدته ، فعلى حساب أهل الهند وجريا على قواعدهم ، فإن كل إقليم خراجه لكا (أى مائة ألف) يستطيع أن يقدم مائة فارس ، وما يكون خراجه كروا (عشرة ملايين) يقدم عشرة آلاف فارس ولما كان خراج ولاياته جميعا يصل إلى عشر كرور فقد كان فى وسعه أن يجتمع له مائة ألف من الفرسان».

« هذا وقد أقبل عدد من أمراء الكفار يقدمون العون له لأول مرة بدافع من أعدائهم للمسلمين . وكان لهؤلاء إقطاعات واسعة ؛ فهذا صلاح الدين أمير بهيلسه ورايذن وسارنكبور ، كان له ثلاثون ألفا من الفرسان ، وهذا راول أودى سنك ، صاحب دنكربور كان له اثنا عشر ألفا ، ثم حسن خان ميواتى وكان له اثنا عشر ألفا ، وبارمل عدرى وكان له أربعة آلاف ، ونربت هاره ، وكان له سبعة آلاف، ومندنى راى ، وكان له اثنا عشر ألفا ، وستورى كجى ، وله ستة آلاف ، وهرم دوى ، وله أربعة آلاف ، وبرسنك دوى وله مثلهم ، وأخيرا « محمود خان بن السلطان سكندر خان » فبرغم أنه لم يكن له من الملك نصيب فقد تم له جمع عشرة آلاف فارس أمل أن يصل بهم إلى العرش[1]» .

---

(١) لم تزد عدد قوات هؤلاء الحلفاء فى هذه الواقعة على مائة وعشرين ألف فارس Prasad 274 فى حين لم تكن قوات بابر تزيد على ما اشترك به فى « واقعة بانى بت. هذا وقد أشرنا فى القسم الأول من هذا الكتاب إلى السر الغالب فى انهزام جموع الهنادكة على كثرتهم أما الغزاة المسلمين على قلتهم ، وإن زاد على ذلك استخدام بابر للمدفعية والبنادق التى لم تكن الهند تعرفها من قبل .

« هكذا انطلقت جموع أولئك الكفار معاً ، كظلمات بعضها فوق بعض في حرب أهل الإسلام والعمل على هدم شريعة سيد الأنام ، لكن المجاهدين انقضوا عليهم طلباً للشهادة في جهاد الكفار والمنافقين ».

« وفي يوم السبت المبارك الثالث عشر من جمادى الثاني من عام ٩٣٣هـ أقام جيش الإسلام المظفر مضارب خيامه على تل بجوار خانوه إحدى مناطق بيانه. حتى إذا ما قدم الكفار بأفيالهم – كأصحاب الفيل – برز لهم عساكر المسلمين – رياحين الجنة – يقاتلون في سبيله صفاً صفاً كالبنيان المرصوص ».

« أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون »[1] .

« هنالك أجمع أهل الخبرة على تغطية موضع حملة البنادق وستر مكانهم ، وكانوا في الجبهة ، فنهجوا في ذلك نهج مجاهدى الروم[2] ، فصفت العربات أمامهم وقد شد بعضها إلى البعض الآخر بالسلاسل ».

« وكانت جيوش الإسلام تنتظم في إحكام تام ، والحرس الشاهاني قد توسط الجناحين منها ، وقامت فرق المناوشة بأقصى الجناحين » .

« وحين تقابل الجيشان ، وكأنهما الليل والنهار ، بدأ الاشتباك عند الجناحين، واشتد أوار الحرب حتى كأنما الأرض قد زلزل زلزالها ، وبلغ ضجيج قعقعة السلاح عنان السماء . حتى إذا ما اقتحم جناح الأشقياء الأيسر ميمنة المسلمين ، سارعت نجداتنا إليهم ، فلم تكتف بردهم حتى ظلت تطاردهم إلى قلب جيشهم ».

« وألهم بالتوفيق ، نادرة عصره « مصطفى الرومي » وكان في القلب في إمرة ابننا « محمد همايون » فتقدم بمدفعه وبنادقه وقذائفه ، فحطم صفوف الكفار».

« حتى إذا ما زحفت أفواجهم من جديد تترى لنجدة رجالهم فكروا على جناح المسلمين الأيسر في عنف وشدة ، طفق الغزاة ذوو النجاة يستقبلوهم في كل مرة

---

(١) سورة البقرة : الآية ٥ .

(٢) أي العثمانيون .

بالسهام فيبعثون بهم إلى دار البوار ، أو يرغموهم على الفرار ، وهم يرددون قوله تعالى : ﴿ قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنين ﴾[1] ».

« وحين حمي وطيس الحرب صدرت الأوامر إلى رجال الحرس الشاهانى بالبروز للقتال ، وكانوا فى مواقعهم من وراء المدفعية كالأسود فى أقفاصها ، فاندفعوا من يمين القلب ويساره كطلعة صبح صادق أطل من وراء الأفق فضرجوا الكفار فى دماء بلون الشفق وأطاحوا برءوس الكثيرين منهم » .

« هذا كما طفق ، نادرة العصر ، الأستاذ عليقلى يقذفهم[2] وأتباعه ، من وسط الجبهة ؛ بقذائف تحيل الجبال الراسيات كالعهن المنفوش ولو كوفئ الواحد منها بثقلها أعمالاً طيبة لثقلت موازينه ، فهو فى عيشة راضية، فحصد بها الكثير من الكفار حصداً .. » .

«كذلك سقى حملة البنادق – من وراء المدفعية – كثيراً من الأعداء كأس الحمام فى الميدان ، وأظهر المشاة من ضروب المخاطرة ما يخلد أسماءهم مع أسد الغاب الصيد والأبطال الصناديد » .

« وفيما الحال يجرى على هذا المنوال ، صدرت الأوامر بتقدم المدفعية من مواقعها إلى الأمام ، وبدأت الحضرة الخاقانية بدورها فى تقدمها، والفتح فى ركابها والظفر واليمن . فزحفت على فرقة الكفار » .

« واختلط الضارب بالمضروب ، والغالب بالمغلوب ، وانعقدت سحب الغبار فوق الرءوس وقد حجبت الشمس عنهم حتى توارت المرئيات ، فلم يكن يضئ هذا الليل إلا لمعات السيوف وومضاتها ، وما ينبعث من الشرر حين تضرب الخيل الأرض بحوافرها فى الكر والفر ».

---

(١) سورة التوبة : الآية ٥٢ .

(٢) كان لبابر إلى جانب مدفعه قطع أخرى يسميها فرنكية عدا بنادقه التى تعرف باسمها التركى «تفك » هذا وكانت عرباته الحربية تصل إلى ثمانمائة .

Elliot & Dowson, India vol. Vi. P.468.

« وهتف الهاتف بالغـزاة المجاهدين أن « ولا تـهنوا ولا تحزنـوا وأنتـم الأعلون »[1]. وأنه ﴿ نصر من الله وفتح قريب ﴾[2] فـأقبلوا فرحيـن مستبشـرين يقاتلون فى طلب الشهادة . وبلغت المعركة أوجها بين الصلاة الأولـى والثانيـة ، ليفلح المسلمون من بعد ذلك فى تطويق جيوش الكفار وحصرهم بمكان واحد .

« حتى إذا ما رأى هؤلاء الأشرار الملحدون أنه قد أحيـط بـهم ، انطلقـوا مستيئسين يهاجمون من جديد على طول الجبهة حتى كاد النصر يواتيهم عند الجناح الأيسر ، لولا أن أطبق المجاهدون عليهم فاقتلعوهم من أماكنهم وألزموهـم طريـق الفرار قسراً » .

« هنالك أقبلت نسايم النصر على بستان حظنا ومعـها مـدد مـن قولـه تعالى : ﴿ إن فتحنا لك فتحاً مبيناً ﴾[3] . وتجلى لأعيننـا الإقبـال والسـعادة فـى كلامه عز وجل : ﴿ وينصرك الله نصـراً عزيـزاً ﴾[4] ».

« وهكذا انفرط عقد الهنادكة فتناثروا كالعهن المنفوش ، فمنهم من سقط فـى حومة الوغى ، ومنهم من هلك فى تيه الخراب فصار طعاماً لجوارح الطير ، حتـى تكدست أجسادهم بعضها فوق بعض كالهضبة الرابية وتكومت رءوسـهم كالمنـائر العالية »[5] .

« وكان من بين القتـلى حسن خـان ميواتى وكثيرون من أمـراء الكفـار أصحاب الشوكة والأعيان الذين بعثت بهم السهام ونيران البنادق إلـى سقـر ».

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٣٩ .

(٢) سورة الصف : الآية ١٣ .

(٣) سورة الفتح : الآية ١ .

(٤) سورة الفتح : الآية ٣ .

(٥) من تقاليد التيموريين أنهم كانوا على أثر كل نصر ، يقيمون من رءوس القتلى من أعدائـهم على هيئة أهرامات ومنائر .

« أما دار الحرب فقد غصت بالجرحى منهم ، فكانت كجهنم حين يتلقى خزنتها المنافقين فتمتلئ بهم ، كما لم يكن هناك موطئ لقدم إلا وفيه صريع من عليائهم . ﴿ وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ﴾[1] .. ».

هكذا استمرت معركة خانوه من الضحى حتى الغروب لتنتهى بهزيمة عصبة الراجبوتيين هزيمة حاسمة ، وهروب راناسنكا زعيمهم إلى أحد حصونه بالجبال مثقلا بجراحه ، فلم يمتد به الأجل إلا عاما وبعض عام[2] .

وبهذا أتيح للغازى[3] التيمورى أن ينزل بأعدائه بالهند ضربتين حاسمتين فى مدى عام واحد ، ضعضعتا من كيانهم وقضتا على قواتهم .

ولئن مكن للبادشاه انتصاره عند بانى بت من الجلوس على عرش آكرا ، فقد تم له فى وقعة خانوه القضاء التام على الخطر الراجبوتى الذى ظل يتهدد سلطان المسلمين بالهند قرونا كثيرة فلم تقم لهم قائمة من بعد ذلك أبدا[4] .

وبهذا النصر ، الذى لم يؤته أحد من سلاطين الهند المسلمين منذ أيام محمود الغزنوى ومحمد الغورى ، طار صيت بابر ؛ وازدادت هيبته بين المسلمين فى الهند ، وتوطد مركزه على عرش آكرا ، وأرسخ الأساس الذى قامت عليه الدولة المغولية ، فلم يعد يحارب دفاعا عن عرشه وتثبيتا له ، فصار خروجه لتوسيع رقعة ملكه وبسط نفوذه وسلطانه فى الغالب .

القلاقل الشرقية :

كان على بابر لكى يغدو سيد الهندستان كله ، بعد أن تم له القضاء على عصبة الراجبوتيين وأمنت أراضيه حول دهلى وآكرا ، أن يتسولى على بعض

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٢٦ ، حافظنا فى نقل هذا الوصف إلى العربية على أسلوب الأصل وصورته الأدبية ما وسعنا ذلك ، ولم نرفع منه إلا أسماء القواد الكثيرة .

(٢) Havell p.425.

(٣) اتخذ بابر لنفسه هذا اللقب على أثر انتصاره فى الوقعة . تاريخ رشيدى ٤٠٩ .

(٤) Lane Poole 210.

الحصون الكبرى التى ما يزال يعتصم بها أمراء من الهنادكة ، ويقضى على نفـــوذ الأمراء الأفغان فى المناطق الشرقية ، ويخمد ما يثيرونه من فتن هناك ، فقد كـــان يعلم أنه لا سبيل إلى مهادنتهم فى الغالب ، وهم الذين أدى بهم كبريائهم إلى تقويض عرش السلطان اللودهى ، زعيمهم وابن جلدتهم ، من قبل .

وسارت جند آكرا صوب الشرق بطريق قنوج ، فى حين قصد البادشاه، علـى رأس فريق آخر من قواته ، حصن جندرى عند أقصى الجنوب من كواليار وكـــان عليه أمير هندوكى قوى هو ميدنى راو .

وبرغم امتناع أسوار الحصن على مدفعية المسلمين ، إذ كانت مـــن الحجـــر الصلب ، فضلا عن موقعها بأعلى التلال ، فإن الجند استطاعوا تسلق هذه الأســوار والتسرب إلى داخلها ليشتركوا مع الحامية فى قتال وحشى عنيف رد فيه فريق منهم عن أماكنه .

ذلك أن رجال الحصن حين أيقنوا بضياع قلعتهم من أيديهم ، قتلــوا نســاءهم بأيديهم ، ثم انطلقوا يعرضون أنفسهم على سيوف الغزاة مقاتلين فى ضراوة وشـــدة بأس ، فى حين كان أميرهم ونفر من خلصائه يتبادلون فيما بينهم الطعنـــات حتـــى فنى أولئك وهؤلاء جميعا عن آخرهم[١] .

وكان فى خطة بابر ، بعد الفراغ من الاستيلاء على هذا الحصن ، أن يخضع بعض حصون أخرى بمالوه ، ثم يسير إلى الراجبوتانا من جديـــد ليقتحـــم جتـــور عاصمة موار ومقر خصمه المهزوم رانا سنكا ، لولا ما بلغه من ارتداد قواته فـــى الشرق إلى قنوج بعد أن أرغمت على إخلاء لكناو ، فسارع إليها بنفسه .

وبلغ بابر قنوج ليعبر رجاله جمنه تحت ستار من نيران المدفعيـــة والبنـــادق فيلتحموا فى قتال عنيف مع ثوار بهار الذين قد عاد إلى تزعمهم السلطان محمـــود ابن سكندر لودهى بعد هزيمته فى خانوه . لولا تريـــث البادشـــاه فـــى مطاردتـــهم لأمكن من فوره القضاء عليهم قضاء تاما .

---

(١) تاريخ فرشته ٢٠٩ ، ٢٢٠ .

وعوق حلول فصل الأمطار القوات الغازية من الاستيلاء على إقليم بهار كله بعد ما بلغت أوده ، مما أتاح الفرصة للثوار ليعودوا إلى إشعال نيران فتنة عارمة في العام التالي استنفد القضاء عليها كثيرا من جهود بابر وكادت تفضي إلى اشتباكه في الحرب مع البنغال .

ذلك أن محمود لودهي كان قد اجتمع له مائة ألف من الجند استخلص بهم إقليم بهار كله ، وبعض الأراضي المحيطة به ؛ حتى إذا ما سير إليه البادشاه ابنه « عسكري » أول الأمر ثم لحق به من بعد ذلك بنفسه فدخل « الله آباد » وجنار وبنارس فأقبل عليه الأمراء الأفغان مستسلمين بعد أن انفضوا من حول الثائر اللودهي ، رابه التجاء بقية الثوار إلى إقليم خريد برغم تأكيد نصرت خان صاحب البنغال له بنزوعه إلى المسالمة وحرصه على الولاء[1] .

هنالك رأى بابر أن يحزم أمره مع قوات البنغال التي شدت من أزر الثوار إذ كانت في مواقعها عند التقاء الكنج برافده ككرا ، تعوق من تحركات جند آكرا في مطاردتها للثوار .

وتيسر « لعسكري » أن يعبر ببعض قواته الملتقى الأعلى لككر والكنج فطفق يناوش البنغاليين ويشاغلهم ، حتى تم عبور المدفعية ورجال البنادق مع بقية الجيش عند الملتقى الأدنى للنهرين ، فوقع العدو بذلك بين فكي الكماشة ، فلم يغنهم فتيلا تفوقهم العددي وإحكامهم في التصويب ومهارتهم في استخدام الأسلحة النارية إذ دارت الدائرة عليهم فركنوا إلى الفرار .

وهكذا انتهت معركة ككرا إلى القضاء التام على الثوار الأفغان وإعلان صاحب البنغال ولائه للبادشاه .

وبهذه الوقعة التي تعد ثالث معركة حاسمة خاضها بابر في الهند ، بعد معركتي باني بت وخانوه ، غدا ذلك الأمير التيموري صاحب السلطان المطلق في

---

(1) أكبر شاه ورقة ٣٩ ب .

الهندستان ، وغدت دولته تمتد فى رقعتها المترامية الأطراف من جيحون إلى البنغال ومن الهملايا إلى جندرى وكواليار[1] .

وآب بابر إلى عاصمته فى شوال من عام ٩٣٥هـ فلبث بها قليلا ، ليخرج منها من بعد ذلك إلى البنجاب وفى نيته أن يواصل سيره إلى ندخشان، فيدفع عنها الأوزبك الذين استفحل خطرهم من جديد برغم ما أنزله بهم طهما سب ، شاه الفرس ، من ضربات قاصمة .

ولعل خوفه من قيام القلاقل بالهند فى غيبته وبداية انهيار صحته نتيجة للجهود المضنية المتواصلة التى بذلها فى حروبه ، قد منعاه حتى من الشخوص إلى كابل ، وكان غير بعيد منها ، وهى التى طالما ردد اعتزازه بها وشوقه إليها .

وقدم على بابر ، بلاهور ، ولده الأكبر همايون فصحبه إلى آكرا ، وكأن القدر قد استجاب للبادشاه حين اشتد الداء بابنه هذا ، فتمنى على الله أن يجعله فداءه ، فلم يبرأ همايون من علته حتى رقد بابر مكانه فلم يغادر فراشه من بعد ذلك إلا إلى لحده[2] .

حين شعر بابر بدنو أجله دعا إليه رجال دولته فأخذ منهم البيعة لولده همايون بعد أن أوصاه بهم وبأهل بيته وأخواته ونصحه باصطناع الحلم والتذرع بالحزم فى حكمه .

وحاول بعض رجال الدولة ، والبادشاه يعانى سكرات الموت ، أن يعدلوا عن وصية أميرهم فيعهدوا بالملك إلى أحد أنسباء بابر ، وكان يدعى سيد مهدى خواجة، لتكشف لهم المصادفات عندئذ عما كان ينتويه لهم مرشحهم هذا من أذى وشر فيعودوا إلى سيرتهم الأولى .

---

(1) Grenard, Baber pp.156 – 58 .

(٢) كان مما عجل فى نهايته فى الغالب إدمانه كذلك على تعاطى المعجون(الأفيون) وإن أقلع عن تناول الشراب تماما عند حربه مع راناسنكا فى معركة خانوه . تاريخ رشيدى ٤٦٩.

ومضى بابر فى السادس من جمادى الأولى من عام ٩٣٧هـ / ١٥٣٠م وهو فى الخمسين من عمره ، والعام الثامن والثلاثين من حكمه ، فثوى فى بستان نور أفشان على جمنه . ثم نقل جثمانه من بعد ذلك إلى كابل فدفن بربوة تطل على هذه المدينة التى كانت أحب بقاع الدنيا إلى قلبه ، والتى خرج منها فتم له إقامة ملك عريض شمل الشمال الهندى ، وما غدا أولاده يزيدون فيه حتى خضعت لهم شبه القارة الهندية كلها .

شخصية بابر : لا يعد ظهير الدين محمد بابر أعظم حكام المسلمين فحسب وفيهم إسماعيل الصفوى شاه الفرس وسليم الأول سلطان العثمانيين ، بل هو أعاجيب الزمان همة وطموحا وصبرا على المكاره .

ولى عرش فرغانة ، تلك الأرض الصغيرة عند سيحون ،وهو فى الثانية عشرة من عمره ، وليس له من بين جيرانه أو ذوى قرباه ناصح أو صديق ، إذ كانوا جميعا بين طامع فى ملكه أو على عداء سابق مع أبيه . فلولا بقية نفر من خلصاء أبيه القدماء لقضى عليه من بادئ الأمر وضاع ماورثه من الملك .

تعرض بابر منذ شبابه لمحن ومتاعب جارفة عنيفة ، فلم يعرف اليأس إلى قلبة سبيلا أبدا ، فكم من مرة أنفض عنه أنصاره وأغلب رجاله حتى وقف وحيدا شريدا لا أرض له ولا مال ولا رجال ، فعاود جهاده من جديد ومضى فى مغامراته. حتى رأيناه يذكر فى سيرته أنه منذ ولى العرش عام ٨٩٩ هـ حتى عام ٩٣٣هـ ، أى فى مدى خمسة وثلاثين عاما ، لم يقض رمضان عامين متتالين بمكان واحد[١].

ولى بابر عرش فرغانة ، كما جلس على عرش جده الأكبر تيمورلنك فى سمرقند ، فإذا الدوائر تدور عليه فيفقد جميع أملاكه ببلاد ما وراء النهر ويغدو شريدا طريدا يسير أغلب ليله ويختفى معظم نهاره ، ولا يأمن أن يبيت بمكان واحد

---

(١) بابر نامه ٣٣٠ .

ليلتين متعاقبتين حذر الوقوع فى يد غريمة شيبانى خان الأوزبك الذى أخذ على نفسه القضاء على البيت التيمورى الذى آواه وآباءه من قبل[1].

ويظل بابر يضرب فى الصحراوات والجبال عاما وبعض عام حتى يلتقى ، وهو فى طريقة إلى الخروج من بلاده ، بجموع من عشائر المغول والأتراك ببدخشان فتسير فى ركابه هربا من وجه الأوزبك ومعها الكثير من أموال حصار وبدخشان فيدخل بها أرض كابل وغزنة ويجلس على عرشها وكان فى حوزة التيموريين لسنين طويلة خلت .

ويكسر إسماعيل الصفوى ، شاه الفرس ، شوكة الأوزبك ويقضى على زعيمهم شيبانى خان . فتتجدد الآمال عند بابر لاسترداد بلاده وبلاد آبائه بما وراء النهر بمعونة الشاه الفارسى ، حتى إذا مارد عنها بعد توغله فيها حين نقض السكان عهدهم معه، لما أذاقهم حلفاؤه من ويلات لإرغامهم على اعتناق المذهب الشيعى ، ولى وجهة قبل الهندستان التى سبقه إليها آباؤه من قبل ، فى عزم وقوة أتيح له بهما أن يقيم بها دولته التى خلدت ذكره فى التاريخ .

وكان لضآلة قواته فى بدء حياته ، ثم تدرجها فى الزيادة ، بعد ذلك ، أثر كبير فيما تمرس به من خبرة عسكرية واسعة أفاد منها فوائد جمة فى حروبة الكبرى بالهندستان .

هذا كما مكنته خبرته الطويلة المكينة بنفسية جنده ، على اختلاف أجناسهم من مغول وترك وأفغان وغور ، من أن يسيطر عليهم سيطرة تامة ويئد كل تذمر أو فتن تشيع بينهم فى مهدها ، حتى قضى بقوة شخصيته على تمردهم حين ضاقوا بحر الهند وقاض بهم الحنين إلى ديارهم بعد ما أصابوا الكثير من غنائم الفتح فى أكرا عقب دخولهم فيها ، وأستنهض هممهم فأعاد الثقة إلى نفوسهم حين شاع فيهم الخوف قبيل لقاء الراجبوتيين فى معركة خانوه .

---

(١) تاريخ رشيدى ١١٦ – ١٢٠ ، ١٦٦ ، ١٦٧ .

على أن بابر ورث عن أجداده، من المغول والأتراك على السواء، إلى جانب صفات الجندية، ميلهم إلى الأمعان فى تقتيل أعدائهم وتفاخرهم بعظم الأكداس التى كانوا يقيمونها من رءوس القتلى على هيئة المنائر والأهرامات، وانتهابهم لديار أعدائهم وإشعال النار فيها ما لم يبادروا إلى الاستسلام لهم والاعتراف بسلطانهم.

وثمة خصال غير حميدة ورثها بابر عن آبائه وورثها أبناءه من بعده، كالإدمان على تناول الشراب الذى لم يقلع عنه عند حربه مع رانا سنكا إلا ليدمن تعاطى المعجون ذلك المخدر القوى الذى عجل فى الغالب فى نهايته ولما يبلغ الخمسين من عمره، برغم ما اشتهر عنه فى شبابه من قوة جسدية خارقة حتى كان يطوى ذراعيه على الرجلين ويتخطى بهما الخنادق قفزا فى تتابع سريع، ورغم ممارسته كافة ضروب الرياضة المعروفة فى عصره، حتى ليذكر فى سيرته أنه سبح فى كل نهر صادفة فى حياته، وقطع نهر الكنج فى أعرض مواضعه فى ثلاثة وثلاثين ضربة، وهو ما لم يتيسر لغيره من رجاله(١).

وعرف هذا السلطان التيمورى ببغضه للتعصب الدينى وبعده عنه، ونهج أبناؤه فى الهند نهجه فمارس الهنادكة طقوسهم الدينية فى حرية تامة إبان حكم الدولة المغولية فى الغالب(٢).

وبلغ من تسامح هذا الجندى الموهوب أنه تغاضى عما أنزله به بعض رجاله وأقاربه من أضرار سالفة، بل لقد عفى عن هؤلاء، حين وفدوا عليه بالهند، برغم أن منهم من أبى أن يضيفه وأمه حين ضاق به الحال ببلاد ما وراء النهر، فقد كان يهدف أبداً إلى كسب عدد كبير من الأصدقاء إلى صفوفه.

وكان من قبيل هذه المرونة السياسية إقباله وجنده على ارتداء لباس القزلباش الفرس مجاملة منه لحليفه إسماعيل الصفوى واستزادة لعونه ومساعدته، وإن لم يمنعه ذلك من معارضة قواد الفرس لما كانوا ينزلونه من مذابح بالأهلين بأرض بلاد ما وراء النهر تعصباً منهم لمذهب الشيعة.

---

(١) بابر نامة ٣٦٣ ب.

(٢) بابر نامة ٣٦٣ ب.

هذا كما أفلح بدهائـــه أن يحول الأمراء الأفغان بالهندستان من عدائهم لـــه مجتمعين إلى معـــاداة بعضهم البعض الآخر، ومن ثم فتح أبواب بلاطه لكل مـــن قدم إليه مستسلما فى الوقت الذى كانت جيوشه تطارده فيه من أصر منـــهم علـــى عصيانه، حتى دانت له الهندستان كلها فى أقل من سنوات خمسة.

حكومة الهندستان : لم يمض بابر بالهندستان، منذ أن دخلـــها فجلـــس علـــى عرش آكرا حتى وافاه الأجل بها سوى سنوات ستة قضـــى أغلبـــها فـــى حـــروب متواصلة لإرساء قواعد دولته، فلم ينعم بالسلام إلا عاما وبعض العام، وهـــو أمـــد قصير لا يتأتى معه لأى حاكم مهما أوتى من المقدرة والكفاءة، أن ينظم شئون بـــلاد مترامية الأطراف كثيفة السكان، متعددة الأجناس والأديان كالهندستان.

ولئن أبقى البادشاه على هيكل الإدارة الهندية فقد أدخل عليه، على كل حـــال، بعض النظم التيمورية، فجعل على كل إقليم نائبين له، يقود أحدهما الجنـــد ويراقـــب جمع الضرائب ويرعى مصالح السكان، ويتولـــى الآخـــر الإشـــراف علـــى الإيـــرادات والمصروفات ويوازن بينهما، ويدفع للجند والعمال أجورهم([1]).

وكذلك كان من مبادئ التيموريين التى ساروا عليها بالهند ألا يتراخى العمـــال فى جمع الخراج والمكوس، دون إلحاق الأذى بالناس، وحض نوابهم على إجـــراء العدل بين السكان جميعا لا يفرقون فى ذلك بين مسلم وهندوكى([2]).

على أن بعثرة بابر لما وقع بأيديه من أموال طائلة وكنوز بآكرا، وما ذهـــب إليه من بذخ فى العطاء والبذل حتى أطلق عليه أصحابه لفظ "قلندرى"([3]) ثم رفعـــه التمغة عن رعاياه قبيل حرب راناسنكا أدى ذلك كله إلى اضطراب ما ليته فذهـــب يفرض على الناس الضرائب من جديد.

---

(١) يقدر بابر فى سيرته دخل الهندستان بما يوازى المليونين ونصف المليون من الجنيهات بـــابر نامه ٢٩٢ – ٢٩٣.

(2)Tne Indian Moslems p.23 – 24.

(٣) تاريخ فرشـــته أول ٢٠٦. وقيل إن " قلندر " كان صاحب طريقة تدعو إلى الزهد فى المـــال والنساء والقلندرى هو الزاهد فى حطام الدنيا حتى تعنى ليجود بكل ما تصل إليه يده.

هـذا، كما أمر بمسح كثير من الأراضى وشق كثير من الطرق ليربط بهـا بين مختلف أجزاء بلاده، وكان أعظمها تعبيد الطريق الطويل فيما بين كابل وآكـوا، وإقامة منائر به ليهتدى بها السابلة، ومنازل للمسافرين والدواب[1].

ولقد زار بابر بكواليار أفخم دور الهند فى عصره وهى قصر بكـر مـاجيت وابنه ما نسنك . وبرغم ما ذكره عن التأنق فى بنائهما ونقوشهما، فقد ضاق ببعدهما عن التناسق مع سوء التهوية وتوزيع الضوء بهما .

ونسى بابر، وهو يظهر امتعاضه من هيئة مبانى الـهند، مـا أنزلـه علـى الأخص جدّه تيمور من تخريب ودمار بهذه البلاد أدى إلى انهيار كثير من منشـآت الغزنويين والغوريين وآثار خلفائهم الفخمة، وما ساقه كذلك معه من صفوة رجـال المعمار الهنود ليقيموا له منشآته الفخمة ببلاده، تلك المنشـآت التـى طالمـا أشـاد بذكرها فى سيرته وعظّم من شأنها.

وبلغ من ولع بابر بالعمارة أنه كان يستخدم بضع ألوف[2] من مهرة النحـاتين والبنائين ليقيموا له منشآته من قصور ومساجد وحمامـات ونـافورات وخزانـات للمياه، فى آكرا وسيكرى وبيانه ودهولبور وكواليار وكول.

ومنشـآت بابر البـاقية حتى اليوم بالهندستان هى مساجده الثلاثـة فى بـانى بت وسَنْبل وحصن اللودهيين بآكرا .

ويقـال أن شغفه بالعمـارة، مع ضيقة بمعمـاريى الهند، قد دفعـه إلـى أن يسأل سنان، معمار العثمانيين الشهير، أن يمده ببعض تلاميذه. والغالب أنـه لـم يجبه إلى طلبه، وآية ذلك عدم ظهور أى أثر لطابع المدرسة السـنانية هنـاك وأدى كلف بابر بالطبيعـة وما تبدعه إلى إقامة طائفة من البسـاتين والحدائـق حـاكى ببعضها مغانى كابل التى طالما ترنم بذكرها، ومنها بستان جار باغ بظـاهر آكـرا

---

(١) بابر نامه ٣٥١.

(٢) بابر نامه ٢٩١ ب.

الذى جعله نظير سميه الكابلى، وقد جلب إلى رياضه هـــذه كثــيرا مـــن النباتـــات وأشجار الفاكهة التى لم تكن تعرفها الهند من قبـــل([1]).

ونهج أبناؤه من بعده نهجه الفنى هذا وزادوا عليه، حتى لترى اليـــوم نمــط الحدائق المغولية الهندية تقوم بطائفة من مدن إيطاليا وبريطانيا علـــى الأخــص([2])، كما تزخر متاحف العالم الكبرى بروائع نقوش الهند وتراثها الفنى لعهدهم.

وصف بابر للهندستان : وصف بابر هذه البلاد فى سيرته التى كتبها بنفســـه وصفا مفصلا استوعب كل ما وقع عليه نظره فيها. فقال عنها إنها عالم قائم بذاتـــه يختلف اختلافا تاما عن كل الأقاليم التى عرفها، سواء فى طبيعة أرضه أو مناخـــه وزرعه وأنواع الحيوان فيه وعـــروق الســكان وطباعـــهم وعاداتـــهم وألســنتهم وعقائدهم([3]) :

" إن الإنسان ما يكاد يعبر حدود الهندستان فى ناحية الغرب حتى يرى معـــالم هذه البلاد واضحة قوية توحى من فورها بعظم تباينها عما عند جيرانها ".

" وتعتمد أراضيها وزراعتها فى السقى على الأنهار وروافدها، فـــلا قنـــوات عندهم أو ترعا أو مصارف. وقد صدهم عن إنشائها هطول الأمطار التى تأتى بـــها الرياح الموسمية، فهى عماد سقيهم فى أماكن شتى، وهم يحتزنون من مائها الكثير."

ولم يرق بابر هيئة مدن الهند ومظهر ريفها، ولا حدائقها " التـــى لا تنســيق فيها ولا أسوارلها، فلا وجه لقياسها ببساتين كابل ورياض وفرغانه والماء ينســـاب بين خمائلها "

ولاحظ بابر كذلك وجود آثار كثيرة لقرى ومدائن مهجورة، ذلك أنه كان مـــن عادة أهل الهند، حين يفد الغزاة على أرضهم، أن يفروا مـــن وجهـــهم ويـــهجروا بلدانهم.

---

(١) المصدر السابق.

(2) Garratt. Legacy of India pp 299 – 802.

(٣) بابر نامه ٢٧٢ – ٢٩٣.

كذلك وصف بابر صنوف الحيوان والطير وأنواع الثمار والفاكهة بالهند فـي دقة وتفصيل، ليتحدث من بعد ذلك عن التقويم الشائع بها وأسـماء الشـهور وأيـام الأسبوع وأقسام الليل والنهار هناك :

" إن حساب الليل والنهار عند الهنود يختلف عن نظيره عند غيرهم من بقيـة الأمم، فالشعوب، فيما عداهم، يقسمون الليل والنهار إلى أربع وعشرين قسما،أما هـم فيقسمونهما إلى ستين قسما، يدعى كل واحد منها " غرى "وفترته أربعة وعشـرون دقيقة. كذلك يقسمون اليوم إلى أقسام أربعة يعرف كل قسم منها باسم " بهر " وهـو الساعة الزمنية الهندوستانية."

" وفى كل مدينة من مدن الهند الكـبرى طائفـة تدعـى " غريـالى " وهـم الميقاتيون، وعدتهم صفحة من الناس ومطرقة من الخشب. وهم يلازمـون سـاعة مائية بمكان عال مخصوص، فيقرعون غريالهم، كلما امتلاء كأس الساعة أو فـرغ قرعا سريعا متتابعا تنبيها للناس، ثم يردفون ذلك بدقات بطيئة تبين الوقت لهم ".

" ووحدة الوزن فى الهندستان هى " الماشة " وكل خمس منها تعـادل مثقـالا واحدا. أما معيار الجواهر والأحجار الكريمة فهو " تانك " ويعادل أربع ماشات ".

" وملكة الحساب عند أهل الهندستان قوية واضحة. فكل مائة ألف هى " لـك " وكل مائة " لك " هى " كرور "، وكل مائة " كرور " هى " أرب " وكل مائـة " أرب " هى " كرب " وكل مائة " كرب " هى " نيل " وكل مائة " نيل " هى " بدم " وكـل مائة " بدم " هى سنك.

وضخامة هذه الأرقام تقوم فى الغالب دليلا على ضخامة ثرواتهم.

" وأهل الهندستان تنفر النفس منهم ولا تطيب إلى معاشرتهم، ولا تقوم فيمـا بينهم صداقة أو يضمهم مجتمع. وهم ليسوا على شئ من صفـاء العقـل أو حميـد العادات والخصال، فلا إنسانية عندهم ولا أثارة من عبقرية أو ميـل للاخـتراع أو مهارة فى المهن والحرف أو خبرة بالمعمار والنقش والزخرفة "

" كذلك تراهم لا يعرفون الخيـــل المطهمـــة، والطعـــام الطيـــب والفواكـــه الجيدة والمـــــاء المثلـــج، وليـــس لديـــهم حمامـــات أو مغاســـل أو مـــدارس. ولا يعرفون الشموع، فيستضيئون بمســـارج الزيـــت القـــذرة فتعـــج بيـــوت كبرائـــهم وسراتهم بمئات منـــها ".

« أما ابنيتهم، ففضلا عن رداءة تصميمها وتجردها مـــن الجمـــال، فـــهى لا تتوائم مع بيئتها أبدا. وهم لا يمدون الماء إلى دورهم فى القنوات ولا يجرونه كذلـــك إلى الحدائق، فخلت قصورهم وبساتينهم من ذلك كله ».

« ويسير عامة الفلاحين ورجال الطبقة العاملة شبة عـــراة، إلا ممـــا يســـتر عوراتهم، وهو " لنكوتى " يشدونه حول وسطهم.ويعلو عند النســـــاء حتـــى يســـتر الصدر فيدعى " لنكى " ».

« وفيما عدا ذلك فميزة الهندستان الكبرى أنها بلاد مترامية الأطراف يتوفـــر الذهب والفضة فيها بكثرة ».

« ومناخ الهندستان فى فصل الأمطار لطيف. وأما أمطارها فغزيـــرة جـــدا، حتى لتفيض سيولها كالأنهار وتجرى فى الأراضى التى ليس بها للمـــاء عيـــون أو مجار. وتتكثف الرطوبة فى هذا الفصل فتصيب كل ما تصادفه بالتلف، ســـواء فـــى ذلك الأبنية أو الأثاث والملابس والأوراق ».

« ويتخلل فصل الأمطار هبوب شديد محمل بالأتربـــة يســـمونه «آندهـــى»، وتؤدى شدته فى بعض الأحيان إلى تعذر الرؤيا ».

« ولا يخلو الشتاء والصيف من أوقات لطيفة. إلا أن حر الصيـــف الـــهندى، حين يشتد، لا يطاق، ولا يقارن بغيره فى البلاد المجاورة ».

« والأيدى العاملة العادية متوافرة فى كل مهنة وحرفة إلى درجة بعيدة، هـــم يتوارثون الحرف والمهن عن آبائهم ويورثونها أبناهم بدورهم.

وقد استخدم تيمور لنك فئة كبيرة من النحاتين الهنود فى بناء مسجده الكبـــير بمدينة سمر قند ».

كذلك تحدث بابر عن حدود الهندستان وموقعها الجغرافى، وما بها من ولايات، فذكر ما هو منها بأيدى المسلمين وما هو بأيدى الهنادكة، كما فصل خراج كل ولاية ونصيب صاحب دهلى منه.

والغالب أن الأجل لو كان قد امتد به فطالت حياته بالهندستان، لعدل كثيرا فيما كتب عنها، ولم يقصر ميزاتها على أنها إقليم كبير فيه فضة وذهب كثير([1]).

بابر نامه : خلف بابر وراءه ثروة أدبية فى الشعر والنثر ضمنت له شهرة الأديب المطبوع، إلى جانب صيت الجندى الموهوب([2]).

وفضلا عما حوته سيرته بين دفتيها من شعر تركى كثير، كان ينشده فى سباته، فقد ترك ديوانا له بالتركية([3]) وأشعارا أخرى كثيرة فارسية وأصواتا فى الغناء والموسيقى([4]).

وتعد سيرته المعروفة باسم « بابرنامه » أعظم آثاره الأدبية على الإطلاق، وهى كتاب النثر التركى التقليدى بحق حتى اليوم. وقد كتبها بنفسه فى لغة تركية (جغتائية) سهلة وأسلوب يدل على ذوق أدبى رفيع؛ وينم عن تمكن صاحبه من أصول الثقافة الإسلامية وآداب العربية والفارسية تمكنا تاما.

لم يذكر لنا بابر فى سيرته التاريخ الذى بدأ عنده كتابته لها. على أن إشاراته، فى أوراقها الأولى، إلى رجاله ممن كانوا معه بالهندستان، وإلى زيج كان يستخدم بالهند، يقطع بمراجعته لها هناك، حتى ذكر فى أوراقها الأخيرة أنه أمر بنسخ أجزاء منها وإهدائها إلى بعض الأمراء الذين طلبوها منه.

---

(١) ذكر بابر نفسه فى ختام حديثه عن الهندستان أنه لا يبخل أن يثبت من جديد ما قد سمعه أو يلاحظه من أمور هذه البلاد.

(٢) تاريخ الحضارة الإسلامية ص ١١٢، ١١٣.

(٣) نشر ما عثر عليه منه « نيسون روس » J.R.A.S.B. 1910.

(٤) أكبر شاه ٥٢.

وأغلب الظن أن الأجل لو كان قد امتد به لنقح فيها كثيرا ولصاغ أجزاءها الأخيرة على الخصوص فى أسلوب يتمشى مع رصانة فى أقسامها الأولى فلا تبقى أشبه بيوميات تبعث الملل عند قارئها.

ومن أسف أن الأصل الأول لهذه السيرة قد فقد. وأكمل مخطوطاتها التى بين أيدينا والتى يرجع تاريخها إلى عام ١١١٢هـ، ١٧٠٠م([1]) به ثغرات خمس تتضمن حوادث تسع عشرة عاما بيانها كالآتى :

١ – من أواخر عام ٩٠٨ هـ إلى نهاية عام ٩٠٩هـ.

٢ – من أوائل عام ٩١٤ هـ إلى نهاية عام ٩٢٤ هـ.

٣ – من أوائل عام ٩٢٦ هـ إلى أوائل عام ٩٣٢ هـ.

٤ – من رجب عام ٩٣٤ هـ إلى آخر هذه السنة.

٥ – من المحرم عام ٩٣٦ هـ حتى وفاة البادشاه فى جمادى الأول من عام٩٣٧ هـ.

وقد نقلت هذه السيرة إلى الفارسية فى عهد أكبر، حفيد بابر، فى نهاية القرن العاشر الهجرى، كما نقلت إلى بعض اللغات الأوربية فى العصر الحديث ونرجو أن يتهيأ لهذه السيرة القيمة الممتعة من ينقلها بدوره إلى العربية.

إن التقارب الكبير عند الذين أرخوا لبابر وعصره وما وصل إلى أيدينا من سيرته ليجعلنا نميل إلى تصديق حديثه حين يقول بأنه لا يهدف فى كتابته إلا إلى الصدق ولا يجرى قلمه بغير الحق، فهو حين يذكر بالخير أو السوء عدوا أو صديقا، أو يشيد بفضائل واحد منهم أو يعيب عليه رذائله، إنما يبغى إقرار الواقع فحسب دون ميل أو هوى([2]).

---

(١) وهو المعروف بمخطوط حيدر آباد وقد نشرته السيدة أنيتا بفريدج فى مجموعة جب التذكارية عام ١٩٠٥.

(٢) بابرنامه ٢٠١.

والحق أنه فى حديثه عن نفسه أو غيره لم يحاول أن يخفى رذيلة أو ينكر فضيلة، فصور النفس الإنسانية على طبيعتها بما فيها من خير وشر.

فهو لا يتردد مثلا عن أن يذكر كلفه ذات مرة بغلام حسن الصورة صادقه بمعسكره، وقد بلغ به الوجد يوما أن كاد يسقط عن دابته حين طلع عليه فى طريقه فجأة. ولكنه يقف عند هذا الحد فلا ينغمس فى هذه الرذيلة التى شاعت عند عمه السلطان محمود ميرزا صاحب سمر قند ورجاله حتى كثرت اعتداءاتهم على الأهلين بسببها[1].

وهو حين يحمل على عمه هذا، لفرط عنفه مع رعاياه، لا ينكر حسن إدارته لشئون بلاده وحرصه على أموالها.

كذلك نراه لا يخفى ولعه بالشراب حتى كان نبيذ كابل يحمل إليه بالهندستان ويفصل لنا ما كان يجرى فى مجالس شرابه من عبث ولهو وتطارح بالأشعار. ولم يترك هذا كله، وهو مقدم على حربه مع الراجبوتيين، إلا ليقبل على تعاطى المعجون فى إدمان شديد، حتى لا تكاد الصفحات الأخيرة من سيرته تخلو من ذكر تناوله له كل يوم.

وهو إلى ذلك يتفاخر فى سيرته بأكداس القتلى فى معاركه الكثيرة التى خاضها، فوصفها وصفا دقيقا حتى فصل من ضروب الشجاعة التى كان يظهرها كل فرد من أبطاله. ولا يكتفى بذلك حتى يقارن بين فتحه لسمرقند وفتح السلطان حسين بيقرا لمدينة هرات، كما يقارن كذلك بين فتحه للهندستان وفتوحات من سبقوه إليها من الغزنويين وغيرهم، مع ضآلة قواته بالنسبة لعظم جيوشهم فضلا عن كثافة جند الهند نفسها.

وهو إلى جانب تفصيله لانتصاراته يذكر هزائمه فى صراحة تامة، ويبين ما صادفه من محن ومتاعب شردته فى الأرض وقد انصرف رجاله عنه وتنكر أقاربه له. حتى إذا ما أقبلت الدنيا عليه لم ين عن وصل هؤلاء جميعا، وفيهم من ركن

---

(١) بابرنامه ٢٤ أو ٧٥.

إلى التآمر عليه من جديد برغم إحسانه إليه، وفيهم من قتـــل ذوى قرباه وسمل عيونهم بل وتعرض لأمه وآله بالمهانة والسوء وهو حين يذكر ذلـك كلـه تفيض عليـه مسحة من التواضع فيقول بأنه إنما يثبته تقريرا للحقيقة والواقع فحسب(١).

ويذكر بابر فى سيرته جده الأكبر تيمور فخورا بأعماله ومنشآته وآثـــاره، كما يفصل من سـيرة أغلب أبنــائه وأحفاده ورجالهم. حتى إذا مــا بلـغ بحديثـه السلطـــان التيمورى حسين بيقرا أفـــاض إفاضة عليم متمكن فى العلـــوم والفنــون والآداب، فذكر من كان يزدحم بهم بلاط هذا الأمــير، بهـــرات، مـــن الفقهـــاء والمحدثين والشــعراء والموسيقيين، حتى البهلوانيين عرف بكل واحد منـــهم فـــى إسهاب فصور للناس بصنيعه هذا صورة شاملة لما كان لفروع المعرفة من ازدهـار كبير بإحدى مراكز الثقافة الإسلامية الكبرى فى عصره(٢).

وأدى ببابر سعه اطلاعه، التى تشيع فى سيرته، إلى اقتناء مكتبة قيمة خاصــة به، كان عليها قيم له يدعى عبد الله كتا بدار. وقد ضم إليها كذلك قسما من مكتبـــة غازى خان لودهى حين استولى على حصنه بالبنجاب، وبعث بالقسم الآخر إلى ابنـه هما يون الذى كان يحرص على تنشئته طيبة(٣).

هذا كما كان يراسل أساطين العلماء فى عصره ويستقبل الكثير منهم ببلاطــه وكان من بينهم الشاعر المشهور على شير نوائى والمؤرخان خواند أمير، صـــاحب حبيب السير، وميرزا محمد حيدر دوغلات صاحب تاريخ رشيدى، أما وصف بـــابر لبلاده والبلاد التى دخلها، فحسبه أن يذكر فريق من المؤرخين، الذيـــن زاروا هــذه الأماكن، أن أغلب ما أورده عن بلاد ما وراء النهر وكابل على الخصوص يصــدق عموما على حالها اليوم(٤).

---

(١) بابرنامه ٢٠١.

(٢) بابر نامه ٨٢ – ١٧٧.

(٣) المصدر السابق ٧٥٩ب.

(4) Elliot and Dowson, India V.IV. P220.

وهو في وصفه للبلدان لا يدع شيئا عرفه أو وصل إلى علمه إلا وذكره، ففي حين يعدد لنا أسماء الرياح التي تهب على كابل، ويقر أنه هو أول من أدخل زراعة قصب السكر بها، إذا هو يذكر لنا أن أهل الهند يطلقون على كل أرض خارج بلادهم اسم خراسان، مثلما يعرف العرب غيرهم من الأمم باسم العجم([1]).

وعلى هذا جرى وصفه لسمرقند. فتحدث عن أصل تسميتها وتاريخها، ووصف واديها وأسواقها وتجارتها وصنائعها وما بها من منشآت ومدارس ومساجد، كما تحدث عن حكامها وسكانها وما ظهر بها من العلماء والفقهاء ومذاهبهم وفرقهم.

وكذلك ساق الحديث عن خراسان وحاضرتها هرات مقر آل بيقرا، وفرغانة مسقط رأسه، ثم الهند التي ذكرنا له قدرا من وصفها تفصيلا فيما سبق.

ولم يكن ظهير الدين بابر في تدوينه لسيرته بدعا بين أفراد أسرته على كل حال، فقد سبقه إلى ذلك جده الأكبر تيمور، كما نهج أبناؤه نهجه من بعده.

على أنه يتميز عنهم جميعا بتدوينه لسيرته بنفسه. فلم يكن ليتأتى لكتاب البلاط بداهة، وهم يدونون سير سلاطينهم، أن يذهبوا مذهبه في صراحته التي جرى عليها وصدقه الذي ألتزمه في الغالب.

إن بابرنامه قد خلدت ذكر صاحبها في عالم الأدب والتاريخ، كما خلدته حروبه وفتوحاته في عالم الغزاة والمحاربين. وما من شك في أن هذه السيرة لتعد من المثل الصالحة التي يستلهمها أصحاب الطموح على الدوام.

---

(١) بابرنامه ١٢٩ أ.

همايـــون

لم يكن عرش أكرا حين اعتلاه نصير الدين محمد هما يون بـــن بـــابر فـــى التاسع من جمادى الأول من عام ٩٣٧ هـ /١٥٣٠م، تحوطه الأزهار والريـــاحين، ولم تكن سماء الهند التى تظله تنبىء عن صفو وصفاء.

فقد ترك لـــه أبوه خزانة خاوية استنفدت هباته وعطاياه من أموالها أكثر ممـــا استنفدتـــه حـ وغزواته. كما ترك لـــه جيشا من أجناس مختلفة، من الجغتـــائيين والأوزبك ... والمغول، أثارت كثرة الغنائم التى أتخمتهم، مع اختلاف العـــرق، شحناء الحسد والخصومات فيما بينهم أما الأمراء، أصاحب النفوذ بالبلاط، وكـــانوا ما بين خوانين من المغول ومراز بـــه من الترك، فقد ذهبوا بدورهـــــم يؤثـــرون منـــافعهم الخـــاصة على صالح الدولـــة العـــام، فى حين لم يقنـــع أبنـــاء بـــابر الآخرون وأقر باؤه بما أصابوا من ملك حتى ثـــاروا على أميرهم الجديـــد فجـــروا عليه وعلى أنفسهم بذلك كثيرا من المتاعب والمحن.

ولم يكن ذلك هو كل ما تعرض له سلطان الهندستان الجديد من مشـــكلات ؛ فقد كان الهنادكة بدورهم، وهم غالبية السكان. يرون فى الحكام المســـلمين عمومـــاً مغتصبين لبلادهم وغزاة دخلاء عليهم. كما كان هناك بقية مـــن الأمـــراء الأفغـــان مازالوا بأطراف البلاد يتربصون بغزاة الهند الجدد فى انتظـــار الفـــرص المواتيـــة ليثبوا عليهم ويخرجوهم من أرضهم.

وأقوى مراكز هؤلاء الأمراء الأفغان كـــانت بالأقـــاليم الشـــرقية ؛ وأبـــرز زعمائهم كان السلطان محمود لودهى الذى انطلق يجمع شتات بنى جلدته من جديـــد ببهار، وكان بابر قد هزمه من قبل فيمن هزم من عصبية راناسنكا بالراجبوتانا، ثـــم شير خان سورى ذلك الداهية المجرب الذى سنراه فيما بعد ينزل بالدولة ضربـــات قاصمة.

وكانت البنغـــال ما تزال بعيدة عن متناول أيـــدى سلاطين دهلـــى ؛ وكـــان يلوذبها أعداؤهم بالمناطق الشرقية فى الغالب. وكذلك كان شأن الكجرات التى طفـق أصحابها، وهم سدنة باب التجارة الهندية الأكبر، ينهلون من فيض بلادهم الغنيـــة

لتقوية جيشهم ويستمدون الأسلحة الحديثة من البرتغاليين الذين كان لهم بشواطئهم منازل أشرنا إليها من قبل، حتى باتوا يتطلعون إلى عرش الهند، ولم يبخلوا عن مديد العون لأولئك الذين يناهضون الدولة المغولية الجديدة.

ولئن كانت المدة القصيرة التي استقر فيها بابر بآكرا لم تيسر له القضاء التام على الخارجين على سلطانه وتدعيم أسس دولته الهندية الجديدة، فإن همايون، وهو الذي تمرس بأعباء الحكم حين ألقى إليه بمقاليد بدخشان وشارك في بعض وقائع أبيه الهندية فأظهر من ضروب البسالة والفروسية التي اشتهر بها الأمراء التيموريون([1])، كان كفيلا بترسم خطا أبوه وإتمام ما بدأه من عمل، لولا تراخيه في كسب ود رجال بابر وخلصائه، ثم فتور همته وخور عزيمته، فتراه لا يكاد يمضي في الإجهاز على أحد خصومة والقضاء عليه حتى ينصرف فجأه إلى عدو آخر غيره. وهو حتى حين يبلغ غايته في القضاء على واحد من أعدائه، كان يستخفه الطرب فينصرف إلى متعة عابرة غير منتبه إلى وجوب تدعيم ما أحرزه من توفيق أو مستمع إلى نصح القادة المجربين الذين قادوا جيوش أبيه من نصر إلى نصر.

بهذا أتيحت لأعدائه فرص متكررة لجمع صفوفهم وضم شملهم من جديد حتى بلغوا إلى إخراجه من الهند كلها والقضاء على كل ما بذله أبوه من جهود.

عمل همايون بوصية أبيه، فولى أخاه كامران إقليمي كابل وقندهار، كما أقطع أخاه عسكري ولاية سنبهل، في حين أعطى أخاه هندال ألوار وموات([2]). أما إقليم بدخشان فقد جعل عليه ابن عمه سليمان ميرزا.

على أن كامران لم يقنع بأرضه، فاستخلف أخاه عسكري عليها ثم اقتحم مشارف البنجاب بدعوى سيره لتهنئة همايون. ولم يثنة عن غايته ما عرضه

---

(1) Lane – Poelc p218.

(٢) طبقات أكبر ١٨٩.

عليــه أخوه السلطان من ضم لمغان وبشــاور إلى حوزتــه، حتى انقـــض علــى لاهور واعترف له همايون بسيادته على النبجاب كله.

وأدت سيادة كامران على النبجاب إلى قطع كل صلة بين دهلى وبين البـــلاد الواقعة فيما وراء الهند كوش، وهى التى كانت تمد حكام الـــهند المســلمين دوامــا بإمدادات لا تنفد من أشداء المقاتلين.

وتدبر همايون موقفه بين أعدائه من بعد ذلك، فرأى أن يبدأ بثوار الأفغـــان الذين عادوا إلى عصيانهم السابق بإقليم بهار. حتى إذا بلغ لكهناوتى اكتفى بضــرب قواتهم عندها دون أن يكلف نفسه عناء مطاردتها، وقد كان ذلك فى متنــاول يــده. وسلك شبه هذا المسلك مع شيرخان سورى صاحب حصن جنـــار إذ قنــع منــه بالولاء الاسمى، مؤثرا أن ينصرف عنه إلى حرب الكجرات، دون أن يلقى بالا إلــى خطورة هذا الثائر.

غزو الكجرات :

وكان بهادرخان، أحد سلاطين الكجرات الكبار، قد أخضع لسلطانه أصحـــاب أحمد نكر وبرار وكواليار، ووثق علاقاته بالبرتغاليين الذين كانت لهم مســـتعمرات بشواطئ بلاده ذات المركز التجارى الممتاز، هذا كما اقتحم إقليم مالوه رانا مـــوار بدعوى استضافة صاحبه محمود الخلجى لأخيه جند خان وكان ينافســـه العــرش، فصار بذلك يتاخم سلطنه دهلى فى مواضع كثيرة، وغدت آكرا نفسها غــير بعيــدة عنه.

وأدى أزدياد نفوذ هذا السلطان إلى أن لجأ إلى بلاده فريق مـــن الخــارجين على صاحب آكرا الجديد، وفيهم علم خان عم إبراهيم آخر ســـلاطين اللودهييــن، وزمرة من رجال بابر السابقين الذين زينوا له التطلع إلى عــرش الــهند والســعى لاستخلاصه لنفسه([1]).

---

(١) منتخب التواريخ أول ٣٤٦.

وحين كتب همايون إليه يسأله إخراج هؤلاء اللاجئين من بلاده فرفض الاستجابة إلى طلبه، لم يكن من الحرب بينهما عند ذلك مناص.

هنالك بادر صاحب آكرا بالارتداد سريعاً من المناطق الشرقية، ولما يجن بعد ثمار انتصاراته هناك، حتى إذا ما بلغ مالوه فوجد بهادرخان منهمكاً فى حربه مع صاحب جتور، أبت عليه شهامته إلا أن يمهل خصمه فلا يهاجمه حتى يفرغ من اشتباكاته مع الأمير الراجبوتى(1).

وبرغم ما كان عند بهادرخان صاحب الكجرات بدوره من مدافع أمده بها أصحابه البرتغاليون، فقد أرغمته قوات همايون على الامتناع فى حصونه ليتسلل من بعد ذلك منها فى نفر قليل من رجاله حين أيقن بانهيار مقاومة قواته لطول الحصار وعنف المجاعة التى بدأ شبحها يخيم عليهم.

وطفق البادشاه يطارد خصمه بنفسه فتبعه إلى ماندو، ثم جمبنير فأحمد آباد حتى بلغ كمباى فوجده قد لاذ بجزيرة ديو إحدى حصون البرتغاليين هناك.

وما غدا بهادرخان أن تم له، بعون من البرتغاليين، جمع قوات جديدة استطاع بها أن يسترد أغلب أراضيه. ويسر له بلوغ هدفه ما كان من فشل ميرزا عسكرى نائب همايون هناك فى تصريف شئون حكومته وانغماسه فى الدس والتآمر، وانصراف أغلب رجاله إلى حياة الترف التى كفلها لهم ما وقع بأيديهم من غنائهم هذا الإقليم ذى الثراء الطائل.

على أن سلطان الكجرات لم يكتب له الاستمتاع بثمار انتصاراته هذه، إذ سقط فى البحر غدراً بتدبير من البرتغاليين، وهو فى طريقه للتفاوض معهم، برغم شدة حذره وفرط تحوطه.

وما غدا أصحاب الكجرات أن أعادوا مالوه بدورها إلى حظيرتهم، وذلك حين خرج همايون من جديد للقضاء على القلاقل الشرقية التى طفقت تهدد ملكه تهديداً خطيراً.

---

(1) طبقات أكبرى ١٩١.

البنغال وبهار : كان شيرخان سورى، وهو من أقدر الزعماء الأفغان وأوفرهم شجاعة وعلماً، قد استخلص لنفسه أقليم بهار. توغل بقواته فى البنغال من بعد ذلك فلم تصادفه بها مقاومة تذكر(1).

وما أن توجه همايون إلى البنغال فاسترد إقليم غور حتى ارتد هذا الثائر الأفغانى إلى إقليم بهار فطفق ورجاله ينتهبون كافة الأراضى التى تمتد بين بهار وقنوج وجونبور.

وقضى السلطان شهوراً ستة بالبنغال وقد ظن أن الأمر قد دان له فى الغالب بالأقاليم الشرقية، ولم يكن يدرك، وهو يطيل فترة استجمامه هناك، أن عدوه إنما تركه يوغل فيها ليقطع خط الرجعة عليه ويقضى على ملكه قضاء تاماً بالتالى. حتى إذا ما تنبه إلى هذا التدبير، بعد فوات الوقت، فاستدار إلى خصمه والأمطار الموسمية على اشدها، استطاع شيرخان بدهائه ومناوراته المحكمة أن ينزل بقوات دهلى ضربة حاسمة أتت عليها جميعاً.

فقد جاءت الأنباء إلى همايون، وهو بالبنغال، بخروج أخيه هندال عليه بتحريض من بعض أعيان الأفغان حتى دعى له بمساجد العاصمة، بادر فزعا بالارتداد إلى أكرا فى طريق طويل تعرض فيه جنده لعنف الأمطار الموسمية وأوبئتها حتى هلك منهم خلق كثير.

هنالك عمد شيرخان إلى خداع السلطان، وقد علم بتمرد أخوته عليه، فأوفد إليه من يؤكد له طاعته وولائه له حتى إذا ما اطمئن همايون إلى تلك العهود فعرض على عدوه إمارتى البنغال وبهار ثمناً لخضوعه له، إذا بذلك القائد الأفغانى يهبط فى الفجر على معسكره بأرض جوسا ويحيط برجاله. فمنهم من لفظ أنفاسه وهو يغط فى نومه، ومنهم من لقى حتفه فى اليم غرقاً، ومنهم من وقع فى الأسر. وبرغم ما بذله السلطان همايون من جهد وما أظهر من جلد فى القتال شديد فقد كاد هو نفسه يبتلعه الماء لولا سقاء يدعى نظام أبصر به

---

(1) طبقات أكبرى.

فحمله على زقة([1]) » واتخذ هذا الثائر الأفغاني لنفسه، على أثر انتصاره في معركة جوسا هذه لقب شـاه وأمر أن تضرب السكة باسمه وتجرى([2]) الخطبة بالدعاء لـه. وأردف مـا أحرزه من فوز بتحالفه مع أصحاب الكجرات ومالوه علـى محاربـة همايون.

تدبر همايون موقفه فاستبان له أنه لن يكون له قبل بالقضاء علـى خصمـه حتى يمد له أخوته يد العون ويلتف رجاله حوله مخلصين. وهما أمران لـم تحالفـه الظروف على تحقيقهما.

فمن ذلك أن أخاه كامران حين انتوى العودة من آكرا إلى لاهور، فعزم علـى ترك أغلب قواته لتشد من عضد أخيه، أصابه مرض مفاجئ، ليلقى أحد رجاله، عند ذاك، في روعه باحتمال دس أخيه السم له، فيعدل عن وعده، فلا يسير بأغلب جنـده فحسب، حتى طفق يحرض فريقا من جنده دهلى نفسها بالذهاب معه.

ولم يكن شيرشاه ليعـلم ذلك كله، من إحوال غريمه، فـلا يفيـد مـن هـذه الفرصة التي سنحت له ليقضي عليه. فعبر الكنج في خمسين ألف من الجند لاقـى بهم مائة ألف من جند همايون عند قنوج وأدى تراخي جند السلطان في القتـال، حين رأوا كثيرا من الأمراء الكبار ينسحبون بقواتهم مـن الميـدان مـع بـدء الأمطار، إلى انتصار جموع الأفغـان انتصارا ساحقا كان مـن أثـره أن أخـرج همايون من الهندستان كلها، وبهذا ذهبت كل الجهود التي بذلـها أبـوه بـابر فـي فتوحاته أدراج الرياح.

وكاد همايون أن يلقى حتفه في هذه الوقعة غرقا كذلك، لولا أن بصره قـائده شمس الدين محمد غزنوى الذى وزر لابنه أكبر من بعد، فانقذه([3]) ليعود إلى الـهند من جديد بعد خمسة عشر عاما قضاها في المنفى.

---

(١) تذكرة الواقعات أو هميونامه لجوهر ص ١٤٣ – وقد وقعت زوجة همايون أسـيرة بـأيدى شيرشاه في هذه الحرب.

(٢) رياض السلاطين ١٤٧ وما بعدها.

(٣) منتخب التواريخ أو ٣٥٥.

شيرشاه :

هذا الزعيم الأفغاني، الذي استطاع بشدة مراسه وقوة عزيمته أن يخرج الأمراء التيموريين من الهند، والذي ينتسب إلى بيت سور الغوري، كان جده إبراهيم قد قدم للهندستان في عهد السلطان بهلول اللودهي فنال الحظوة عنده حتى ولي ابنه حسن إقليم سهسرام.

وكان أن أهمل حسن هذا شأن ابنه الأكبر فريد بتحريض من صغرى زوجاته، لينفر الولد من بعد ذلك إلى جونبور، منتدى الصفوة من رجال المعرفة بالهندستان إذ ذاك، ثم يتركها إلى آكرا فيصادف قبولا وترحيبا ببلاط السلطان إبراهيم اللودهي الذي وهبه أقطاع أبيه عقب وفاته.

ولجأ فريد عقب دخول بابر الهندستان إلى بهار فالتحق بخدمة صاحبه محمد بن درياخان لوحاني. وفيما كان الأمير في المصطاد إذ وثب عليه نمر فاتك كاد يقضي عليه لولا شجاعة فريد الذي بادر بالقضاء عليه بسيفه ليشتهر من بعد ذلك باسم شيرشاه([1]).

وما غدا طموحه أن دفعه إلى الالتحاق بخدمة جنيد برلاس نائب بابر على جونبور، ثم أتيح له من بعد ذلك أن يظهر ببلاط بابر فاتح الهندستان الجديد وينال الحظوة عنده.

وحين عهد بابر إلى جلال خان لودهي بإقليم بهار، سار معه شيرشاه، ولكنه ما لبث أن انضم إلى عصبة الثائرين التي كان يتزعمها السلطان محمود لودهي. حتى إذا ما هزم هذا الأخير بإقليم خريد، على ما ذكرنا من قبل، أقبل ذلك القائد السوري يستتيب بابر من جديد فعفا عنه، ليسقط على بهار من بعد ذلك عقب وفاته ويستخلصها لنفسه، ثم ما يزال بهمايون حتى يخرجه من الهند كلها.

ورأى شيرشاه، بعد أن جلس على عرش آكرا، أنه لا سبيل إلى تأمين حدوده إلا بالقضاء على الأمراء البابريين الذين ما برحوا يحكمون بأرض كابل وكشمير.

---

(١) منتخب التواريخ أول ٣٥٨.

فلم يبلغ البنجاب حتى اضطرته ثورة حاكم البنغال إلى الارتداد مسرعا إلى دهلى بعد أن عهد إلى خمسين ألف من جنده بإقرار الأمن عند حدوده الشمالية الغربية منفذ الغزاة إلى سهول الهند منذ القدم.

وأتيح لسلطان الهندستان الجديد هذا أن يثبت نفوذه فى البنغال ويخضع السند والملتان ومالوه له، كما أنزل ضربات شديدة كذلك بالأمراء الهنادكة وبالراجبوتانا برغم استماتتهم فى القتال ورغم الخسائر التى لحقت بالجند الأفغان. وتم له كذلك انتزاع حصن كلنجر من أصحابه الراجبوتيين، لكنه أصيب فى معمعان المعركة بشظية من قذيفة، لم يكتب له النجاة من أثرها، فقضى بعد قليل فى عام ٩٥٢هـ/١٥٤٥م بعد أن حكم الهند قرابة سنوات خمسة(١). ولبثت أسرته من بعده تحكم هذه البلاد عشرة سنوات استطاع همايون من بعدها أن ينتزع الملك منهم مرة ثانية بمساعدة طهماسب شاه الفرس الذى آواه فى محنته.

هذا ويعد شيرشاه من بين أمراء المسلمين العظام الذين عرفتهم الهند فقد التفت بهمة عالية إلى تنظيم أداة الحكم، ونهض باقتصاديات البلاد وتعمير الأرض، وأصلح نظام الضرائب بعد أن أمر بمسح الأرض الزراعية وحصر زراعاتها على اختلاف أنواعها. وقسم أراضى الدولة إلى سبع وأربعين ولاية تضم كل واحدة مراكز عدة جعل عليها عمالا له ألزمهم بالسهر على مصالح السكان وجمع الخراج دون تعسف أو حيف.

كما أهتم بأمر الجيش اهتماما بالغا مسترشدا بما سبقه إليه علاء الدين الخلجى من نظم فى ذلك. فجعل تحت إمرته المباشرة جيشا قويا قوامه مائتى ألف من الجند التزم بدفع نفقاتهم من بيت المال، وكان العرف يجرى من قبل على أن يمد الأمراء وزعماء القبائل السلطان برجالهم فى الحروب على إقطاعات واسعة تقطع لهم وأنصبة من الغنائم والمتاع. وبهذا أراح الناس فى الغالب من عسف أصحاب الإقطاعات وابتزازهم المتواصل لأموالهم وما يملكون.

---

(١) منتخب التواريخ أول ٣٧٢ – ٧٣.

ونشر شير شاه جنده فى كافة أنحاء البلاد، وعهد إليـــهم بحراســة الحقــول والمحافظة على أرواح الناس ومتاعهم من اعتداءات اللصوص وقطاع الطرق الذين كان لهم فى بعض العصور نشاط ملحوظ وخطر شديد.

وامتدت يده كذلك إلى النهوض بالبريد وتنظيمه، وتحسين الطرق حتى أنشــأ منها ما يزيد طوله على الألفين من الأميال المعبدة، وأقام على جانبيه الأشـجار ذات الظلال، وأنشأ بها الكثير من محطات المسافرين ومنازل الدواب، وأباحها للمســلمين والهنادكة على السواء.

وأدى قيام محطات المسافرين هذه إلى تجمع ما يشبه الأسواق الصغيرة مـــن حولهـــا، مما ساعد على رواج أحوال أواسط التجار وعامتهم(1).

ولم تكن عناية هذا الأمير السورى(2) بالعلم والعلماء بأقل من عنايته بتعمـــير بلاده والنهوض بحكومتها. فقد أنشأ كثيرا من المدارس والمساجد، ورتب الأجـــور للطلبة والمعلمين على السواء، وحرضهم تحريضـــا شـــديدا علـــى طلـــب العلـــم والاستزادة منه.

كما فتح كثيرا من المطاعم فى أنحاء متفرقة بالهند وأباحها بالمجان للفقـــراء والمعدمين من أهل البلاد جميعا، مسلمين وهنادكة، فساهم بذلك، فى الغـــالب، فـــى تخفيف وطأة المجاعات المعروفة التى كانت تجتاح بعض مناطق الهند من حين إلـــى حين.

وبلغ من بره برعاياه والتزامه إقامة العدل فى ربوع دولته، أنه كان لا يـــتردد فى إنزال أشد العقاب بمن تحدثه نفسه من رجاله وجنده بالاعتداء على الأهليـــن أو السطو على حاصلاتهم وأملاكهم، فلا تشفع له من عنده مكانة المعتـــدى أو حســـبه ونسبه(3).

---

(1)Prasad Muslim. Rule pp.801.2.

(2) نسبة إلى آل سور.

(3) Lane Poole 933. 36.

همايون فى منفاه : طفق همايون، بعد أن دحره شيرشاه، يطوف بالسند في حالة شديدة من البؤس والشقاء، وأخوته ما يزالون يكيدون له، وأغلب رجاله قد تخلوا عنه. بل إن صديقه القديم مل ديو، صاحب جدهبور، حاول وفريق من أمراء الهنادكة أن يوقعوه فى أسرهم، حين دعوه للنزول عندهم، على اتفاق سابق فيما بينهم وبين شيرشاه.

وبنى همايون فى تجواله هذا بحميدة بانو ابنة الشيخ على أكبر جامى فرزق منها بابنه أكبر(١).

وانتهى المطاف به إلى قندهار فترك بها ابنه الذى لم يكن يعدو العام الأول من عمره إذ ذاك، وقد عقد العزم على السير إلى العراق ومعه قائده بيرم خان الذى وفد إليه من الكجرات فلازمه مخلصا طول محنته.

وبلغ همايون سيستان فاستقبله نائب طهماسب، شاه الفرس، بها فى ترحيب وتوقير. وكذلك فعل محمود ميرزا أكبر أولاد العاهل التيمورى حين بلغ مقر حكمة بهرات. وظل نواب طهماسب يبالغون فى الحفاوة بسلطان الهند الشديد على طول الطريق حتى بلغ مقام سيدهم بنواحى قزوين.

وكان أن أفاض همايون فى بيان ما لقيه من محن ألمت به بسبب تنكر أخوته له، حتى خشى بهرام أخو طهماسب أن تذهب الظنون بالشاه بدوره إلى القضاء على أخواته. هنالك حاول بهرام هذا أن يزين لأخيه العاهل الفارسى قتل صفيه التيمورى، بحجة الانتقام منه لتقاعس أبيه بابر عن نصرة جند فارس في قتالهم الأوزبك عند تخشب ايام إسماعيل الصفوى، لولا أخت لطهماسب، تدعى سلطانه خانيم، استطاعت بحكمتها ونفاذ كلمتها أن تحبط هذا التدبير كله(٢).

وأكره همايون على التظاهر التشيع جلبا لمعونة الشاه الفارسى الذى أمده بأربعة عشر ألفا من الجند ليغزو بهم بخارى وكابل وقندهار، على أن يصبح إقليم قندهار بعد فتحه من أملاك الدولة الفارسية.

---

(١) طبقات أكبرى ٢٠٧.

(٢) منتخب التواريخ أول ٤٤٤.

واقتحم همايون بجنده القزلباش أراضى أخيه كامران، فشد فتحه لقندهار كثيرا فى عزيمته، وبعثت بذلك الآمال العريضة فى نفسه من جديد.

وصدق همايون ما عهد عليه الشاه طهماسب فسلم المدينة إلى ابنه مرادخان. على أنه حين طلب أن يأويه وجنده القليل إبان الشتاء فرفض، دفعته قسوة البرد ورجاله إلى اقتحام المدينة على صاحبها عنوة على أن يردها له ثانية إذا ما تم لهم دخول بدخشان وكابل. وما غدا الأمير الفارسى أن وافته منيته بعد قليل فبقيت المدينة بيدهمايون.

وطفق جند كثير من قوات كامران تفد إلى همايون فى مقامه هذا بعد أن هجروا مضارب أميرهم، فدخل بهم كابل حيث التقى بابنه أكبر، وقد بلغ الخامسة من عمره، وكان قد تركه دون الفطام بقندهار كما ذكرنا من قبل.

وتبادل الأخوان المدينة مرات عدة حتى انتهى، الأمر بكامران إلى الفرار منها ليلتجأ من بعد ذلك عند السلطان سليم شاه سور خليفة شيرشاه. حتى إذا ما اضطره ما قوبل به من جفاء عنده للنزوح إلى السند فاستقر بمنازل الجكر، بادر زعيمهم بتسليمه إلى أخيه. ومنع همايون من التنكيل بكامران ما وصاه به أبوه بابر، من قبل، من الرفق بأخوته، فسمح له بالسير إلى مكة المكرمة والاعتكاف بها بعد أن سملت عيناه.

وما لبث عسكرى أن سار فى أثر كامران إلى الحجاز كذلك بعد أن وقع بدوره فى الأسر، لكن الأجل وافاه، فى طريقه، بأرض الشام. أما هندال فكان قد لقى حتفه بأرض كابل حين كانت قوات همايون تطارده وأخاه كامران[1].

وهكذا نفض همايون يده من أخوته جميعا الذين أدوا، بتخليهم عن نصرته ومداومتهم على الكيد له، إلى إخراجه من الهند وضياع كافة الجهود المضنية التى بذلها أبوهم من قبل فى فتح هذه البلاد أدراج الرياح.

---

(١) طبقات أكبر ٢٢٤.

وحين أطل على سهول الهندستان من جديد، آثر أن يتريث قليلا فلا ينحدر إليها قبل أن يطلع إطلاعا صحيحا على ما صارت إليه أحوالها.

خلفاء شيرشاه : غدت سلطنة دهلى تضطرب أمورها اضطرابا شديدا عقب وفاة شيرشاه. ذلك أن ابنه جلال الذى خلفه باسم السلطان سليم (إسلام) شرع منذ مستهلى حكمه يسلك طريق العنف مع الأمراء الأفغان، فقتل فريقا منهم وألقى بفريق آخر فى الحبس، وبث عيونه وجواسيسه فى طوال البلاد وعرضها لينبئونه، بكل ما يحدث فيها، فيتخذ من انبائهم، دون تحر أو روية وتدقيق، وسيلة للعسف بالقوم والتنكيل بهم.

وهكذا أعاد هذا السلطان سيرة إبراهيم اللودهى مع رجاله من جديد. حتى إذا ما ثار عليه عظيم همايون نائبه على البنغال، لما بلغه من إيقاعه بالقائد القدير شجاعت خان نائب أبيه على مالوه، فغلب البنغالى على أمره، خرج السلطان من نصره هذا ليمعن فى ارتكاب المظالم، حتى صار يتصرف فى أموال الدولة وفق هواه المطلق ويعطل أغلب السنن الحسنة التى جرى عليها أبوه من قبل.

وخلفه ابنه الصبى فيروزشاه فوثب عليه خاله مبارزخان، ولما يمض إلا أياما قليلة على العرش، ليقتله ويضطلع بشئون الحكم باسم السلطان محمد عادل شاه (عدلى).

واستورد هذا السلطان هندوكيا عالى الهمة يدعى هيمو (هيمون). لكن كفاءة هذا الوزير لم تستطيع أن تحد من ثورات الأمراء الأفغان التى أخذت تجتاح البلاد فى عنف بالغ، وكان من أخطر نتائجها استيلاء إبراهيم شاه سور على دهلى وآكرا ليطرده منها بعد قليل سكندر شاه سور ويضع يده على الإقليم الواقع بين السند والكنج كله.

وما غدا هيمو أن استرد آكرا لسيده، فصارت الهندستان بذلك نهبا لسلاطين ثلاثة. فهذا عادل شاه يحكم آكرا ومالوه وجونبور، وإلى جانبه سكندر شاه تخضع له دهلى والبنجاب، فى حين كان إبراهيم شاه يسيطر على رقعة من الأرض تمتد من بيانه إلى حدود كواليار[1].

---

(١) تاريخ سلاطين أفغانى ٤٥

عودة همايون : رأى همايون فىهذه الاضطرابات الفرصة المواتية لاسترداد بلاده، فاقتحم لاهور فى ربيع الأول من عام ٩٦٢هـ/١٥٥٥م دون مقاومة تذكر، ليهزم من بعد ذلك جيوش سكندر شاه سورى عند سرهند هزيمة حاسمة(١)، ويدخل دهلى بعد أن اتخذ أميرها سبيله إلى جبال البنجاب فرارا.

ويرد الفضل فى انتصارات همايون هذا كلها إلى قادته بيرم خان التركمانى الذى أبى دون أغلب رجاله أن يتخلى عنه فى محنته، وقد كافأه أميره على وفائه هذا بأن ولاه البنجاب مع ابنه أكبر وعهد إليهما بمطاردة ذلك الأمير السورى.

ولم يطل الأجل بهمايون ليجنى ثمار جهاده الطويل الشاق، فقد انزلقت به عصاه وهو يصعد درج مكتبته بدهلى، وكان من المرمر الخالص، فقضى بعد قليل فى ربيع الأول من عام ٩٦٣هـ/١٥٦٦م، وهو فى الحادية والخمسين من عمره، ولما يمض بالهند، وقد آب إليها بعد غياب طويل، سوى شهور ستة.

لم يكن همايون دون أسلافه التيموريين فى الشجاعة والجرأة، فقد شارك أباه أغلب حروبه وترسم خطاه فى التجمل بالصبر واحتمال الشدائد، فلم يفارقه جلده وثباته طيلة محنة المنفى، التى بلغت خمسة عشر عاما، لولا ما كان يداخله من الغرور وينقصه من مضاء العزم الذى قعد به فى الغالب عن المضى فى مطاردة أعدائه والإجهاز عليهم، فكان يقنع بأول ضربة ينزلها بهم ولا يزيد.

كذلك عرف عن همايون شغفه، كأبيه وأجداده، بالفنون والعلوم والآداب. وقد ترك، فميا ترك مكتبة عامرة بالمؤلفات القيمة لا يزال بناؤها قائما بدهلى حتى اليوم. ولولا المنية التى عاجلته لأتم بناء المرصد الذى كان قد شرع فى إقامته هناك.

ومن أسف أنه ورث عن أبيه عادة تعاطى المعجون (الأفيون) الذى بكر بنهاية الأب وهد من كيان الابن.

---

(١) طبقات أكبرى ٤٥٨ – وفى هذه الوقعة، التى بلغت فيها قوات اسكندر سورى أربعة أمثال همايون، شارك أكبر أباه الحرب لأول مرة.

أكبـــــر

وصلت أخبار وفاة همايون إلى ابنه أكبر وهو فى كلانور بالبنجاب يطـــــارد الثـــائر سكندر سورى، فبـــادر مرافقة القـــائد الشيخ بيرم خان إلـــى المنـــاداة بـــه سلطانا على الهند، باسم جلال الدين محمد أكـــبر(1) ، ولـــم يكـــن يتجـــاوز إذ ذاك الرابعة عشرة من عمره.

ويقسم المؤرخون مدة حكم أكبر التى امتدت من عام ٩٦٣هـ/١٥٥٦م حتـــى عام ١٠١٣هـ/١٦٠٥م إلى فترات ثلاث / فالفترة الأول هى التى كان زمام الحكـــم الفعلى فيها بأيدى الوزير الشيعى المجرب بيرم خان الذى كان خير معين لــــهمايون فى منفاه. وأما الفترة الثانية فهى التى حاول فيها بعض نساء القصر إملاء رغباتـــهن على السلطان الشاب، وذلك بعد أن أفلحن، بالدس والوقيعة والخداع، فى إيعاد بـــيرم خان من منصبه بسبب تشيعه وتقويض ما كان له من نفوذ بـــالغ. وكـــانت الفـــترة الثالثة، وهى التى انفرد فيها أكبر بالأمر كله، أطول هذه الفترات جميعا إذا امتـــددت من عام ٩٦٩هـ/١٥٦٢م حتى وفاته عام ١٠١٣هـ/١٦٠٥م.

وتعد هذه الفترة الثالثة كذلك من أزهر عصور الهند التاريخية. ومـــن أجلـــها اعتبر المؤرخون القدامى من هنادكة وغيرهم، السلطان أكبر أعظم عـــاهل عرفتـــه الهند منذ أيام آشوك (آزوكا) حامى للبوذية فى القديم، كما سلكه المحدثـــون مـــن كتاب التاريخ فى مصاف أعاظم الملوك الذين عرفهم العالم فى عصره طرا(2) :

وكما يقسم المؤرخون مدة حكم هذا السلطان إلى فترات ثلاث كذلك يســـلكون غزواته وفتوحاته فى أدوار ثلاثة.

الدور الأول، ويبدأ من عام ٩٦٥هـ/١٥٥٨م حتى عام ٩٨٣هـ/١٥٧٦م.

وفيه بسط أكبر سلطانه على الهندستان كلها.

---

(١) كان ذلك فى يوم الجمعة الثانى من ربيع الأول عـــام ٩٦٣هـــــ/مـــارس ١٥٥٦م. منتخـــب التواريخ ثان ص ٨.

(2)Prasad. Muslim Rule p.831, 88.

الدور الثانى، ويبدأ من عام ٩٨٨هـ/١٥٨٠م حتى عام ١٠٠٤هـ/١٥٩٦م.

وفيه تم له تأمين الحدود الشمالية الغربية ومناطقها التى تعد أخطـــر أبـــواب الهند، فهى منفذ الغزاة الفاتحين إلى سهول السند والكنج منذ القدم.

الدور الثالث، ويبدأ من عام ١٠٠٦هـ/١٥٥٨م حتى عام ١٠٠٩هـ/١٦٠١م وهو الذى طفق أكبر يتوغل إبانه بالدكن حتى تم له ضم أغلب مناطقه لملكه.

والواقع أن الهندستان، حين جلـــس أكـــبر علـــى عرشـــها، كـــانت تفيـــض بالاضطرابات. فأمراء أسرة سورى، خلفاء شيرشاه، كان منهم سكندر شاه بالبنجـــاب يتحفز للانقضاض على دهلى وآكرا واسترداد الأراضى التى أخرجه همايون منـــها، فى حين استقر محمد عادل شاه سورى فى جنار بعد أن أخرجـــه إبراهيـــم خـــان سورى من دهلى، وبعث بقائده الهندوكى هيمون على رأس قوات كثيفة وقف بـــها غير بعيد من العاصمة فى ارتقاب الفرصة المواتية لاستردادها من جديد، هذا كمـــا كان هناك أمراء آخرون من آل سور يستأثرون كذلك بالأمر كله فى البنغال.

ولم تكن أسرة سور هذه هى وحدها التى تهدد سلطان أكبر بالهند، فإن مـــيرزا حكيم، أخا أكبر، كان قد أعلن استقلاله بكابل، أرض الرجعة لســـلاطين المســـلمين بالهند وطريق الإمدادات إليهم التى كانت تمدهم بمحاربى بـــلاد مـــا وراء النـــهر الأشداء، ثم أخذ من بعد ذلك يرنو ببصرة إلى ارض الـــهند نفســـها ويتطلـــع إلـــى الجلوس على عرشها.

وكانت ولايات السند والملتان وكشمير قد انفصلت عن سلطان دهلى بدورهـــا لسنين خلت، فى حين راح الأمراء الراجبوتيون، فى موار وجسالمير وبوندى وجـــد هيور، يغتنمون ما أتاحه لهم اضطراب الأحوال من فرص لاســـتعادة الكثـــير مـــن سلطانهم القديم ونفوذهم، واستردت مالوه والكجرات استقلالهما الضائع وثبت أمـــراء الدكن المسلمون أقدامهم فى بلادهم من جديد، فى خاندش، وبرار وبيدر وأحمد نكـــو وبيجابور وغولكونده.

ومن وراء أولئك وهؤلاء جميعا كان الأمـــراء الهنادكـــة، أصحـــاب إمـــارة فيايانكر فى الجنوب، يجهدون فى المحافظة على استقلالهم من اعتداءات جيرانـــهم أمراء الدكن المسلمين.

وكان البرتغـــاليين بدورهم يقيمون فى حصونهـــم القوية فى جوا وديوا علـــى شاطئ الهند الغربى بعد أن خاضوا غمار معارك بحريـــة عنيفـــة ضـــد ســـلاطين الكجرات المســـلمين وأعوانهم من سلاطين الممـــاليك المصريين والعثمانيين.

ونتج عن انتصار هؤلاء المستعمرين أن اشتد خطرهم وتفاقم طغاينـــهم فـــى مناطق الخليج العربى وبحر العرب والمحيط الهندى وعند منافذ البحر الأحمر حتـــى اقتربوا من شواطئ الحجاز وراوحوا يـــهددون طـــرق التجـــارة الهنديـــة والحـــج الإسلامى إلى البيت الحرام([1]).

حرب آل سور : رسم أكبر ورجاله خطتـــهم علـــى أن يعملـــوا أولا علـــى التخلص من آل سور، خلفـــاء شيرشاه، الذين كانوا يجهدون لاسترداد عرش الـــهند. وفيما كان جند الدولة يجد فى مطاردة سكندر شاه سور بالبنجاب هاجم هيمون قـــائد محمد عادل شـــاه سور مدينة آكرا فى خمسين ألف من الخيـــل وخمســـمائة مـــن الفيول.

وكان هذا القائد الهندوكى، الذى يشتهر فى كتب التاريخ باسم البقال([2]). قد تـــم له من قبل دحر إبراهيم شاه سور، بالقرب من دهلى، وكاد يقتحم عليه معقلـــه فـــى بيانه لولا ما كان من زحف سكندر خان صاحب البنغال عى أملاك عادل شاه فـــى

---

(١) انظر الجزء الأول من هذا الكتاب ص ٢٣١، ٢١٢.

(٢) كان هيمون فى أول أمره بقالا بمدينة رواوى بأقليم موات ثم عهد إليه بمراقبة الأسواق حتـــى صار مدبرا لإمدادات الجيش، غير أن لقب بقال لصق به طول حياته. وما زال يرتقـــى بلـــغ مرتبة القيادة وصار وكيلا (وزيرا) للسلطان محمد عادل شاه الذى كان يشتهر بين العامـــة باسم عدلى (طبقات أكبرى ص ٢١٤).

جونبور وكالبى. وما إن تم لهيمون دفع قوات البنغال عن أراضى أميره حتى اقتحم حصن آكرا وأرغم سكندر أوزبك قائد أكبر هناك على الارتداد إلى دهلى.

هنالك بادر أكبر من فوره بتسيير قائده عليقلى خان زمان إلى دهلى لمؤازرة تردى بيكخان ورجاله فى الدفاع عن هذه المدينة وصد جحافل هيمون عنها، فلم تبلغ الإمدادات مكان المعركة إلا بعد فوات الفرصة.

فلقد تمكن رجال الميمنة المغولية من دفع جناح العدو المقابل لهم أول الأمر، إلا أن هيمون استطاع بقواته الرئيسية فى القلب أن يدحر القائد المغولى تردى خان حتى بادر بالانسحاب من الميدان دون أن يفطن إلى عدول خصمه عن مطاردته، فقد فت فى عضده تأخر وصول الإمدادات إليه من جهة، وعظم قوة عدوه من جهة أخرى.

واتخذ هيمون لنفسه على أثر هذا النصر لقب بكرماديت (فكرماديت)(1) الهندوكى القديم ليعلن بذلك عزمة على إحياء أمجاد أمته القديمة ومناهضته للإسلام والمسلمين. فلم يكتف بإهمال شأن سيده عادل شاه، حتى راح يضرب السكة باسمه ويولى خاصته ورجاله مناصب الدولة وشئون الولايات.

وبرغم عنف المجاعة التى كانت ما تزال تجثم على دهلى وآكرا وبيانه وما حولها حتى طعم الناس الجيف وهلك خلق كثير، فإن هيمون لم يتردد عن مطاردة قوات أكبر حتى ميدان بانى بت، وهو الميدان الذى انتصر فيه ظهير الدين محمد بابر بقواته القليلة على حشود الهند الكثيفة لثلاثين عام خلت.

وهال رجال أكبر كثرة قوات هيمون، التى كانت تبلغ مائة ألف من الجند وخمسمائة من الفيول، بالقياس إلى ضآلة قواتهم التى لم تكن تعدو عشرين ألفا ما بين فرسان ومشاة حتى أشار أغلبهم بالارتداد إلى أرض كابل، لولا إصرار السلطان ووزيره بيرم خان على القتال.

---

(1) وهو من الأبطال الذين يمجدهم تاريخ الهند القديمة وأساطيرها على السواء وكان قد أخرج السيث والسكا من الهند ووحدها تحت حكمة.

هنالك عهد أكبر إلى صهرة خضر خان بمواصلة قتال سكندر سور ثم خرج هو على رأس قواته للقاء الأمير الهندوكي وعصبته.

استطاع هيمون أول الأمر أن يكتسح جناحي جيش أكبر، برغم سقوط مدفعيته بأيدي عدوه، غير أن سهما أصابه فألقى به من فوق فيله الذى كان يدعى « الهوا » لخفة حركته البالغة. وحين طلب إلى فياله أن يسير به وبدابته إلى خارج الميدان توهم رهطه وقوع الهزيمة بهم، فانفرط عقدهم لساعتهم وتفرق شملهم ووقع هيمون نفسه فى الأسر. وفى هذه الوقعة لقى كثير من الأمراء الأفغان حتوفهم.

وأبت على أكبر شهامته أن يستجيب لوزيره بيروم خان أشار عليه بقتل أسيرة، محتجا بأنه ليس من المروءة التنكيل بأعزل جريح[1]، غير أن الوزير وثب عل هيمون وقتله، ثم بعث برأسه إلى كابل وبجثته إلى دهلى ليرى العصاة فى مصير صاحبها عبرة لهم وعظة.

ودخل السلطان المنتصر دهلى من جديد، فاستقبله الأهلون على اختلاف طبقاتهم بحفاوة بالغة. وما غدا أن أقبل عليه بير محمد شروانى ومعه أموال هيمون وما كان بخزائنه فى موات من نفائس، وفى ركابه خاصة أتباعه وأهل بيته.

وفتت هزيمة ذلك القائد الهندوكي الكبير ومقتله فى عضد أمراء أسرة سور، ونال اليأس من نفوسهم منالا شديدا، فما إن خرج أكبر إلى لاهور فبلغ جالندهر حتى رجع سكندر سور من تلال سيوالك إلى حصن مانكت فاعتصم فيه. حتى إذا ما قدم أكبر ومدفعيته فشدد الحصار عليه، لم يجد بدا من طلب الصلح، مع التعهد بالولاء التام للسلطان، على أن يسمح له بالمسير إلى البنغال فى أمان.

وحفظ أكبر على هذا الأمير كرامته فولاه بهار وخريد فى الشرق ؛ فلبث بها حتى وافته منيته بعد عامين.

أما عادل سور فقد اقتحم عليه مقره فى جنار، خضرخان وأخوته فدحروا قواته وقتلوه انتقاما منه لمقتل أبيهم محمد خان بنغالى بظاهر آكرا.

---

(١) منتخب التواريخ بدوان ثان ص ١٥، ١٦.

وحاول شيرشاه الثـاني بن عادل شاه هذا أن يستحوز على جونبور بعد مقتل أبيه، ولكن خانزمان قائد أكبر تصدى له ودحره وضم كـل أراضيـه إى أمـلاك الدولة.

أما إبراهيم شاه سور فقد زينت له بعض القبائل الأفغانية الاستيلاء على ولاية مالوه. حتى إذا أخفق فى هذا الأمر انطلق إلى ولاية أورية فى إقليم النبغال فبقى بها حتى عام ٩٧٥هـ/١٥٦٨م حيث لقى مصرعه على أيدى القائد المغولـى سـليمان كرانى([1]).

وعرف البادشاه لوزيره بيروم خان همته وحزمه فى القضاء على آل سـور خلفاء شيرشاه، على الخصوص، فأنعم عليه بلقب خان خانان (أمـير الأمـرا ء) وجعله وكيلا للسلطنه وزوجه بابنة أخته.

والحق أن هذا الوزير المجرب بذل جـهدا صادقـا فـى تصريـف شـئون الدولة على أحسن وجـه، كمـا نظـم الإدارة، وبعـث بـالجند ففتحـت كواليـار وآجمير واقتحمت جونبور وأمنـت الحـدود الشـمالية الغربيـة، فـأمكن بذلـك لسلطنه دهلى أن تستعيد أغلب الأراضى التـى كـانت لـها أيـام بـابر. وعمـل كذلك، وهو فى غمرة مشاغله الكثيرة، على تثقيـف السـلطان الشـاب، وحضـه دواما على طلب العلم والـتزود بالمعرفـة.

غير أن هذا الوزير الشيعى طفق يحابى أبناء مذهبه ويخصـهم بالمنـاصب الرفيعة فى الدوٰلة ويمعن فى اضطهاد السنيين جملة، أصحاب الغالبية بين مسـلمى الهند، مستغلا فى ذلك حادث اندحار القائد السنى تردى بكخان أمام القائد الـهندوكى هيمون فى معكرة دهلى، حتى فاضت النفوس بالسخط الشديد عليه([2]).

---

(١) طبقات أكبرى ص ٢٤٥.

(٢) ليس هناك ما يؤيد ما ذهب إليه بدوانى . منتخب التواريخ ثان ص ١٤ » من حصول بـيرم خان على أمر صريح بقتل تردى بك بسبب هزيمته. وقد أثارت فعلة بيرم خان هـذه نفـوس جال البلاط Muslim Rule. 819.

واستغل نساء القصر، وعلى رأسهن حميدة بانوبيكيم أم السلطان وما هم أتكـة مرضعته، ما كان من تضييق الوزير على السلطان فى النفقات وما أشيع من ميلـه سرا إلى أبى القاسم ابن كامران[1]، الذى كان يطمع فى الجلـوس علـى عـرش الهند، فرحن يحرضن أكبر على إبعاد مستشاره الداهية عن منصبه[2].

وأحس بيرم خان بنفور أكبر منه فعقد النية على الابتعاد عن البلاط بالسـير إلى البيت الحرام. حتى إذا ما بلغه تسيير السلطان الجند فى آثره، مخافة أن يستحوذ على البنجاب، على مادس الدساسون، استبد به الغضب فأعلن عزمه على مناهضة قوات الدولة، غير أنه وقع فى الأسر. وقد عفى عنه أكبر على كـل حـال وذلـك لسابق أياديه وعظيم خدماته، وسمح له بالانطلاق إلى الحج.

وفيما كان بيرم خـان يجتـاز الكجرات عام ٩٦٨هـ، فى طريقه إلى البيت الحرام، اغتـاله أفغانى، يدعى مبارك خان لوحانى، كان أبوه قد لقى مصرعه علـى يديه. وعلى أثر مقتله احتضن أكبر ابنه عبد الرحيم ببلاطـه وكـان إذ ذاك فـى الرابعة من عمره، فما زال يرعاه حتى بلغ أكبر مناصب الدولة.

هكذا تخلص أكبر من نفوذ وزيره الشيخ ليقع تحت تأثير حاضنته الداهيـة، على الأخص، حتى كان لا يبرم فى الغالب أمرا دون رأيها. وطفقت هـذه السـيدة تعهد بمناصب الدولة إلى أتباعها وفق هواها وترفع من مقام أبيها أدهم خـان، وإن لم تستطيع أن تبلغ به الوزارة على كل حال.

على ان اكبر ما غدا أن تكشـف له خطورتها بعدقليل عليه فـأخذ يراقـب سلوكها وعصبتها بعين اليقظـة والحذر. فحين بعث بأدهم خان ومعه بـير محمـد شروانى لفتح مالوه فدخلاها عام ٩٦٧هـ/١٥٦٠م، بعد أن هزما بازيـهادر ابـن شجاعت خان خاصة خيل نائب شيرشاه السابق عليها، فلم يصل إلـى آكـرا مـن غنـائم الفتح إلا القليل، دفعـه الريبة فى سلوك قائـده هذا إلى أن يفاجئه بظـهوره

---

(١) هو ابن عم لأكبر.

(٢) منتخب التواريخ ثان ص ٣٣.

هناك ليطلع بنفسه على ما بحوزته من أسلاب ضخمة، ولم يملك أدهم خان عند ذاك إلا أن يدعى أنه كان بسبيل إرسالها إلى العاصمة.

وانفرد بير محمد شروانى بالحكم فى مالوه على أثر استدعاء أدهم خان إلى آكرا لينطلق من بعد ذلك إلى أعمال السلب والنهب والتخريب فى كافة المناطق المجاورة لإمارته حتى شواطئ نهر تربدا الجنوبية، فلم ينج من أذاه مسلم أو هندوكى أو مسجد أو معبد، حتى اجتمع الأهلون عليه ليتاح لأميرهم السابق وأصحابه استرداد بلادهم بمعونتهم من جديد، وما زالوا يطاردون نائب أكبر هذا حتى لقى حتفه غرقا نهر تربدا وهوفى طريقه إلى ماندو قرارا([1]).

وما غدا البادشاه أن بعث بقائده عبد الله خان أوزبك بعد قليل فاسترد هذه الولاية من جديد، وقد لاذ بازبهادر ببلاط أداى سنغ، أحد أمراء مروار، ثم ما لبث أن سعى إلى التماس الصفح من البادشاه فأجيب إليه.

كذلك لم يمنع حر الهند أكبر من أن يسير إلى جونبور فيفاجئ عامله هناك عليقلى خان الأوزبكى بدوره، كما فاجأ أدهم خان بمالوه من قبل، ويرده إلى طاعته.

ذلك أن هذا القائد، بعد أن تم له رد جموع الأفغان التى التفت حول شيره شاه الثانى بن عادل شاه سور بحصن جنار فخرجت تبغى الاستيلاء على جونبور، بدا من تصرفاته وعصبيته من الأوزبك، الذين كانوا فى رعاية بيرم خان من قبل، ما أثار الريب فى نفس البادشاه حتى خرج إليهم بنفسه. فما إن غادر كالبى فبلغ قره حتى جاء إليه عليقلى خان وأخوه بهادر خان فجدد له الولاء وإن عاود العصيان بعد ذلك ببضع سنين.

بلغ أكبر فى هذه الأثناء مبلغ الرجال، وغدا يدرك مدى خطورة المسئوليات التى يلقيها عليه منصبه، فأتخذ له وزيرا من رجال أبيه الأكفاء المخلصين، هو شمس الدين محمد أتكه. حتى إذا ما ثارت عصبة ما هم أتكه مرضعة البادشاه، لهذا

---

(١) منتخب التواريخ ثان ٥٢.

الإجراء ورأت فيه ما يحد من نفوذها، فبرز أدهم خان ابن ماهم أنكه فى زمرة من رجاله فوثب على الوزير وهو يؤدى فريضة الصلاة بالبلاط فقتله، بـاغت أكـبر القاتل وقبض عليه بنفسه ثم أمر فقذف به من حالق حتى هلك، وما غـدت أمـه أن لحقت به كمدا بعد قليل(1).

تقريب الهنادكة :

هكذا قضى أكبر القضاء التام على دسائس نساء القصر ومن سار سيرتهم إثر مقتل وزيره ليبدأ بذلك عهداً جديداً فى حكم الهند. ذلك أن بصيرته قد هدته إلى وجوب العمل على توحيد سكان الهند جميعاً مسلمين وهنادكة تحت رايته، فطفق، فى سبيل تحقيق هذا الأمر، يقرب زعماء الهنادكة وأمراءهم منـه ويفتح لـهم أبواب بلاطه ويعهد إليهم بالمناصب الرفيعة مدنية وعسكرية على السـواء، فكـان ممن أصهر إليهم من كبارهم راجا بيهرمل أمير جايبور الراجبوتى، كما كان ممـن قلدهم المناصب الهامة راجا تدر مل، الذى خلف خواجه ملك اعتماد خان، فسار فى شئون الدولة المالية على الخطة الحسنة التى كان اختطها شيرشاه فى إصلاحاته من قبل، بعد أن أدخل عليها قدراً من التعديلات والتحسينات.

كذلك رفع أكبر الجزية، التـى كـانت تفـرض علـى الهنادكـة والرسـوم التى كانوا يلزمون بها عند الحجيج إلى مقدسـاتهم، فغـدا رعايـاه جميعـاً علـى قـدم المساواة فيما يلزمون به مـن واجبـات ومـا يتمتعـون بـه مـن حقـوق. وكان صنيعه هذا كله البداية العمليـة لتحويـل الهنادكـة وأمرائـهم مـن أعـداء الدولة إلى خدام لها وحماة لأراضيـها.

حروب الشمال والوسط :

التفت أكبر إلى الفتوحات على نهج أجداده فاندفع فى حروب وغزوات تكـاد حلقاتها تتصل حتى عام ١٠٠٩هـ/١٦٠١م لينتهى بذلك إلى تدعيم ملكه من جهـة وتوسيع رقعة دولته من جهة أخرى.

---

(١) طبقات أكبر ٧٧٣.

غوندوانا :

تبدأ هذه الفتوحات بغزو غوندوانا إحدى إمارات الوسط. وكانت تحكمها ملكة هندوكية تدعى رانى دروكاتى وصية على ابنها الصغير برنرايان وقد اشتهر اسم هذه الملكة لاستماتتها فى الدفاع عن بلادها حتى سقطت فى ميدان الشرف.

وحين استبان لابنها الصغير بدوره استحالة الوقوف فى وجه آصف خان قائد القوات المغولية آثر تناول السم (الجوهر) على التسليم لأعدائه فلحق بأمه.

وعوق من خطة أكبر فى الفتوح، بعد ما أصابت قواته أسلابا كثيرة فى غوندوانا، ما كان من انتفاض الأوزبك، رجال بيرم خان القدامى عليه. ولئن انتهى الأمر سريعا بعبد الله خان الأوزبكى إلى طرده من مالوه بعد هزيمته حتى لجأ إلى الكجرات، فإن عصيان أخيه عليقلى خان زمان فى جونبور وما حولها، حتى جهر بخلع طاعة اكبر والدعاء لأخيه حكيم مكانه، قد اقتضى من السلطان الكثير من الوقت والجهد ليتم له القضاء عليه.

ذلك ان أكبر لم يكد يمضى فى مطاردة قوات الثائر الأوزبكى، حتى بلغه مهاجمة أخيه للبنجاب، بتحريض من الأوزبك، بعدأن طرده سليمان شاه صاحب بدخشان من كابل، مستعينا فى ذلك بالقوات التى كان أخوه قد بعث بها إليه لنجدته.

ولم يكن البادشاه ليغفل عن أهمية المركز الاستراتيجى لمنطقة الحدود الشمالية الغربية التى تعتبر باب الهند، فبادر من فوره برد أخيه وقواته عنها كلها بعد أن كانوا قد دخلوا لاهور.

وما غدا حكيم خان أن استرد حاضرته كابل من أيدى سليمان شاه واستقر بها، ليعود أكبر من بعد ذلك مسرعا إلى المناطق الشرقية ثانية، فما يزال يطارد الثائر الأوزبكى وعصبته حتى التحم بهم عندما نيكبور حيث سقط خانزمان فى الميدان فى حين استسلم أخوه بهادر خان وفريق كبير من بنى جلدتهم فاوردوا جميعا مورد الردى(١).

---

(١) طبقات أكبرى ٣١٨ – ٢١.

واستبان لأكبر أنه لن يصير له السيادة على الهندستان كلـــه إلا إذا تـم لـه إخضاع حصونه الكبرى التى ما يزال فريق من الأمراء الراجبوتيين يسيطرون عليها ويعتصمون بها.

جتور : يعد حصن جتور أمنع هذه المعاقل جميعاً، إذ كان يقوم على سلسلة من الاستحكامات القوية تمتد لمسافة أميال ثمانية على نتوء من الصخر يبرز على ارتفاع شاهق فى السهل. وكان صاحبه أوداى سنغ رانا موار قد غدا يـأوى عنده فريقاً من الخارجين على سلطان أكبر من أمثال بهادر خان أمير مالوه السابق، فضلاً عما كان يسديه من العون ويبذله من التعضيد لأبناء عمومة البادشاه من الطامعين فى ملكه([1]).

ولم تمتنع هذه المعاقل على جند الدولة برغم وعورة مسالكها واستماتة جـاى مل وفتح (بتا) سنغ قائدى الأمير الراجبوتى ورجالهما فى الدفاع عنها بعد أن لاذ سيدهم وأسرته بالجبال، فقد بلغ من عزم المدافعين حين رأوا زمام الأمر يفلت من أيديهم، أن عمد نساؤهم وشيوخهم إلى قتل أنفسهم بأيديهم، فمنهم من جـرع السم، ومنهم عرض نفسه على نيران المواقد. ثم فتحت أبواب الحصن بعد ذلك لتنطلق الحامية منه فتشتبك مع مهاجميها فى قتال وحشى عنيف فنى فيه أغلبها([2]).

وأثار ما أظهره الراجبوتيون من ضروب البسالة إعجاب أكبر حتى احتفظ بتمثالين قيل إنهما للقائدين الهندوكيين([3]). والحق عن هذا البادشاه المغولى كان ممن يقدرون شجاعة الشجعان حق قدرها حتى رأيناه فى مواقف كثيرة يحفظ على الأبطال من أعدائه، حياتهم ويحيطهم بالرعاية والإكرام .

وكان من أثر حسن صنع أكبر هذا، لا سيما مع الأمراء الراجبوتيين، أن طفق كثير منهم ينضم إلى صفوفه ويوثق من صلاته معه، وكان من بين هؤلاء

---

(١) تاريخ ألفى ١٧٠ – ١٧٤.

(٢) منتخب التواريخ ثان ١٠٤.

(3) Muslim Rule. 325.

رجا بيكانير وجيسلمير ثم بها رمل راجا أمير وابنه بهكوان داس وحفيده من سنغ وقد صحبوه جميعا إلى آكرا وأصهر إليهم فيما بعد.

على أن رأى براتاب، حين خلف أباه أو داى سنغ فى إقليم موار عاد يرى فى توثيق الصلات بين الأمراء الراجبوتيين وسلطان المغول خطرا شديدا قد يؤدى إلى القضاء التام على أمجاد بنى جنسهم وما بذله أسلافهم، من أمثال جده راناسنكا من تضحيات وما خلدوه من صفحات البطولة الرائعة دفاعا عن شرف عنصرهم فنصب نفسه للدفاع عن تراث الهنادكة وماضيهم التليد، ومن ثم طفق يستنهض من همم أقرانه ويعمل على إثارتهم وتحريضهم على مناهضة الدولة. وقد بنى خطته على تحصين حدوده وحدود حلفائه ثم إطلاق عصاباتهم جميعا من بعد ذلك لتنقض من مضاجع صاحب آكرا.

ولئن كان أكبر قد سير قوات كثيفة من جنده لتكتسح إقليم موار كله فإنه لم يتيسر له تحقيق غايته على التمام برغم ما أحرزه من انتصارات متكررة على رنا براتاب وابنه أمر سنغ.

رنتنبهور : لم يكد البادشاه يفرغ من حرب جتور عام ٩٧٥هـ/١٥٦٧م حتى أخذ يعد العدة لاقتحام حصن رنتنبهور ثان قلاع الهندستان الكبرى، فسارت قواته إلىهناك فى العام التالى ليلحق هو بها بنفسه فى رمضان من نفس السنة.

وحين رأى سورجانا، صاحب الحصن، أعداءه يبلغون بمدافعهم أعلى تل يواجه معقله المنيع فتنهال قذائفهم عليه بادر، بوساطة من بهكوان داس ومن سنغ اللذين كانا فى صحبة البادشاه، إلى إعلان خضوعه واستسلامه، فخلع أكبر عليه وعلى ولديه، وما غدا بعد قليل أن أقامه على إقليم بنارس، كما عهد بقلعة جتور.

وأدى سقوط حصنى جتور ورنتنبهور إلى تيسير مهمة الحملة التى كان السلطان قد بعث بها للاستيلاء على حصن كلنجر فى بند لخاند وهو فى طريقه إلى ثانى القلعتين سالفتى الذكر. وصار أمر راجا جندرا صاحب هذا الحصن إلى أن أقطع إقطاعا على مقربة من أحمد آباد.

وباستيلاء أكبر على هذه الحصون الثلاثة المنيعة رسخت أقدامــه وتعــززت حدوده. وأدى ما سلكه مع أصحاب هذه الحصون، حين استسلموا إليه من طريــق المودة والرفق، فصحبهم إلى بلاطه فى الغالب أجرى عليهم رزقا حسنا وعهد إليـهم بقدر من مناصب الدولة، إلى أن ركن أغلب الأمراء الهنادكة إلى الســلم وطفقــوا يساهمون معه فى بناء الدولة بهمة بالغة وإخلاص([1]).

فى ذلك الوقت رزق أكبر بابنه وولى عهده الأمير سليم، الذى يعــرف فــى التاريخ باسم جهانكير،من أم هندوكية هى ابنة بها رمل راجا جيبور وكان قد بنــى بها عام ٩٦٩هـ/١٥٦٢م.

وعلى أثر مولد هذا الأمير عام ٩٧٧هـ/١٥٧٠م انتقل البادشاه بحكومته إلــى مدينة سكرى، عند حدود الراجبوتانا من ناحية آكرا، فاتخذها حاضرة لــه وســماها فتحبور، فلم يهجرها إلى آكرا إلا حين انهار خزان المياه بها عام ٨٨٩هـ/١٥٨٠م وغمرها الماء.

وكان ممــا حبب إلى أكبر النزوح إلى هذا المكان، قيام ولى صالح به يدعــى سليم جشتى كان قد بشره وتنبأ له بمولد ابنه هذا بعد أن مات له أطفال كثيرون مــن قبل. وبلــغ من تعلق السلطان بهذا الشيخ أن بعث بزوجتــه هــذه حيــن ظــهرت عليها بــوادر الحمل فأقــامت إلى جواره، حتى إذا وضعت حملــها أطلــق علــى المولود اسم الولى تبركا. وفى رحاب هذا الشيخ ولد أكثر أولاد البادشاه.

وعنى أكبر بتعمير هذه المدينة عناية بالغة حتى لتعد منشآته من أروع نمــاذج العمارة الهندية الإسلامية. وكان من بين هذه المنشآت الفخمة المسجد الجامع، الــذى أقيم على طراز البيت الحرام، ثم ضريح الولى سليم جشتى، وجملة مــن القصــور أجاد المعماريون فى تصميمها كما أبدع النقاشون فىزخرفتها وترصيعها بمختلــف الزخارف والتصاوير([2]).

---

(1) MuslimRule. 327 -28.

(2) Lane – Poole, 721 – 75.

وأعظم آثار أكبر بهذه المدينة هي بلند دروازه (البوابة الكبيرة) التى أقامها تذكارا لانتصاراته فى الكجرات، ذلك الإقليم الذى تم لأبيه همايون إخضاعه لسلطانه قبل إخراجه من الهند، والذى يعد، إلى جانب خصب تربته ووفرة زراعاته، أعظم مراكز التجارة الهندية. فمن موانيه، بروج وسورات وكمباى، كانت السفن تبحر وعليها منتجات الهند التى كان يتهافت عليها سكان العالم منذ القدم، حتى لم يقتحم غاز من الغزاة أسوار الهند إلا وكان فى حسابه دخول هذا الإقليم، ومن بين هؤلاء كان محمود الغزنوى الذى أغراه موقعه وطيب هوائه حتى جرى بخاطره أن يتخذه مقاما دائما له وقاعدة يدير منها دولته الهندية الجديدة.

فتح الكجرات : كان مظفر شاه الثانى آخر سلاطين الكجرات، الذى خرج إليه أكبر فى ربيع الثانى من عام ٩٨٠هـ/١٥٧٢م، ضعيفا خاملا، اجتمع عليه نفر من رجاله فسلبوه كل نفوذ، ثم ما غدا نفر منهم أن انتهز فرصة الفوضى التى كانت تسود الدولة فى عهده فراح يسعى إلى الاستقلال بما بأيديه من إقطاعات.

واستسلم سلطان الكجرات من فوره للبادشاه الذى أجرى عليه رزقا حسنا. وحذا حذوه كثير من رجال الكجرات، لينطلق أعظم عزيز كوكا قائد أكبر، من بعد ذلك، ومعه إمدادات من مالوه وجندرى، فيطارد إبراهيم حسين ميرزا ابن عم البادشاه وفريق من الأمراء التيموريين العصاة الذين كانوا يقيمون هناك، فما زال بهم حتى أخرجهم من سورات.

على أن أكبر لم يكد يعود إلى سكرى فتحبور حتى ارتد الكجراتيون إلى العصيان من جديد، فلم يرجع عنهم هذه المرة إلا بعد أن استخلص من أيديهم مدينة أحمد آباد ودخل كمباى وباروداء كما اقتحم حصن سورات المنيع الذى طالما استعصى على البرتغاليين ودفع خطرهم عن المنطقة كلها.

وفى هذا الحصن، الذى كانت أسواره يصل سمكها إلى ما يزيد على أمتار أربعة مسلحة بالحديد، عثر البادشاه على قطع من المدفعية تحمل اسم السلطان

العثمانى سليمان القانونى، فهى بقايا من آلات أسطوله البحرى الذى كان قد بعث بـه لمعاونة سلاطين الكجرات فى دفع خطر البرتغاليين عنهم(1).

رجع أكبر من هناك فى منتصف عام ٩٨١هـ/١٩٧٣م بعد أن عـــهد إلـى وزيره تدرمل ثم شهاب الدين أحمد خان من بعده بتنظيم شئون هذا الإقليـم الغنـى الذى كان خراجه يعد من أهم موارد الدولة.

وظلت الأمور فى هذا الإقليم تميل إلى الاستقرار حتى أتيح لمظفر خـــان أن يجمع قوات جديدة سقط بها عام ٩٩١هـ/١٥٨٣م على أحمد آبـــاد فدخلـها كمـا استولى على كمباى وباردوا فتم له بذلك السيطرة على أغلب الكجرات، حتى سـير إليه البادشاه قائده عبد الرحيم خان فرده عن كثير مما وقع بأيديــه مــن أرضيـن، ومازالت قوات آكرا تطارده من بعد ذلك حتى استســلم إليـها عــام ١٠٠٠هـــ/ ١٥٩٢م ليقتل نفسه من بعد ذلك بموسى كان يخفيها فى ثيابه.

وقد عهد أكبر إلى ثانى أبنائه مراد بشـــئون هــذه الولايــة التــى صـــارت جــزءا من أراضى الدولة وبقيت فى حــوزة الســلاطين المغــول قرابــة قرنيــن من الزمـان.

هذا وكان البادشاه قد صادف بالكجرات البرتغاليين لأول مرة، وكـــانوا فئــة قليلة قدمت لشد أزر مظفر خان فى حربه معه، فلم يتعرض لهم بسوء، واكتفى بـأن أخذ عليهم موثقا بألا يتعرضوا لحجاج البيت الحرام حين يخرجون من موانئ الــهند التى كانوا يسيطرون على مسالك أغلبها(2).

وكان هؤلاء البرتغاليون قد اســـتطاعوا أن يقيمــوا لــهم مســتعمرات بشــواطئ الكجرات بعد مواقع بحرية عدة مع سلاطين الكجرات فى القرن ٩هـــــ/١٥م وقــد اتحد المماليك المصريون وسلاطين العثمانيين بأساطيلهم بسلاطين الكجرات لدفـــع خطر البرتغاليين هؤلاء الذى امتد حتى البحر الأحمر.

---

(1) طبقات أكبرى ٣٥٠.

(2) Dunbar 168.

غزو البنغال : بينا فيما سلف كيف اتخذ شيرشاه من البنغال وما جاورها قاعدة لحملاته التى انتهت إلى إخراج همايون شاه من الهند. ولبث هذا الإقليم فى حوزة أمراء من الأفغان حتى انتزعه من أيديهم سليمان خان كرانى صاحب بهار فى عهد سليم شاه سورى. وجرى هذا الأمير على إعلان ولائه الأسمى للدولة المغولية، حتى إذا ما خلفه ابنه بايزيد فقتله وزراؤه بعد قليل، جاء أخوه وخلفه داود ليغريه ما بخزائنه من أموال كثيرة وما تهيأ له من جند كثيف على مهاجمة أراضى الدولة المغولية الشرقية وتخطفها حتى بلغ بتنة وخربها.

ولئن كان اكبر قد خرج إلى هذا الثائر بنفسه عام ٩٨٢هـ/١٥٧٥م حتى بلغ بنارس فاقتحمها على صاحبها كما استولت قواته بدورها على بتنة، فإن قائده منعم خان رضى آخر الأمر بالصلح مع خصمه بفعل ما كان بينه وبين أبيه من صداقة قديمة، وأقطعه إقليم أوريسه برغم معارضة زميله تدرمل. وما غدا داود، حين بلغه وفاة نائب أكبر هناك بالهيضة، أن انطلق يسترد أراضيه السابقة، حتى أوقع به خان جهان نائب السلطنة الجديد فقضى عليه فى ساحة راجا محل فى ربيع الثانى من عام ٩٨٤هـ ١٥٧٦م. وبمقتله قضى على استقلال البنغال الذى لبثت تنعم به قرابة قرنين ونصف القرن.

على أن خان جهان لم يكد يقضى عام ٩٨٧هـ ١٥٧٩م. حتى خلفه مظفر خان تربتى ليؤدى ما فرضه على أصحاب الأراضى من ضرائب عالية لصالح بيت المال إلى ثورة هؤلاء الملاك.

وأدى إلى اتساع نطاق الفتن، حتى شملت البنغال وجونبور كلها، نفور أغلب العلماء ورجال الدين المحافظين هناك من الدراسات الفلسفية واللاهوتية التى كان البادشاه يمارسها وما بلغهم من انصرافه إلى التفكير فى ابتداع مذهب جديد يذيب فيه عقائد الهند كلها ويجمعها على التوحيد، حتى لم يتردد ملا محمد يزدى، قاضى جونبور، أن يفتى بوجوب حرب السلطان لما استحدثه من بدع تزعزع بناء الإسلام فى الهند.

وبلغ من عنف الثورة هناك أن قتل ظفر خان نفسه نائب أكبر هناك كما اضطرت قواد البادشاه التى كانت قد قدمت من دهلى إلى الاعتصام وقائدها تدرمل فى حصن منفر، حتى جاء ميرزا عزيز كوكا فقضى على تمرد باب خان وعشائره الجغتائية بالبنغال، لينطلق من بعد ذلك قائده بازخان إلى بهار فيرغم معصوم فرنخودى زعيم الثوار هناك على الفرار إلى تلال سوالك بالبنجاب.

ثورة ميرزا حكيم : كان من نهج ثوار المناطق الشرقية من أفغان وأوزبك أن يعمدوا فى الغالب، وهم فى غمرة العصيان، إلى إثارة القلاقل والفتن بأيدى أبناء جلدتهم عند حدود لدولة الغربية والشمالية الغربية تخفيفا لضغط قوات السلطان عليهم.

ولم يكن ميرزا حكيم خان ليقعد بدوره عن الاستجابة لهؤلاء الثائرين وهم الذين دأبوا على التلويح له بعرش آكرا إذا ما عاونهم على التخلص من نير أخيه الجالس عليه. وقوى فى عضد هذا الأمير هذه المرة، على ما عرف عنه من خور فى العزيمة وانكباب على الشراب، ما كان من انضمام فريق من قادة أكبر من طلاب المغامرات إلى صفوفه، حتى خرج عام ٩٩٠هـ/١٥٨٣م إلى البنجاب فدخل لاهور وانتهب ما حولها من أرضين.

وما غدا أكبر أن أسرع إلى هناك فى خمسين ألف من الفرسان وخمسمائة من فيول الحرب وجموع كثيفة من المشاة ومعه ولداه سليم ومراد، فتقدم سليم إلى جلال آباد بعد أن عبر ممر خيبر، فى حين اتجه مراد إلى كابل فالتحم بقوات عمه وأرغمه على الفرار. على أن البادشاه ما لبث أن رد أخاه إلى إمارته بعد أن عفى عنه خوف انضمامه إلى أعدائه الأوزبك ببلاد ما وراء النهر[1].

وهلك فى حملة البنجاب هذه خواجه شاه منصور، ديوان السلطان[2] وأحد مستشاريه الذين ساهموا مساهمة قوية فى إقرار الأمور فى الجبهة الشرقية من قبل،

---

(١) طبقات أكبرى ٤٢٥.

(٢) الديوان هو القيم على شئون المال، وهو وزير عادة.

إذ دس عليه راجا مان سنغ بضع رسائل قيل أنه كان يتبادلها مع ميرزا حكيم فأمر أكبر من فوره بشنقه دون تثبت من أمره، وقد ندم على فعلته هذه من بعد.

ولئن كان من المعروف أن منطقة الحدود الشمالية الغربية هى منذ القدم باب الهند الأعظم الذى ينفذ منه الغزاة إلى هذه البلاد، فإن اهتمام سلاطين الهند الجدى بتحصين هذه المنطقة لم يبدأ إلا غداة غزو جنكيز خان وأبنائه من بعده للهند.حتى رأينا آل بلبن والخلجيين ثم آل تغلق من بعدهم يقيمون بها سلسلة من المعاقل والحصون القوية حبسوا بها قوات كثيرة العدد والعده.

وأتيح لتيمورلنك اجتياح أغلب هذه الحصون حين فتر الاهتمام بها ودب الإهمال إليها لما كان عليه آخر سلاطين آل تغلق من الضعف. حتى جاء أكبر فعمرها من جديد لتدفع عنه أخطار الأوزبك، أصحاب بلاد ما وراء النهرين وألد أعداء الأمراء التيموريين وأشدهم مراسا، ومعهم القبائل التى تقطن أرض كابل وغزنة من الأفغانيين وغيرهم الذين طالما أغراهم ثراء الهند جارتهم، بالقياس إلى جدب أراضيهم وفقر بلادهم، بالسقوط عليها وتخطف أراضيها وانتهاب أرزاقها بل والتوغل فيها ما سنحت لهم الفرصة بذلك وغفلت عنهم أعين نواب دهلى على البنجاب.

وكان من اثر مبادرة البادشاه إلى إرسال قواته لاحتلال إقليم كابل عقب وفاة أخيه ميرزا حكيم فى شعبان من عام ٩٩٢هـ/١٥٨٥م وضمه إلى أراضيه، وما أنزله قواده، من أمثال راجا من سنغ وزين خان وراجا بيربل، بعبد الله خان الأوزبك وقبائل يوسفزاى الأفغانية من الهزائم الحاسمة، أن أمنت حدود الدولة فى المناطق الغربية والشمالية الغربية، لتتجه قوات أكبرا من بعد ذلك بقيادة راجا بهكوان داس لغزو كشمير فتضمها إلى أملاك الدولة عام ٩٩٥هـ/١٥٨٧م.

كذلك دخلت جيوش البادشاه إقليم أوريسه كما سيطرت على السند والملتان ومنازل البطهان لتطل من ذلك على قندهار التى كان أكبر يمنى النفس منذ أمد بعيد باسترجاعها من الفرس، فهى مفتاح الطريق إلى حدوده الشمالية الغربية.

وانتهز السلطان الهندى فرصة اشتغال عباس الصفوى شاه الفرس بحروبه مع العثمانيين والأوزبك فدفع بقوته عام ٩٩٨ هـ/١٥١٠ م إلى هذه الأيالة، فلم يهل عام ١٠٠٣هـ حتى صارت فى حوزته دون قتال، إذ وصل إلى غرضه فى مهارة سياسية فائقة أبقت على علاقات المودة بينه وبين جاره([1]).

وهكذا صار لأكبر، ولما ينصرم القرن العاشر الهجرى بعد، مملكه متسعة الأرجاء امتدت من آخر حدود البنغال الشرقية إلى ما وراء السهند كوش وأرض كابل وغزنة وقندهار فى الغرب، ومن جبال الهملايا فى الشمال إلى نهر نربدا فى الجنوب، ولما تنته فتوحه بعد.

فتوح الدكن : لبث سلاطين المسلمين فى الهندستان يرون فى الدكن وما ورائها جنوبا بلادا غريبة عنهم، فى الغالب، بأهلها وعاداتها ورسومها. على أن أطماعهم، حين كان يستتب لهم الأمر فى الشمال الهندى كله، كثيرا ما أغرتهم بالنفوذ إلى ذلك الجنوب الذى كشفت لهم حملات علاء الدين الخلجى عما به من ثراء والذى قامت به دويلات وإمارات إسلامية أبى أصحابها الاعتراف بسيادة دهلى عليها طواعية.

وكان من الطبيعى أن يتطلع أكبر بدوره إلى هذا الجنوب، وهو المحارب الطموح، بعد أن ساد سلطانه الشمال وعظم شأنه وأمنت حدوده.

واستعصت إمارة أحمد نكر أول الأمر على الأمير مراد بن أكبر وقائده عبد الرحيم خان لحسن دفاع الأميرة الشجاعة جند بيبى عنها، فلم تسفر جهود هذين القائدين بالدكن إلا عن ضم إمارة برار إلى أملاك الدولة([2]).

---

(1) MuslimRule.347.

(٢) هذه الأميرة ابنة حسن نظام شاهى وأرملة إبراهيم عادل شاه الثانى صاحب بيجابور. وقد رجعت إلى مسقط رأسها فى أحمد نكر بعد موت زوجها لتقف إلى جانب الصغير بهادر نظام شاهى صاحب الحق الشرعى فى الإمارة مما أدى بالوزير ميان منجهو، وكان يناصر أمير آخر يدعى محمد خدابنده، إلى الاستنجاد بمراد بن أكبر الذى كان يحكم بالكجرات، وبرغم نجاح هذه الأميرة فى إقرار بهادر على بلاده، لما غدا أنصاره من الأحباش والدكنيين أن انقلبوا عليها حتى ضيعوها وضيعوا إمارتهم معها. هذا وفى القسم الأول من هذا الكتاب ص ١٦٨ – ١٧٦ تفصيل لنشأة إمارات الدكن جميعا.

كذلك لم يفلح قواد البادشاه فى حسم موقفهم مع قوات أحمد نكر وبيجابور وغو لكنده مجتمعة حين التقوا بهم من جديد، حتى جاء الوزير أبو الفضل بن المبارك نفسه إلى الدكن فى جند كثيف، وما غدا أن لحق به أكبر بنفسه بعد أن عهد بأمر حكومته إلى ابنه سليم.

وكان مما أدى بالسلطان إلى السير بنفسه إلى هناك، موت ابنه مراد من جهة وانضمام أمير خاندش إلى الخارجين عليه من جهة أخرى.

وسير أكبر ابنه دانيل إلى أحمد نكر فى حين قصد هو إلى خاندش، فما أن دخل عاصمتها بر هانبور ثم شرع من بعد ذلك فى حصار (عسير) أقوى حصونها، وكان يمتنع فيه صاحبه ميزان بهادر، حتى وافتة الأنباء بخروج ابنه سليم عليه وتنصيبه لنفسه سلطانا فى مدينة الله أباد بأدنى الدوآب([1]) فلم يثنه ذلك عن المضى فى خطته حتى سقط الحصن فى يده وتبعه استسلام إمارة أحمد نكر له بدورها.

وبسقوط هذه الإمارات فى مستهل القرن الحادى عشر الهجرى، وختام القرن السادس عشر الميلادى، تم لأكبر السيطرة على الدكن التى استمرت حروبه بها سنوات خمسه([2])، وصارت الدولة المغولية، أعظم الدول لعصرها وأقواها وأكثر ثراء وغنى، بما دخل فى حوزتها من أرضين وما انطوى تحت لوائها من الأمراء وما عمرت به خزائنها من أموال الفتح وغنائمه وكنوزه.

ولم يطل الأجل بأكبر حتى يتم فتح جنوب شبه القارة الهندية بأكمله بعد أن شرع فيه، وقد كان بوسعه تحقيق هذا الأمر فى أمد قصير أن أقر الأحوال فى الشمال كله بقضائه على أسرة سور وكبحه جماح الأوزبك وفتحه للبنغال واقتحامه حصون الراجبوتيين الكبرى وتأمينه حدوده كافة، لولا ما تعرض له من ثورات

---

(١) عفى أكبر عن ابنه حين عاد إلى آكرا فولاه البنغال وإن لبثت العلاقات متوترة بين البادشاه وابنه إلى آخر أيامه.

(٢) كان من أثر طول مقاومة إمارات الدكن الإسلامية للمغول، ابتعاد الخطر إلى حين عن إمارة فيايانكر الهندوكية التى كانت تقع ما ورائها جنوبا.

وفتن عنيفة بسبب ما ذاع عنه من أفكار وآراء فلسفية أدت به إلى استنباط مذهب ديني جديد.

المذهب الإلهي :

برغم أن أكبر ينحدر من أسرة امتازت بالثقافة المتوارثة فيها، فقد أدى اضطراب حياة، أبيه في الغالب، إلى حرمانه من قدر وافر من التعليم في الصغر، فشب ولم يكن يحسن القراءة والكتابة. ومع ذلك فقد فاضت حياته الطويلة بالنشاط العقلي، إذ كان قوي الملاحظة كلفا بالمعرفة، فتعلم عن طريق التلقين مكتفيا بالإصغاء والتأمل. وكانت ذاكرته القوية تستوعب كل ما كان يقرؤ في حضرته من الكتب القيمة التي جاوز عددها في مكتبته الخاصة أربعا و عشرين ألفا.

ولقد ولد أكبر عن أب سني المذهب وأم شيعية، وبني ببضع أميرات من الهنادكة. وطفق لا يشغل نفسه إلا بعلوم أهل السنة حتى التقى بالشيخ مبارك ناكوري وولديه فيضي و أبي الفضل وكان ثلاثتهم من المشتغلين بعلوم الحكمة، فتفتحت، عيناه على كثير من المسائل الفلسفية والأسرار الصوفية، ودفعوه معهم في طريقهم، طريق البحث عن الحقيقة ومحاولة الوصول إلى الحق المجرد.

وأدى به شغفه بهذه المسائل إلى إقامة دار للعبادة (عباد تخانه)، بمدينة فتحبور حاضرته الجديدة، تم بناؤها عام ٩٨٣ هـ / ١٥٨٥ م لتكون منتدى الفقهاء والمتصوفة ورجال الدين وصفوة رجال الدولة يتدارسون فيها كتاب الله الكريم وعلوم التفسير والحديث ومسائل الفقه والتصوف والفلسفة.

ودرج أكبر على الحضور إلى هذه الدار عقب صلاة الجمعة عند انصرافه من خانقاه شيخ الإسلام. هذا كما كان يتعبد كذلك في كهف غير بعيد من قصره ويمضي ليالي بأكملها يناجي ربه برموز الصوفية واصطلاحاتها.

كان هذا السلطان يرى في الملك نعمة من نعم الله العظمى، يتجلى العرفان بها في حسن إدارة الحاكم لحكومته على وجه يجعل رعاياه جميعا يتفانون في طاعته وتلهج ألسنتهم بالثناء عليه.

وعلى هدى هذه الغاية حاول أن يمزج نفسه بالهند وشعوبها من مسلمين وهنادكة مزجا عميقا لينقلب هو وبلاده آخر الأمر إلى وحدة لا تنقسم أو تتجزأ. فمضى يعمل على انضواء الهنادكة جميعا تحت راية الحكم الإسلامى عن رضى وقبول بتألف قلوبهم، وفتح أبواب بلاطه لهم حتى بلغ كثيرون منهم أعلى مناصب الوزارة [1]، كما أصهر إلى كثير منهم كذلك، وإن أدى سلوكه هذا إلى نفور طائفة من العلماء ورجال الدين الذين كانوا ينكرون قيام المساواة بين المسلمين ومن خالفهم فى دينهم.

وكان من ثمر نهجه هذا الذى انتهجه أن طفق فريق من الأمراء الراجبوتيين يوالونه حتى ساروا معه بقواتهم لتحقيق أهدافه فى الفتوح والقضاء على الفتن التى كانت تنشب من حين لآخر فى أنحاء بلاده الواسعة. وكان من بين هؤلاء راجا بهكوان داس وابنه من سنغ اللذان ظاهراه فى حصاره لحصن جتور أقوى قلاع الهند، راجا بيرمل الذى لاقى حتفه وهو يدافع عن حدود الدولة الشمالية الغربية.

ولعل تدر مل أبرز هندوكى قام على خدمة أكبر فى إخلاص بدت آثاره العظيمة واضحة جلية فى تاريخ الهند. فهذا الوزير، الذى كان قد نشأ عند السلطان القدير شير شاه فألم بالكثير من اتجاهاته السديدة فى شئون الإدارة الحكومية، قد شارك بنجاح فى حملات البادشاه البنغالية كما أظهر كفاءة ودراية كبيرة حين عهد إليه بتنظيم شئون حكومة الكجرات، أغنى إمارات الهند، وتنسيق مواردها المالية، حتى صار من بعد ذلك خير مشير لأكبر فيما شرع فيه من إصلاحات شملت كافة نظم الحكم وشئون الدولة[2].

لقد أدرك أكبر أن بلاده الواسعة لا يمكن حكمها وإقرار الأمور فيها إقرارا إلى بقيام المؤاخاة والألفة بين أهلها على اختلاف مللهم وتباين عروقهم ونحلهم. وهو حين قرب إليه الهنادكة، دفعه شغفه بالمعرفة إلى التطلع إلى ما عندهم من ثقافات ورسوم قديمة ومعتقدات، فعهد إلى فريق من العلماء بنقل عيون الكتب

---

(١) بلغ عدد المناصب الكبرى فى الدولة أيام أكبر ٤١٥، وكان الهنادكة يشغلون منها ٥١ منصبا.

(2) Lane Poole 260 –62.

الهندوكية القديمة من السنسكريتية إلى الفارسية، لسان العصر بالهندستان، ومن بنيها الرامايانا([1])، ثم المهابهارتا، كتاب الهند القديمة الأقدس، التى يعد قراءة قدر منها مجلبة للرحمة والمغفرة، كما يقرء المسلمون القرآن وأتباع المسيح الإنجيل، وتحوى ربع المليون بيت من الشعر، فى حين لا تعدو إلياذة هو ميروس، نظيرتها عند اليونان القديمة، خمسة وعشرين ألف بيت.

ولم يكتف البادشاه بقراءة هذه الأسفار حتى راح فى سبيل دراساته، يستدعى إليه، فى دار العبادة وفى قصره، شيوخ العقائد من برهمية وبوذية وجينية وويشنية وزرادشتية ونصرانية([2])، ليعرضوا عليه بضاعتهم عله يبلغ إلى علة الفروق بينها حين تكفر كل فرقة أختها وتحرم على أتباعها أن يطاعموا غيرهم أو يخالطوهم.

ولم يكن أكبر، وهو المفكر المسلم الحر، ليحجم عن إعلان إعجابه بما يعرض عليه من نواحى الخير والمبادئ الإنسانية فى هذه العقائد، بل لقد بلغ من تلطفه مع أصحاب هذه الملل وحد به على استمالتهم إليه أن ارتدى مسوح الهنادكة وجرب معهم طقوسهم([3]) وكف عن استخدام الثوم والبصل فى أطمعته وتقديم اللحوم على مائدته.

---

(١) قام المؤرخ بداونى بنقل الرامايانا إلى الفارسية فأتمها فى أربع سنوات، وهى تحوى خمس وعشرين ألف بيت، يتركب كل بيت منها من خمس وستين حرف وبطلها رام جند، وكان مسقط رأسه مدينة أوده. وقد زينت هى والمهابهارتا التى قام فريق من علماء الهنادكة وأدباء المسلمين بنقلها إلى الفارسية بنقوش كبار النقاشين فى بلاط السلطان. منتخب التواريخ ثان ٣٢٠، ٣٣٦.

(٢) نقل الإنجيل إلى الفارسية كذلك الوزير أبى الفضل بن المبارك منتخب التواريخ ٣٦٠

(٣) من ذلك أنه رتل معهم الابتهالات الدينية البرهمية التى زعموا له بأنها تجعل الشمس وفق هواه. ولم تقف تجاربه عند هذا الحد حتى راح يحاول اختبار الفطرة الإنسانية فى أطفال عزلهم بقصره عن الناس بعد أن رتب لهم المراضع، ليعرض عليهم مبادئ الأديان كلها حين يشبوا عن الطوق ويرى ما عسى أن تهديهم إليه فطرتهم. لكنه فشل فى تجربته إذا استبان له بكمهم جميعا بسبب عزلتهم « منتخب التواريخ ثان ٢٨٨ ».

ولقد كان أكبر فى الواقع لا يهتم أبداً بأصناف الطعام، فنشأ منذ صغره على غير ميل إلى تناول اللحم حتى حرمه على نفسه محتجاً بأنه لا يليق بالإنسان أن يجعل من جوفة مقبرة للحيوان، وإن لم يحرمه على رعاياه.

كذلك كان يكن كراهية شديدة للقصابين والصيادين الذين كان يرى فيهم أناساً وقفوا حياتهم على قتل الحيوان(1). هذا كما منع اقتناء الطيور وأطلق ما كان منها حبيس الأقفاص.

ولم يكن أكبر يتناول سوى الماء القراح، وإن كان قد عكف فى شبابه على تناول النبيذ بعض الوقت.

كذلك اجتبى البادشاه اليسوعيين الذين وفدوا إلى بلاطه ليستمع إلى بيان النصرانية من أفواههم لا من بطون كتبهم، فأكرمنهم، وكانت لهم بعوث تبشيرية تنتشر فى مستعمرات البرتغاليين بالهند، حتى حملوا على محمل رغبته فى التنصير ما أظهره من التبجيل والتوقير للإنجيل حين رفعوه إليه، ولأقنومة المسيح وأمه البتول حين أطلعوه عليها، وما كان من رده المهذب عليهم، حين عرضوا عليه الدخول فى ملتهم، فقال لهم بأن الأمور كلها تجرى وفق المشيئة الآلهة. وقد تجاهلوا موقفه منهم حين كانوا يجنحون إلى التحامل على الإسلام فيردهم عن ذلك بما أثر عنه من رفق ولطف.

استمع أكبر إلى هؤلاء جميعاً فى حرية وتسامح دينى مطلق وقت أن كانت أوروبا تجتاحها موجات مدمرة من التعصب، فالكاثوليك كانوا يفتكون بالبروتستانت فى فرنسا، والبروتستانت كانوا يذبحون الكاثوليك فى إنجلترا، ومحاكم التفتيش كانت

---

(1) لا يتفق تحريم اللحوم هنا ومقاطعة الجزارين ومن إليهم بما ادعاه بدوانى من إباحة السلطان لحوم النمرة واقتنائه للخنازير والكلاب بقصره، وقد أفصح هذا المؤرخ عن وجه الحق فى اتهاماته هذه وغيرها بما كان يحز فى نفسه هو ومن كانوا على هواه حين كانوا يرون السلطان يقرب الهنادكة إليه ويعاملهم بالتسامح والتكريم « المصدر السابق ٣١٤ ».

تنكل ببقايا المسلمين واليهود فى إسبانيا، ورجال الكنيسة بإيطاليا كانوا يحرقون بتهمة الهرطقة جمهرة من العلماء تدين لهم المدنية والحضارة الحديثة بالكثير.

والمعروف أن هذا الأمير التيمورى الذى كان يعمل، فى سبيل بلوغ الحقيقة، على استخلاص الحسن من الآراء المختلفة التى قد تنتهى به إلى غايته، هداه تفكيره الفلسفى وبصيرته النفاذة إلى أن يرى الديانات عموماً، بعد إطلاعه عليها، كأنها رموز مختلفة تمثل الأسرار التى تحيط بالكون وأهله. لذا ودلوا أنه استطاع إذابتها فى مذهب جديد يقوم على التوحيد، ويجمع ما فى هذه العقائد من فضائل، ويقضى على الخلاف بينها، ويزيل ما بين الناس من فوارق، ويدعم أخوة الإنسان لأخيه الإنسان ليبلغ بذلك كله إلى قيام التجانس التام فى مجتمع بلاده.

إلا أن مسعاه لم يتكلل بالنجاح فى مؤتمر الأديان الذى عقده فى « عباد تخانه » وحشد له الصفوة من رجال الأديان وشيوخ للعقائد على اختلاف مللهم ونحلهم. ذلك أن هؤلاء الأعلام لم يتبادلوا فيما بينهم إلا أفظع التهم وأفحش الشتائم[1].

وعلى ذلك فقد أدرك أكبر، قبل أن يأتى الفلاسفة المحدثون بزمن طويل ويقرروا على وجه التحقيق، أن المعتقدات مستقلة تمام الاستقلال عن العقل الصرف[2].

وبرغم سخرية البادشاه من هؤلاء جميعاً فقد راح أصحاب كل مذهب وعقيدة يدعيه بدوره لنفسه فى غير تورع ولا استحياء.

أدعاه الزرادشتيون حين وضع علاماتهم على ثيابه، وادعاه الهنادكة حين رأوه يمتنع عن أكل اللحم ويحرم الصيد واستخدام البصل والثوم فى طعامه، ويحض الناس من حوله على ذلك. ونسوا تشدده المطلق فى محاربة عادة الساتى الخاصة بهم – حيث تقبل الإيم التى ليس لها ولد على حرق نفسها مع جثمان

---

(١) اقترح أحد المناظرين، وكان يدعى قطب جليسرى، أن تختبر المسيحية إزاء الإسلام بمحنة النار، وذلك بأن يخوض أحد القساوسة اللهب، فمن خرج منه سالماً كانت فرقته صوت الحق فى الأرض، لكن اليسوعيين رفضوا ذلك وخافوه « منتحب التواريخ ثان ٢٩٩ ».

(٢) اختلال التوازن العالمى لجوستاف لوبون ص ٣٥١.

زوجها – حتى تدخل بنفسه لإنقاذ إحدى النساء الأشراف ومنع عشيرتها من إرغامها على ذلك([1]). كما أباح زواج الأرامل وحض عليه، على خلاف شرائعهم.

وادعاه النصارى حين أشّر وزيره أبا الفضل بترجمة الإنجيل له وأدخل دراسة النصرانية فى تعليم ابنه، ولم يمانع – على حد قولهم – فى تنصير أحد من أهل الهند، على الاختيار. وزعموا أنه، بفضل تعاليمهم، أحال أحد المساجد فى حاضرته إلى أسطبلات للخيل والفيلة، بدعوى الاستعداد للحرب، وأمر بحرق المصاحف وحرم ذكر النبى الأكرم ببلاطه، واقتصر على زوجة واحد، وحرم على أتباعه المسلمين ختان أولادهم الذكور حتى يبلغوا الخامسة عشرة من عمرهم فتكون لهم الخيرة فيما يعتنقونه من الأديان([2]).

وعلى هدى نشأة اللغة الأوردية فى الغالب – وهى مزيج من لغات الفاتحين المسلمين ولغات الهند، نشأت نشوءا غريزيا من اختلاط هؤلاء الشعوب بعضها ببعض، حتى غدت بالكاد لغة الهند القومية – هدت أكبر قريحته، بمعاونة وزيره أبى الفضل وأخيه فيضى، إلى ابتكار مذهب جديد يتألف كل ما هو حسن فى سائر العقائد على وجه يقضى، فيما ظنه، على تناحر الفرق والأديان ويهئ السلام للناس والأمن للدولة.

وهذا المذهب الذى يعرف فى التاريخ باسم « دين إلهى » والذى يقوم على تمجيد الله وينادى بوحدة الوجود ويمتزج فيه التصوف والفلسفة بالعبادات، فيه البادشاه هو الإمام العادل([3]) ظل الله على الأرض، والمجتهد الأكبر، من أطاعة فقد أطاع الله ومن عصاه فقد خسر الدنيا والآخرة.

---

(١) هى ابنة أداى سنغ وأرملة جاى مل أحد أبناء عمومة راجا بهكوان داس من زعماء الهنادكة المقربين من البادشاه. وقد ركب أكبر بنفسه لإنقاذ هذه الأميرة.

(2) Muslim Rule 375 – 81.

(٣) فكرة الإمام العادل هى عند أكبر بتأثير المذهب الشيعى ونظرية المهدى المنتظر حتى اصطنع له تقويما جديدا يبدأ من عام ارتقائه للعرش، وهو ما حدا به كذلك فى الغالب إلى أن يوحى لفريق من المؤرخين وعلى رأسهم مولانا أحمد داود بن قاضى تتا بكتابة « تاريخ ألفى » الذى يضم تاريخ المسلمين وسلاطينهم إلى العام الألف من تاريخ انتقال النبى الأكرم إلى الرفيق الأعلى.

وكان من رسوم هذه العقيدة الجديدة التى رمى أصحابها فيها إلى تمثيل عقائد الهند كافة أحسن تمثيل، أن يقر المؤمن بها باستعداده لتضحية أملاكه وشرفة وحياته وعقيدته فى سبيل البادشاه، وأن يقتصر فى غذائه على النبات، ويمتنع عن تناول اللحم أياما كثيرة مرسومة، ولا يجالس الجزارين والصيادين وغيرهم من قتلة الحيوان، ولا يحبس حيوانا أو طيرا عنده، ويتجنب البصل والثوم، وأن يبذل الصدقات للفقراء والمعوزين.

وكانت تحيتهم فيما بنيهم هى : « الله أكبر » وجوابها: « جل جلاله »(1).

وقرن أكبر إعلانه لمذهبه هذا بإصدار طائفة من التشريعات الاجتماعية المفيدة. فمنع عادة الساتى، وأباح لأرامل الهنادكة الزواج، وحض الناس على الاكتفاء بزوجة واحدة والابتعاد عن البناء بالأقارب الأقربين لما ينجم عن ذلك من ضعف النسل وفتور فى الميل، ومنع زواج الأطفال دون البلوغ(2)، وزواج النساء المتقدمات فى السن بشبان يصغرهن بكثير.

وفرض كذلك عقوبات صارمة على مثيرى الشغب والشجار، كما منع تعاطى الشراب وتداوله، وأمر بعقاب شارب الخمر وبائعها ومشتريها وصانعها وقصر بيعها للتداوى على متجر خاص بمقربة من قصره وجعل به سجلا يثبت به اسم كل مريض يتعاطاها واسم أبيه وجده وترخيص الطبيب له بها(3).

---

(١) لم يقل أحد من المورخين بإدعاء أكبر الألوهية أو النبوة. ومما يذكره بدوانى فى هذا الصدد (منتخب التواريخ ثان ص ٢١٠) – وكان من أشد الناقمين على هذا المذهب الجديد – أن البادشاه رغب عام ٩٨٣هـ فى ضرب عبارة « الله أكبر » على السكه والخاتم الشاهانى، فنصحه أحد رجاله بأن يستبدلها بقوله تعالى : (ولذكر الله أكبر) حتى لا يحمل الأولى على أدعاء الألوهية، فاحتج عليه السلطان بأن كل ما فى الأمر هو موافقة مقتضى الحال فكيف للإنسان أن يرقى إلى إدعاء الألوهية وهو على ما هو عليه من العجز والضعف.

(٢) نص هذا التشريع على أن لا يقل سن الشاب عن ستة عشر عاما والفتاة عن أربعة عشر.

(٣) يرى بدوانى فى هذا الإجراء تنظيما غير مباشر لتعاطى الشراب فحسب وترخيصا مقنعا به، ويغل من فرط تحامله هنا أن صرح بأن النبيذ يدخل لحم الخنزير فى صناعته « منتخب التواريخ ثان ٣٠١ ».

وأمر كذلك بجمع البغايا فى دار تدعى « شيطانبور » أى محلة الشيطان ووكل بهن عاملا خاصا يقدم على شئونهن، ثم اخذ من بعد ذلك يستدعى إليه كل واحدة منهن فيستوضحها عمن أغواها ودفع بها فى طريق الشر والفساد، لينتهى من ذلك إلى قتل كل من ثبتت هذه التهمة عليه.

ولم يكتف بتعميم هذه الدور فى مناطق كثيرة ببلاده حتى أمر بأن يساق إليها كل زوجه يثبت إدمانها على الخصام والشجار مع زوجها.

هذا كما منع من استرقاق أسرى الحرب[1] واختلاط النساء بالرجال فى الأسواق وعند شواطئ الأنهار طلبا للسقى أو الاغتسال.

وأعفى الهنادكة من ضريبة الرءوس ورفع عنهم رسوم الحج[2]، حتى يشعروا بقيام المساواة التامة بينهم وبين مواطنيهم من المسلمين. ولم يكتف بأن يصرح للذين أجبروا فى صباهم على الإسلام أن ينظروا، متى بلغوا سن الرشد، فى البقاء على إسلامهم أو الرجوع إلى دين آبائهم، حتى راح ينادى بحرية الناس جميعا فى تخير ما يروقهم من الأديان والعقائد ويسدى لهم النصح بألا يتعرضوا للذين يخالفونهم فى عقيدتهم بسوء أو أذى، وأن يسلكوا معهم سبيل المودة والرحمة حتى يصلوا وإياهم إلى معرفة الحق.

---

(١) هذا الإجراء يعد، على ضوء ملابسات القرن السادس عشر الميلادى، من أنبل ما شرعه ملك، فضلا عن تحقيقه لهدف من أهداف الإسلام الإنسانية الكبرى فى الدعوة للتحرير وفك الرقاب، ولا ننسى أن الهنادكة كانوا يسقطون عن الأسرى قيمتهم الإنسانية فيسلكونهم فى عداد المنبوذين، هذا ونجد بيان هذه التشريعات جميعا فى الجزء الثالث من آيين أكبرى لأبى الفضل بن المبارك بمواضع عديدة متفرقة منها.

(٢) كان يجبى من الهنادكة رسوم معينة نظير السماح لهم بالحجيج إلى أماكنهم المقدسة وهذه هى التى رفعها أكبر عن كاهلهم – هذا وكان أكبر هو كذلك أول من سير المحمل إلى الأراضى المقدسة.

والحق أن أكبر لم يحاول أن يحمل الناس أبدا على الدخول فى مذهبه الجديد هذا. فلم يلق بالا إلى رفض راجا بهكوان داس وراجا من سنغ[1] الاستجابة إلى دعوته ولا إلى احتجاج قائده عزيز ككا، برغم أنه كان بوسعه - بطبيعة الحال - أن يحمل كثيرا من رجاله على الانتظام فى حزبه.

ولئن التف فريق من الناس حول المذهب الجديد جليا للنفع وطمعا فى اكتساب الحظوة فى الغالب، فإن الفشل التام قد أصاب البادشاه فى مشروعه هذا الذى لم يكن ليقوى أبدا على هدم التقاليد الموروثة، فلبثت الغالبية العظمى على استمساكها بعقائدها ومذاهبها.

ولم تكن حركة أكبر هذه إلا واحدة من المحاولات القوية التى اضطلع بها نفر من المسلمين والهنادكة، من قبله ومن بعده، للتقريب بين الإسلام والهندوكية وتضييق شقة الخلاف بينهما وإحلال التفاهم وتحقق الوحدة بينهما.

وهذه التعاليم التى اضطلع بها كيتانيا، ونانك وكبير، وداراشكوه، ويلاحظ فيها تأثير التوحيد الإسلامى تأثيرا كبيرا، حتى لترى فرقة « السك الهندوكية » تجهر صراحة بتعظيم النبى الأكرم على الخصوص، وتمجيد القرآن الكريم.

وأدت هذه الحركات فى الغالب إلى إضعاف روح التعصب الدينى والعرقى وأوهنت من ضغط نظام الطبقات إلى حد كبير.

وبلغ أكبر بتسامحه الشديد على كل حال إلى كسب ولاء الهنادكة حتى أولئك الذين لم يعتنقوا مذهبه الجديد، واستطاع عموما أن يحقق لبلاده الوحدة السياسية التى كان يهدف إليها ويعمل فى سبيلها[2].

---

(١) كان من رد مان سنغ على البادشاه أنه يعرض حياته دائما للموت فى سبيل السلطان، وأنه على دين الهنادكة، فإذا ما طلب إليه أن يسلم فقد يفعل ذلك، وهو لا يعترف بغير هاتين الملتين على كل حال.

(٢) لم يصرح أكبر فى الواقع بتنكره للإسلام أو خروجه عليه وإن اضطهد جملة من شيوخ المسلمين. ومع ذلك فلا نستطيع أن نقول بتمسكه بدينه، فقد كانت السياسة هى دينه، ووحدة

نظام الدولة : لئن كان أكبر بوصفة البادشاه هو صاحب السلطان المطلق في الدولة الذي يوجه أمورها وفق هواه، إلا أنه سار في حكمه على مقتضى العدل والتسامح المطلق، فنظر إلى رعاياه دون أدنى تفرقة في الدين أو الجنس، فمارسوا جميعا طقوسهم الدينية على اختلاف مللهم ونحلهم في حرية تامة، في الوقت الذي كان فيه ملوك أوروبا ينكلون بأصحاب المذاهب التي تغاير مذاهبهم في المسيحية على ما كان يفعل الأليزابثيون مع كاثوليكي أيرلندا، وأصحاب فيليب الثاني ملك أسبانيا مع البروتستانتيين.

كذلك لم يكن هذا الأمير المغولي ليتردد عن مشاورة رجاله في تصريف شئون الدولة على أحسن وجه يكفل صالح الأهلين، حتى بلغ من حرصه على إسعادهم أن لم يعارض في فروض جديدة عليهم فحسب بل ورفع عنهم كذلك قدرا مما كان يفرض عليهم من قبل.

وهذا السلطان، الذي قيل أنه قد أوتي حظا وافرا من رجاحة العقل حتى صار الموجه الفعلي لكافة المشروعات والإصلاحات التي تمت في عصره، كان يعتمد، أكثر ما يعتمد، في تصريف الأمور على طائفة من كبار الرجال في الدولة وعلى رأسهم وكيل السلطنة، وكان في أول عهده بالحكم بيرم خان قائده ومربيه، ويأتي من بعد الوكيل في المرتبة الوزير أو الديوان وهو القيم على شئون المال في الدولة، وكان يشغل في العادة مركزا كبيرا في الجيش (منصبدار) شأنه في ذلك شأن أصحاب المناصب في الدولة ؛ ويليه مير بخشي وهو الذي يقوم بدفع مرتبات

أهل الهند تحت سلطانه هي عقيدته. وما ذهب إليه السيد أمير علي، العلامة الهندي من أن أكبر « لم يغفل في حياته تعاليم الرسول والأئمة .Islamic Cunlture. Oklober 1927 إنما كان لاستمساكه حقيقة بفضائل الإسلام الكبرى، وإن لم ينف ذلك عنه ورهطه الخوض في بعض مسائل الفروض والعبادات بما يخالف الشرع، فضلا عن تأثره بفكره التناسخ عند الهنود وإعجابه بما تدعوا إليه الويشنوية من إعادة اكتشاف الإنسان لنفسه وإدراك شخصيته خارج الحدود التي تفرضها العرف وترسمها التقاليد الدينية، واقتناعه بآراء البوبانشاد في القول بأن كل إنسان إنما يسمى الكائن الأسمى باسم يلائم وجهة نظره.

الجند والقادة ويشرف على شئون القوات جميعها، ويعد مسئولا بصفة خاصة عن جيش السلطان الخاص. ويأتى من بعده خان سامان وهو صاحب شئون البلاط، وكان يلازم البادشاه فى حله وترحاله ويشرف على شئونه الخاصة جميعها. ثم قاضى القضاة وهو الموكل به شئون العدل وإجرائه وفق الشرع، وأخيرا المحتسب وهو الذى يراقب سلوك الناس ويمنع ممارسة البدع وارتكاب ما ينافى الشرع والآداب عموما.

وإلى جانب هؤلاء الكبار، كان هناك فريق آخر من أصحاب المناصب المهمة، دونهم فى المنزلة، مثل المستوفى، محاسب الدولة الأول، والكتول وهو بمثابة رئيس الشرطة، ومكان يوكل إليه حراسة المدينة فى الليل والبحث عن اللصوص وقطاع الطرق، ومراقبة السكان ورقابة الأسواق، ثم صاحب البريد وأمير العرض الذى يرفع إلى البادشاه الالتماسات والشكاوى.

وبلغ من حرص أكبر على ضمان العدل فى دولته أنه كان ينظر بنفسه فى القضايا الكبرى التى كان على عماله بولايات الدولة أن يبعثوا بها إليه، كما كان يفتح أبواب قصره للناس يوما معلوما فى كل أسبوع ليتلقى منهم تظلماتهم بنفسه أو يتلقاها من ينيبه عنه من ثقاته حين كان يتغيب عن مقره.

وكان صدر الصدور (المفتى) وقاضى القضاة ومساعدوهم يعاونون البادشاه عادة فى الفصل فى ذلك كله وفق قواعد الشرع الشريف، مع مراعاة رسوم الهنادكة وشرائعهم فيما يعرض لهم من مشاكل ويقوم بينهم من خصومات.

وقد ألغى أكبر كثيرا من العقوبات البدنية التى تتنافى مع الإنسانية، كبتر بعض أعضاء البدن، وأمر أن يكون تنفيذ أحكام الإعدام منوطا بمصادقته شخصيا على الحكم.

هذا ولم تكن الدولة الإسلامية فى الهند، قبل عصر أكبر، تعرف التقسيمات الإدارية فى الغالب، اللهم إلا ما ذهب إليه شيرشاه فى هذا الباب من قبل، إذ كان تحديد الإقطاعات رهنا بمشيئة السلطان وحده.

وانتهى أكبر إلى تقسيم أراضى الدولة إلى ولايات « سبه » وكل ولاية إلى عدة مراكز (سركار) وكل مركز إلى جملة دساكر (بركنا).

وكانت هذه الولايات فى أول أمرها اثنتى عشرة، حتى إذا ما فتحت الدكن بلغت خمس عشرة هى : آكرة والله آباد وأوده ودهلى ولاهور والملتان وكابل وآجمير والبنغال وبهار وأحمد آباد ومالوه وموار وخاندش وأحمد نكر(1).

ورأس كل ولاية، فى هذا النظام، يدعى سبهسالار، أى القائد العام، وهو نائب السلطان بها. ولم يكن له أن يدخل فى حرب أو يبرم التحالف والصلح دون مشورة السلطان ورأيه.

وهو المشرف الأول على شئون القوات والقضاء فى إقليمه. وله أن يعين صغار العمال ويقيلهم. ولم يكن له أن يتدخل فى الأمور الشرعية، التى هى من اختصاص الصدر وحده، أو يصدر الحكم بالإعدام دون إذن السلطان نفسه.

ويليه فى المنزلة ثمانية من أصحاب المناصب الكبيرة وهم : الديوان، والصدر، والعامل، والبتخشى، والخزندار، والفوجدار والكتول ووقائع نويس. وبيان وظائفهم هو كالآتى :

الديوان : يناط به شئون المال بالولاية، وهو يلى السباهسالار فى المرتبة. وكان فى أول أمره يعين من قبل أمير الإقليم نفسه، حتى رأى السلطان أن يجعله تابعا له ليكون رقيبا من لدنه على كل ما يصدر عن الحاكم من تصرفات وأفعال، ويحد من سلطانه كذلك إذا لزم الحال.

الصدر : وهو صاحب الشريعة فى الإقليم كله، وكان فى العادة من العلماء أصحاب المهابة، ويأتمر القضاة ورجال العدل بأمره.

العامل : وهو صاحب الخراج، وكان عليه أن ينظم جباية الضرائب ويراقب عماله جميعا فى يقظة تامة وحذر على وجه العدالة، وأن يجرى تقدير خراج الأرض على درجة خصوبتها وجودتها، وأن يعمل على تأمين الناس على أنفسهم

---

(1) انظر آيين أكبرى لأبى الفضل بن المبارك.

وما يملكون، ويطهر الطرق والسبل من اللصوص وقطاع الطرق ويراقب البيع والشراء.

البتخشى : وهو المحاسب الذى يراجع أعمال العمال ورجال الدخولية، ويشترط فيه أن يكون ماهرا فى الحسابات ملما بأصول الخراج ونظمه وأسس الإيرادات والمصروفات، وأن يسجل ذلك كله فى سجلاته بالتفصيل.

الخزندار : وهو صاحب الخزانة الحافظ لأموال الدولة، وعليه أن لا يخرج مالا دون إذن الديوان، مع إيصال بالتسلم، ويثبت ذلك كله فى دفاتره.

الفوجدار : وهو القائد المباشر لقوات الولاية، وعليه أن يعاون السيهسالار فى إقرار السلام فى الإقليم كله، ويعين العمال على تحصيل الضرائب من أهل القرى والد ساكر الذين يمتنعون عن أدائها، على أن يكون ذلك بطلب مكتوب وتصريح من الحاكم، وكان هو الذى يطارد بقواته عصابات اللصوص وقطاع الطرق ويخمد كل عصيان أو فتنة تنشب فى الإقليم.

الكوتول : وهو صاحب الشرطة والمنوط به مراقبة تنفيذ الأوامر والقوانين فى المدن.

وقائع نويس : وهو مسجل الوقائع، وضابط الاتصال بين الحكومة المركزية والولاية والرقيب الذى لا تخفى عليه فى الإقليم كله خافية.

وبواسطة هؤلاء الرقباء كان البادشاه يقف على كل أمر، صغير أو كبير، يجرى فى كافة نواحى دولته المترامية الأطراف. وكان على كل واحد من هؤلاء أن يحيط أمير الإقليم ورجاله علما بما يبلغه من الحوادث والوقائع قبل أن يرفع خبرها وتفصيلها إلى السلطان.

وبرغم أن البادشاه كان قد أحكم نظام الرقابة على عماله جميعا فى مختلف أنحاء دولته فأقام من كبارهم رقباء بعضهم على البعض الآخر، فإن صعوبة المواصلات وترامى المسافات، مع اشتغال الدولة نفسها بالحروب والغزوات

المتواصلة فى الغالب، قد أضعف من جدوى هذا النظام حتى صار حكـــام الأقـــاليم يتصرفون عموما وفق هواهم وعلى مسئوليتهم الخاصة.

وامتــدت إصلاحات أكبر كذلك إلى نظـــام خراج الأرض الذى كان يعد أهـم موارد الخزينة بعــد رفع ضريبة الرءوس عن كاهل الهنادكة وإعفائهم من ضريبـــة الحج.

ولم يكن هذا السلطان هو أول من أجرى ضريبة الأرض على نظـــــام كفـل العدل للمسلمين والهنادكة على السواء، فقد سبقه إلى ذلك شيرشاه سورى؛ وإن كــان خلفاؤه قد عدلوا عنه من بعده فآثروا النهج القديم مع ما كان فيه من إجحــاف بـــالغ الأهلين.

وحين عهد أكبر إلى تدرمل وزير ماليته « ديوان أشرف » بوضع نظام ثابت لخراج الأرض يوفى للدولة حقوقها ولا يضار الأهلون به، عمد هذا الأخــير أولا – على ضوء تجاربه السابقة بالكجرات حين عهد إليه بتنظيم شــئونها – إلـــى مســح أراضى الدولة كلها وبيان ما يجود منها فيزرع على مدار السنة، وما يزرع منـــها مرة واحدة فى العام، وما لا ينبت إلا مرة واحدة فى كل بضعة أعوام، وما يعتمـــد منها فى السقى على الأمطار، وما يقسى منها من الأنهار والينابيع والآبار، وما هـــو فى حكم البور، وما يقع منها فى السهل أو يقوم علـــى ســفوح الجبـــال أو تغطيـــه الأحراش والغابات(١).

حتى إذا تم له ذلك كله ربط الضريبة على متوسط الإنتاج فى عشر ســنوات، على أن يكون للدولة ثلث المحصول نقدا، فى الغالب، بعملة العصر، وكانت دقيقـــة الصــنع مضبوطة الوزن، ما لم يصب الزرع بآفة أو ينقطع المـــاء عــن الأرض فتجدب.

كذلك حاول أكبر جاهدا أن يدرأ عن بلاده خطر المجاعات المروعـــة التـــى كانت تدهمها حين كانت تجدب الأرض بسبب انحباس الأمطار الموســـمية عنـــها.

---

(١) منتخب التواريخ ١٨٩.

فاهتم اهتماما بالغا باستصلاح الأراضى البور، وحض الأهليـن علـى الاشـتغال بالزراعة وتوسيع رقع الأراضى المنزرعة، وأمدهم بمـا يحتاجونـه مـن البـذور ويعاونهم على زيادة إنتاج الأرض.

وكان من ثمرة هذه الجهود أن نعم الناس فى الغالب بحياة طيبة لـم يألفوهـا منذ زمن بعيد، وازدهرت عيشتهم، وصارت الأسعار فى متناول أيديهم جميعا.

وقد اقتبس البريطانيون أغلب نظم أكبر، الحكومية والإداريـة والاقتصاديـة، حين صار إليهم زمام الأمور فى الهند.

وثمة إصلاح آخر بالغ الأهمية أجراه الوزير الهندوكى تدرمل، بتوجيه مـن سلطانه، حين أمر بتحرير سجلات الدولة كلها بالفارسية، لغة المسـلمين الرسـمية بالهند إذ ذاك ؛ فأقبل كثير من عمال الدولة من المسلمين الهنود والهنادكة على تعلـم هذه اللغة، مما أدى إلى رواجها كثيرا([1])، فهى اليوم ثانى لغات العـالم الإسـلامى انتشارا بعد العربية.

ومهد هذا الإجراء لظهور الأوردية المكتوبة، تلك اللغة التى هى مزيج مـن لغات المسلمين ولغات الهند، والتى نشأت نشـوءا غريزيـا مـن صـلات سـكان الهندستان من المسلمين والهنادكة بعضهم ببعض، لتأخذ صورتها الأدبية بعد قليـل وتعم البلاد كلها.

الجيش : جرى سلاطين المسلمين فى الهندستان على الاستعانة فى حروبـهم بما كان يمدهم به أصحاب الاقطاعات من الرجال فى الغالب. وكانت هذه الحشـود، على ضخامة عددها تجهل أساليب القتال وفنونه عموما ولا يتيسر لها فرص المران والتدريب.

حتى إذا ما قضى أكبر على نظام الإقطاع وصارت الأراضـى كلـها ملكـا للدولة، وغدت ولاياتها تحكم بواسطة نواب للسلطان يوليهم شـئونها علـى نظـام مرسوم، رأى أن ينهج فى تنظيم قواته الحربية نهج علاء الدين الخلجى وشيرشـاه

---

(1) Lane Poole 246-66.

سورى من قبل، فتغدو للدولة قوات نظامية دائمة تقوم بدفع أجورها من الخزانة العامة.

وكان من بين هذه القوات من يعمل تحت إمرة البادشاه نفسه فهى بمثابة حرسه الخاص، ومنها من كان يعمل تحت إمرة حكام الولايات. هذا عدا القوات الخاصة التى كان يحتفظ بها أصحاب المناصب الكبرى فى الدولة (المنصبدارية).

وقضى هذا النظام على كثير من مساوئ سابقه، ومنها ما كان يبذله الأمراء عادة من الرشاوى للحصول على إقطاعات واسعة نظير ما يتعهدون به من إمداد السلطان بالجند والمؤن، وما كان يستتبع ذلك من إرهاقهم لسكان الأقطاع وابتزازهم لأقواتهم ومصادرتهم لأموالهم وأملاكهم.

هذا وكانت قوات أكبر المسلحة تتألف من المشاة والمدفعية والفرسان والبحرية.

والمشاة، إذ استثنينا منهم حملة البنادق (بندقجى) وأرباب السيوف (شمشيرباز)، لم يكن لهم فى المعارك شأن يذكر فى الغالب. فعامتهم، على كثرة عددهم، كانوا يضطلعون بخدمة القوة العاملة ونقل المؤن ورعاية الدواب وحراسة المعسكرات ليس غير.

أما سلاح المدفعية، وهو الذى أتى به ظهير الدين بابر إلى الهند على ما ذكرنا من قبل، وعرفه الكجراتيون من بعد ذلك على أيدى البرتغاليين الذين كان لهم مستعمرات بشاطئهم فاستخدموه فى حروبهم مع همايون، فقد كان مناط عناية البادشاه الكبرى حتى كان يشرف على كل شئونه بنفسه. وأغلب خبراء هذا السلاح كانوا من رجال فرغانه ومن العثمانيين ومولدى البرتغاليين بالهند. وبلغ من اهتمام أكبر بهذا السلاح وحدبه على إدخال كل تحسين ممكن عليه، أنه احتال على تيسير استخدام قطعة الثقيلة، التى كانت تستنفد جهود الرجال عند نقلها من مكان إلى آخر، بأن وجه مصانعه إلى صنعها من قطع صغيرة يسهل فكها وتركيبها ويهون حملها ونقلها على جنده.

وأما سلاح الفرسان فكان هو القوة الضاربة الرئيسية فى الجيش، حتى كـان البادشاه يوالى بنفسه التفتيش عليه ويختبر خيوله، وينزل إلـى حظائرهـا ويراقـب تدريب رجاله.

وإلى جانب الفرسان كانت هناك وحدات الفيلة، وقوام كل واحدة منـها كـان يتراوح بين العشرة والثلاثين. وكان كل فيل يحمل اسما خاصا به على العادة التـى لا تزال تجرى بتلك البلاد حتى اليوم.

كذلك عنى أكبر بتدعيم سلاحه البحرى وإن لم يبلغ به إلى درجة الأسـاطيل التى كانت تجـوب أعالى البحار فى عصره على كل حال. وأغلـب سـفنه كـانت تعمل فى أنهار الهندستان وفى حدود موانيه، ومن بينها ما كـان يحمـل المدافـع الخفيفة وآلات الحرب.

وقام، بتشجيع من السلطان وتوجيه منه، عدة مصانع لبنـاء السـفن مختلفـة الأحجام والأشكال فى لاهور وأحمد آباد وكشمير. وكان يعمل علـى هـذه السـفن فريق من مهرة الملاحين الذين كانوا يفدون من ساحل الملبار وكمباى ليلاقوا مـن تقدير البادشاه ما انتهى إلى تقرير رتب لهم نظير رتب الضباط فى جيشـه الـبرى. هذا وتتباين أقوال مؤرخى أكبر فى تحديد عدد قواته، حتى ليذهب بعضهم إلى تقويم الفرسان عنده بأربعمائة ألف والمشاة بما يقرب من أربعمائة ملايين.

والثابت المعروف أن الجيش الذى سار به البادشاه للقضاء على فتنـة أخيـه حكيم خان عند الحدود الشمالية الغربية كان يضم قرابة خمسين ألفاً من الفرسان مـع خمسة آلاف من فيول الحرب وألوف كثيرة من المشاة، وجميعهم كـانوا يتنـاولون مرتباتهم من الخزانة العامة.

ومن الطبيعى أن يتضاعف هذا العدد حين تنضم إليه قوات الولايات وينكمـش إلى ما دون ذلك بكثير أيام السلم.

الحياة الفكرية والثقافية : وقف المؤرخ عبد القادر ابن ملـوك شـاه بدوانـى المجلد الثالث من كتابه « منتخب التواريخ » على ذكر من عاصر أكبر واختلط بـه

من الحكماء والعلماء والفقهاء والمؤرخين والشعراء والأدباء الذين تجاوز عددهم الثلاثمائة.

والواقع أن الهند لم تعرف من قبل أكبر سلطانا مثله اجتمع حوله هذا العدد الكبير من رجال العلم والأدب، واتصلت ندواتهم عنده ولقوا منه كل إجلال وتوقير وتقدير ، حتى بلغ من احترامه لشيخه عبد النبى صدر الصدور مثلا أنه كان يقدم إليه نعليه بنفسه حين يغادر مجلسه . بل إنه حين بلغه مقتل وزيرة الفضل، وكان عالما ومؤرخا كبيرا مشهودا له بسعة الإطلاع وغزارة المعرفة ، أشتد حزنه عليه حتى ودلو كان هو المقتول مكانه . فنوابغ العلماء ، على حد قوله، لا يجود بهم الزمان إلا فى النادر القليل ، بخلاف الملوك وإن صلحوا .

كان من بين كبار المؤرخين الذين عرفهم بلاط أكبر ، المؤرخ محمد قاسم فرشته صاحب التاريخ المعروف باسمه ، وعبد القادر بدوانى سالف الذكر ونظام الدين أحمد صاحب طبقات أكبرى ومحمد عبد الباقى صاحب مآثر رحيمى وكان أبعد هؤلاء ذكرا وأخلدهم صيتا الوزير أبو الفضل بن مبارك العلامى الذى لعب دورا هاما فى توجيه آراء البادشاه الفلسفية ومبادئه المذهبية على السواء . وله كتابان مهمان : أولهما أكبر نامه ، وفيه يستعرض به تاريخ حكم البادشاه كله ، ثم آيين أكبرى الذى يعد ثبتا كاملا لتقاليد الدولة المغولية ورسوم البلاط ونظام الحكومة وقوانينها ، إلى جانب ما يحويه من حديث مفصل عن الهنادكة ورسومهم وعاداتهم وعلومهم .

ولم يكن أبو الفيض فيضى دون أخيه أبى الفضل فى نباهة الذكر . فهذا الشاعر لم يكن له نظير فى عصره ، حتى كتب فى المثنوى والديوان أكثر من عشرين ألف بيت ، كما كان على نبوغ كبير فى الكتابة والفقه ثم الطب الذى بلغ من شغفه به أن أوقف علمه به على علاج الناس بالمجان . وترك هذا العالم من بعده مكتبة كبيرة ضمت قرابة خمسة آلاف مجلد من النوادر فى الشعر والطب والفلك والموسيقى والرياضيات والفلسفة والحديث . وقد نقلت جميعها ، على أثر وفاته إلى البلاط بعد تصنيفها[1] .

---

(١) بدوانى منتخب التواريخ ثالث ٣٠٥

وإلى جانب فيضى ، اشتهر الشاعران الهند وكيان تنسى داس وسورداس اللذان كانا يجيدان النظم فى الفارسية والسنسكريتية معا .

ولا أدل على عظيم عناية أكبر بالفنون الجميلة من مخلفات عصره الفنية الرائعة التى يزدان بها كثير من متاحف العالم الكبرى اليوم . ولقد وفد إلى بلاطه جملة من مشاهير النقاشين الفرس وعلى رأسهم ميرسيد على وعبد الصمد فلقوا عنده كل عناية وتشجيع .

ودفع بأكبر ولعه بهذه الفنون إلى أن يأمر بإقامة معرض للنقش مرة فى كل أسبوع تشجيعًا منه للفنانين وتشحيذًا لهممهم وإغراء لمشاهيرهم بالقدوم إلى بلاده .

ولم يغفل أكبر بدوره كذلك عن تشجيع فنانى الهنادكة حتى نشأ من بينهم طبقة فذة غدت تنافس نقاشى المسلمين فى أكثر من ناحية[1] .

ولا يستغرب ذلك كله من عاهل أوتى من الأحاسيس الفنية مع جعله يصرح بأن التصوير هو ضرب من العبادة ، وأن للفنان ، فيما يبدو ، طريقته الخاصة للإقرار بواحدانية الخالق المبدع . فهو حين يصور الكائنات الحية وينقش أعضائها وأطرافها وملامحها على لوحته ، لا بد وأن ينصرف بذهنه وخياله إلى التفكير فى إبداع خالقها الذى نفخ فيها بما يعجز هو عن تصويره وإبرازه .

وقد تخلف عن فنانيه لوحات كثيرة سجلت حياة البلاط ورسومه وكثيرًا من مظاهر المجتمع لعصره فى إبداع منقطع النظير .

ومدرسة النقش المغولية التى وضع أسسها أكبر لها اليوم صيتها الذائع فى عالم الفنون على كل حال .

كذلك كانت مصانعة تخرج طرفًا من النسيج المزركش والسجاد الفاخر المحلى بمختلف النقوش والألوان .

---

(1) Laurence Binyou: The Court Painters of the Grand Moghul, Oxford 1921.

ولم تكن عناية أكبر بالموسيقى دون عنايته بالتصوير والنقش وما تزال الأنغام المغولية وألحانها لها سوق رائجة بالهند حتى اليوم .

أما العمارة الهندية الإسلامية التى تعد بحق من مبتكرات العصر الأكبرى ففى القصور والمساجد والحمامات وغيرها من المنشآت ، بمدينة فتحبور على الخصوص ، ما يعد من بين خير نماذجها التى تجلت رائعة فيما بعد فى مثوى تاج محل بآكرا الذى يعد من بين عجائب الدنيا .

وفنون الهند هى جملة ، باعتراف المؤرخين الأوروبيين ، لم تكن فى عصر أكبر دون فنون أوروبا منزلة إن لم تتفوق عليها فى بعض نواحيها([1]) ابتلى أكبر فى أواخر أيامه بكوارث عائلية حطمت من قوته النفسية وهدت من كيانه . من ذلك فقده لولديه مراد ودانيل على التوالى بإدمانهما على الشراب ، وعقوق ابنه الأكبر سليم وعصيانه له حتى دبر مقتل الوزير العالم أبى الفضل بن المبارك أعظم خلصاء البادشاه وأكبر مستشاريه([2]) .

وأشتد الداء على أكبر عام ١٠١٤هـ/١٦٠٥م فأسلم روحه إلى بارئها فى جمادى الآخر من العام نفسه .

وحاول الخان الأعظم عزيز ككا ومعه الأمير الهندوكى راجا من سنغ ، والبادشاه فى أيامه الأخيرة ، أن يمهدا للمناداة بالأمير خسرو ابن سليم وحفيد أكبر سلطانا على الهند بدلا من أبيه الذى أدى ببغيه إلى تمكن كراهيته من قلوب الكثيرين . لكن تدبير هما باء بالفشل حين قدم سليم إلى أبيه وهو فى النزع فقلد سيف همايون وعمامته وعهد إليه من بعده([3]) .

ولم يكن أكبربهى الطلعة ، وإنما كان قوى البنية مقداما شجاعا ، لم يتقاعس أبدا عن مشاركة جنده فى أعنف المعارك أو يتردد فى مواجهة أضرى النمرة

---

(1) V. A. Smith, History of Fine Aris in India and Ceylon Oxford 1930.

(٢) تكملة أكبر نامة لعناية الله ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٣

(٣) وقايعى « حالات » أسعد بك قزويتى ١٦٩ – ١٧١

والأسود والفيلة وأشدها شراسة فى المصطاد ، كما كان يستخف بأربعين ميلا مشيها فى اليوم الواحد ، ويندفع بحصانة فى مجرى الكنج إبان موسم الأمطار والفيضان وسيوله الجارفة .

كذلك كان أكبر شديد البر بالناس عظيم الإحسان إلى الطبقات الفقيرة خصوصًا ، حتى جاوزت رحمته بهم كل مدى وشملهم عدله إلى أبعد حد .

ومن تواضعه أنه كان يتقبل من أهل الطبقات الدنيا هدايا هم البسيطة التافهة بنفسه ويضمها إلى صدره ممتنا ، مع أنه كان لا يكترث بهدايا الأمراء والأعيان([1]).

وكان إلى جانب نظافته الشديدة ، بسيط الثياب فى الغالب ، فلم يكن يميل كثيرًا إلى التحلى بالجواهر ، غير كلف بأنواع المآكل والمشارب . ولقد أقلع فى كهولته عن تناول الشراب ، ولكنه ظل طوال حياته مدمنا على تعاطى معجون الأفيون ، وهى رذيلة ظلت تتمكن من كثير من سلاطين الهند وفارس وتركيا أمدا طويلاً([2]) لتوردهم موارد الردى فى سن مبكرة فى الغالب .

هذا وكان أكبر طموحًا يستمتع بصفات عقلية ممتازة يسرت له أن يقضى وقتًا مرسومًا فى النظر إلى شئون الدولة وما تقتضيه نظمها من ضروب الإصلاحات التى كان يجيش بها صدره ، لينصرف من بعد ذلك إلى الجلوس إلى طوائف العلماء والحكماء الذين كانوا يفدون إليه من كل أمة على اختلاف مذاهبهم ومللهم ، حتى شهدت الهند فى عصره نهضة عقلية رائعة لم تكن تقل عن نظيرتها بأوروبا إذ ذاك .

---

(١) الهند وجيرانها ١٣٧

(٢) جرب البادشاه كذلك التدخين وكان التبغ حديث الورود إلى الهند « وقايعى أسعد بك ١٦٥ – ١٦٧ ، وفى هذه الصفحات نقاش طريف بين أسعد بك وطبيب السلطان الذى كان يحذره من الاندفاع وراء تقاليد الأوربيين فى عاداتهم ودن تبصر .

وترك أكبر من بعده لابنه دولة موطدة الأركان تتألف من الشمال الهندى بأكمله مع كابل وكشمير والبنغال وجزء كبير من الدكن . فكان هو أول من انتقل بالبابريين من محاربين وطلاب للمغامرات إلى أصحاب أسرة مالكة عظيمة . ذلك أن بابر ، أول سلاطين المغول فى الهند ، كان قد شغل بحروبه ومغامراته وفتوحه طيلة حياته ، فى حين قضى همايون الشطر الأكبر من عمره فى المنفى يجاهد لاسترداد ملكه الذى كان قد انتزعه منه الأمير الأفغانى شيرشاه سورى ، وطرده من الهند كلها ، ثم كتب الاستقرار على عرش الهند لأبى الفتوح جلال الدين محمد أكبر فتجلت عبقريته فى تنظيم حكومة بلاده على اتساع رقعتها ، حتى كانت طريقته فى الحكم هى التى أذاعت من صيته أكثر مما أذاعته فتوحاته ، فأجمع كثير من المؤرخين على أنه أعظم ملك عرفته الهند ، حتى ليسلك كذلك بين أعاظم الملوك فى التاريخ طرا([1]) .

---

(1) Dunbar, 197 Lane Poole 288.

جهانكيـــر

لـم يكن أكبر، وهو من هـو في رعايتـه للعلم والعلماء، لينسـى لابنـه سليم مقتلـه لوزيره المؤرخ العـالم أبي الفضل بن المبارك. كذلك لم يكن ليروقـه منه ولعه الشديد بالشراب، حتى جال بخاطره يوماً، بتحريض من صديقه رانا مـن سنغ وقائده عزيز ككا، أن يتخطاه بولاية العهد إلى حفيدة خسرو.

وحال دون تحقيق هذا الأمر حسن تدبير هذا الأمير حين قدم إلى أبيه مستتيبا عما بدر منه من عصيان وعقوق في السابق، ليجلس من بعد ذلك على عرش الـهند في آكرا في الثامن من جمادى الثاني عام ١٠١٤هـ/١٦٠٥م باسم السـلطان أبـي المظفر نور الدين محمد جهانكير.

وبرغم ما كان من ميل هذا الأمير للشراب، فقد كان على درجة كبـيرة مـن الثقافة، شغوفاً بالمعرفة التي نشأة أبوه عليها، متشبثا بالتسامح المطلـق الـذي دأب أبوه على غرسه في نفسه وبثه فيه، حتى غدا في ذلك كله صورة مصغـرة لسـلفه أعظم سلاطين الهند المسلمين بلا شبهة.

ودفع جهانكير حرصه البالغ على ضمان إجراء العدل المطلق فـي دولتـه، بالوقوف على شكاوى رعاياه والنظر في تحقيقها بنفسه، إلى أن أمر بمـد سلسـلة العدالة التي ذاع صيتها عنه : « أول ما أمرت به بعد جلوسي على العرش هو مـد سلسلة العدالة لأطلع بنفسي على شكاوى المظلومين من إهمال رجال ديوان العدالـة لأمرهم([1]). وكانت سلسلة من الذهب الخالص تطول ثلاثين ذراعاً، وتتدلـى منـها أجراس سبعة، وتمتد من شرفة البرج السلطاني الخاص بقلعة آكرا لتبلـغ أسـطونا شيدت إليه عند شاطئ جمنة. والغـالب أن سطوة الحكام ونفوذ العمـال كان أقـوى من إرادة السلطان، فلم تحرك هذه السلسلة وتهز أجراسها إلا مرات قليلة.

هذا كما كان في أسفاره ورحلاته الكثيرة لا يني عـن تفقـد أحـوال النـاس والجلوس إليهم وتحقيق مظالمهم بنفسه.

---

(١) واقعات جهانكيري ص ٢٥٨ . وهي تقليد جرى عليه بعض حكام الصين الأقدمين Modern Universal History – vol. VII p.206.

دستور أمل : ودعم جهانكير صنيعة هذا بإصدار « دستور أمل » وهو اثنتا عشرة وصية وجهها إلى عمالة ليسيروا على هديها فى علاقاتهم برعاياه وتدبيرهم لشئون الدولة.

وقد نظم هذا الدستور وظائف الدولة ومناصبها المدنية والعسكرية والدينية على السواء، وفسر شئون الميراث وقوانين الضرائب، ودفع عن كاهل الأهلين ما كانوا يلزمون بدفعه للولاة والعمال من الضرائب ليفيدوا منها لأنفسهم، كما حظر تطبيق العقوبات التى تؤدى إلى جدع الأنف أو قطع الأذن أو بتر أى عضو من أعضاء البدن مهما بلغ عظم ذنب المذنب. كذلك حرم هذا الدستور تعاطى الشراب وصناعته وتجارته، وحض على إقامة دور الشفاء فى كافة أنحاء البلاد وتزويدها بالأطباء، على أن تقوم الدولة بالإنفاق عليها، فتصرف الغذاء والدواء للمرضى بالمجان، وحرم على الولاة والعمال استخدام أقاربهم فى مناصب الولايات أو مصاهرتهم إلى الأهلين دون إذن صريح من السلطان، وحثهم على إضفاء الأمن والطمأنينة على الناس فلا تغتصب أملاكهم أو أموالهم، وأن يكفوهم أخطار اللصوص وقطاع الطرق بتعمير الأرض الخلاء التى يأوى الأشرار عادة إليها، وذلك ببناء الدور والمساجد بها وحفر الآبار فيها فيأنس الناس إليها.

كذلك نظم هذا الدستور مسكوكات الدولة من الذهب والفضة والنحاس وجعل لكل صنف منها علماً مرسوماً(١).

ونهج جهانكير نهج أبيه أكبر فى التشبث بالتسامح المطلق بأزاء رعاياه من الهنادكة على الخصوص فقربهم إليه وفتح لهم باب المناصب الرفيعة فى الدولة.

والثابت أن هذه السياسية قد ساعدت فى كثير من الأحوال على إقرار السلام فى أراضى الدولة المغولية المترامية الأطراف أكثر مما عاونت عليه قواتها العسكرية وآلاتها الحربية. وحين عدل حكام هذه الدولة فيما بعد عن سياسة التسامح هذه التى جرى آباؤهم عليها، أخذت الدولة تتعرض لمتاعب شديدة دفعت بها آخر الأمر فى طريق التفسخ والانهيار.

---

(١) واقعات جهانكيرى ٢٨٤ – ٢٨٧

ولئن كان السلطان قد شمل صديقه راجا برسنغ ديو، قاتل الوزير أبى الفضل، بالكثير من الرعاية، فإنه لم ينس، على كل حال، عبد الرحمن خان خانان ابن الوزير المقتول فرفعه عليا. كما تغاضى كذلك عن فعله القائد عزيز ككا وراجا من سنغ، حين كادا يميلان بأبيه إلى أبعاده عن ولاية العهد، فأجزل عطاءه لهما، وإن لم يغمض عينيه أبدا عن مراقبة سلوكهما وسلوك ابنه خسرو الذى كادا يناديان به مكانه فى السابق.

ثورة الأمير خسرو : ما غدت نوازع الشباب الغض وأطماعه أن تغلبت على خسرو وهو يعلم أن له من بين الكبار فى الدولة ظهراء فى آماله، فانطلق من حصن آكرا، حيث كان أبوه يستبقيه به تحت عينيه، واتجه إلى البنجاب فى بضع مئين من رجاله وقد رفع بنود العصيان.

وانضم إليه فى الطريق بعض صغار القادة ومعهم عبد الرحيم ديوان لاهور الذى اتخذه وزيراً له، كما نقحه كورو أرجونا – زعيم طائفة السك وصاحب جرانث صاحب، أقدس كتبهم – قدراً كبيراً من المال بدوره. حتى إذا ما بلغ لاهور، امتنع دلاور خان أمير البنجاب عليه بها، ليقبل السلطان من بعد ذلك بنفسه فيصده عنها ويوقعه فى أسره ويمثل بمن مالأه فى عصيانه من القادة أشنع تمثيل([1]).

وكان ما دفع بجهانكير إلى خروجه بنفسه عجلا فى أثر ابنه، هو ما خافه من احتمال اتصاله بعدوه راجا من سنغ فى البنغال، أو الآوزبك والفرس عند حدوده الشمالية الغربية فيفتح بذلك باب للمتاعب والأخطار التى لا تحمد عاقبتها.

على انه ارتكب خطأ شنيعاً حين أمر بقتل زعيم السك، كورو، لمده ابنه الثائر بالمال، وكان فى مقدوره أن يلقى بهذا الشيخ فى الحبس حتى يوافيه أجله بسلام، فيتجنب بذلك إثارة عداء طائفة السك الكبيرة القوية التى

---

(١) واقعات ٣٠١ ، ٣٠٢ .

دفعت شهيدها إلى مرتبة القديسين، وراحت تتـــادى علـــى طـــول الزمـــن بالثـــأر لمقتله، فساهمت بعدائها هذا مساهمة فعالـــة فـــى تعجيـــل انـــهيار بنـــاء الدولـــة المغولية حين بدأ الضعف يعتورهـــا([1]).

وكأن الحبس لم يفت فى عضد الأمير خسرو، فما غدا بعد قليل أن اســـتمال إليه نفراً من حراسة ليتآمروا معه على قتل السلطان حتى إذا ما وقـــف جـــهانكير على تدبيرهم، حين بلغ لاهور قادماً من كابل حيـــث كـــان يســـتجم، أمـــر بقتـــل المتآمرين، دون ابنه الذى سملت عيناه وإن ترفق به الكحال حتـــى اســـترد بعـــض بصره بعد قليل. وقد بقى خسرو فى محبســـه حتـــى وافـــاه أجلـــه بـــالدكن عـــام ١٠٣١هـ/١٦٢٢م([2]).

اضطرابات البنغال : أدى اضطراب الأحوال فى النبغال لكثرة توالى الحكـــام عليه وقصر إقامة كل واحد منهم به، إلى أن جمع الأفغان هناك شملهم من جديـــد، فراحوا، بزعامة من يدعى عثمان أفغان، يثيرون القلاقل والفتن، حتى قـــدم إليـــهم القائد مهابت خان فقضى على عصيانهم وأقر الأمور فى هذه البلاد من جديد.

وكان لحسن صنيع جهانكير مع زعماء الثوار فى البنغال، حين عفـــا عنـــهم وقلد بعضهم مناصب فى الدولة، أكبر الأثر فى ركونهم إلى طاعته وتفانيـــهم فـــى خدمته.

وكذلك فعل السلطان مع رانا أمار ســـنغ صـــاحب مـــوار فوصلـــه وابنـــه وبالغ فى إكرامـــهما([3]).

ملك عنبر : كانت الدكن قـــد ظهر بـــها قبيـــل وفـــاة أكـــبر وزيـــر حـــازم وقائد شجاع هو ملك عنبر الحبشى وزير ملـــوك نظـــام شـــاهى أصحـــاب إمـــارة أحمد نكـــر.

---

(1) Prasad, Muslin Rule, p.432.

(٢) انتخابات جهانكيرشاه ٤٤٨ ، ٤٤٩ .

(3) Muslim Rnle pp.445,6.

وقاد هذا الوزير بصيرته النافذة إلى الإفادة من المرهتها الهنادكة وما عرفوا به من شجاعة وتهور فى القتال، فدربهم على حرب العصابات ومعارك الأدغال.

وقد استفحل أمر هذه الطائفة حين بدأ الضعف يدب فى الدولة المغولية فصارت لهم دولة وقوترهيية طفقت تهدد حكام الهند المسلمين تهديداً خطيراً.

وأمكن لهذا القائد الحبشى أن يسترد أغلب الأراضى عند أسيركاه وما حولها، وهى التى قد استولى عليها أكبر ومنعه خروج ابنه سليم عليه من التوغل عند الجنوب منها. حتى إذا ما توال قواد جهانكير على الدكن فصدهم عنها وأرغمهم على الارتداد إلى الكجرات[1]، بعث السلطان بالخان خانان فمهد الأرض بضرب العدو، ليقدم شهزادة خرم من بعد ذلك ويقر الأمور هناك بعد حروب طويلة انتهت بضم أقاليم الدكن الشمالية إلى أراضى الدولة، وإن لم تكسر شوكة الوزير الحبشى ورجاله، حتى تمكن خليفته حميد خان، وكان من بنى جلدته، أن يصرف قادة السلطان عن حربه على قدر كبير من الأموال.

قد أقام السلطان ابنه خرم نائباً له بالدكن ولقبه بشاهجهان وهو اللقب الذى عرف به من بعد ذلك فى التاريخ.

كذلك كتب لجهانكير التوفيق بالاستيلاء على حصن كنجرا الهندوكى الشهير عام ١٠٣١هـ/١٦٢٢م بعد حصار طويل دام أربعة عشر شهراً. وكان قد امتنع من قبل على فيرز تغلق وأكبر نفسه، بل وكل الفاتحين المسلمين منذ ايام محمود الغزنوى الذى تم له اقتحامه فانتهب ما بمعبد نكركت الذى يقع فى نطاقه من أموال وكنوز[2].

---

(١) واقعات ٣٣٣ ، ٣٣٤ .

(٢) واقعات ٣٧٤ ، ٣٧٥ .

ثورة شاهجهان : أدى ضياع قندهار من أيدى الدولة المغولية إلى إثارة حفيظة السلطان على ابنه شاهجهان، بتحريض من زوجته نورجهان، حتى صار الحال إلى خروج الابن على أبيه وجهره بعصيانه له.

ذلك أن هذه المدينة فضلاً عن أهميتها التجارية الكبيرة، حتى كان يمر بها فى العام الواحد ما ينوف على أربعة عشر ألف جمل تحمل البضائع فيما بين الهند وفارس، كانت موقعاً حربياً خطيراً عند حدود الهند الشمالية الغربية، مما حدا ببابر وأولاده من بعده أن يحرصوا على الاحتفاظ بها فى أيديهم.

ولئن كان الفرس قد أكرهتهم بعض الظروف على التخلى عنها إلى حين فإنهم لم يعدلوا أبداً إلى التنازل عن حقهم الثابت فيها أو تغفل عيونهم عنها أبداً. فانتهز الشاه عباس الصفوى فرصة اضطراب الأمور ببلاط الهند عقب وفاة أكبر فزحفت قواته إلى المدينة، فمازال أميرها شاه بك خان ممتنعاً فيها حتى وافته قوات جهانكير فأبعدت هؤلاء الغزاة عنها.

هنالك شرع الشاه الفارسى يلاحق محاولاته الودية عند السلطان الهندى عله يسترد مدينته سلماً. حتى إذا ما أيقن بفضل مساعيه بادر عام ١٠٣٢هـ/١٦٢٢م بضرب الحصار عليها.

وحين طلب جهانكير إلى ابنه شاهجهان أن يبادر بالسير من الدكن إلى قندهار لدفع الفرس عنها، خاف إن هو سار إلى خارج الهند، أن تكيد له زوج أبيه نورجهان فى غيابه، وكانت قد شرعت تحشد جهودها ومعها أخوها آصف خان لحمل السطلان على جعل ولاية العهد للأمير شهريار أصغر أبنائه وزوج ابنتها من زوجها الأول شير افكن، فجهر بعصيانه لأبيه حتى رفض أن يسير إليه جند الدكن حين طالبه بها.

هنالك اهتبلت نورجهان هذه الفرصة التى سنحت لها بذلك، فراحت تحط من قدر الأمير الثائر وتعلى من قدر ختنها أصغر أبناء السلطان حتى عقد له جهانكير لواء حملة قندهار.

وفيما كانت السلطانة منهمكة فى تنفيذ خططها، سقطت قندهار بأيدى الفرس، لتفد من بعد ذلك رسل الشاه الصفوى إلى جهانكير وتؤكد له حق أميرها المتوارث وقومه فى هذه المدينة فيتقبلهم بقبول حسن ويبعث فى أثر قواته يأمرها بالارتداد إليه.

وقوى من جبهة نورجهان أن كان يناصرها فى خططها فريق من كبار القواد والأمراء، وفيهم آصف خان ومهابت خان وبرسنغ بندلا قاتل أبى الفضل ؛ وها هو السلطان نفسه يسير برأيها، وموارد الدولة كلها رهن تصرفها.

واشتبك الخصمان : السلطان وابنه، فى قتال عنيف عند الجنوب من دهلى، حتى إذا ما دارت الدائرة على شاهجهان، فاعتذر ملك عنبر وسلطان غولكونده عن مديد العون له حين أكره على الارتداد إلى الدكن، انطلق إلى أوريسه فتم له من هناك إخضاع البنغال وبهار له. على أن فشله فى الاستيلاء على أوده واله آباد وما تكشف له من تفشى الخيانة بين صفوفه، اضطره إلى الارتداد إلى الدكن من جديد، فرحب به، فى هذه المرة، ملك عنبر الحبشى حتى كاد يشتبك إذ ذاك مع قوات الدولة فى بيجابور.

ووضح لشاهجان آخر الأمر ضعف مركزه بالدكن، فلم يكد يكتب إلى أبيه مستتيبا حتى حملت نورجهان السلطان من فورها على الصفح عن ابنه، على أن يبعث بأبنيه، دارا شكوه وأورنكزيب، وكانا حدثين إذ ذاك، رهائن بدار السلطنة[1].

مهابت خان : لم تكن نورجهان لتذهب هذا المذهب فى حمل السلطان على الاستجابة إلى ضراعة ابنه الأكبر لولا ما بدالها من أخطار تهدد بالقضاء المبرم على خطتها وهدفها الأكبر فى الحصول على البيعة لختنها شهريار.

ذلك أن مهابت خان، وهو ذلكم القائد القدير الذى تم على يديه إقرار الأمور بالبنغال ودحر قوات شاهجهان من بعد ذلك، ضاق ذرعا بنورجهان التى غدت تسيطر بنفوذها على شئون الدولة والتى أدى بها غرورها إلى الحط من أقدار كبار

(١) تتمة واقعات ٣٩٦ .

الرجال، فانطلق يدعو لأخذ البيعة لبرويز ثانى أبناء السلطان، وكان طـوع يمينـه، ليضمن بذلك خلاص الأمر له مستقبلاً.

وأدى غلو السلطان، بتحريض من زوجته، فى اضطهاد ابنه وقائده حين أمـر الأول بالسير إلى الدكن والثانى بالتوجه إلى النبغال، إلى أن فر الاثنان مـن عنـده وخرجا عن طاعته.

وما غدا مهابت خان أن كمن للسلطان. وهو فى طريقه من لاهور إلى كـابل قادماً من كشمير، فنقط عليه فى خمسة آلاف من محاربى الراجبوتيين الأشداء عند نهر جهلم رافد السند، وأوقعه فى أسره(١). ولم تفلح نورجهان أول الأمر فـى فـك أسر زوجها، فباءت قواتها بالهزيمة وسقطت وأخاها بدورهما فى الأسـر، لتصـل بدهائها وحيلتها من بعد ذلك إلى الإيقاع بمهابت خان وهو يسير فى حفنة قليلة مـن رجاله، حتى لم يتمكن من الخلاص إلا بشق الأنفس فهرب إلى الدكن.

هذا وكان شاهجهان قد سارع بدوره لنجدة أبيه حين علم بوقوعه فى الأسـر، فلم يبلغ السند حتى وافته رسل نورجهان تنبئـه بمـا أشـاعه خـبر مقدمـة مـن الاضطراب فى صفوف مهابت خان، حتى تم لهم الخلاص مما وقعوا فيه، وتشـير إليه بالارتداد سريعاً إلى الدكن لإقرار الأمور فيها(٢).

نورجهـان : هذه السـيدة، التى صارت صاحبه السلطان فى الهند فى عـهد جهانكير، هى ابنة تاجر فارسى يدعى ميرزا غياث ساقته الأقدار إلى بـلاط أكـبر فولى ديوان كابل واضطلع به فى مقدرة فائقة. وما غدت ابنته هذه، وكانت تدعـى مهر النساء أن بنى بها مغامر فارسى آخر يدعى على قلى استاجلوا ويشتهر كذلـك باسـم شيرا فكن، وكان قد قدم الملتان فالتقى بالخان خانـان الـذى ألحقـه بـأحد المناصب فى الجيش.

---

(١) إقبال نامة جهانكيرى ٢٥٧ .

(٢) مآثر جهانكيرى ٤٤ – ٤٤٥ .

وصحب على قلى هذا الأمير سليم (جهانكير) حين سيره أبوه أكـبر لقتـال رانا مور، ولبث معه كذلك بعض الوقت بالدكن ؛ حتى إذا ما خرج الأمـير علـى أبيه، كان ذلك القائد الفارسي من بين الذين تخلوا عنه من القـادة وتركوا معسكره.

وحين ولي جهانكير العرش، فتناسى لكل رجال أبيه السابقين ما كـانوا قـد ارتكبوه في حقه وشملهم جميعاً ببره، عهد إلى شيرا فكن بدوره بأحد المناصب فـي البنغال ؛ حتى إذا ما استراب في اتصاله بعصاة الأفغان هناك، فبعـث إلـى نائبـه البنغالي قطب الدين يأمره بتسييره إليه، اهتبل هذا القـائد فرصـة انفـراده بحـاكم البنغال فهوى عليه بسيفه حتى كاد يقضي عليه، لولا أن أسرع إليه حـرس قطـب الدين فمزقوه إرباً بسيوفهم وأنقذوا أميرهم.

وسيرت أرملة شيرا فكن عقب ذلك إلى البلاط فلبثت به سنوات أربـع حتـى بنى بها جهانكير عام ١٠٢٠هـ/١٦١١م.

وما تقوله الرواية عن غرام السلطان بهذه السيدة منذ أن رآها بالدكن أيام أبيه – حيث كان زوجها يسير في حاشيته، حتى انتهى إلى تدبير مقتل زوجها بالبنغـال لتخلص له – قد يجد له سنداً في حملة السلطان نفسه ومؤرخيه على شـيرا فكـن، حين يصفوه بأنه كان مجرد ساق عند الشاه الصفوي إسماعيل الثاني، وأنـه سـار سيرة أهل البغي والفساد في البنغال(1).

ولعل بناء جهانكير بهذه السيدة، بعد أن تركها تقيم سنوات أربع في حرم أمه، إنما كان في الغالب لينسى الناس قصتها ولتخف لوعتها على زوجها وما لقيه مـن مصير أليم. وأيا ما كانت حقيقة المسألة، فإن هذه السيدة التي كانت لا تـزال علـى جمـال فائق برغم بلوغها الرابعة والثلاثين من عمرها حين بنى بها السلطان، قـد أوتيت من قوة الشخصية وحدة الذكاء ورجاحة العقل ما يسر لها أن تغدو صاحبـة الكلمة الأولى في الدولة حتى خضع لمشيئتها السـلطان والقـادة وتقبلـوا جميعـاً مشورتها بأحسن القبول. ولا أدل على دهائها وسعة حيلتـها مـن نجـاحها فـي

---

(١) إقبال نامة ٤٠٢ ، ٤٠٥ .

تخليص نفسها وزوجها من أسر القائد مهابت خان والإيقاع بـه بـدوره علـى مـا فصلناه من قبل.

واشتهرت هذه السيدة كذلك بقوتها البدنية الفائقة وشـجاعتها الخارقـة حتـى أنبرت لصراع أشد الكواسرفتكا، كما كان لها مشاركة فى الدراسات الأدبية وتفنـن ذائع فى تصميم الأزياء ونقوش الجواهر والحلى[1].

ولقد كان حرياً بنورجهان أن تقصر جهودها على وجوه الخير التـى حققـت الكثير منها، حتى نهضت بالمرأة الهنديـة ورفعت الكثيرات من الفتيات الفقـيرات على الزواج. فقد جرها ما صار لها من بالغ النفوذ على زوجـها، حتـى ضربـت السكة باسميهما[2] وذيلت مراسيم الدولة بخاتميهما جنباً إلى جنب، إلى أن طفقـت، بوحى من أطماعها، تعمل لحمل السلطان على البيعة لأصغر أولاده وختنها الأمـر شهريار، فأثارت بذلك ثائرة شاهجهان، صاحب الحق الأول فى ولاية العهد، حتـى جهر بالخروج على أبيه. نهجه ونهج كذلك طائفة من كبار رجال الدولة حيـن رأوا هذه السيدة تعمد، بدافع من غرورها وكبريائها، إلى محاولة النيـل مـن أقدارهـم، لتزعزع هذه الدسائس والفتن كلها من بناء الدولة وتعوق من إقرار الأمور فيها مـن بعد ذلك.

وساعد على إطلاق يد نورجهان فى تصريف شئون الدولة، فضلاً عن ولـه جهانكير بها، ما كان من إدمانه على الشراب، الذى قضى على أخويه وهمـا فـى ميعة الشباب من قبل، وتعاطيه للأفيون، حتى قضـى فـى ٢٨ صفـر مـن عـام ١٠٣٧هـ/١٦٢٧م، والكأس فى يده، بعد أن حكم اثنين وعشرين عاماً.

شخصية جهانكير : لولا محنة الشراب التى ابتلى بها جهانكير لأفادت الـهند منه خيراً كثيراً.

---

(1) Muslim Rule 411.

(2) Lane. Poole 317.

فلقد كان لهذا السلطان الكثير من صفات أبيه الغالية التى أرادها له حين حرص على تزويده بالكثير من العلم والمعرفة والفضائل، فنهج نهج التسامح المطلق فى حكمة وقرب إليه المسلمين والهنادكة على السواء، ولاطف الأوربيين ومبشريهم حين قدموا إليه.

هذا، كما كان له مشاركة كبيرة فى الدراسات الأدبية والتاريخية، وإلمام واسع بعلوم الحيوانات والنبات خاصة، وشغف بالغ بالحدائق وتنسيقها بل وبتزويدها بكل نبت جديد، مما لم تكن تعرفه الهند، على ما كان يفعله جده بابر من قبل.

ويلغ من رسوخ قدم جهانكير فى الفنون الجميلة وبخاصة فى فن النقش والتصوير، أنه كان فى مقدوره أن يميز نقوش كل فنان بخصائصه، فى سهولة ويسر، حتى عند ما يشترك جملة منهم فى نقش واحد([1]) . وحين كان يعرض عليه زواره من الأوربيين صور ملوكهم وأمرائهم، كان يأمر نقاشيه بنقلها، تواً، ليزين بها جدران بلاطه.

وقد كتب بدوره سيرته على غرار ما فعل آباؤه فى الغالب، وضمنها الكثير من أعماله ومشاهداته. ويؤكد صادق روايته عموما، ما كتبه معاصروه من الأوربيين عن هذه البلاد حين زاروها([2]).

البريطانيون عند جهانكير : أدى ما أذاعه البرتغاليون بأوروبا عن مبلغ ثراء الهند الطائل، وما كانوا يرونه من كرم حكامها وترحيبهم بالمسيحيين وملاطفتهم لهم، أن قصد هذه الأرض فى القرن السابع عشر الميلادى نفر من التجار الهولنديين والبريطانيين والفرنسيين ليبغى كل واحد منهم لأمته قدراً من الامتيازات ظاهرها التجارة وباطنها وهدفها الاستعمار.

وسبق البرتغاليون الأوروبيون جميعاً إلى الهند على ما فصلناه من قبل، ثم جاء الهولنديون فى أثرهم، وكان لهم نشاط تجارى ملحوظ فى جزر الهند الشرقية،

---

(١) واقعات ٣٥٩ ، ٣٦٠ .

(2) Muslim Rule 462 – 72 Morland, India 231.

وفى جاوه وبتافيا على الخصوص، فنجحوا فى إقامة بعض مصانع لهم بسورات بالكجرات وعند شواطئ فيايانكر وغولكونده الشرقية، ودعموها بالحصون لتقف فى وجه منافسيهم من البرتغاليين الذين كان لهم عند دولة المغول مقام حميد. ومازالوا يجدو فى نشر أسواقهم بالهند حتى بلغوا بها آكرا نفسها([1]).

واقتفى البريطانيون أثر الهولنديين فى غزو الأسواق الآسيوية والهندية بخاصة. وجاء منهم إلى الهند عام ١٦٠٨م وليم هو كنز، فان أول بريطانى يظهر فى آكرا ويلتقى بالسلطان. وحين عرض على جها نكير رسالة من مليكه جيمس الأول يرجوه فيه تيسير أمور التجارة الإنجليزية ببلاده، احتفى به السلطان أول الأمر احتفاء كثيراً حتى أذن له بمشاركته مجالس شرابه. وبقى عنده فترة من الزمن، حتى بلغ البرتغاليون بدسائسهم إلى تنفيره منه، فرجع إلى بلاده دون أن يحقق غرضه على الوجه الذى ابتغاه. وكان مما ألقاه هؤلاء إلى السلطان فى شأنه أنه لا يعدو أن يكون رسول ملك صغير على جزيرة صغيرة تدعى إنجلترا، أغلب سكانها من صيادى الأسماك([2]).

ومهد ازدياد النفرة بين حكام الكجرات والبرتغاليين ومبشريهم، إلى الترحيب بتوماس رو مبعوث ملك الإنجليز حين وفد إلى هناك من بعد ذلك عام ١٦١٥م، فاستطاع بلباقته وحزمه وما جلبه معه من الطرف والجواهر والحلى وما قدمه لرجال الدولة من الهدايا الفاخرة، أن يبلغ عند السلطان مكانة ملحوظة ويصل إلى ما يريد. فثبتت شركة الهند الشرقية البريطانية أقدامها فى أماكن عدة وصار لها مصانع فى سورات وعند ساحل كوروماندو، وغولكونده وإلى الجنوب من مدارس.

وقد وصف هذا السفير وسلفه، سلطان المغول الهندى وبلاطه وما كان له من أبهة بالغة كما تحدثا عن نظام حكومته وجيشه وتقاليد القوم ورواجَ الثقافة عندهم.

---

(1)Dunbnr, Indin 220.

(2) Lane Poole , 253 – 302.

هذا، وكان التجار الأوربيون يحرصون عموماً على أن يجلبوا إلى الهند كل طريف من منتجات بلادهم ويغمروا أسواقها بالكماليات وأدوات الزينة التى كان الناس هناك يكلفون بها كلفاً شديداً ويتهافتون عليها تهافتاً عظيماً، ليأخذوا منهم فى نظيرها المواد الأولية والبهار والقطن والنيلة، فيجنون من مقايضاتهم هذه أرباحاً طائلة وغنما وفيرة. وكانت هذه المقايضات تجرى فى الغالب فى موانئ بروج وسورات وكمباى وقاليقوط ثم فى كلكتا من بعد ذلك([1]).

وكان مما يسر للبريطانيين على الخصوص غزو أسواق الهند، خلو جالياتهم أول الأمر من المبشرين وحرصهم على تجنب التدخل فى شئون الناس وتظاهرهم بالمودة والمداهنة لهم

وأدى تعرض البرتغاليين لبعض السفن التى كانت تحمل بضائع برسم السلطان، مع نفور الناس منهم، إلى أن أغرى جهانكير البريطانيين بقتالهم، بعد أن طردهم من بلاطه، فنزلت بهم فى البحر ضربات قاصمة.

وكسب التجار البريطانيين بصنيعهم هذا امتيازات أخرى مازالت تزداد على مر الزمن، وما غدوا يدعمونها بالخبث والدهاء ويثبتونها بالغدر والخيانة حتى وضعت بريطانيا أيديها على شبه القارة الهندية كلها .

(1) Dunlar 231.

شاهجهان

حين مات جهانكير سارع آصف خان بإنباء صهرة شاهجهان بالدكن بالخبر، ثم عمد من فوره إلى إخراج داور بخش، حفيد السلطان الراحل من ابنه خسرو، من محبسه وأجلسه على العرش، ليتقى بهذا الإجراء المؤقت ما عساه أن يحدث من اضطراب الأمور فى المدينة، حتى يتأت له تخليص أولاد شاهجهان، محمد دار اشكوه، وشاه شجاع، وأورنكزيب، وكانوا جميعاً يقيمون عند نورجهان([1]) منذ أن بعث بهم أبوهم رهائن فى دار السلطنة.

ولم تكن نورجهان لترضى بما ذهب إليه أخوه آصف فحرضت ختنها الأمير شهريار على أن ينادى بنفسه فى لاهور، قصبة البنجاب، سلطانا على الهند. وظاهره على هذا الأمر أمير من أولاد عمه دانيل، ليسارع إليه من بعد ذلك آصف خان بنفسه ويقتحم المدينة عليه ويلقى به فى الحبس بعد أن سملت عيناه.

وتناهر خبر ذلك كله إلى شاهجهان، وما يبرح الدكن بعد فكتب فى التو إلى صهره آصف خان يحرضه على القضاء على منافسيه جميعا، فكان لتنفيذه كل ما رغب فيه زوج ابنته أكبر الأثر فى ارتفاع مكانته عنده وازدياد نفوذه فى البلاط بالتالى، حتى صار وزير السلطان الأول ولقب بيمين الدولة. ولم تكتب النجاة من مذبحة آصف خان تلك إلا لداور بخش فلاذ ببلاد فارس حتى أواخر أيامه.

هنالك لم تملك نورجهان بإزاء ذلك كله إلا أن تعتزل الحياة العامة. وقد تناسى لها السلطان الجديد كل ما كان لها معه من عداء وأجرى عليها رزقا حسنا. حتى وأفاها أجلها بلا هور عام ١٠٥٥هـ/١٦٤٥م فثويت إلى جوار زوجها جهانكير ببستان دلكشا بظاهر قصبة البنجاب.

ولد شاهجهان عام ١٠٠٠هـ/١٥٩٢م، من أم هندوكية – كأبيه – هى ابنه رانا مروار. وهو ثالث أبناء جهانكير وأقدرهم جميعا، اتصف برجاحة العقل والذكاء وقوة العزيمة حتى كان جده أكبر شديد الاعتزاز به كثير الحدب عليه. وقد

---

(١) باد شاهنامه ص ٥.

عرف دون سائر أمراء أسرته السابقين بعزوفه، فى الغالب، عن مقاربة الشراب مع مجانبته اللهو والعبث. وكفلت له صفاته العالية هذه ثقة أبيه فيه دون أخويه : خسرو، الذى عمد إلى عقوقه له منذ صغره، وبرويز الذى لازمته العلل وضعف الإدراك منذ ولادته، وكان كلاهما يدمن الشراب فقضيا به فى حياة أبيهما.

وزاد من قدر هذا الأمير عند أبيه ما أظهره من مقدرة وكفاءة فى حرب الراجبوتيين عند موار، وما أبداه من حنكة ودراية حين أرغم ملك عنبر الحبشى على قبول شروطه بعد ما أنزله من الهزائم المتكررة بقوات الدولة، فأنعم عليه بلقب شاهجهان وعهد إليه بإدارة حكومة الدكن. حتى إذا ماتوجست نورجهان الخيفة من علو شأنه فخشيت أن يطغى بنفوذه على سلطانها، راحت توقع بالدس، بينه وبين أبيه، فما غدا أن رفض السير إلى قندهار حين طلب إليه أبوه ذلك، وكان قد بلغه ما تدبره زوج أبيه لحمل السلطان فى غيبته على البيعة إلى ختنها أصغر الأمراء شهريار – لينتهى به الحال من بعد ذلك إلى الجهر بعصيان طال أمده حتى عادت المياه بينهما إلى مجاريها من جديد على الوجه الذى فصلناه من قبل.

وحين دخل جهانكير فى النزع، تدبر آصف خان الموقف، على ضوء مصالحه الخاصة، فى روية وحذر، فآثر أن يقف إلى جانب ختنه القوى الرشيد شاهجهان معرضاً عن أخته نورجهان وختنها شهريار، ليصل من بعد ذلك – وفق ما قدر ودبر – عند السلطان الجديد إلى أعلا المناصب ويصير له بالدولة شأن وأى شأن.

ممتاز محل : بنى شاهجهان عام ١٠٢١هـ/١٦١٣م وهو فى صدر شبابه بأرجمند بانوبيكم ابنه آصف خان وهى التى تشتهر فى التاريخ باسم ممتاز محل أو سيدة التاج.

وهذه السيدة، التى حرص أبوها على تنشأتها تنشئه طيبة وتزويدها بالعلوم والآداب منذ صغرها، كانت على جمال فاتن وخلق نبيل وصفات عالية أدت بها إلى ملازمة زوجها فى كل المحن التى مرت به، إبان خلافه مع أبيه وحروبه معه. فى

وفاء وإخلاص قل نظيره. وحين رقى زوجها العرش صارت لـــه خـير ناصحـة ومرشدة فلم يبد منها أبدا ما كان من شأنه أن يغضب رجال الدولة أو يثـير ثـائرة القادة، وإن أخذ عليها بعض المؤرخين دفع زوجها، بوازع من تقواها وروعها، إلـى العدول بعض الشئ عن التسامح المطلق الذى كان يصطنعه آباؤه بـأزاء الهنادكـة والمبشرين المسيحيين. ولعل شاهجهان إنما منع، بوحى منها كذلك، سـجود النـاس للسلطان، على ما كان متبعا منذ أيام أكبر، وعاد بالدولة إلى اتخاذ التقويم الــهجرى فى أعمالها[1]، وحرم التطاول على مقام الخلفاء الراشدين عند شيعة بـلاده، وحـد من بناء معابد جديدة للهنادكة.

ولم يبطر ممتاز محل ما كان لها من نفوذ بالغ وثراء طائل، فكـانت تقيـم على البر بالفقراء والأرامل، وتعين بمالها الفتيات الفقـيرات علـى الـزواج، كمـا وسعت رحمتها كثيرا من المذنبين، حتى كانت تبلغ بتدخلها عند زوجـها إلـى رد حياتهم عليهم فى الغالب، وإعادة أصحاب المناصب منهم إلى مناصبهم[2] الأولى.

ووافاها أجلها عام ١٠٤٠هـ/١٦٣٠م وهى تضع طفلها الرابع عشر، فحـزن عليها زوجها حزنا شديدا، حتى عزف عن كل مباهج الحياة برغم امتداد الأجل بـه من بعدها خمسة وثلاثين عاما. وقد أذاع من صيتها ذلك المثوى الفخـم الذى أقامـه زوجها لها، فكان من آيات وفائه لذكراها. ويعرف هذا الضريح باسم « تاج محل » ويعد بحق من بين روائع الفن المعمارى فى الدنيا.

ثورات الدكن : تعرض شاهجهان فى بداية حكمه لبعض ثورات فـى الدكـن كان منها ثورة راجا ججهار سنغ فى بند لخاند. ذلك أن هذا الأمير الهندوكى كـان قـد ورث عن أبيه برمن سنغ، قاتل أبى الفضل، أموالا طائلة، فجال بخـاطره أن يناهض الدولة فى قوات أبيه السابقة، وكانت بدورها وفيرة العـدد، حتـى اضطـرّ السلطان أن يسير إليه قائده معابت خان فى سبعة وعشرين ألفا من الفرسان وسـتة آلاف من المشاة، فأرغمه على الاستسلام له، ليعاود عصيانه فى العام التـالى مـن

---

(١) بدلا من التقويم الأول الأكبرى.

(2) Mnslim Bule. P 485.

جديد، وينطلق ينتهب أراضى جيرانه من الهنادكة ولكن خروجه ما غدا أن انتهى به إلى مقتله وولده بكر ما جيت.

وفرغ شاهجهان من هذه الفتنة لتنطلق قواته فى العام الثانى من حكمه فى أثر قائد أبيه السابق خان جهان لودهى حين أشعل بالدكن نيران ثورة ثانية فقد عمد هذا القائد الأفغانى، عقب وفاة جهانكير وقبل بلوغ شاهجهان العاصمة، إلى الزحف إلى ماندو والاستيلاء على مقاليد الحكم فيها. وأطعمه عفو السلطان عنه من بعد ذلك حين ولاه بعض الدكن، فانطلق يعنف بالأهلين ويشتط فى ارتكاب المظالم والجور، ليسير إليه السلطان عندئذ قائديه عبد الله خان، ومظفر خان فما زالا يطاردانه حتى ظفرا به بعد عامين فاورد حتفه([1]).

المجاعة والقحط : لم يفرغ شاهجهان من هذه القلاقل إلا ليواجه محنة القحط الذى اجتاح بلاده فى العام الرابع من حكمه، وذلك بسبب انحباس الأمطار الموسمية التى تعتمد عليها الهند فى السقى والرى، فإنجاب عن مجاعة بشعة بدت أقسى مظاهرها فى الكجرات والدكن، وزاد من سوء الحال انتشار الأوبئة الفتاكة بين السكان.

وبرغم ما بذله السلطان من جهود جبارة لإغاثة الناس، حتى أمدهم بالكثير من المؤن والأرزاق والأموال وأقام المطاعم المجانية لهم وأعفاهم من أغلب الضرائب المفروضة عليهم، فإن رداءة المواصلات وازدحام الطرق بالمهاجرين قد عوق كثيرًا من بلوغ هذه النجدات أهدافها، حتى باع الناس أولادهم من الإملاق وطعموا الجيف من المخمصة، وغلبهم تعلقهم بالحياة على حبهم لأولادهم حتى كان منهم من ذبح ولده وطعم لحمه([2])، وكثيرًا ما سدت الطرق أجداث الألوف من الصرعى، وأقفرت قرى وأحياء بأكملها من ساكنيها.

---

(١) بادشاهنامه س٢٢

(٢) بادشا هنامه ٢٤، ٢٥

البرتغاليون : ضاق شاهجان ذرعا باستبداد التجار البرتغالين عند شواطئ البنغال، إذا انطلقوا يتخطفون الناس هناك قسرا ليبيعوهم فى سوق الرقيق، وفرضوا على السكان مكوسا لحسابهم، حتى عم أذاهم وجورهم أغلب المناطق التى كانوا ينزلون بها عند شواطئ الهند الشرقية والغربية على السواء.

وتفاقم خطر مبشريهم تفاقما خطيرا، فقد جهدوا، فى ظل مواطنيهم هؤلاء، لحمل الأهلين على قبول عقيدتهم قسرا، كما راحوا يتدخلون فى شئون الدولة التى يعيشون فى كنفها ويتآمرون عليها مع التجار الهولنديين وغيرهم من الأوروبيين الذين كانوا يفدون إلى هذه البلاد لامتصاص مواردها، ويشجعون بعض الخارجين على سلطان الدولة من أبنائها على العصيان حتى كتب أسقف جوا البرتغالى نفسه يشكوهم إلى ملكه([1]).

ولم يكن شاهجهان بغافل عن سلوك هؤلاء البرتغاليين الذين أقدموا، إبان محنته مع أبيه، على اختطاف فتاتين من أتباع زوجه ممتاز محل حين نزل على مقربة من محلتهم، فسكت إذ ذاك على مضض ولم ينسها لهم. حتى إذا ما ولى الحكم وفزع الناس إليه من عسفهم بعث من فوره عام ١٠٤٠م/١٦٣١م بقائده قاسم خان([2]). حاكما على البنغال وأمره باقتحام مراكز هؤلاء الطغاة وتشتيتهم.

وبرغم امتناع هؤلاء الدخلاء فى حصون قوية، كانوا قد عمروها بالمدافع وشحنوها بالبنادق والرجال، فقد اقتحم عليهم رجال السلطان أقوى مواقعهم فى هوجلى وخلصوا من أيديهم عشرة آلاف من أهل الهند كانوا معدين للتصدير([3]).

ولم تخسر الدولة فى هذه الحرب أكثر من ألف قتيل، فى حين سقط من أعدائها عشرة آلاف، ووقع فى الأسر أربعة آلاف آخرون منهم، سيقوا إلى آكرا ليختاروا بين اعتناق الإسلام أو الحبس.

---

(1) Muslim Rule 388.

(٢) بادشا هنامه ٣٢ – ٣٥

(٣) منتخب اللباب ٢١٢.

ولئن كان شاهجهان قد عمد بإجرائه هذا مع أسراه إلى أن يسرد الصاع صاعين لمبشرى البرتغاليين(1)، وهو خطأ لم يكن لمثله أن يرتكبه، فهو على كل حال لم يذهب إلى ما ذهب إليه ملوكهم بأوروبا وأسبانيا على الخصوص حين خيروا مسلمى الأندلس بين اعتناق المسيحية أو الموت حرقا. وقد رد السلطان الهندى هؤلاء البرتغاليين آخر الأمر إلى محلتهم على كل حال، وإن لم يستطيعوا أن يعودوا بها إلى سيرتها الأولى من العمران لفرط ما كان قد نزل بها من الدمار.

ولم يتردد البريطانيون، على الخصوص، فى الإفادة من هذه المحنة التى نزلت بأعظم منافسيهم بالهند فبذلوا جهودا كثيرة للتقرب من السلطان والحصول على مزيد من الامتيازات لهم ولقومهم بالتالى.

حروب الدكن : تاق شاهجهان إلى أن يتم الفتوح التى بدأها أبوه وجده من قبل بالدكن والتى شارك هو بنفسه فى بعض منها أيام جهانكير. وشد من عزيمته للمضى فى هذا الأمر، وهو السنى المتمسك بعقيدته، حرصه البالغ على منع انتشار مذهب الشيعة الذى كان بعض سلاطين الدكن قد طفقوا يروجون له فى إماراتهم ويرحبون بأصحابه الفرس، حتى غدت بلادهم مثابة لمناوءة السنيين فى الهند وإثارة الفتن بين السكان.

ولئن قعد بشاهجهان بعض ما اعترض عهده من الأحداث عن المضى بخطته إلى غايته، فقد اضطلع بهذه المهمة ابنه أورنكزيب من بعده، وما زال بها حتى أتمها على خير وجه، فلم تخضع الدكن كلها لسلطان الدولة فحسب، بل لقد أظلت راية المسلمين شبه القارة الهندية كلها من أدناها إلى أقصاها.

هذا ولقد كان من أثر خروج شاهجهان ومهابت خان على طاعة السلطان جهانكير، وما تبع ذلك من أحداث فصلناها فى موضعها، أن ضعف سلطان الدولة فى الدكن، لينتهز أصحاب بيجابور وغولكونده هذه الفرصة فيخلعوا

---

(1) Muslim Rule 489.

عنهم الولاء للسلطان المغولي ويوسعوا، من بعد ذلك، في رقعة أراضيهم على حساب إمارة أحمد نكر التي بقيت على ولائها الأسمي للسلطان.

واستبد بشئون الحكومة في أحمد نكر قائد مراهتهي يدعى شاهجي، حتى صار سلاطين هذه الإمارة ينصبون وفق هواه. وظاهره في استبداده هذا أصحاب بيجابور فراحوا يمدونه بالمال والرجال، فلم ير شاهجهان بازاء ذلك كله إلا أن يخرج بنفسه إلى الدكن، وكان قد طلب إلى أصحاب بيجابور وغولكونده أن يعدلوا عن عدم دفع الخراج لشاهجي ويعترفوا له بسلطانه هو من جديد فلم يستجيبوا له.

وأدى ظهور شاهجهان بالدكن في قواته الكثيفة إلى أن بادر أمير غولكونده بإعلان طاعته له من جديد، وقد تعهد له بمنع سب الخلفاء الراشدين ببلاده، وإجراء الخطبة بالثناء عليهم، والعدول عن الدعاء لشاه الفرس فيها.

وبقي صاحب بيجابور على عصيانه حتى اقتحمت قوات السلطان بلاده ففتكت بأغلب قواته وانتزعت عددا كبيرا من حصونه، ليرضى آخر الأمر بالخضوع ويتعهد بالابتعاد عن القائد المراهتهي شاهجي الذي بادر بمهادنة السلطان بدوره. ولم يرجع شاهجهان من الدكن حتى أقام ابنه أورنكزيب نائبا له هناك عام ١٠٥٤هـ/١٦٣٦م وقد دخلت في حوزته : دولت آباد وأحمد نكر وتلنجانا وخاندش وبرار وهادنه شاهجي([1]).

مكث أورنكزيب بالدكن سنوات ثمانية، حتى إذا لم يستطيع صبرا على ما بلغه من تمكن أخيه الأكبر داراشكواه من قلب أبيه، فصارت أمور الدولة لا تجري إلا وفق مشورته قدم بنفسه إلى العاصمة بدعوى قلقه على صحة أخته جهان آرا، وكانت قد أصيبت بحروق شديدة حتى أشرفت على الموت فلم يجد لها نفعا ما بذله الأطباء من جهود كثيرة لإنقاذ حياتها، لولا ترياق صنعه لها مولى يدعى عارف أزاح به آلامها عنها ورد الحياة إليها. وقد قابل السلطان صنيعه هذا بإغداق الأموال والإنعام عليه.

---

(١) باد شاهنامه ٥٨

بلخ وبدخشان : بسعى الأميرة جهان أرا رضى السلطان عن أورنكزيب من جديد فندبه لحكومة الكجرات فقضى بها عامين اضطلع فيهما بشئونها على خير وجه، حتى وجهة من بعد ذلك إلى بلخ وبدخشان، ليشترك هناك فى حروب عنيفة مع الأوزبك، كان شاهجهان يبغى من ورائها استرداد بلاد ما وراء النهر كلها، موطن آبائه السابقين، التى لم يغفل أحد من سلاطين المغول بالهند عن السعى إلى استرجاعها ما واتتهم الفرصة وتكشف لهم ضعف حكامها.

ولئن أفلح أورنكزيب فى إنزال ضربات قاصمة بالأوزبك، على كثرة عددهم بالقياس إلى قلة قواته، فقد أنسحب آخر الأمر من بلخ بعد أن أجلس على عرشها أحد أحفاد نظر خان حاكمها السابق، على الولاء له، ليفتك الزمهرير بفريق من قواته من بعد ذلك وهى فى طريق العودة وتضيع كل الأموال والجهود التى أنفقتها الدولة فى هذا الغزو هباء([1]).

قندهار : أشرنا من قبل إلى ضياع قندهار من أيدى جهانكير حين رفض ابنه شاهجهان أن يسير إليها لدفع الفرس عنها، إذ كان قد بلغه ما تدبره نورجهان فى الخفاء لحمل زوجها السلطان على البيعة لختنها الأمير شهر يار من بعده.

وحاول شاهجهان عام ١٠٤٧هـ/١٦٣٧م أن يستعيد هذا الإقليم بالمودة من أيدى الأمير الفارسى على مردان، نائب الشاه الصفوى عليه، لكن مسعاه باء بالفشل، حتى إذا ما كتب أمير قندهار إلى سلطانه يسأله إمداده بالجند والعتاد ليقوى بهما على صد قوات الهند عن أراضيه، حمل مطلبه على غير حقيقته فظنه لا يبغى من وراء ذلك إلا تدعيم سلطانه ثم الخروج عن طاعته، فسير إليه قوات كبيرة، لا لتشد من أزره وإنما لتوقعه فى اسرها وتعود به إلى العاصمة.

وحين وقف على مردان على ما كان يدبر له، سارع من فوره بالكتابة إلى حاكم كابل المغولى يستنجد بشاهجهان، لتقبل قوات الهند على المدينة من بعد ذلك فتدخلها ثم تدفع قوات الشاه الفارسى عنها بعد قليل.

---

(١) شاهجهانتامه ٨٢، ٨٣

ولم يسكت الفرس بدورهم على ضياع هذه المدينة من أيديهم. حتى إذا ما رقى الشاه عباس الثانى عرش الصفويين اعتزم الخروج لاستردادها فى شتاء عام ١٠٥٩هـ/١٦٤٩م وهو يعلم أن ثلوج الهند كوش سوف تعوق أى مدد يسارع به سلطان الهند إلى تعزيز حاميتها إبان هذا الفصل.

وصح ما جرى فى حساب الشاه الصفوى. ذلك أن دولت خان، نائب شاهجهان هناك حين بان له تردد دولته فى تسيير الجند إليه إبان فصل الثلوج وكان يلح عليها من قبل هذا لتعزيز قواته فلا يجد لمطلبه سميعا، لم يصبر طويلا على الحصار فاستسلم لأعدائه وهو لا يعلم أنهم بدورهم كانوا على وشك الرحيل عنه لنقص كبير طرأ على مؤنهم، وأن قوات الهند كانت بالفعل فى طريقها.

وجهد شاهجهان من بعد ذلك فى استرداد هذه المدينة عن جديد، فسير إليها نخبة من قواده وقواته وعلى رأسهم ابنه أورنكزيب ووزيره سعد الله خان الذى خلف آصف خان بعد وفاته.

وكان حريا بالسلطان أن يستجيب لأورنكزيب حين طلب إليه أن يأذن له بالسير فى محاولة ثالثة نحو هذه المدينة([1])، وكان قد أمكن له فى حصاريه السابقين لها أن يدرس مواقعها وإمكانيات حاميتها دراسة خبير، حتى كاد أن يتم له دخولها لولا إقبال الشتاء ونفاذ مؤنه، فأدى رفض شاهجهان لطلبه ثم تسييره دارشكوه إليها هذه المرة على قلة درايته وخبرته الحربية. إلى رد قوات الدولة عنها كرة ثالثة وضياع ما بذل لفتحها من أنفس وأموال هباء([2]).

أورنكزيب فى الدكن : عاد أورنكزيب إلى الدكن عام ١٠٦٣هـ/١٦٥٣م بعد غياب دام سنوات ثمانية قضاها فى الكجرات وعند بلخ وقندهار، ليرى حكومتها قد ساءت أحوالها حتى غدت عبئا على الدولة، تستنفد إدارتها كثيرا من أموال بيت المال بدار السلطنة بعد أن كانت تمده فى السابق بخراج وفير. فقد

---

(١) عمل صالح ثان ٥٣٤

(٢) شاهجها نتامه ١٠١، ١٠٢

انصرف حكامها إلى رعاية مصالحهم الخاصة، فأهملوا شأن الزراعة بها وطفقوا يثقلون كاهل الأهلين بما فرضوه عليهم من مكوس لحسابهم حتى هجر الفلاحون أغلب أراضيهم وفروا من قراهم، فأجدبت الحقول وخوت البساتين والحدائق على عروشها. فما غدا، بمعاونة إدارى حازم يدعى مرشد قلى خان، أن نهض بالزراعة، عماد ثروة الإقليم، من جديد، فجعل كافة الأراضى الخصبة تحت إدارته مباشرة، وأمن الفلاحين فى أعمالهم وأمدهم بالبذور الجيدة والماشية وشجعهم على استصلاح الأراضى البور وزراعتها.

واهتدى مرشد خان بنظم تدرمل وزير أكبر، فأمر بمسح الأراضى كلها وأعاد تقدير الخراج المفروض عليها من جديد، فجعل للدولة نصف محصول الأرض التى تزرع بمياه الأمطار. وثلثه من الأراضى التى تروى بمياة الآبار فيما عدا البساتين والحدائق فيجبى منها ربع المحصول. أما الأراضى التى كانت تسقى من الترع والقنوات فكان ربطها يتراوح بين الزيادة والنقصان بحسب طبيعة ترتبها.

وبهذا النظام، وما كفله من توفير الأمن للفلاحين، أقبل هؤلاء على أعمالهم فى جد ونشاط أدى إلى استقرار اقتصاديات الدكن من جديد ونهوض مواردها بالتالى.

كذلك كان من أثر سوء إدارة حكام الدكن، إبان غياب أورنكزيب عنها، أن عاد أصحاب غولكونده وبيجابور إلى سابق خروجهم على طاعة السلطان فامتنعوا عن دفع ما فرض عليهم من جزية وراحوا يتخطفون أملاك الدولة هناك حتى اغتنم أورنكزيب فرصة سنحت له بنشوب الخصام بين عبد الله قطب شاهى سلطان غولكونده ووزيره محمد سيد المعروف بمير جمله – وكان هذا الأخير قد بلغ الكثير من النفوذ والقوة فصار له جيش خاص به داخل الدولة قوامه خمسة آلاف من الفرسان وعشرون ألفا من المشاة – فزحف بقواته على هذه الإمارة بدعوى تخليص أسرة الوزير من الحبس ورد أملاكها إليها. ولم يغن سلطان غولكونده فتيلا ما بعث به إلى قادة القوات المهاجمة من أموال كثيرة وجواهر عساهم يرجعون بذلك عنه، فاقتحم محمد ابن أورنكزيب عاصمته وأوقعه فى أسره.

وعفى شاهجهان آخر الأمر عن قطب شاهى ورده إلى إمارته بعد أن أقسم على الولاء له، ليرتبط معه من بعد ذلك برابطة النسب حين زفت ابنته إلى محمد ابن أورنكزيب([1]).

وما غدا مير جملة بدوره أن شمله شاهجهان بالرعاية حتى وزر له خلفا لسعد الله خان.

وسار أورنكزيب كذلك إلى بيجابور، وكان قد بلغه اضطراب أحوالها بعد وفاة سلطانها محمد عادل شاه، فما زال بها، ومعه مهابت خان ومير جمله، حتى وقع بأيديهم حصون بيدار وكولبوركة وكلياتى وبارنده. فما إن فرغوا من أمرهم عام ١٠٦٨هـ/١٦٥٨م فانطلقوا إلى مدينة بيجابور نفسها، حتى أمرهم شاهجهان بوقف القتال، إذ رضى سلطانها بالصلح على جزية كبيرة مع إعلان خضوعه وولائه، وتنازله عما ضاع من أيديه من الحصون([2]).

فتنة الأمراء: رأى شاهجهان، حين اشتد به المرض عام ١٠٦٧هـ/١٦٥٧م أن يعهد بالملك من بعده إلى دار اشكوه أكبر ابنائه الأربعة من ممتاز محل دون أخوته، وكان قد استبقاه إلى جانبه بآكرا حتى يتدرب على التمرس بأعباء الحكم.

ولم يكن لهذا الأمير بطبيعته كفاية حربية أو حنكة سياسية، إلا أنه كان واسع الإطلاع، شغوفا بدراسة الأديان بخاصة، حتى نقل، بمعاونة بعض علماء البراهمة، اليوبانيشاد المقدس من السنسكريتية إلى الفارسية. وجر عليه اختلاطه بالهنادكة واشتغاله الكثير بعلومهم، سخط علماء السنة، مما يسر لأخيه أورنكزيب أن يفيد من ذلك مستقبلا، حتى بلغ إلى تأليب المسلمين فى الهند عليه إبان نزاعه معه على العرش.

أما شجاع، ثانى الأبناء، فكان فى مقامه بالبنغال منصرفا فى الغالب إلى ملاذه. وقد تعاون جو هذا الإقليم وإدمانه للشراب على إضعاف عزيمته والهد من كيانه.

---

(١) شاهجهاننامة ١١٨، ١١٩

(٢) عمل صالح ١٢٨

هذا، فى حين كان أورنكزيب يسوس شئون الدكن فى همة ونشاط.

ولم يكن رابع الأخوة، مراد بخش، وهو فى مقامـــه بـــالكجرات إلا صـــورة أخرى لأمير البنغال.

وأثار نبأ البيعة لداراشكوه ثائرة أخوته الآخرين، إذ كان كل واحد منهم يـــرى نفسه أحق بالملك من أخيه[1]، ومن هذا الأمير، بخاصة، الذى كان يشاع عنه ميلـــه إلى محاولة إيجاد دين جديد يمزج فيه قواعد الإسلام بعقائد الهنادكة.

على أن أورنكزيب – وهو الذى قـــد كفل له محبة النـــاس وثقتهم بـــه مـــا أظهره من كفاية فى الحرب وما عرف عنه من الحزم والخلق القويـــم والتمســـك التام بأحكام الشرع – تمكن من أن يغرى أخاه مراد بالائتلاف معه، على أن يقتســما أرض الهند فيما بينهما فيكون للثانى منها البنجاب والســـند وكشمير وبلاد الأفغـــان. فالتقت قواتهما بقرية دهرمت على مقربة من اجين وقد أعلنـــا معا أنهما إنمـــا قـــد قدما لتخليص البلاد من ربقة ذلك الأمير المرتد داراشكوه.

واتجـــه شجاع، بدوره، على رأس جيش كبير، إلى دهلى بعد أن كـــان قـــد نادى بنفسه سلطـــانا على البنغال، لكن قوات سليمان بن داراشكوه مـــا غـــدت أن أرغمته على الارتـــداد إلى إمارته بعد ان بلغ بنارس[2]. وباءت بالفشل كل الجـــهود التى بذلها الوسطاء لمنع الصدام بين قوات داراشكوه وأخويه ليمنى من بعـــد ذلـــك جند دهلى بهزيمة شديدة ساعد عليها نفور بعض القـــواد المســـلمين فـــى جيـــش الدولة من السير تحت إمرة قادة من كبار الهنادكة فانحازو إلى صفوف مهاجميهم.

وقوى من عزيمـــة أورنكزيب ما انضم إلـــى جبهتـــه مـــن قـــوات عديـــدة وما وقع بأيديه من أســـلاب وذخـــائر حربيـــة ومـــؤن، فاتجـــه إلـــى كواليـــار حتى حط رحاله بسهل سموكره إلى الشرق مـــن آكـــرا، ليـــنزل مـــن بعـــد ذلـــك هزيمة أخرى قاصمة بعدوه، بعد قتال عنيـــف عظمـــت فيـــه خســـائر الطرفيـــن،

---

(١) تاريخ مفضلى ١٤٣

(٢) منتخب اللباب ٢١٥

حتى اضطر داراشكوه آخر الأمر إلى الارتـداد إلـى آكـرا سـريعا فـى الليـل تاركا كل عتاده ومؤنه لأخيـــه.

وحين بلغ الأمير الظافر آكرا فكتب إلى أبيه يعتذر إليه عن هذه الحرب التـى أكرهه أعـداؤه على خوض غمارها، بعث إليه شاهجهان بسيف يدعـى عـالمكير هديـة منه ودعاه للقدوم إليه. غير أن رجال أورنكزيب حذروه مما قد يكون أعـده له أبوه من شراك للإيقاع به، وأشاروا عليه بأسر السلطان على الفور حرصا علـى سلامته وتأمينا لمركزه.

وأدى قطع الماء عن حصـن آكـرا إلـى استسـلام حاميتـه بعـد دفـاع مجيد، لتحدد من ذلك إقامة شـاهجهان فـى جنـاح الحـرم بالقلعـة، ولـم يكـن يرخص لأحد الاتصال به إلا لا بنته جهان آرا التـى تفـانت فـى السـهر علـى راحته حتى آخر حياتـه.

ووقع بأيدى أورنكزيب رسالة كان أبـوه قـد بعـث بـها إلـى داراشـكوه يحذره فيها من القدوم إليه ويطلب إليه لزوم دهلـى، فتكشـف لـه بذلـك سـوء نوايا أبيه نحوه وصح لديه ما حذره رجالـه منـه فـى السـابق، فحـرم الكتابـة على السلطان المعتقـل.

وأحس أورنكزيب، وهو فى طريقة إلى دهلى زحفا، بنفور أخيه مـراد منـه حتى شرع يتآمر عليه، فدبر بدوره أمر اعتقاله غدرا ليسيره من بعـد ذلـك إلـى الكجرات ويعتقله بقلعتها. وما غدا أن أدين هناك لقتله ديوانه على نقى فقتل به عـام ١٠٧٢هـ/١٦٦١م(١).

وحين بلغ أورنكزيب دهلى نودى به عام ١٠٦٩هـ/١٦٥٨م سـلطانا علـى الهند باسم عالمكير.

هـذا، وقد ظل داراشكوه يضرب البنجاب والملتان والكجرات وآجمير، حتـى حط به المطاف عند زعيم من البطهان يدعى، ملك جيون، كانت له عليه أياد سابقة

---

(١) عمل صلح ١٣١، ١٣٢

كثيرة، فلم يغن عنه ذلك كثيرا، إذ غدر به الأفغانى ودفع به إلى أخيه فأفتى العلماء بكفره وأباحوا دمه[1].

أما شاه شجاع فما زال به قواد أورنكزيب يطاردونه فى البنغال حتى اختفى فى جبال آسام وانقطعت أخباره.

ولو أن شاهجهان، حين أبل من مرضه الذى اعتقد أن فيه نهايته، كان قد عمد من فوره إلى حسم الموقف بنفسه بدلا من أن يبعث إلى ابنه داراشكوه يطلب إليه العدول عن قتال أخوته، وقد كان يوقن أنه لا بأس عليه من قدومهم إلى دار السلطنة، لتغير الموقف كله على وجه السلامة.

فقد كان حريا به أن يبرز إلى الميدان بنفسه فيقضى بظهوره على الشائعات التى راجت بموته والتى ساعد على انتشارها سد ابنه الأكبر لكافة الطرق المؤدية إلى الدكن والكجرات والبنغال وقطعه البريد عنها.

هذا كما كانت دعوته لمجلس الحرب الذى يضم كبار القادة كفيلا بدوره، فى مثل هذه الظروف، بالقضاء على الفتنة فى مهدها، فى الغالب.

وغنى عن البيان أن ما عرف به أورنكزيب من مقدرة وحزم مع أنصاره لعلماء السنة وتأييدهم له، قد أدى إلى التفاف القوم حوله، فلم يكن ما أظهره الأهلون من الأسى حين جئ بداراشكواه إلى دهلى أسيرا فطوف به فى طرقاتها إلا لغدر مضيفه به فى الغالب.

ولبث شاهجهان فى محبسه سنوات ثمانية، حاول فى أثنائها عبثا العمل على استرداد ملكه، حتى قضى أسيفا حزينا عام ١٠١٧هـ/١٦٦٦م وهو فى الرابعة والسبعين من عمره، وهو يرنو ببصره إلى تاج محل، حيث ترقد زوجه الحبيبة ممتاز محل، وإلى جواره جهان آرا، ابنته منها، والتى وقفت حياتها على خدمته والعناية به.

---

(١) منتخب اللباب ٢٤٦

شخصية شاهجهان : كان شاهجهان حاكما قديرا بلغت الدولة فى عهده أوجها وعلت مكانتها، وقد نهج نهج أبيه وجده فى تنظيم شئون الحكومة، وتميز بالحزم الشديد مع رجاله وعماله والسهر على مصالح رعيته، حتى كان لا يتردد فى إنزال العقاب الشديد بمن يراه يتراخى فى تحقيق العدالة لهم أو يتسبب بإهماله أو يتسبب فى إلحاق الضرر بهم([1]).

ولئن ذهب إلى فرض ضرائب جديدة على التجار وأعاد فرض الرسوم التى كان الهنادكة يلزمون بها عند زيارة أماكنهم المقدسة، فإنه كان، على حد قول الرحالة الفرنسى تافرنيه، ينظر إلى رعاياه عموما نظرته إلى أبنائه([2]).وتجلت شفقته بهم وحدب به على رعايتهم فيما كان يبذله من جهود كثيرة لتخفيف وطأة القحط والمجاعات حين كانت تنزل بهم، فلم يكتف بما أقامه لفقرائهم من مطاعم مجانية كثيرة وما كان يبعث به إليهم من الأرزاق والمؤن والأموال، حتى أمر عماله بشراء الأطفال الذين كان أهلوهم يعرضونهم للبيع من فرط الإملاق ليردهم عليهم ثانية فيما بعد([3]).

وبلغ من بر هذا السلطان، الذى عرف بتمسكه الشديد بشعائر السنة، أن داوم على إرسال هبات من الأموال فى كل عام إلى فقراء الحجاز وعلماء الأراضى المقدسة وأشرافها.

وأدى به ذوقه الفنى الرفيع، وما ورثه عن آبائه من أموال طائلة([4])، إلى تزيين الهند فى عهده بجملة من المنشآت المعمارية الفخمة التى ما تزال ترى

---

(1) Muslim Rule 541, 43.

(2) Lane Poole 329.

(3) Mnslim Rule. 546.

(٤) يقدر الرحالة الألمانى بمندلسلوما كان بخزائن دار السلطنة حين زارها فى عهد شاهجهان، بما يعادل ثلاثمائة مليون جنيه، عدا الدخل السنوى، كما ذكر كذلك أن جيش السلطان كان يضم مائة وأربعا وأربعين ألفا من الفرسان ووصف مدينة آكرا وازدهار الحياة بها، يقال أن

آثارها حتى اليوم بآكرا وبدهلى الجديدة التى يعـد بحق منشئها ومجددهـا، والتـى اتخذها مقاما له بعد أن أتم بناء قصره الكبير بها.

ومن هذه الآثار المسجد الجامع ومسجد اللؤلؤ والقلعة الحمـراء وأروعـها جميعا ذلك المثوى الفخم الذى يعرف باسم تاج محل، والذى أقامه لتخليـد ذكـرى زوجته ممتاز محل، فعد بكماله وبهائه من بين روائع المعمـار فـى الدنيـا وقـد استغرق بنائه اثنين وعشرين عاما، واستخدم فيه عشرون ألفا من العمـال وبلغـت تكاليفه سبعة عشر وتسعمائة لكا([1]) من الروبيات.

وبلغ بشاهجهان كلفه بالأبهة إلى صنع عرشـه الفخـم المعـروف بعـرش الطاووس الذى رصع باكداس من الجواهر النادرة، وكانت قوائمـه مـن الذهـب الخالص، وكان سقفه المطلى بالميناء يحمل علىَ إثنى عشر عمودا مـن الزمـرد، على كل واحد منها طاووسان تزينهما الجواهر وتتوسطهما شجيرة يغطيها المـاس والياقوت والزمرد، وتتدلى منه درج ثلاث تكسوها الجواهر واليواقيت. وقد استغرق صنع هذا العرش سنوات سبعة وبلغت تكاليفـه أكـثر مـن سـتة ملاييـن مـن الجنيهات([2]). وحين غزا نادر شاه الفرس، الهند عام ١١٥١هـ/١٧٣٩م حمله معه، فأثرى حكام الفرس من جواهره، وأفاد فتح على شاه سلطانهم من بعد ذلك من بقايـا وحطامه فى إقامة عرش جديد له حمل الاسم نفسه.

طرقها كانت ممهدة نظيفة وإن حوانيت التجار كانت تزخر بمختلـف أنـواع السـلع وقـد خصص لتجار كل سلعة محلة موقوفة عليهم، وكانت دور المسافرين فخمة ونظيفة كذلك.

وأحصى هـذا السـائح بهذه المدينة سبعين من المسـاجد وثمانمائة من الحمامات، هـذا عدا القصور الشـامخة التى كان يسـكنها المسـلمون والهنادكة بظاهرها. وقال إن سكان آكـرا كانوا من الكثرة بحيث يمكنهم أن يقدموا من بينهم فى الحرب مائتى ألف من الرجال.

Lane Poole 333-5.

(١) اللك مائة ألف، وفى هذا البناء اختلط الطراز الفارسى بالهندى.

(2) Mnslim Rule. 533.6.

أورنكزيب عالمكير

اعتلى أبو المظفر محمد محيى الدين أورنكزيب عالمكير عرش الـــهند عـــام ١٠٦٩هـــ/١٦٦٩م والبلاد يعمها الخراب الشامل الذى اكتسح حقولـــها ومروجـــها إبان حروب الوراثة الجامحة التى قامت بينه وبين أخيه دارا شكوه. وحالف القحـــط هذا الخراب بسبب انحباس الأمطار الموسمية، فأتى على كل ما تبقى بـالبـــلاد مـــن أخضر ويابس.

لذا رأى أورنكزيب أن يرفع عن كاهل الأهلين عدداً من المكوس والضرائـــب تخفيفًا عنهم ورحمة منه بهم، فأعفوا من ثمانين نوع، منها مكوس الطريق والمـــرور ومكوس الأرضية، التى كان يلزم بها أصحاب المتاجر والحوانيت جميعًا، ومكـــوس الأضرحة ورسوم الدواب، كما خفض كذلك كثيرًا من الرسوم الـتى كانت تفـــرض على المحاصيل الغذائية الزراعية تيسيرًا علـــــى الســـكان جميعًـــا مـــن مســـلمين وهنادكة([١]).

وبرغم أوامره المشددة فى تنفيذ هذه الإعفاءات وعنفه فى معاقبة المقصريـــن من عماله فـإن سكان المدن كانوا هـــم وحدهم، فى الغالب، الذين أفادوا مـــن ذلـــك كله، إذ احتال حكام الأقاليـــم دواما على إبقاء الحال على ما كان عليـــــه، حتـــى لا يضاروا فى أهم مواردهـــم ومصدر ثرائهم، ولا سيما حين عدل أورنكزيـــب عـــن نظام التجنيد الذى رسمه جده جلال الدين أكبر، وسار عليه أولاده مـــن بعـــده، إلى نظام الإقطاع القديم([٢]).

---

(١) منتخب اللباب لخافى خان ٢٤٦ – ٤٩

(٢) كان الحكام وعمـــال الدولة، فضـــلاً عن حرصهم البالغ على الاحتفـــاظ بمظـــاهر الأبهـــة والعظمة، يتنافسون فى تقديم الهدايا الثمينة من الجواهر وغيرها إلى السلطان فى كل مناســـبة وأعظم هذه المناسبات هى ذكرى مولده حيث كان يوزن بالذهب والجواهر على رسم مغولـــى قديم. ويذكر الرحالة الفرنسى برنييه، وكان قد حضر هذا الحفل فى أحد الأعوام أن ما قام بـــه السلطان من الجواهر يقدر بما يوازى المليونين من الجنيهات

Lane-Poole 375.

اشتهر أونكزيب منذ أول شبابه بتمسكه الشديد بتعاليم السنة، حتى خاض حرب الوراثة ضد أخيه داراشكوه على هذه المبادئ وأورده حتفه على ما أفتى به علماؤه. لذا أبطل الاحتفال بالنيروز عيد الفرس وحظر دخول بلاده على أصحاب مذهب الشيعة وغيرهم من أصحاب المذاهب غير السنية(1).

وكان من أثر هذا الإجراء، ومناصبته قبائل الأفغان العداء فيما بعد، وما سبق إليه جده حين نادى بأن الهند للهنود، أن انقطع عن جيوش الدولة مصدر مهم طالما أمدها بمحاربين أشداء، من أبناء بلاد ما وراء النهر وبلاد الأفغان وكابل، كانوا بلا مراء كفيلين بشد أزر بنى جلدتهم، الذين تأثرت عزيمتهم على مر الزمن بحر الهند، فى دفع خطر المرهتها والسك عن الدولة، وهما العصبتان اللتان عجل تزايد نشاطها فى نهايتهما.

وأدى حرص أورنكزيب عالمكير على أن يصبغ دولته بالصبغة الإسلامية الخالصة إلى أن تشدد فى تحريم الخمر والميسر تحريما تاما وأبطل البدع، ثم أمر بتعمير المساجد وترميم الخرب منها وأمدها بطائفة مختارة من الأئمة والوعاظ والمدرسين، وحض الناس على الإقبال على حلقات العلم بها وشجعهم على الدرس فيها، ثم بعث بمحتسبيه من بعد ذلك ليراقبوا الناس ويحملوهم على التمسك بتعاليم الشرع والابتعاد عن نواهيه.

وطفق أورنكزيب من بعد ذلك يبعد الهنادكة عن مناصب الدولة الكبرى ويقلل من عددهم فى الدواوين عامة، فلم يبق بها منهم سوى نصفهم حرصا على صالح العمل(2)، ولم يكن ذلك بدعا منه بعد أن رأى بوادر الفتنة والعصيان تظهر من بينهم أيام أبيه .

وانتهى أمره معهم إلى أن أمر بغلق كثير من مدارسهم ومنعهم من إقامة معابد جديدة لهم، حتى هدم معبدى بنارس وسومنات، وأقام على أنقاض معبد متهره مسجدا كبيرا، بعد أن بدل اسم هذه المدينة إلى إسلامبور، ونقل أوثان هذا المعبد

---

(1) عالمكير نامه ٣٨٩

(2) Dunbar 264.

المكللة بالجواهر إلى آكرا فردم بها أساس مسجد نواب بيكيم صاحب حتى يطؤها المسلمون بأقدامهم فى صلاتهم تقربًا إلى الله(1).

وأعاد أورنكزيب فرض جزيه الرؤس على الهنادكة وأعفى من تأديتها غير القادرين عليها. وقد أدى الحرص بكثير من عامتهم إلى الدخول فى الإسلام تخلصًا من دفعها.

وكذلك فرض أورنكزيب رسمًا جديدًا على البضائع التى كان يستوردها التجار من الخارج، وكان أغلبها من أدوات الترف وألزم الهنادكة منهم بدفع هذا الرسم مضاعفًا.

يمكن تقييم مدة حكم أورنكزيب التى تجاوزت سبعة وأربعين عامًا إلى فترتين :

الأولى : وهى التى شغل فيها عامة بإقرار الأمور فى الهندستان.

والثانية : وهى التى قضاها فى حروب متواصلة بالدكن والجنوب استوعبت ستة وعشرين عامًا واستنفدت أموالاً طائلة وهلك فيها ملايين عدة من الجند والأهلين. وقد هدف من ورائها فى الغالب إلى الجهاد فى سبيل نشر الإسلام بين الهنادكة والقضاء على مذهب الشيعة أكثر مما هدف إلى توسيع رقعة ملكه.

آسام والبنغال : أفاد أورنكزيب من كفاءة قائده مير جمله فوجهه فى جيش كبير وأسطول من السفن النهرية إلى آسام وكوش بهار اللتين تقعا عند الطرف الشمالى الشرقى وهى منطقة تغطيها الغابات والآجام وكان أصحابها يتخطفون أراضى الدولة. وبرغم فتك الأوبئة بجند الدولة وشدة ضغط العصابات عليهم، وهم فى حصارهم لعاصمة آسام، فقد مضى بهم قائدهم غداة انتهاء موسم الأمطار، والحمى تركبه، حتى أرغم الآساميين على التسليم، فعاملهم برفق ومودة(2). ومن

---

(1) مآثر عالمكيرى ص95

(2) Gait Hist of Vssam 141-51.

أسف أن وافى الموت ميرجملـه وهـو فـى طريـق عودتـه إلـى دكـا عـام ١٠٧٣هـ/١٦٦٣م، وقد أضاع نوابه جميع جهوده بعد بضع سنين بسوء إدارتـهم وعسفهم.

وخلف ميرجمله على البنغال الأمير شايسته خان، خال السلطان. وكان ملـوك أراكان بها قد اشتد نشاطهم حتى راحوا يتعاونون تعاونًـا وثيقًـا مـع البرتغـاليين لمناهضة الدولة، فرحبوا بقراصنة هؤلاء المستعمرين وغيرهم من المغامرين، حتـى باتوا يسيطرون على خليج البنغال، فضلاً عن مساحات واسعة ممتدة من دلتا الكنـج إلى دكا، ثم انطلقوا يقطعون الطريق على التجار ويتخطفون الأهلين ويبيعونهم بيـع الرقيق لتجار الهولنديين والإنجليز والفرنسيين في الثغور الدكنيـة الشـرقية وفـى جزيرة سرنديب غير بعيد من شيتا جونج.

ويرز شايسته خان لمقاتلة هؤلاء جميعًا ومعه أسطول كبير عدتـه ثلاثمائـة سفينة فخاض ضدهم غمار معارك متصلـة عـامى ١٠٧٥، ١٠٧٦هـ/١٦٦٥، ١٦٦٦م، حتى كسر شوكتهم وحرر كثيرًا من السكان من أيديهم واسـتعاد للدولـة مساحات كبيرة من الأراضى التى كانت فى حوزتهم . وقد تحالف شايسته خان فـى حروبه هذه مع الهولنديين والبريطانيين الذين كانوا يتوقون للقضاء على منافسـيهم من البرتغاليين، ولم يكن يدرى أن بقضائه على البرتغـاليين إنمـا يمـهد السـبيل للبريطانيين الذين بدأوا وقتذاك بداية متواضعة هناك فأقاموا مصانعهم فـى منطقـة كانت نواة لمدينة كلكتا الحالية([1]).

البطهان والأفغان : أخذت أطراف الهند الشمالية الغربية تتعرض ابتداء مـن عام ١٠٧٨هـ/١٦٦٧م لغارات قبائل البطهان الأفغانية، وعلى رأسـها يوسـفزى والأفريدى([2]) ولما ينقضى عام واحد على فراغ الدولة من مشاكل الحدود الشرقية.

---

(١) Lane-Pool 382.3. – المصانع هنا هى المخازن.

(٢) تشتهر من هذه القبائل الأفريدى والوزيرى على الخصوص بشدة المراس حتى صدت جيوش الهند البريطانية مرات عديدة عن بلادها فى القرنين : الحالى والماضى، وأنزلت بها خسـائر جسيمة.

ولقد جهد السلطان أكبر من قبل فى الحد من نشاط هذه القبائل، وحذا حذوه جهانكير ثم شاهجهان فسيروا جيوشهما القوية إلى قندهار وبدخشان مرات عدة. وحين تجددت حركات هذه القبائل أواخر عهد شاهجهان، بسبب حرب الوراثة الجامحة التى نشبت بين أبنائه، فانحدرت جموع يوسفزى إلى مناطق الهزرا فبلغت شواطئ نهر كابل، لم يكتف حاكم أتوك بردها فى عنف حتى خرب منازلها وأراضيها.

وركنت هذه القبائل إلى الهدوء بضع سنين من بعد ذلك كان راجا جسوانت، نائب السلطان عند جامرود، يراقبهم فيها بعين ساهرة حذرة ثم برزت قبائل الأفريدى، وعليها زعيمها أكمل خان تستنهض همم القبائل الأخرى وتستعين بها فى السيطرة على المنطقة الواقعة بين كابل وبشاور. حتى أتيح لها آخر الأمر أن تنزل هزيمة قاصمة بقوات الدولة عند ممر خيبر، سقط فيها عشرة آلاف من جند السلطان أسارى بأيديهم.

وشجع هذا النصر القبائل الأفغانية الأخرى التى كانت تضرب بين أتوك وقندهار، فركنت بدورها إلى العصيان. وقوى من عزيمتها انضمام الزعيم الأفغانى خو شحال إلى صفوفها ؛ وكان هذا الزعيم قد استدرج من قبل، بالخيانة والغدر إلى بشاور ثم ألقى به فى السجن بدهلى، فأطلق سراحه على أن يسير وابنه بجند الدولة لمحاربة أعدائه من قبائل يوسفزى ؛ ولكن ما أحرزه بنو جلدته من الانتصارات على الدولة أنساه عداءه معهم فأنضم إليهم.

هنالك بعث أورنكزيب بفداى خان حاكم لاهور إلى بشاور، وسير قائده الآخر مهابت خان إلى كابل. حتى إذا ما تكشف له تواطؤ هذا الأخير مع العدو جعل مكانه شجاعت خان.

وأدى ظهور قوات الدولة القوية عند منطقة الحدود إلى قدوم فريق من شيوخ العشائر الثائرة مستسلمين. حتى إذا ما أصم شجاعت خان أذنيه عن الاستماع إلى نصيحة راجا جوانت فلم يصطنع التريث والصبر حتى يأتيه بقية الشيوخ فيبرم الصلح معهم على خضوعهم للدولة، فاندفع بقواته إلى منازلهم فى

مناطق التلال المجاورة لكابل، انحدر البطهان إليه فى ليل شتاء عاصف عام ١٠٨٤هـ/١٦٧٤م فأنزلوا بقواته هزيمة شاملة لاقى فيها حتفه.

هنالك لم ير السلطان بدا من المسير إلى هذه المنطقة آخر الأمر بنفسه، فأفلح وقائده أغار خان، بقوة السلاح تارة وببذل المودة والمال والعطاء لشيوخ القبائل تارة أخرى، فى أن يؤمن منطقة ممر خيبر، أخطر أبواب الهند وأهم طرق الغزاة إلى سهولها وأراضيها.

ولم تستنزف قلاقل الحدود الشمالية الغربية هذه كثيراً من أموال الدولة فحسب. بل لقد اضطر السلطان بسبب عنفها إلى استدعاء نخبة من قواته الدكنية إليها، مما أتاح الفرصة لإمارات الدكن والمرهتها على الخصوص، ليقووا من نفوذهم هناك ويثيروا المتاعب فى وجه الدولة من بعد ذلك.

ولو أن أورنكزيب كان قد اصطنع المودة مع القبائل الأفغانية منذ بادئ الأمر وأخذهم بالسياسة والدهاء الذى اشتهر به، لأفاد من شدة مراسهم فى القتال فى حروبه الطويلة، مع الراجبوتيين والسك والمرهتها وشيعة الدكن، وقد كانوا على هواه فى تعصبهم الشديد لتعاليم السنة.

الجات والستناميون : أدت السياسة التى انتهجها أورنكزيب عالمكير فى تدمير معابد الهنادكة وإقامة مساجد المسلمين على أنقاضها، إلى شيوع روح التذمر بينهم حتى ثار الجات منهم[1] ثورة عارمة عند ما نهو فتمكن زعيمهم جكال من قتل نائب السلطان هناك وانتهاب أراضى سعد أباد. ولم يفت سقوط هذا الزعيم فى يد الدولة ومقتله، فى عضد بنى قومه، فطفقوا ينزعون إلى التمرد والعصيان بين الفينة والفينة حتى تفاقم خطرهم حين بدأ الضعف يدب فى بناء الدولة بعد عهد أورنكزيب.

---

(١) الجات أو الزط، منهم المسلمون ويسكنون السند الأعلى والملتان، وقد ذكرهم الجاحظ بأنهم أصحاب مهارة فى التجارة والصيرفة والصيدلة ومنهم فريق من الهنادكة فى الراجبوتانا، ومنهم السك فى البنجاب أتباع نانك، وجميعهم من الويشية، وأغلب الصيارفة والمرابين فى الهند اليوم منهم.

وجاءت ثورة الستناميين فى أعقاب سابقتها. وهم طائفة من الزهاد ينتسبون إلى الاسم الحسن (ش : ستنام) ويحرصون على كبريائهم وأنفتهم حرصًا شديدًا، حتى لا يترددون فى سبيل ذلك عن بيع أنفسهم بيع السماح ولم يكن مرد ثورتهم إلا لإعتداء بعض الجند على فريق منهم[1] دون أى سبب دينى آخر، فزحفت جموعهم من نارنول عند موات تخرب ما يصادفها من مساجد وتعمل السلب والنهب فى المدن والقرى حتى بلغت مشارف دهلى، وفى ركابها شائعات قوية عن نفاذ سحرها وطلاسمها. حتى فزع الناس والجند من لقائهم فلم يتأتى للسلطان القضاء عليهم إلا بمشقة.

السك : لم يقعد السك بدورهم عن المشاركة فى حركة السخط التى عمت الهنادكة جميعًا بسبب موقف السلطان غير الودى معهم، وكانوا قد غدوا يناصبون الدولة العداء من قبل منذ أن قتل جهانكير زعيمهم أرغون حين ظاهر ابنه خسروا فى خروجه عليه.

وهذه الطائفة وهى من الجات البنجابيين، إمامها مصلح دينى يدعى غورو نانك، ظهر فى القرن التاسع الهجرى، وحاول أن يصهر ديانات الهند فى مذهب واحد يقوم على تعظيمها جميعًا، ويقضى على فروق الطوائف، ويعلن المساواة التامة بين الناس.

ويلغ رابع خلفائه رام داس مكانة مرموقة عند السلطان أكبر، حتى أقطعه أرضا أقام عليها محلة لأتباعه ومريديه، فما زالت تنمو وتكبر حتى صارت إلى مدينة أمر تسهر كعبتهم الدينية اليوم بالبنجاب.

حتى إذا ما تفشت الكراهية للمسلمين بينهم بسبب مقتل جهانكير لخليفة أورغون، شرع زعيمهم الجديد هار غووند يعدهم إعدادا عسكريا للدفاع عن كيانهم.

وحين ثار بهم تاسع زعمائهم غوروتغ بهادر ليعارض الدولة فى اضطهادها للهنادكة وتخريبها لمعابدهم. فقبض عليه أورنكزيب عام ١٠٨٦هـ/١٦٧٥م وأورده

---

(١) منتخب اللباب ٢٩٤/٩٦

مورد الردى، انطلق ابنه غووند سنغ يشعل روح الحماس فى قومه ليثأروا لقتلاهم، وهو يواصل تدريبه الحربى لهم ويعمدهم بنقيع السيوف والخناجر. فصمدوا لكل الضربات التى وجهتها إليهم الدولة فى عزم وإصرار حى تم لهم السيطرة على منطقة التلال فيما بين ستلج، رافد السند، وجمنه.

وأحاطت قوات الدولة بهذا الزعيم آخر الأمر بعد أن قتلت ولديه، فالتحق بخدمة بهادرخان خليفة أورنكزيب[1] لينقلب قومه، حين بدأ الضعف يدب فى بناء الدولة، إلى جيش جسور غدا والمرهتها تنذر سوء عليها.

الراجبوتيون : أدى فرض أورنكزيب جزية الرؤس على الهنادكة من جديد، بعد أن ظلوا يعفون من دفعها قرابة قرن ونصف القرن، إلى تفاقم الاضطرابات بينهم واشتداد أوار غضبهم.

وكان هدف السلطان من وراء إعادة فرضها هو الحصول على المال الذى أعوزه فى حروبه الكثيرة، فلم يلتفت إلى توسلات جموعهم الكثيرة التى وفدت إليه وزحمت طريقة إلى المسجد، حتى استخدمت الفيلة لتفريقها وهلك كثير منهم تحت أقدامها.

ولم يقبل الأمراء الراجبوتيون جزية الرؤس هذه عن طيب خاطر، وقد انقلب السلطان ينظر إليهم بعين الامتهان، فى حين أن أسلافه، حتى بعد استيلائهم على أقوى حصونهم فى جتور، كانوا يعدونهم فى الغالب حلفاء لهم ويحفظون عليهم مراسم الأبهة والإمارة.

حتى إذا ما احتجز أورنكزيب ببلاطه أحد أبناء راجاجسوانت بعد موته، وكان هذا الأمير قد شارك فى إقرار الأحوال عند الأطراف الشمالية الغربية للهند، فترامى إلى قومه أنه إنما يبغى بفعلته هذه إلى حمل الأمير الراجبوتى الصغير على اعتناق الإسلام، ألتفوا حول درغا داس راج مروار (جدهيور) الذى توصل

---

(١) منتخب اللباب ٩٤ - ٩٦

بالحيلة إلى تخليص الأمير من أسره ونقله وأمه إلى إمارته([1]) لينفذ السلطان عندئذ قائده تهور خان وابنه أكبر لغزو هذه الإمارة وضمها إلى أملاك الدولة.

كذلك انبرى أمير أداييور (موار)([2]) بدوره يعارض ما فرض عليه وعلى قومه من جزية الرؤس، فاجتاحت قوات الدولة بلاده بدورها وخربت ما بها من معابد هى وآمبر التى لم يشفع لها ما كان بين أميرها وأورنكزيب من صلات مودة وسلام.

اعتصم الأمراء الراجبوتيون الفارون من بعد ذلك بحصونهم فى الجبال، وانطلقوا من هناك نشطين للإيقاع بقوات الدولة. وقد فشل أكبر رابع أبناء أورنكزيب فى كبح جماح هؤلاء الثائرين الذين كادوا يصلون إلى قطع الإمدادات والمؤن عن أورنكزيب نفسه وهو فى موار.

وأدى حرج الموقف بأورنكزيب إلى استدعاء ولديه الآخرين، أعظم ومعظم، بقواتهما من الدكن والبنغال ليشاركاه الحرب عند موار، فى حين وجه ابنه أكبر إلى مروار بعد أن أنبه تأنيبًا شديدًا لتهاونه السابق مع العدو. فإذا بالأمراء الراجبوتيين يلتفون حول هذا الأمير الغاضب وكان إذ ذاك فى الثالثة والعشرين من عمره طموحًا فتيًا، فمازالوا يزينون له الخروج على أبيه حتى استجاب لهم ونادى بنفسه سلطانا عليهم.

هنالك قر قرار القوم على الزحف بجموعهم التى تجاوزت السبعين ألفًا، إلى آجمير مقر السلطان، ولم يكن بها حوله من الجند عندئذ ما يزيد على الألف فارس، حتى أتاح تباطؤ الأمير أكبر وانشغاله بمتعه الفرصة لأورنكزيب، فبلغ بدهائه وحسن تدبيره إلى صرف الأمراء الهنادكة وجموعهم عن ابنه وجذب ما معه من قوات الدولة إلى صفوفه، إذ اصطنع خطابا بعث به إلى أكبر، تعمد أن يقع بأيدى

---

(١) منتخب اللباب

(٢) رفض أمراء أداييور دائمًا مصاهرة سلاطين المسلمين، كما رفضوا فيما بعد أن يشاركوا فى حفل تتويج فكتوريا ملكة بريطانيا أمبراطورة على الهند، ورد أميرهم إلى نائبها قلادة كوكب الهند محتجا بأن أحدًا من أجداده لم يحمل شعار العبودية من قبل.

الراجبوتين، وقد أثنى فيه على الأمير وعلى خداعه للأعداء على ما رسمه له من قبل، وأمره باستدراجهم وقواتهم حتى يحصرون بين قوتى المسلمين ليبادوا عن آخرهم([1]). فإذا بالراجبوتيين ينفرط عقدهم حين أطلعوا على الرسالة، وإذا بالأمير الثائر يجد نفسه وحيدًا فى الميدان، فيمعن فى الهرب حتى ينزل بعد مطاف طويل عند شمبهوجى زعيم المرهتها بالدكن. وقد أبحر من أحد موانيه من بعد ذلك إلى إيران فأقام بها إلى آخر حياته.

وانتهت الحرب مع موار عام ١٠٩٢هـ/١٦٨١م بعد أن قبل أميرها التنازل عن بعض حصونه للدولة نظير إعفائه وقومه من جزية الرؤس. أما مروار فقد بقيت على عصيانها حتى أقر بها درشاه، خليفة أورنكزيب، لأصحابها بحقوقهم فيها.

ـ الشيعة والمرهتها : قضى أورنكزيب، بطريق العنف الذى سلكه مع الأمراء الراجبواتيين، على مورد قوى من الجند الذين طالما ساندوا الدولة فى حروبها أيام السلطان جلال الدين أكبر وخلفائه، كما شارك أمراؤهم، فى الوظائف الكبرى وفى الجيش، فى تحقيق المتعة للدولة وتوفير المهابة لها. وكان هؤلاء المحاربون الأشداء كفيلين بشد أزراورنكزيب فى حروبه الطويلة التى قضاها بالدكن فابتلعت الأموال الطائلة وفنى فيها ألوف كثيرة من أبنائها وبدأ بناء الدولة من جرائها يتزعزع ويتصدع.

فقد عقد العزم، بعد أن تم له إخضاع موار عام ١٠٩٢هـ/١٦٨١م، على السير إلى الدكن. فهاهم سلاطين المسلمين فى بيجابوروغولكونده لا يزالون يحملون هناك لواء التشيع ويروجون لهذا المذهب الذى يرى أورنكزيب أنه من أقدس الفروض عليه، بوصفه سلطان السنيين وحامى حمى المذهب، أن يقضى على ملكهم أو يعودوا إلى ملته. ولقد أرغم فى عهد أبيه على وقف القتال معهم ومهادنتهم، ليبتهلوا الفرصة التى أتيحت لهم من بعد ذلك بمرض شاهجهان وقيام حرم الوراثة بين أبنائه فيعودوا إلى سيرتهم الأولى فى العصيان ونبذ طاعة الدولة. وها هم المرهتها قد تفاقم خطرهم، والدولة منشغلة بحروبها عند الحدود الشمالية

---

(1) Muslim Rule, 427.

الغربية وفى الراجبوتانا، فانتشرت عصاباتهم تخرب المدن والقرى وتنتهبها وتغتصب الحصون وتقطع الطريق على التجار وتأوى عندها الخارجين على سلطان الدولة حتى نزل الأمير أكبر بن أورنكزيب آخر مطافه بكنفهم.

ولم تكن الدكن، على كل حال، بغريبة عن هذا السلطان، قد ولى حكمها فى عهد أبيه ما ينوف على أثنى عشر عامًا فعرف ما لأرضها من خصب عميم وما لأمرائها من ثراء عريض.

وكان المرهتها الدكنيون هم أول من اجترأ من سكان الجنوب فى الغالب على الزحف إلى الهندستان. وقد قضى أورنكزيب عالمكير أكثر من ستة وعشرين عامًا يحاربهم هناك. وقد أنزلت عصاباتهم بالدكن كله فى أيامه خسائر بالغة بما خربته من مدنه وقراه وما أحرقته من زرعه وضرعه حتى شاركوا فيما بعد مشاركة فعالة فى انهيار الدولة.

ويشتق اسمهم من مهاراشترا، أى المملكة الكبرى، وهى التى لم يبلغ الباحثون إلى تحديد موقعها فى القديم بعد. ويعدهم البراهمة من زمرة الشودرا أدنئ طبقات الهند وطوائفها، وإن كانت سماتهم فيها كثير من سمات التورانيين. وقد ذاع اسمهم فى القديم على كل حال حين استعان بهم بليكسين الثانى فى حروبه مع هرشا.

وامتدت إلى منازلهم بالدكن بدورها موجه الإصلاح الدينى التى ظهرت فى أماكن متفرقة بالهند فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلادى، فظهر من هداة المراهتها. اكناته وتكارام ورام داس، ينكرون نظم الطبقات ويجهرون بأن الشودرى قادر بعقيدة بهاكتى (أى الإخلاص لله) أن يبلغ عند الله منزلة ليست دون منزلة البرهمى الورع[1].

وقد أفاد منهم ملك عنبر الحبشى الوزير الدكنى فى حربه مع جهانكير، على ما ذكرناه من قبل. وظهر من بين صفوفهم من بعد ذاك شاهجى بهونسلا الذى

---

(1) Mbslim Rule. 582.3.

حارب الدولة ثم عمل تحت لوائها لينضم آخر المطاف إلى صفوف البيجابوريين من بعد ذلك.

وحين قضى شاهجهان على إمارة أحمد نكر، تمكن ذلك القائد المرهتهي بعد قليل من أن يمد نفوذه إلى هذه الإمارة ويجلس على عرشها أميرًا من أسرة نظام شاهى. حتى اجتاح جند الدولة هذه الإمارة من جديد، فلجأ شاهجى ثانية إلى بيجابور ثم اعتكف آخر الأمر في إقطاعه ببونا وشمارغوندا على مقربة من بمباى.

شيواجى : نشأ شاهجى ابنه شيواجى تنشئة عسكرية منذ صغره. وأتاح له لزومه بلاط بيجابور بعض الوقت التمرس بالسياسة والوقوف على الكثير من أحوال الدولة وعلاقاتها بسلاطين الدكن، كما بث في نفسه حكيم المرهتها، رام داس، حب الهنادكة، وحرضه على وقف حياته للدفاع عن بني جلدته ومقدساتهم.

حتى إذا ما اضطربت الأحوال في بيجابور بسبب مرض سلطانها عام ١٠٥٦هـ/١٦٤٦م، انتهز شيواجى هذه الفرصة ليستولى على جملة حصون حول بونا[1]. إقطاع أبية، ولينفذ من بعد ذلك إلى إقليم كنكان.

هنالك بادر سلطان بيجابور إلى اعتقال شاهجى فلم يطلق سراحة حتى تعهد ابنه سيواجى بالركون إلى السلم والابتعاد عن انتهاب أراضى الإمارة وتخطفها.

ولكن المرهتهى مالبث أن عاد إلى كنكان من جديد، وأورنكزيب نائب شاهجهان إذ ذاك بالدكن مشتبك فى الحرب مع بيجابور، فوضع يده على أغلب أراضيه، وتحكم فى موانيه حتى رد البيجابوريين عنه حين ساروا إليه من بعد ذلك، وطفق يتعقبهم فى تقهقرهم عنه حتى دخل بلادهم، فلم يرتد عنها إلا حين بلغه زحف شايسته خان قائد أورنكزيب على الدكن.

وأتيح لشايستة خان أن يقتحم بونا وحصن شكن ويثبت أقدامه فى القسم الشمالى من كنكان، ليفاجئه عندئذ شيواجى بمقره فى مائتين من رجال

---

(١) منتخب اللباب ٢٥٦، ٥٧

عصاباته قدموا فى هيئة من يحتفلون بزفاف صبى، فانقضوا على قصره فى غـــارة ليلية قتل فيها أغلب حراسه وحريمه وأصيب هو نفسه بجراح شديدة(1).

واستشرى خطر هذا الزعيم المرهتهى حتى سقط فى أربعمائة من رجالـــــه على ميناء ســـورات الغنى فانتهب سكانه وتجاره وما صادفه فيه إذ ذاك من ســـفن الحجاج المسلمين. فلم يقف فى وجهه هناك إلا مصانع الهولنديين والإنجليز الذيـــن لــم يأبهوا لتهديـــده وأغلظوا القول لرسلـــه، فعاد بأسلابه إلى مقره دون أن يجــرء على التعرض لهم بسوء.

وثار أورنكزيب لفرط جـــرأة هذا الثائر، فبعث إليه بجيش كبير، عليه ابنـــه معظم، اكتســح بلاده حتى هـــدد مقر حكومته فى رايكره، ليهادن الدولـــة من بعـد ذلك فيتنازل لهـــا عن الكثير من الحصون ويتعهد بدفع جزية سنوية كبيرة لها.

وما زال السلطان بعدوه حتى حملة، بحسن تدبير قائده راى سنغ، على القـدوم إلى آكرا ومعه ابنه شمبهوجى ليقدم فروض الولاء إليه بنفسه.

وحين أحس هذا الزعيم المغامر بأنه وأبنـــه معتقلان فى دارهمـــا، احتـــالا على الحراس فهربـــا من محبسيهما فى سلتين من سلال الفاكهـــة بتدبـــير محكـــم، لينطلقـــا من بعد ذلك إى منـــاوأه أورنكزيب من جديـــد. وقد كان فـــى إمكانـــه أن يكسبهما إلى صفه باصطناع المودة معهما فيبلغ بمعونتهما إلى إخضاع الجنوب كلـــه لسلطانه دون كبير عناء(2).

ومن عجب أن شيواجى، حين عاد إلى مقره، وجد وزراءه منصرفيـــن إلـــى تدبير شئون الدولة وكأن شيئا لم يقع لأميرهم.

وهادن شيواجى الدولة عامين انصرف فيهما إلى تنظيم حكومته، وكان يديـــر شئونها إذ ذاك مجلس برئاسته قوامه ثمانية من الوزراء لشـــئون المـــال والشـــئون

---

(1) Sarkear. Hist. Of Aurengzib Voliv p47-51.

(2) Mughal Rule in India PP137.33.٧١ - ٩٦٧ عالمكير نامه

الداخلية والخارجية والدينية والبلاط وشئون الحرب والقضاء، وجميعهم، فيما عدا وزيرى العدل والشئون الدينية، كانوا من أصحاب الرتب فى الجيش.

وعدل شيواجى عن نظام التجنيد الذى كان يلزم به رجاله قضاء ستة أشهر من كل سنة فى المعسكرات لينصرفوا من بعدها إلى حقولهم، فأقام له جيشًا ثابتًا التزمت حكومته بنفقاته، وكان قوامه أول الأمر المشاة حتى يسهل تشكيل العصابات منهم، ثم ضم إليهم من بعد ذلك فرق من الفرسان صاروا مصدرًا للفزع والرعب أينما حلوا وساروا(1).

ولم يهتم المرهتها إلا بترقية الزراعة وتوسيع رقعتها، فلم يلتفتوا إلى العناية بالتعليم أو العمل على كسب الأهلين إلى صفوفهم(2).

وطفقت عصاباتهم تعاود نشاطها من جديد ابتداء من عام ١٠٨١هـ/١٦٧٠م حتى طردت نائب السلطان من كنكان. وسقطت مرة ثانية على سورات، فبلغ ما انتهبته منها ما يزيد قيمته على سبع ملايين من الروبيات. وكان من أثر غاراتهم المتكررة على هذا الميناء المهم أن أدى انتشار الرعب منهم بين السكان إلى كساد التجارة فيه :

ونادى شيواجى بنفسه آخر الأمر أميرا على قومه عام ١٠٨٥هـ/١٦٧٤م، والدولة منشغلة عنه إذ ذاك بفتن الشمال. وقد ضم إليه كثيرا من الأراضى والحصون فى نطاق مملكة فيايانكر القديمة التى بات الهنادكة فيها يحلمون باستعادتهم لمجدها الغابر على يديه.

ثم انطلق من بعد ذلك ينتهب أملاك الدولة نفسها، بعد أن اغتصب بعض حصون أخرى من سلطنة بيجابور، فلم يستطع دارخان قائد أورنكزيب أن يصمد

(1) Hist. Of the Mahratias. Vol 1. 175.

(2) Shivaji and his times 485.6.

فى وجهه كثيرًا، حتى طواه الردى عام ١٠٩١هـ/١٦٨٠م ولما يكمل الثالثة والخمسين من عمره[1].

وزعزع من بناء الدولة التى أقامها شيواجى، انصراف رجاله من بعده إلى تحقيق أطماعهم ومآربهم الخاصة فانقلبت القوة التى أقام صرحها إلى سلاح هدام استخدمه رجاله فى منازعاتهم فيما بينهم، ليجئ من بعد ذلك أورنكزيب، بعد فراغه من حروبه فى الشمال، فيلتحم معهم فى معارك متعاقبة استمرت سنين طويلة وأصيبوا فيها بضربات متلاحقة منه وخسائر جسيمة فى الأموال والأنفس.

بيجابور وغولكونده : قدم أورنكزيب عالمكير إلى برهانبور عام ١٠٩٢هـ/١٦٨١م ليقود بنفسه معارك الدكن، فبعث بابنه الأمير معظم لغزو أراضى المرهتها، فتوغل فى كنكان ليجد العدو قد جلى عنها بعد أن أحرق زرعها وخرب قراها. حتى إذا ما حاول الجيش الغازى أن يمون جنده بالمؤن عن طريق البحر سقط الثوار على السفن فاستولوا على ما بها من حبوب وأغرقوها.

وحين وجه السلطان ابنه الثانى أعظم إلى بيجابور وسارهو إلى أحمد نكر، انطلق شمبهوجى بن شيواجى وخليفته إلى خاندش فخرب بعصاباته قراها، حتى إذا ما قدمت إليهم قوات الدولة تفرقوا سراعًا على عادتهم، ليتصيدوا أفرادها وينزلوا بها خسائر كثيرة.

هنالك رأى أورنكزيب أن يوجه جهوده كلها إلى الاستيلاء أولاً على إمارتى بيجابور وغولكونده فيحرم بذلك المرهتها من أموال كثيرة كانت تلتزم هاتان الإمارتان بدفعها لهم اتقاء لشرهم، ويبلغ فى الوقت نفسه إلى القضاء على أصحاب مذهب ينكره أشد الإنكار، وهو الشيعة الذى كان يدين به سلاطين هاتين الإمارتين ويروجون له بالهند.

وفى هاتين الإمارتين، اللتين كان الضعف قد تسرب إلى حكومتهما فى قوة بسبب تنازع حكامهما ووزرائهما فيما بينهم، كانت نواة عصابات المرهتها الحديثة،

(١) يذكر خافى خان فى منتخب اللباب « ٣٠٥ » لشيواجى أنه كان يحرص فى غاراته على ألا يتعرض أحد من رجاله لمساجد المسلمين أو نسائهم وأطفالهم بالسوء برغم عدائه الشديد لهم.

وفيهما كذلك عاش زعيمهم شاهجى وابنه شيواجى وحفيده شمبهوجى، وكانوا جميعا على تحالف وثيق فى بعض الأوقات مع حكمهما، ويجمعهم معا فى صعيد واحد، آخر الأمر، عداؤهم المشترك للدولة وكراهيتهم المتأصلة فى نفوسهم لهم.

وأشرف أورنكزيب بنفسه على حصار حصن بيجابور، فلم يغن صاحبه فتيلا استنجاده بأبى الحسن قطب شاه سلطان غولكوندة أو بشمبهوجى أمير المرهتها، حتى أرغم على الاستسلام بعد دفاع مجيد، دام عاما وبعض العام، استطاع إبانه البيجابوريون بمعاونة المرهتها أن يخربوا كافة الأراضى الزراعية ببلادهم ويحرقوا محاصيلها حتى عانى الغزاة شحا شديدا فى الأقوات كاد يصرفهم غير مرة عن غايتهم، لولا عناد قائدهم أعظم بن السلطان وشدة مراسه.

ودخل السلطان بنفسه المدينة قبيل أواخر عام ١٠٩٧هـ/١٦٨٦م فهدم كل النقوش الهندية التى كانت تزين قصر سلطانها سكندرشاه، كما خرب رجاله بدورهم جملة من المنشآت الفخمة الأخرى بها :

وقضى سلطان بيجابور وهو فى الثانية والثلاثين من عمره بعد أن أنفق بضع سنين فى حصن دولت آباد بالدكن. وشاركه محبسه هذا بعد قليل أبو الحسن قطب شاه سلطان غولكونده بعد أن سقطت بلاده بدورها فى أيدى الدولة([1]).

ذلك أن أورنكزيب كان قد اشتد حنقه على صاحب غولكونده أمير حيدر آباد حين امتنع عن دفع الجزية التى تعهد بها الدولة من قبل، ونقض اتفاقه معها بالابتعاد عن محالفة أعدائها، حتى اتخذ له وزيرين من الهنادكة هما مادنا وآلنا فكانا على اتصال وثيق بشمبهوجى، زعيم المرهتها فى الخفاء، وها هو آخر الأمر يعاون أصحاب بيجابور فى حربهم مع الدولة.

هنالك زحف أورنكزيب على غولكونده، وابنه أعظم فى حصاره لبيجابور، حتى إذا ما بلغه قتل الأهلين بها للوزيرين الهندوكيين عدل عن المضى فى زحفه، إلى حين، ليعاون ابنه أولا فى حربه.

---

(١) عالمكير نامة ٩٤٦

وعاد السلطان، بعد سقوط بيجابور، إلى غولكونده من جديد، ليواجه بها مقاومة عنيفة عاون أصحابها عليها المرهتها، فأحرقوا الزرع على عادتهم وأخذ الجوع والوباء يفتك بجند الدولة حتى تمكن أورنكزيب، بالرشوة والخديعة، من التسرب آخر الأمر إلى داخل الحصن.

ولم يفت تدفق الغزاة فى عضد الوزير عبد الرازق الذى انطلق فى حفنة قليلة من رجاله لا تزيد على أثنى عشر نفرا يدفع بهم أعداءه عند باب الحصن فى تهور وشجاعة مذهلة حتى أعاقته جراحه التى زادت على السبعين عن مواصلة النضال.

وندب أورنكزيب لعلاج هذا الوزير طبيبا هنديا وآخر أوروبيا وحين شفى من جراحه أراد السلطان أن يكرمه لشجاعته بإلحاقه وولديه ببعض المناصب، فاعتذر له ممتنا بأنه لا يستطيع أن يخدم سلطانا بعد مليكه أبى الحسن، أكبر أورنكزيب فيه وفاءه وشمله بالكثير من الرعاية والإحسان([1]).

وفى حصن غولكونده ومدينة حيدر آباد الدكنية استخوذ أورنكزيب على كنوز كثيرة وأموال طائلة كانت تدرها على هذه البلاد أراضيها الخصبة، وموانيها التى كانت تزدحم بالتجار الأوروبيين، ومصانعهم التى كانوا يدفعون عنها للسلطان رسوما باهظة سنوية.

شمبهوجى : انتهى أورنكزيب من أمر هاتين الإمارتين ليفرغ من بعد ذلك لحرب المرهتها، وكان أميرها سمبهوجى قد آثر أن يلزم حصن سنجمشوار طلبا للسلامة، والسلطان منهمك فى حربه مع جيرانه، حتى وقع عليه مقرب خان قائد أورنكزيب، وهو فى تقاعسه منصرف إلى لهوه، فأسره مع زوجاته وبناته وفريق من رجاله، ثم قتله وأعيانه وأمر فطوف برؤوسهم فى أغلب مدن الدكن عام ١١٠١هـ/١٦٩٠م، عظة وعبرة([2]).

---

(١) منتخب اللباب ٣٣١ – ٣٣٥

(2) Sarkar. Hist. Of Aurengzib IV p 408.

وسقطت راجكره عاصمة المرهتها بأيدى الدولة بعد أشهر قلائل من أسر أميرهم، وأحيط بأفراد أسرته جميعًا إلا رام داس، ليجتاح أورنكزيب من بعد ذلك الجنوب كله حتى يبلغ تنجوره بأقصاه.

بهذا صارت شبه القارة الهندية كلها فى حوزة أورنكزيب إلا أماكن قليلة عند الساحلين الشرقى والغربى كانت بأيدى المستعمرين الأوربيين، وإن لم يمكنه ترامى أطرافها، وما يحمله له أغلب أهليها الهنادكة من كراهية وعداء، من إحكام قبضته فى الواقع عليها وتثبيت أقدامه بها. هذا فضلاً عما استنزفته حروبه بها من أموال طائلة حتى عجزت الدولة أواخر أيامه عن الوفاء بمقرارات الجند([1]).

لقد أراد أورنكزيب أن يجعل من جنوب الهند إمارة تابعة له يجرى حكمها على غرار حكومة البنغال أو البنجاب، فقضى هذه السنين الطويلة مقيمًا، فى الغالب، هناك حتى نهاية عمره، فلم يبلغ إلى تحقيق هدفه على الوجه الذى ابتغاه ذلك أن قواده لم يكونوا من طراز أولئك الرجال الأشداء ذوى الجلد، الذين ساروا مع جده الأكبر بابر ففتح بهم الهندستان وكسربهم شوكه الراجبوتيين، إذ كان كل واحد منهم يحرص أشد الحرص وهو فى حملات الدكن على توفير أسباب الرفاهية والأبهة لنفسه على أكمل وجه وكأنه لا يزال يقيم بالعاصمة فى قصره ومن حوله نسائه وجواريه. هذا كما كان الراجبوتيون بدورهم قد تخلوا عنه، وهم الذين طالما عاونوا أبائه فى حروبهم من قبل. فلو كان قد أتيح لأورنكزيب رجال من أولئك وهؤلاء لاستطاع، أغلب الظن، القضاء التام على المرهتها فى يسر، ولثبت أقدامه فى الهند كلها، ولجنب الدولة بالتالى الأخطار القاتلة التى تعرضت لها فيما بعد على أيدى المرهتها والسك([2]).

هذا وقد حاول رام داس أن يلم شعث المرهتها من جديد، بعد أن كتبت له السلامة من الأسر، فلم يحالفه التوفيق، حتى حاصرته قوات الدولة آخر الأمر فى حصن ستارا إلى الجنوب من بونا. واستسلم أصحاب الحصن لأعدائهم بعد موت

---

(1) Dunbar 279.

(2) Lane-Poole. 401,2.

أميرهم، وقد تزعمتهم من بعد ذلك تاربى أرملة هذا الراجا فقادت عصاباتهم فى عزم أسلافها وحنكتهم. وحين سار أورنكزيب إلى أحمد آباد عام ١١١٧هـ/١٧٠٥م، مضوا فى أثره يخربون أراضى الدكن حتى مشارف مالوه، فبلغ ما هلك من السكان على أيديهم هناك، وما قضى عليهم القحط، بسبب انحباس الأمطار قبل ذلك بسنوات، بضعة ملايين.

لم ينقض عام على أورنكزيب بأحمد آباد حتى بلغ به المرض والشيخوخة مبلغه فأيقن بدنو أجله. هنالك فرق أبناءه فى أنحاء الدولة مخافة أن يقع بينهم ما وقع بينه وبين إخوته من قبل من تطاحن وفتن، فبعث بأعظم إلى بيجابور وبكام بخش، أحب أبنائه إليه، إلى مالوه.

وكان أورنكزيب منذ أول عهده على حذر تام من أبنائه حتى لم يتردد فى إلقاء ابنه الأكبر سلطان فى الحبس حتى مماته، كما سجن ابنه، معظم، سنوات ثمانية حين بلغه خبر تفاوضه مع سلطان بيجابور، أثناء حرب الدكن، دون تصريح منه. وفعل مثل ذلك مع ابنه كام بخش وكان أقرب أولاده إليه. بل إنه لم يتردد كذلك فى عقاب ابنته زيب النسا، وكانت شاعرة موهوبة، لعطفها على أخيها أكبر حتى وافاها أجلها فى الحبس([1]).

وحين اشتد به الداء أوصى رجاله أن يقيموا له جنازة بسيطة عند وفاته، ويسرعوا بدفنه فى أقرب مقابر للمسلمين، ولا يزيدوا فى ثمن كفنه على خمس روبيات كان قد كسبها من صنع الطواقى وبيعها، وأن يتصدقوا على الفقراء بثلاثمائة من الروبيات كانت هى كل ما يملكه وما تبقى له من دخله من نسخة للقرآن الكريم وبيعه.

وفاضت روحه يوم جمعه، على مناه، فى الثامن والعشرين من ذى القعدة عام ١١١٨هـ/١٧٠٧م وهو فى التسعين من عمره فوورى التراب فى مقبرة دوات آباد([2]).

---

(1) Muslim Rule 652.

(٢) مرآة عالم ١٦١

شخصية أورنكزيب : وقف أورنكزيب عالمكير حياته كلها على إعلاء شأن السنة ونشر لواء الإسلام خفاقا عاليا، ومجاهدة عبادة الأوثان والخارجين على إجماع أهل السنة من أصحاب المذهب الشيعي وغيرهم. وقضى أيامه على خير ما يقضيها مسلم تقى يحفظ القرآن ويصوم أغلب أيامه، حتى كان لا يتردد، وأعنف المعارك تدور من حوله، فى أن ينزل عن دابته فيؤدى الصلاة فى وقتها باطمئنان بالغ وخشوع وكأنه يقيمها بالمسجد الجامع أو فى داره(١).

ويلغ من ورعه وتجنبه للترف والمتع، إلى جانب تحريمه التام للخمر والميسر، أن أبعد الموسيقيين والمطربين عن بلاطه برغم براعته فى العزف(٢)، وخير الراقصات بين الزواج أو النفى فى الأرض. كما طوى قلبه على الرحمة البالغة برعاياه حتى بعد كل البعد عن القسوة والقتل، وكاد يستغنى عن اصطناع العقاب فى محاكمة المجرمين إلا قطاع الطرق منهم(٣).

هذا فضلاً عما شهر به من تجمل بالصبر وهدوء النفس فى المحن، والتواضع الشديد الذى أدى به إلى تهديد نائبه بالبنغال حين بلغه أنه يتعالى عن الناس فى مجلسه حتى اتخذ له ما يشبه العرش ليتربع عليه(٤).

ولقد نشأ منذ شبابه على التمرس بالحكم والاضطلاع بالحرب ووقائعها، فأصاب نجاحًا كبيرًا فى حكم الدكن وحروبه، كما ذاع صيته كذلك فى معارك بلخ وبدخشان مع الأوزبك وغيرهم.

وأدت به رقابته لضميره فى كافة ما كان يصدر عنه من أعمال أنه كان لا ينام إلا ساعات قليلة، لينفق وقته كله فى الإشراف على كل كبيرة وصغيرة من

---

(١) يروى أن الموسيقيين حملوا عندئذ النعوش مولولين والسلطان فى طريقه إلى المسجد، فحين استفسر عن أمرهم فأجابوه فى طريقهم لدفن الموسيقى، طلب إليهم أن يحسنوا دفنها حتى لا تعود إلى الحياة ثانية.

(2) Lane-Poole. 353.

(3) Lane-Poole. 401,2.

(4) Muslim Rule 635.

شئون الدولة بنفسه، ويسهر فى دأب متواصل على مصالح رعاياه، ويبت فى كل مسائلهم برأيه الخاص، حتى كان وزراؤه فى الغالب مجرد كتاب لتنفيذ أوامره.

وبلغ من حرصه على تحقيق العدل لرعاياه أنه أصدر أوامره المشددة لقضاته فى كافة أنحاء البلاد بأن يتوافروا على دراسة قضايا الناس ومشاكلهم، مع سرعة الفصل فيها بالجلوس للقضاء خمسة أيام فى كل أسبوع بدلاً من يومين على الرسم السابق.

على أن غيابه الطويل بالجنوب وهو يدير دفة المعارك هناك، قد أدى إلى تسرب الفساد إلى جهاز الحكم وسلوك أغلب العمال طريق العنف مع الأهلين.

ولم يلبس أورنكزيب إلا بسيط الثياب، ولم يكن يسمح لأحد أبدًا أن يغتاب غيره فى حضرته. وأدى به ورعه وزهده إلى أن كف يده عن بيت المال فى الغالب، فعاش على ما كان يكتسبه من صنع الطواقى بنفسه ونسخه للقرآن الكريم بخطى الشكست (الرقعة) والنستعليق، وكان فى كتابته ذوق فنى رفيع، وكان يبعث ببعض هذه النسخ هدية منه إلى الحرمين الشريفين. وقد كان من أمانيه أن يحج إلى البيت الحرام لولا ما خافه من اضطراب أمور الهند فى غيبته، فأخذ على عاتقه تيسير سبل الحج لرعاياه.

ولم يشتغل أورنكزيب فى حياته بغير علوم القرآن والسنة فى الغالب، على تمكنه من الآداب الفارسية وبراعته فى النظم الذى عدل عنه حذر الغواية.

وألف بأمره وإشرافه موسوعة مهمة تجمل أقوال أئمة الفقه الحنفى فى المذهب، وهى المعروفة بالفتاوى الهندية أو العالمكيرية([1]).

على أن أورنكزيب كان يرى اصطناع الخداع فى السياسة أمرًا واجبًا، وأنه لا ضير على الحاكم من نشر شبكة من عيون الناس لتأتيه بأخبارهم وتنبئه بأحوالهم. كذلك لم يكن ير بدًا من أن يصطنع السلطان الرحمة والشفقة مع أعداء

---

(١) طبعت هذه الفتاوى بمصر عام ١١٨٢هـ أى بعد مضى قرن ونصف القرن على وفاة أورنكزيب وهى من المراجع الشرعية المهمة فى الأحوال الشخصية.

عقيدته الذين يناوئونه، فعصف لذلك بالمرهتها والراجبوتيين والشيعة والسك عصفًا شديدًا حين وقعوا فى قبضته.

البريطانيون عند أورنكزيب : كان من أثر وقوف البريطانيين فى وجه شيواجى زعيم المراهتها، حين أقدم على نهب سوارت،، أن توثقت علاقاتهم بأورنكزيب الذى قابل موقفهم من عدوه بتخفيض الرسوم التى كانت تفرض على وارداتهم.

وكان البريطانيون قد أفادوا، من قبل، من سخط شاهجهان على البرتغاليين وتدميره لمراكزهم عند هوجلى، فحصلوا على إذن لهم منه بإقامة وكالة لهم هناك، لتخضع من بعد ذلك كل وكالاتهم الهندية لإشراف موحد مركزه فى سوارت.

وامتد نفوذهم التجارى من بعد ذلك إلى بمباى بالساحل الغربى، حتى إذا ما عارضوا شايسته خان حاكم البنغال فيما فرضه عليهم من رسوم جديدة، على خلاف اتفاقهم السابق من شاهجان، فعمدوا إلى مناهضة الدولة، دحرتهم قوات أورنكزيب عند كل مراكزهم، فضاعت منهم مصانعهم عند هوجلى وشوليبانام، وحرموا حرمانًا تامًا من ممارستهم لنشاطهم التجارى فى أراضى الدولة من بعد ذلك.

على أن ما كانت تجنيه الدولة منهم من رسوم كثيرة، أغرت أورنكزيب بالعفو عنهم، فجاءوا من جديد ليقيموا لهم بأدنى هوجلى محلة جديدة بالقرب من قرية صغيرة تدعى كلكتا. وما غدت هذه القرية تتسع فى تدرج سريع حتى أصبحت عاصمة الإمبراطورية الهندية البريطانية قبل أن ينتقل نائب الملك إلى دهلى الجديدة.

ووحد البريطانيون من بعد ذلك جهودهم ونشاطهم التجارى عند الساحلين الشرقى والغربى فى شركة الهند الشرقية، ودأبوا قرابة نصف قرن على التظاهر، فى حرص تام، بالتباعد عن التدخل فى شئون الدولة.

ولم يكن يجول بخاطر أورنكزيب عالمكير أنه بتسامحه مع هذه العصبية إنما يمهد الطريق لأولئك الذين لم يتورعوا من سلوك أحط السبل وأدائها حتى تم لهم استعمار شبه القارة الهندية كلها.

خلفاء أورنكزيب

يتهم بعض المؤرخين أورنكزيب عالمكير بأن عدوله عن سياسة سلفه العظيم جلال الدين أكبر فى تقريب الهنادكة إليه وفتح باب مناصب الدولة الكبرى لهم قد أدى إلى شيوع الفتنة بينهم وجنوحهم إلى الثورات فى مختلف أنحاء البلاد مما عجل بنهاية الدولة المغولية. فى حين يرى مؤرخون آخرون، أن تقريب السلاطين السالفين للهنادكة وإصهارهم إليهم وحضهم المسلمين على الامتزاج بهم كان هو العامل الأول فى زلزلة بناء هذه الدولة.

وفى هذين القولين متسع للبحث : فأورنكزيب فى تمسكه بتعاليم السنة وقصره وظائف الدولة الكبرى على المسلمين لم يكن إلا ضريبًا لمحمود الغزنوى ومحمد الغورى اللذين أرسيا قواعد الحكم الإسلامى بالهند. وسلاطين المغول وغيرهم من حكام المسلمين بالهند، حين حضوا الناس على الإصهار إلى الهنادكة ومخالطتهم، إنما كانوا يبغون من وراء ذلك إلى تألف أفراد شعوبهم. وهو أمر عاون على ازدياد عدد المسلمين زيادة بالغة بالهند. حتى لترى أن الغالبية الغالبة من المائة مليون مسلم فى شبه القارة الهندية اليوم هى من أصول هندوكية.

والحجة الدالة على خطأ القول بأن اختلاط المسلمين بالهنادكة وإصهارهم إليهم أدى إلى ضياع دولتهم بالهند، هى أن أورنكزيب نفسه أمه هندوكية خالصة، وهو الذى خضعت لراية المسلمين فى عهده شبه القارة الهندية، والذى عرف بتمسكه البالغ بشعائر الإسلام وسننه. وقد شهد ثقاة المؤرخين، وفيهم من الهنادكة، بحزمه وشجاعته وعلو همته وأصالة رأيه، وقالوا بأن الهند لم تعرف منذ أيام سكندر لودهى، سميًا له فى حب العدل والسهر على مصالح الناس. ولئن كان هو آخر السلاطين المغول الكبار زمنا فهو يعد من بين أعظمهم وأقدرهم على كل حال.

وغاية القول أن انهيار الدولة المغولية لا يرجع إلى سياسة أورنكزيب أو سياسة أسلافه نحو الهنادكة، وإنما يرد إلى ما كان عليه خلفاء أورنكزيب من الضعف حتى عجزوا عن إدارة دفة الحكم فى بلادهم التى بلغ أبوهم برقعتها إلى ما لم تبلغه، حتى أيام أكبر، من السعة وترامى الأطراف وتمكن بما أوتى من حزم

وقوة شكيمة، من السيطرة على إدارتها سيطرة تامة، اللهم إلا فى أخريات أيامه حين خذلته الشيخوخة وأضناه المرض.

هذا ؛ كما انصرف كثير من رجالهم بدورهم إلى الاهتمام بمصالحهم الخاصة فحسب، حتى سعى فريق منهم إلى الاستقلال بما بأيديه من ولايات غير آبه بالأخطار التى طفقت تهدد كيان الدولة فى الداخل علىأيدى المرهتها والسك والراجبوتيين، مما أدى إلى تيسير غزو الفرس والأفغان لها مرات متتابعة من بعد ذلك، فزلزل بناء الدولة على أيديهم زلزالاً شديدًا مهد الأرض لأولئك المستعمرين الأوربيين الذين بلغوا، بقصور السلاطين السابقين عن إدراك نواياهم، إلى تثبيت أقدامهم فى أماكن عديدة بالشواطئ الهندية بما حصلوا عليه من امتيازات ورخص، ثم انطلقوا من بعد ذلك يحصنون مواقعهم بجندهم المدرب والأسلحة الحديثة التى لم يكن لها عند الدولة المغولية نظير، حتى أفلح البريطانيون منهم، بالقوة حينا، وبالدس والوقيعة والغدر أغلب الأحيان، فى أن يضعوا أيديهم على شبه القارة الهندية كلها.

بهادرشاه :

لم يجد فتيلا حرص أورنكزيب على أن لا تتكرر بين بنيه مأساته مع إخوته فى تنازعهم على الملك. فهو حين فرق أبناءه فى الأرض قبل وفاته، ولم يعهد لأحد منهم بالملك من بعده حتى لا يتآمروا عليه فى حياته فينتهى به الحال إلى ما انتهى إليه أبوه شاهجهان من مصير أليم على يديه، إنما أدى بإجرائه هذا إلى تأجيل الفتنة إلى ما بعد انقضاء أجله فحسب، دون اقتلاع أصولها.

فلم يكد يوسد الثرى حتى قامت الحروب بين أبنائه، وقد هدف كل واحد منهم إلى استخلاص عرش الهند لنفسه، فنادى أعظم بنفسه سلطانًا بمالوه وكذلك فعل أخوه كام بخش ببيجابور، فى حين زحف شاه عالم بهادر أكبر أبناء أورنكزيب من بشاور إلى البنجاب حتى بلغ دهلى، لينطلق إلى قتال أخويه من بعد ذلك فيقضى على أعظم بعد أن بلغت قواته مشارف آكرا، ويوقع كمام بخش فى أسره على

مقربة من حيدر آباد الدكن بعد ذلك بعامين، وقد رفض الأسير في عناد أن يعالج من جروحه حتى قضى بدوره[1].

هنالك عهد بهادرشاه بالوزارة إلى بدخشى منعم خان الذى كان له خير معين لبلوغه العرش ليواجه بعد ذلك ثورات المرهتها فى الدكن والراجبوتيين فى منازلهم ثم السك فى النبجاب والجات عند مشارف آكرا. وإلى جانب هؤلاء جميعًا كان البريطانيون قد أخذ خطرهم يتفاقم فى أغلب مراكزهم وعند الشواطئ الشرقية بخاصة، وكان أغلب القادة قد بعث السأم والضجر فى نفوسهم حروب أورنكزيب السابقة الطويلة وبات الجند أنفسهم بسببها فى حالة الإنهاك الشديد الذى أدى إلى سريان الفوضى فى صفوفهم، كما نتج عن اتساع رقعة الدولة، وضعف رقابتها على عمالها منذ أواخر عهد السلطان السابق، أن شرع فريق من الولاة بدوره يتقاعس عن شد أزر الدولة ومدها بقواته فى انتظار الفرصة المواتية للاستقلال بما بيده من أرضين.

الراجبوتيون والسك : لم يمهل الراجبوتيون السلطان الجديد وهو فى حربه مع أخوته حتى انحدر أجيت سنغ بن جسوانت من مكمنه بالجبال فائتلف وأمر سنغ صاحب أوديبور لينطلقا من بعد ذلك إلى جدهبور فيطردا عمال الدولة منها ويعملا التخريب فى مساجدها ويتخذا منها معابد لأوثانهم، ويذيقا المسلمين الخسف والذل بأرضها.

واتيح لبهادرشاه، بعد أن فرغ من أمر أخيه أعظم، أن يلزم هاذين الأميرين طاعته من جديد، ليعودا إلى سيرتهما الأولى من البغى بعد قليل وهو فى شغل عنهم بحربه مع ثانى إخوته كام بخش بالدكن. حتى إذا ما عاد إليهما ثانية بعد القضاء على فتنة الوراثة، دفعه حسن تدبيره إلى مهادنة الراجبوتيين جميعًا فى اوديبور وجدهبور وجايبور، فاعترف لهم بالرسم الذى كان لآبائهم أيام جده أكبر، كسبًا لمودتهم، حتى ينصرف مطمئنا إلى حرب السك الذين جنحوا إلى الثورة فى البنجاب من جديد[2].

---

(١) منتخب اللباب ٣٩٩ – ٤٩٠

(2) Lane Poole 413.41.

ذلك أن أحد البطهانيين الأفغان اغتال بالدكن كوفند سنغ، عاشر زعماء هـذه الطائفة، الذى كان قد وقع فى أسر أورنكزيب ثم التحق من بعد ذلك بخدمة بهادرشاه فسار معه فى حرب كام بخش بالدكن. وحين بلغ خبر مقتله البنجاب من بعد ذلك انطلق خليفته بندا يشعل الحماس بين بنى جلدته ويحرضهم على الانتقام لزعيمهم المقتول، فسقط بهم على سر هند فقتل حاكمها لينتشر رجاله من بعد ذلك فى البنجاب الشرقى فيشيعون فيه الخراب والدمار والقتل، فلم ينج من سيوفهم الأطفال أو النساء والشيوخ ولم يقتنعوا بذلك كله حتى امتد طغيانهم إلى لاهور وكادوا يبلغون بفتنتهم مشارف دهلى. لولا أن سارع إليهم السلطان فردتهم قواته إلى تلال جامو. ولم يمنع جند الدولة عن مطاردتهم وتشتيت شملهم إلا وفاة بهادرشاه بلاهور عام ١١٢٣هـ/١٧١١م وهو فى السبعين من عمره بعد أن حكم أربع سنوات وشهرين ساءت فيها أحوال الدولة المالية حتى اضطر القائمون على أمورها إلى اقتراض الأموال من بعض أمرائها لسد العجز فى الخزانة.

وكان من حسن تدبير هذا السلطان حين أطلق سراح شاهو، حفيد شيواجى، أن ركن المرهتها فى عهده إلى الهدوء حتى صحبه فى حربه مع أخيه بالدكن، بيما سندهيا، أحد كبار صدورهم.

ولئن كان المرهتها قد تفرقوا عقب موت أورنكزيب شيعا وأحزابًا، حتى ابتعدوا عن تحقيق أهداف شيواجى وشمبهوجى فى إقامة دولة موحدة كبيرة لهم، فإنهم لم يعدلوا أبدًا عما عرفوا به من الميل إلى التخريب والتدمير ما أتيحت لهم الفرصة بذلك.

جهاندار :

تقاتل أبناء بهادرشاه الأربعة على العرش، بعد موت أبيهم، على العادة الغالبة عند الأمراء التيموريين بالهند. ولقد كاد الحال يستقر بينهم، ببادئ الأمر، على يقتسموا ملك أبيهم فيما بينهم فيكون لجهانشاه الدكن ولرفيع الشأن الملتان، وتتاه وكشمير، على أن يقتسم جهاندار وعظيم الشأن بقية الأرض فيما بينهما، لولا أن

تنازعوا من جديد على الأموال ليبلغ ذو الفقار خان بدهائه إلى إثارة جهاندار ورفيع الشان وجهانشاه، مجتمعين، على أخيهم عظيم الشان.

واتسع نطاق الفتنة بين الأخوة جميعًا حتى سقط فيها ثلاثة منهم، ليرقى العرش من بعد ذلك جهاندار فينصرف إلى اللهو والمتعة، ويبعد عن بلاطه الرجال المجربين والعلماء، حتى زحف إليه محمد فرخ سير، ابن أخيه عظيم الشان، من بتنا، وكان قد استقل بها على أثر مقتل أبيه ثم مد سلطانه إلى البنغال، فالتف حوله عمال الدولة هناك لعدله وشجاعته، فأنزل بقوات الدولة على كثرتها، ضربات متلاحقة حتى دخل آكرا فانطلق منها إلى دهلى فوجد عمه بقلعتها، فأورده الردى ولما يمض عليه فى الحكم أحد عشر شهرًا[1].

فرخ سير :

جلس فرخ سير على عرش دهلى فى المحرم من عام ١١٢٤هـ/١٧١٢م بعد أن طاف موكبه المدينة، والفيلة تتقدمه وعليها جثتا عمه جهاندار ووزيره ذى الفقار، فاتخذ له وزيرين أخوين ينتميان إلى أشراف العرب هما السيد عبد الله خان والسيد على خان، لينفسا من بعد ذلك على عبد الله ميرجمله معتمد الملك ما حياه به السلطان من نفوذ واسع حتى اتخذه مشيرًا له وأطلق يده فى تصريف شئون الدولة كلها، فما زالا يوقعان به عند السلطان حتى أبعده آخر الأمر إلى بتنا وانفرد بالأمر كله. وقد نجم عن تنافس الخصمين وما كانا يحيكانه من التآمر والدس إلى هلاك كثير من الأنفس ظلمًا[2].

السك والمرهتها :

ونزع السك عام ١١٢٦هـ/١٧١٤م، إلى الفتنة من جديد، وكان زعيمهم بندا قد وحد صفوفهم بعد أن أقاموا لهم معقلاً قويًا بجود اسبور بالبنجاب، ثم أنطلق بهم إلى أراضى هذا الأقليم الشمالية فانتهبوها وسيطروا على كافة الأراضى الواقعة بين

---

(١) منتخب اللباب ٤٣٨

(٢) المصدر السابق.

لاهور وسرهند. حتى بعث السلطان إليهم بقائده عبد الصمد دلرجنك فخاض معهم وقائع عنيفة، فلم يفلح في إرغامهم على الخضوع والتسليم بعد أن ارتدوا إلى حصونهم إلا حين شاعت فيهم المجاعة بفعل الحصار المحكم الذي ضربه عليهم.

وسيق غورو بندا وألوف من أتباعه إلى العاصمة أسارى، ليقتل منهم في كل يوم بضع مئات حتى فنوا عن آخرهم. وما غدا زعيمهم أن لحق بهم بعد أن شهد ذبح ابنه، أمام عينيه، انتقامًا لمن ذبحهم من أبناء المسلمين في البنجاب[1].

وكان من أثر هذا العقاب الرهيب أن ركن السك إلى السلم بضع سنين.

هذا وكان قليج خان نظام الملك بهادر فتح جنك، مؤسس بيت النظام في حيدر آباد، حين ولاه السلطان شئون الدكن قد حد في كبح جماح المرهتها الذين انطلقوا يفرضون على التجار والسكان ربع المكوس المقررة عليهم نظير عدم تعرض عصاباتهم لهم. حتى إذا ما استدعى هذا الأمير إلى البلاط ليحل محله هناك الوزير حسين على خان بعد أن غضب السلطان عليه، أدى بهذا الأخير انصرافه إلى مشاحناته وخلافه مع السلطان إلى مهادنة المرهتها على أن يجعل لهم أكثر من ثلث خراج الدكن كله.

وضاق فرخ سير آخر الأمر ذرعا بنفوذ وزيره الآخر عبد الله خان، فدبر وبعض رجاله خطتهم على الخلاص منه، لكن عبد الله أفسد تدبيرهم بحذره، حتى قدم أخوه العاصمة في قوة من المرهتها فأطبقوا جميعًا على السلطان في قصره وأوقعوه في أسرهم ثم سملوا عينيه، وقضوا عليه شنقا بعد ذلك بقليل بعد أن حكم ست سنوات وبضعة أشهر.

رفيع الدرجات :

هنالك أجلس الوزيران على عرش دهلي أبا البركات رفيع الدرجات في حين نادى خصومهم بنيكوسير، أحد أحفاد أورنكزيب، أميرًا عليهم بآكرا.

---

(١) منتخب اللباب ٤٥٨

ووافى رفيع الدرجات أجله بعد أشهر ستة من حكمه قضاها على فراش المرض ليخلفه رفيع الدولة شاهجهان الثانى فيسير سيرته فى الاستسلام فى كل شئ إلى وزيريه والخضوع التام لرأيهما. وقد قوى من نفوذهما استعادتهما لآكرا ووقوع أميرها نيكوسير فى أسرهما.

محمد شاه :

قضى شاهجهان الثانى بدوره بعد حكم لم يبلغ شهوراً ثلاثة، فأتى الوزير عبد الله خان بابنه محمد روشن أختر وأجلسه على العرش فى ذى القعدة من عام ١١٣١هـ/١٧١٩م باسم محمد شاه ليحكم من بعد ذلك تسعًا وعشرين عامًا ويشهد تفكك الدولة وانهيارها على يديه.احتال السلطان الجديد بدوره على التخلص من استبداد وزيريه الأخوين به، حتى إذا ما تم له القضاء عليهما، استدعى إليه آصف جاه نظام الملك فاتخذه وزيرًا له. لكن سلوك العصبة العابثة، التى غدا السلطان ينقاد بالبلاط لمشورتها ما لبث أن دفعه إلى ترك العاصمة بعد قليل إلى الدكن حيث أمكن له أن يثبت أقدامه بإمارة حيدر آباد الحالية بعد أن هزم قوات الدولة التى وفدت لقتاله، حتى أقره محمد شاه آخر الأمر عليها وأطلق يده فى شئون الدكن(١).

ولم يكن نظام حيدر آباد هو أول أمير استقل بإمارته استقلالا فعليا لا ينال منه اعترافه الإسمى بسيادة السلطان. إذا الواقع أن نفوذ الدولة وسيطرتها على كثير من ولاياتها كان قد غدا، بعد وفاة أورنكزيب ببضع سنين، يأخذ طريقه إلى التلاشى. فقد استقل كذلك بما بأيديه من أرضين مرشدقلى خان نائب السلطان على البنغال وأوريسه وبهار، أغنى أقاليم الهند، فتوارث أولاده ملكه من بعده، وحذا حذوه كذلك سعادت خان وأبناؤه بإقليم أوده.

ولئن عمد نظام الملك فى إمارته الجديدة إلى إجراء الخطبة وضرب السكّة باسمه، فقد ظل سنين كثيرة على ولائه للدولة فساندها فى كثير من المواقف بإخلاص.

---

(١) تاريخ هندى ٤٤ – ٤٥

وهكذا زال كل سلطان للدولة على الأراضى التى تقع إلى الجنوب من نـــهر نريدا بقيام إمارة حيدر آباد الدكنية، ومن حولها المرهتها الذيــن توصلــوا لتمكيــن نفوذهم وأقدامهم بما أقرته الدولة لهم من نصيب خراج الدكن، ضمنوا بــه مــوردا كبيرًا لهم.

المراهتها :

أدى فتور همة شاهو أمير المرهتها إلى انفراط عقد دولتهم، فراح كل زعيـــم من كبارهم يعمل لحسابه الخاص، وقد نبذوا جميعًا الحرص على وحدة الدولة التــى عمل لها شمبهوجى وشيواجى من قبل وتجردوا للسلب والنهب والتخريب، وســيلتهم السابقة وغايتهم من قبل.

وامتد نفوذ عصاباتهم إلى البحر، فقاد قبطانـــهم تولاجــى قراصنتـــهم عنــد الشواطئ الشرقية والملبار، فظل البريطانيون يرهبونهم هناك حتى تم لهم القضــــاء على كل نشاط بحرى لهم فى الربع الأول من القرن الثامن عشر الميلادى(1).

لقد كان على المرهتها أن يمسكوا بعصاباتهم عن إثارة الاضطرابات بجنــوب الهند نظير ما ترصده الدولة لهم من نصيب فى خراج الدكن. حتى إذا ما عادوا إلــى سيرتهم الأولى من البغى والعدوان، فحاول نظام حيدر آبــــاد أن يقتحــم قصبتـــهم القديمة بونا بقواته، رد عنها ردًا عنيفًا . وشرع أصحابها يطاردونه حتى تعرضـــت حاضرته نفسها لخطر هجومهم عليها، فلم يجد آخر الأمر مندوحة مــن خطــب ود البيشوا(2) وزرائهم الأقوياء الذين كان بيدهم المقاليد الفعلية لإدرة الدولة، فهادنـــهم على ألا يتعرض لهم إذا ما ساروا إلى أراضى الدولة فى الشمال بعيدًا عن أملاكــه، وفى خاطره انه بخطته هذه سيدفعهم إلى مناهضة الراجيوتيين أعدائه وأعداء الدولــة على السواء.

---

(1) Dnnbar. 297.

(2) البيشوا هو الزعيم.

ولو كان المرهتها قد ائتلفوا مع هؤلاء الراجبوتيين على الدولة بدلاً من اجتياح أراضيهم، مغيرين، طلباً للغنم الذى صار كل غايتهم فى حروبهم فى الغالب، لكفلوا لأنفسهم نفوذاً أوسع مدى ومغانم أضخم قدراً بالهند دون شبهة.

على أنهم لم يكادو يبلغوا مالوه ثم يظهروا من بعد ذلك عند مشارف دهلى، حتى استنجد محمد شاه بنظام الملك، الذى طمع بخروجه إلى حربهم فى أن يقضى على خطرهم المتزايد، حتى إذا ما دحرت قوات السلطان وأمير حيدر آباد مجتمعه عند بهوبال، تشرباجى راو الزعيم المرهتهى نفوذه وسلطانه على كافة الأراضى التى تمتد فيما بين نربدا وسنبهل بما فيها مالوه.

الغزو الفارسى :

أقبلت على الهند كارثة مروعة فى ركاب نادرشاه، صاحب فارس، كانت أشد وطأة على الدولة وأبعد أثراً من الغزو التيمورى الذى تعرضت له البلاد قبل ذلك بثلاثة قرون ونصف القرن.

ذلك أن هذا العاهل القدير، وكل من أسرة تركمانية رقيقة الحال فى خراسان، توصل بجده وطموحه ودهائه إلى الجلوس على عرش الصفويين بإيران، ليتجه من بعد ذلك إلى توسيع ملكه حتى دانت له كافة الأراضى الواقعة فيما بين بحر الخزر وقندهار. وما لبث بعد ذلك إن استحوذ على إقليم كابل، وكان لا يزال بأيدى أصحاب دهلى، ثم انحدر إلى البنجاب فنشر الخراب والدمار فيه كله، بعد أن دخل لاهور فى شوال من عام ١١٥١هـ/١٧٣٩م.

ولقد أصمت حكومة دهلى أذنيها حين استغاث بها عاملها على البنجاب لدى مقدم نادرشاه إلى أراضيه(١)، فلم تنتبه من غفلتها إلا بعد أن كان الفرس قد توغلوا فى البنجاب واقتحموا قصبته. ومع هذا فقد أضاع السلطان المغولى ورجاله كثيراً من الوقت فى نقاش عقيم غلبوا فيه أحقادهم على مصلحة الدولة، حتى انتهوا إلى

---

(١) تذكرة آنندرام مخلص ٧٧

استبعاد إسناد قيادة الحملة إلى نظام الملك أمير حيدر آباد الذى كان قد قـدم لنجـدة السلطان ببعض قواته، حذر الشائعات التى زعموها بتواطئه مع شاه الفرس(1).

واستنجد السلطان كذلك بالراجبوتيين والمرهتها ؛ فأما الأولون فلـم يعـيروا دعوته التفاتا، وأما الآخرون فقد آثروا أن ينصرفوا إلى تأمين حدودهم، فأقاموا لـهم خطوطًا دفاعية حصينة على طول نهر نربدا وكمنوا من ورائها.

والتقى الغزاة بالمدافعين عند كرنال على حدود البنجـاب فـى معركـة لـم تستغرق سوى ساعات ثلاثة منى فيها السلطان بهزيمة منكرة استسلم علـى أثرهـا لنادرشاه، ليدخل من بعد ذلك جند فارس مدينة دهلى فيعملون فيها السلب والنـهب والتدمير ويقتلون من أهلها ما يزيد على العشرين ألف نسمة.

ولم يرجع نادرشاه عن الهند إلا بعد أن اغتصب عرش الطـاووس لنفسـه، وأرغم محمد شاه، نظير إعادته إلى عرشه، على التنازل لـه عـن أرض كثـيرة بالبنجاب تمتد من كشمير حتى ولايـة السند، مع تعويضات مالية طائلة ومزيد مـن الجواهر والأحجار الكريمة جعلته، يتغاضى عن جمع الضرائب من سكان فـارس لسنوات ثلاثة(2). ولم ينس نادرشاه بدوره أن يسلك فى ركابه قسرًا فريقًا من مـهرة النقاشين ورجال المعمار(3)، على غرار ما فعل محمود الغزنوى وتيمور من قبل.

ويضم نادرشاه بلاد الأفغان وقسما كبيرًا من البنجاب إلـى بـلاده حرمـت سلطنة دهلى من حدودها الطبيعية التى كانت تحمى سهولها، ومنـع عنـها مـوارد كثيرة كان مصدرها هذه الأقاليم الغنية، وانكمشت بالتالى إلى إمارة صغيرة لم يعـد لها قبل المرهتها والسك الذين استشرى خطرهم وأخذوا يعيثون فى الأرض فسادا.

والواقع أن غزو بادرشاه كان أخطر على الدولة الإسلامية، بالهند من الغـزو التيمورى وأبعد أثرًا وأوخم عاقبة.

---

(1) تاريخ هندى ٦٠

(2) Dunbar 301.

(3) سير المتأخرين ٧١٦ - ٢٠

ذلك أن الدولة الإسلامية، برغم تفككها عقب تخريبات تيمور، استطاعت على كل حال أن تستعيد سيرتها الأولى من القوة فى أغلب إماراتها وأقاليمها الكـبرى، إذ لم يكن لها بالبلاد أعداء يتربصون بها نظير المرهتها والسك، علـــى الخصـــوص، الذين كانوا للدولة المغولية بالمرصاد، ومن ورائهم المستعمرون الأوربيون، وعلـــى رأسهم البريطانيون، عند شواطئها يعدون العدة لابتلاع أراضيها كلها.

الغزو الأفغانى :

ظل البنجاب بأيدى الفرس اثنى عشر عامًا حتى دخله عليهم أحمـــد أبدالـــى الدرانى، شاه الأفغانى، الذى نجح بعد مقتل نادرشاه فى أن يوحـــد قبـــائل الأفغـــان بزعامته ويمد سلطانه حتى سيحون وشواطئ قزوين لينحدر من بعد ذلك إلى سهول الهند.

وأفلح محمد شاه سلطان الهند فى رد الأفغان وأميرهم عن بلاده أول مرة عام ١١٦٠هـ/١٧٤٨م، حتى إذا ما وفاه أجله فى مستهل العام التالى، خلفه ابنه أحمـــد شاه ليواجه ثورة قبائل أفغانية أخرى، هى الروهيلا إحدى بطون يوســـفزى، عنـــد قنوج والدوآب، فلم يتح لوزيره صفدار جنك نائب أوده القضاء على فتنتهم إلا بعـــد أن استعان بالقائد المرهتهى هولكر وكان إذ ذاك بمـــالوه[1]. وقـــد مـــهد الســـلطان المغولى باستعانته بالمرهتها إلى انتشار نفوذ هذه الطائفة حتى بلغ البنغـــال بعـــد أن شمل مالوه والكجرات.

وانتهت غزوات أحمد أبدالى المتكررة على الهند مع اشـــتغال الدولـــة، فـــى ضعفها، بفتن الروهيلا المتعـــاقبة، إلى ضياع البنجاب واستيلاء الأفغان عليه.

عالمكير الثانى :

ما غدا الوزير غازى الدين نظام الملك أن تآمر على السلطان أحمد شاه لما كـــان من عداته هو وأمه له، فعزله وأجلس مكانة محمد بن جهاندار باسم عالمكير الثانى[2].

---

(١) تاريخ أحمد شاهى ١١٧، ١١٨

(٢) تاريخ عالمكير ثان ١٤٠ – ١٤٢

ونجم عن خلاف هذا الوزير صاحب حيدر آباد مع زعيم الروهيلا نجيب الدولة، أن بعث هذا الأخير أحمد أبدالى شاه الأفغان يحرضه على الزحف إلى دهلى نفسها، فاقتحمها برجاله عام ١١٧٠هـ/١٧٥٧م وأنزل بها وبأهلها أضرارًا فادحة ثم عاد إلى بلاده بعد أن ألقى بمقاليد الأمور فيها إلى نجيب الدولة ونصب ابنه الأصغر تيمور شاه نائبًا له بالبنجاب.

ولم يكن نظام الملك ليرضى بغل يده عن تصريف الأمور فى دهلى، فما إن فشل فى إقتحام أوده واله آباد، وكان أصحابهما على صلة وثيقة بنجيب الدولة، حتى راح يستعين بالمرهتها، فحرضهم على مهاجمة قوات الشاه الأفغانى فى البنجاب، ونجيب الدولة فى العاصمة وما حولها.

وأفلح القائد آدينه بك خان فى أن يطرد قوات أحمد أبدالى من البنجاب بمعونة المرهتها ويستخلص لنفسه من بعد ذلك لاهور ونتا والملتان التى خلفه السك عليها فيما بعد. ولم يكتف غازى الدين نظام الملك بطرد نجيب الدولة من العاصمة التى باتت تحت رحمة المرهتها وقادتهم، حتى أوفد رجاله فقتلوا عالمكير الثانى وهو بحصن شاهجهان([1]).

على أن نجيب الدولة ما لبث بمعاونة حليفة شجاع الدولة بن صفدار جنك، أمير أوده، أن دفع المرهتها عن منازل الروهيلا، ثم استنجد من بعد ذلك بالشاه الأفغانى ليخلصه من نظام الملك لذلك وحلفائه الذين لم يكن له قبل بالقضاء التام عليه، حتى لبى أحمد أبدالى نداءه ونجح فى طرد المرهتها من البنجاب والشمال الهندى كله.

دحر المرهتها عند بانى بت :

على أن عصابات الدكن هذه مالبثت أن جمعت جموعها عقب انصرام فصل الأمطار فصار لها ثلاثمائة ألف من الجند ومعها ثلاثمائة من مدافع الميدان([2])

---

(١) عبرتنامه ٢٤١ - ٢٤٣

(٢) فرحة الناظر بن - ١٧٠

الثقيلة زحف بها أمراؤها، وسواس راو وسداشيوبها وسنديا، إلى دهلى ثم جاوزوها ليلتقوا من بعد ذلك بقوات الشاه الدرانى عند بانى بت.

ولم يكن شاه الأفغان بدروه فى قوة تزيد على الثمانين ألف مقاتل، ومدافعها لا تبلغ العشرين، ولم يكن رجاله على دراية بطرائق الحرب الحديثة التى أتيح لفريق من جند المرهتها التدريب عليها بأيدى الفرنسيين بمستعمراتهم الدكنية. فأفادوا منها كثيرًا فى حروبهم.

ونجح الأفغان آخر الأمر عام ١١٧٤هـ/١٧٦١م فى قطع المؤن عن أعدائهم ليخوضوا معهم من بعد ذلك معركة عنيفة هدت من كيانهم وصعصعت من نفوذهم بالهند. وبلغ من وقع فى الأسر من رجالهم مائتى ألف وفيهم قائدهم سنديا الذى قتل لوقته. ولم يقو زعيمهم البيشوا بلاجى راو على تحمل هذه الصدمة حين بلغته أنباؤها، وهو فى طريقه بالإمدادات عبر نربدا، فارتد إلى بونا حيث قضى نحبه هناك بعد شهور ستة[1].

البريطانيون فى البنغال وبهار : لم يكن المنتصر فى بانى بت هذه المرة هو الذى قدر له أن يمسك بزمام الأمور فى الهند كلها كما قدر لظهير الدين بابر حين قضى على السلطان إبراهيم اللودهى ولجلال الدين أكبر حين هزم الأمير الهندوكى هيمون وجنوده من قبل، فقد اضطر أحمد أبدالى شاه الأفغان، بعد انتصاره الحاسم هناك، إلى أن يعود إلى بلاده حين ثار عليه جنده لتأخر مرتباتهم وانتشار الأمراض والأوبئة الفتاكة فيهم بالهند، ليميل ثقل الحدثان من بعد ذلك إلى ناحية الشرق حيث كانت شركة الهند الشرقية البريطانية قد غدت توطد أقدامها فى البنغال وتحكم من خططها فى الجنوب الهندى حتى تم لها القضاء على نفوذ الفرنسيين هناك، ولما يكن قد مضى بعد أسبوع واحد على انتهاء معركة بانى بت، لتبلغ من بعد ذلك بالتدريج إلى وضع يدها على شبه القارة الهندية كلها وتضمها فى قرن واحد من الزمان إلى أملاك التاج البريطانى.

---

(1) Duff Hist of the Mahrattas VI PP 524-9.

ولقد وقعت أحداث بانى بت هذه وعرش دهلى خـــال بعــد مقتــل صاحبــه عالمكير الثانى وفرار ابنه على جوهر من وجه غازى الدين نظام الملك، حيــث لاذ بجلال الدين حيدر شجاع الملك نواب([1]) أوده فى جلال آباد.

موقعة بلاسى :

عن لعلى جوهر بن عالمكير الثانى وهو فى أوده أن يغزو البنغـــال، وكـــان البريطانيون قد بسطوا نفوذهم عليه بعد أن تم لهم إخراج أميره سراج الدولة منـــه. وكان هذا الأمير قد انتزع كلكتا من أيديهم فلم يبلغوا إلى استردادها منه إلا بعــد أن استمال كلايف، مدير شركتهم، القائد جعفر خان إليه برشوة قدرها ثلاثة ملايين مــن الروبيات([2]) ضمنوا بها النصر على الأمير المغولى ومعه سراج الدولة فى معركــة بلاسى، فى شوال من عام ١١٧٠هـ/١٧٥٧م، تلك المعركة التى تعد أولى المعارك الحاسمة بين المستعمرين والدولة فى الهند([3]).

وكوفئ جعفر خان على خيانته هذه بتنصيبه حاكمًا على البنغال تحت وصايــة الشركة البريطانية.

وما غدا الأمير المغولى أن بلغ بتنا فى مائة ألف من الجند ومعه محمد قولــى خان نائب ولاية الله آباد فالتقى مع ميران خان بن مير جعفر وأحلافه البريطـــانيين فى حرب كاد يتم النصر فيها لجند الدولة لولا ما نجم عن نقص مؤنه عند انســحاب جملة من الأمراء من صفوفه، فمنهم من آب إلى دياره ومنهم من استجاب لإغــراء الأعداء فانضم إلى قواتهم، حتى أضطر الأمير إلى مهادنة خصمه بعد ما نزلت بــه الهزيمة([4]).

---

(١) كلمة نواب هذه تقابل لفظ راجا أو أمير، فهى من ألقاب التشــريف، ولا يســتلزم أن يكــون صاحبها من أرباب المناصب.

(2) Dunbar 341.

(٣) تاريخ مظفرى ٣٢٥ - ٣٣٠

(٤) كان الأمير المغولى قد جعل من كلايف، مبعوث الشركة البريطانية وقائد قواتها. بعد معركــة بلاسى، قائدًا لخمسة آلاف من الفرسان، فحين طلب إليه الانضمام إلى قواته فى محاربة مــير

شاه عالم :

فى بتنا بلغ الأمير على جوهر خبر وفاة أبيه فنادى بنفسه سلطانًا على الهند باسم شاه عالم واتخذ شجاع الدولة وزيرًا له ثم آب إلى الله آباد فأقام بها.

وضاق البريطانيون ذرعا آخر الأمر بجعفر خان وخداعه، حتى إذا ما كشفوا عن تواطئه مع الهولنديين حين حاولوا إنزال بعض قواتهم إلى البر ليحموا بها مصالحهم التجارية فى شرق الهند، خلعوه بحجة تقدمه فى السن وربطوا له معاشًا ثم أقاموا مكانه زوج ابنته الأمير على قاسم.

وما لبث حاكم البنغال الجديد أن رفض بدوره أن يسير على هوى المستعمرين، حتى عارضهم فى رفع المكوس جملة عن بضائعهم، وكان الإعفاء فى الأصل وفقًا على ما يصل منها برسم أعضاء جاليتهم الخاص، حتى وضع يده عنوة على بتناوما بها من مصانع لهم.

موقعة بكسر :

حين قدمت قوات المستعمرين من كلكتا فأطبقت على بتنا، اتخذ على قاسم، بعد هزيمته، سبيله إلى نواب أوده فلاذبه. وقد أوقع بهما البريطانيون عند بكسر أواخر عام ١١٧٧هـ/١٧٦٤م ثم دخلوا الله آباد ولكنوا وجنار([1]).

وفى هذه الوقعة استسلم للبريطانيين شاه عالم فتنازلوا له عن الله آباد وما حولها وضمنوا له معاشًا سنويًا قدره مليونين وستمائة ألف من الروبيات على أن يطلق أيديهم فى جميع الخراج بالنبغال وبهار وأوريسه([2])، وبعبارة أصح، على

جعفر بالبنغال، بوصفه من قواده، اعتذر له بتحالفه مع أمير البنغال على رسم البريطانيين فى الدهاء، والخداع الاستعمارى. Dunbar 345.

ولم تزد قوات البريطانيين فى هذه الموقعة على أربعمائة وخمسين رجلاً مع ألفين وخمسمائة من أهل الهند، لكن أسلحتها الحديثة وحسن تدريبها ودهائها كفل لها النصر بطبيعة الحال.

(١) حديقة الأقاليم.

(2) Dunbar 354.

أن يعترف لهم فى الواقع بسلطانهم على هذه الأقاليم. كذلك ردوا لشجاع الدولة أغلب أراضيه على خمس ملايين من الروبيات يدفعها لهم.

المرهتها فى دهلى :

لبث شاه عالم يقيم فى الله آباد على وعود متكررة من البريطانيين بتيسير عودته إلى دهلى، ولكنهم لم يوفوا له بشئ منها أبدًا.

هذا، وكان أحمد شاه أبدالى قبل أن يعود إلى بلاده بعد انتصاره فى بانى بت قد اعترف بشاه عالم سلطانا على الهند، على أن يعهد بالوزارة إلى نظام الملك وبشئون المال والخراج إلى نجيب الدولة، وفى خاطره أن هذا الوضع سيكفل إقرار أمور الدولة هناك.

على أن نجيب الدولة تأتى له أبعاد خطر المرهتها ونظام الملك عنه، لينفرد من بعد ذلك بسنوات تسعا بشئون الحكم فى دهلى والسلطان فى منفاة بالشرق. وتمكن هذا الزعيم الأفغانى خلال ذلك من القضاء على فتنة السك، على كثرة عددهم بالبنجاب، لكن تهديد الجات له وزعيمهم سورج مل ثم ابنه جواهر سنغ من بعده أدى به إلى التفكير فى الاستعانة بالمرهتها لدفع خطرهم عنه.

ونجم عن وفاة نجيب الدولة تحرج الحال فى العاصمة، حتى بات الناس يتوقعون سقوطها فى أيدى المرهتها أو السك بين يوم وآخر. هنالك حزم شاه عالم أمره فاتفق مع المرهتها على أن يبادروا بدخول المدينة باسمه فيسلموها له من بعد ذلك على أربعة ملايين من الروبيات يدفعها لهم فى أوقات مرسومة. وبهذه الخطة أنقذ السلطان على الأقل سكان المدينة من تعرضهم لمذابح السك لو كانوا قد أتيح لهم الاستيلاء عليها([1]).

وصادفت خطة شاه عالم هذه قدراً كبيرًا من التوفيق والنجاح ليكتشف – من بعد ذلك ببضع سنين – أنه لم يتخلص من أيدى البريطانيين ويفر منهم إلا ليقع فى

(١) حافظ المرهتها دواما على تقاليدهم حتى فى أيام تفككهم فلم يقترفوا قتل السكان الآمنين على ما أشرنا إليه من قبل.

براثن المرهتها. الذين ما غدو أن بسطوا نفوذهم على دهلى وما حولها وأفلحوا بمعاونة من ضباط من الفرنسيين فى دفع البريطانيين عنهم بعض الوقت حتى اجتاح أراضيهم القائد البريطانى ولسلى ودخل دهلى عام ١٨٠٣م.

فقد قدر أن يفيد من عون المرهتها له، دون خطر كبير عليه منهم، بعد أن كسرت شوكتهم فى بانى بت، فيحقق لنفسه بذلك الاستقلال الذى ينشده بعيدًا عن البريطانيين ونفوذهم. وهو بعد فى مقامه الجديد سيصير له من دخل الأراضى التابعة لدهلى ما يعوضه عما كان يدفعه البريطانيون له، ثم منعوه عنه فيما بعد.

وهكذا سار شاه عالم إلى دهلى فدخلها فى مستهل عام ١١٨٥هـ/١٧٧٢م.برغم معارضة أغلب أتباعه الذين كانوا يؤثرون البقاء بإقليم الله آباد أرغد عيشًا وآمن مقامًا. وقد وجد فى وزيره الفارسى ميرزانجف خان ذو الفقار الدولة خير معين وحازم وناصح أمين طوال الاثنى عشر عامًا التى قضاها فى منصبه حتى وفاته. فقد دفع هذا الوزير عن الدولة خطر السك بعد أن هزمهم واسترد منهم آكرا، كما كسر شوكة الروهيلا الأفغان بتحالفه مع البريطانيين وشجاع الدولة نواب أوده عليهم، حتى أصبحت الدولة تمارس نفوذها ممارسة تامة فيما بين ستلج وسنبهل، كما استردت قدراً من مهابتها السابقة التى غابت عنها سنين طويلة من قبل.

وقضى نجف خان، ليؤدى القحط الشديد، الذى نزل بمنطقة دهلى من بعد ذلك عام ١٧٨٢م فأهلك ما يقرب من نصف السكان، إلى اضطراب اقتصاديات الدولة، حتى عجزت عن الإنفاق على الجيش القوى الذى أنشأه ذلك الوزير الحازم، فذاد به عن أراضيها طويلاً، فانصرف عنه كثير من الأمراء والقادة إلى بلادهم.

وأدى تنافس رجال الدولة فيما بينهم إلى استنجاد خلفه الوزير أفراسيابّ بمادهوجى سندهيًا زعيم المرهتها، بعد أن أخفق السلطان فى الاتفاق مع البريطانيين على مساندتهم له وفق شروطه، ليجمع هذا الزعيم المرهتى من بعد ذلك مقاليد السلطة كلها فى يده بوصفه نائبًا للسلطان، ويجعل من همت بهادر أحد رجاله وكيلاً مطلقًا بالدولة.

وتعرض سندهيًا لعدة ضربات في الراجبوتانا والدوآب، كما اقتحم دهلي في غيبته غلام قادر خليفة نجيب الدولة على الروهيلا منتصف عام ١٢٠٢هـ/١٧٨٧م وقبض على شاه عالم وسمل عينيه ثم نادى يابنه بدار بخت مكانه[1].

وتم للزعيم المرهتهي آخر الأمر تثبيت أقدامه في المنطقة كلها من جديد بفضل ضباطه الفرنسيين الذين آزروا ابنه دولت راومن بعده كذلك، حتى دفع البريطانيين عن بلاده، ليقبلوا من جديد عام ١٨٠٣م يقودهم قائدهم ولسلي فيجتاحوا أراضي المرهتها كلها ويقوضوا سلطانهم ويدخلوا دهلي.

---

(١) عبرتنامه ٢٤٧، ٤٨

الاحتلال البريطانى

طرد المنافسين :

أخذت بعوث البريطانيين التجارية تفد إلى الهند منذ بداية القرن السابع عشر الميلادى، ولم يثبط من عزيمة رجالها ما بذله البرتغاليون من جهود متواصلة عند سلاطين الدولة المغولية ليحولوا دون منافستهم لهم بهذه البلاد. وما لبث هؤلاء البريطانيون، بما اشتهر عنهم من الدهاء وسعة الحيلة، أن صرحت الدولة لهم بإقامة وكالات تجارية(1) عند سوارت فى الغرب وهو جلى فى الشرق، ثم ما زالوا يتقربون من بعد ذلك إلى سلاطين الهند حتى عاونوهم فى حربهم للبرتغاليين عند الشواطئ الشرقية، كما دفعوا المرهتها كذلك عن بعض الموانئ الهندية الغربية، ونال البريطانيون، إثركل عون قدموه للسلاطين، مزيدًا من الامتيازات حتى بلغوا من الثراء والقوة واتساع النفوذ ما مكنهم من شراء بمباى نفسها من البرتغاليين وتوسيع رقعة أراضيهم عند كلكتا ومد نفوذهم إلى مدراس وما يليها جنوبًا.

ولم يطق البريطانيون بطبيعة الحال منافسة الفرنسيين لهم بعد ما كسروا شوكة البرتغاليين وأحبطوا كل محاولة قام بها الهولنديون لتثبيت أقدامهم عند بعض شواطئ الهند.

وكان الفرنسيون قد بلغوا بتدبير دوبليكس، مدير الشركة الفرنسية الهندية، ودهائه، إلى مزيد من النفوذ فى الدكن وجنوب الهند فقد استطاع هذا الداهية الفرنسى أن يدرب بعض جنود إمارة حيدر آباد الدكنية وفريقًا من قوات جنوب الهند على أساليب القتال الحديثة وخططه حتى صار الحاكم الفعلى لكافة الأراضى الواقعة إلى الجنوب من نهر كرشنا والموجه لدفة الحكم فيها من وراء ستار.

---

(1) كان التجار الإنجليز يعانون كثيرًا من المشقة فى إخراج العملة الفضية من بلادهم ليدفعوا ثمن التوابل التى كانوا يشترونها من جزر الهند، حتى اهتدوا إلى إقبال تجار البهار على منسوجات الهند، فسعوا بدورهم إلى إقامة وكالات نسيج لهم بالهند. هذا؛ كما كانوا يجلبون كذلك إلى الهند من بلادهم أدوات الترف فيحصلوا نظيرها على ما يبتغون من منتجات هذه البلاد بتقديرهم.

وحين نشبت حرب الوراثة النمساوية عام ١٧٤٠م وتحارب فيها الفرنسيون والبريطانين بأوروبا، بادر دوبليكس إلى اجتياح مدراس والاستيلاء على كثير من مراكز البريطانيين عند الشواطئ الشرقية. وما لبث البريطانيون أن استردوا مراكزهم السابقة كلها بعد هذه الحرب، إذ أفلحوا، بدسائسهم بالعاصمة الفرنسية، في حمل لويس الخامس عشر على استدعاء دوبليكس وبهذا خلالهم الجو حتى قضوا على كل نفوذ للفرنسيين بالهند وانتزعوا منهم كل أراضيهم إلا ميناء بندشيري وبعض أماكن أخرى صغيرة متفرقة بالهند.

واصطنع البريطانيون طرائق دوبليكس الاستعمارية الفذة فانطلقوا يخضعون هذه البلاد الواسعة بجند من أبنائها وأموال من أموال أهلها.

وما لبث هؤلاء المستعمرون أن ثبتوا أقدامهم بالبنغال وأوده على أثر انتصارهم الحاسم في معركتي بلاسي وبكسر، وابرموا عام ١٧٦٦م معاهدة مع نظام حيدر آباد تعهد فيها الطرفان بتبادل المعونة والمساعدة عند تعرض أحد منهما للعدوان.

سلطان ميسور : هدف اتفاق البريطانيين ونظام حيدر آباد في الواقع إلى الحد من أطماع حيدر على أمير ميسور عند الجنوب الغربي من الهند. واضطر هذا الأمير بدوره إلى قبول مهادنة الشركة البريطانية آخر الأمر عام ١٧٦٨م وذلك بضغط من قواتها وقوات النظام. غير أن صاحب ميسور هذا ما لبث أن استولى عام ١١٩٥هـ/١٧٨٠م على كرناتيا كلها عند شاطئ كوروماندل. وخلفه ابنه تيبو فاشتبك في حروب متواصلة مع البريطانيين عدة سنوات.

وما إن هادنوه عام ١٧٨٤م حتى عقد العزم على أن يبدأ بضرب المرهتها ونظام حيدر آباد ليتفرغ من بعد ذلك للبريطانيين ويخرجهم من جنوب الهند كله، وفي حسابه أن فرنسا سوف تستجيب لاستنجاده بها. غير أن رسله عادوا من باريس وليس في جعبتهم سوى عبارات التشجيع والإغراء([1]).

---

(1) Moreland 319.

على أن أعداءه ما لبثوا أن اجتمعوا عليه آخر الأمر فحاصروه في حاضرته سرنغابم عام ١٧٩٢م، يقودهم كورنواليس قائد شركة الهند البريطانية، حتى أرغموه على مهادنتهم وقبوله التنازل لهم عن نصف أراضيه.

وفوت انتصارات نابليون بونابرت بأوروبا من عزيمة تيبو. وأصاب الفرنسيون بدورهم قدراً جديدًا من التوفيق بالهند كذلك، فاسترجعوا بعض نفوذهم في حيدر آباد وعقدوا أواصر الصداقة مع أمير ميسور واضطلعوا بتنظيم جيوش هاتين الإمارتين وتدريبها.

على أن القائد البريطاني ولزلي توصل بدهائه إلى القضاء على النفوذ الفرنسي من جديد واسترجع أميرها إلى حظيرة الشركة. حتى إذا ما وجد من تيبو الإصرار على تمسكه بالضباط الفرنسيين في جيشه وتحالفه مع فرنسا، سار إليه من مدراس فاقتحم عليه حاضرته في قتال عنيف سقط فيه السلطان الميسوري وهو يقاتل. وبهذا قضى البريطانيون على آخر أمير مسلم قوي وقف في وجههم بالهند في إصرار وإيمان وعناد.

وأتيح للبريطانيين بالتدريج بسط نفوذهم على أهم مراكز الجنوب، وعملوا على تأمين طريقهم إلى الهند فوضعوا أيديهم على جزيرة سيلان عام ١٧٩٧م بعد أن كان الهولنديون يرابطون في بعض شواطئها، كما انتزعوا من الهولنديين كذلك رأس الرجاء الصالح بعد أن تم لهم إجلاء الحملة الفرنسية عن مصر، تلك الحملة التي كان نابليون يبغي بها الوصول إلى الهند وإخراجهم منها، وأحبطوا في الغالب كل خطط للفرنسيين والروس بغوا من ورائها عزلهم عن الهند وانتزاعها من أيديهم.

وانصرف البريطانيون من بعد ذلك إلى حرب المرهتها فاجتاحوا أراضيهم ودخلوا دهلي على الوجه الذي بيناه من قبل.

حرب المرهتها :

أفاد البريطانيون من شيوع الانقسام بين المرهتها فاشتروا زعماءهم في ناجبور والكجرات بالرشاوى، ليتفرغوا من بعد ذلك إلى بيتي سندهيا وهولكر، أقوى طوائفهم، فاجتاح هستنج أقوى حصون سندهيا في كواليار عام ١٨٧٠م وأنزل به هزيمة شديدة ركن من بعدها المرهتها عمومًا إلى السلام وهادنوا أعداءهم.

هذا ؛ وكان قد تم لمدهوجي سندهيا بسط نفوذه على دهلي، على ما بيناه من قبل، وهزم الراجبوتيين، كما مد نفوذه على كافة أراضي المرهتها القديمة حتى بونا عاصمتهم القديمة، ليخلفه من بعد ذلك ابنه دولت راو عام ١٧٩٤م على هذه الأراضي كلها.

وكان أن دعى البيشوا باجى راو البريطانيين إلى شد أزره بإزاء خصومه في بونا، فقدموا من فورهم إليه ودخلوا معه المدينة ليعقدوا معه عام ١٨٠٣م معاهدة بسين التي اعترف لهم فيها بسيادتهم.

وحين ثار زعماء سندهيا وبهونسلا على هذا التدخل الأجنبي. خاضوا مع البريطانيين غمار معارك عنيفة عند آساى انتهت بهزيمتهم وخضوعهم لشروط الشركة البريطانية ودخول البريطانيين دهلي وضياع أملاك سندهيا عند الشمال والشرق من جمنه وانتقالها وكافة الأراضي الواقعة بين الكنج وجمنه وإلى الغرب منها إلى أيدى المستعمرين.

وكان أن ترك البريطانيون بعض الأراضي بأيدي المرهتها فعاني الراجبوتيون على الخصوص كثيرًا من الأذى على أيديهم وكان في حسابهم أن أصحاب الشركة سوف يحمونهم من شرورهم.

وحين استشرى خطر عصابات البنداري المرهتهية في إقليم بهار بصفة خاصة، جردت الشركة كل جيوشها لتجهز عليها جميعًا، حتى استسلم لها كل زعمائها عام ١٨١٧م فسمحت لفريق من صغارهم بلزوم بعض إمارات في مالوه

والكجرات. وقد سارع الراجبوتيون بدورهم إلى التحالف عندئذ مع البريطانيين فلم يخوضوا معهم حربًا جماعية أبدًا([1]).

حرب الأفغان :

كان من أثر هزيمة الروسيا لفارس عام ١٨٢٨م أن عظم نفوذها في تلك البلاد حتى حملت حكومتها على التعاون معها لمد نفوذها كذلك إلى أفغانستان([2]) باب الهند إلى سهول البنجاب والكنج.

وحين تبين لبيرنز مبعوث الهند البريطاني بكابل حرج موقف دوست محمد شاه الأفغان بأزاء نشاط مبعوث الروس الداهية فينكوفتس حتى اضطر إلى مصانعته برغم ميله للزوم الحياد التام، عقد أو كلاند مدير الشركة الهندية العزم على الزحف إلى أفغانستان وفي صحبته أميرها السابق الشاه شجاع الملك الذى كان قد طرده دوست محمد فلجأ إلى رنجيت سنغ أمير البنجاب.

وكان هذا الأخير قد بلغ بقومه السك إلى انتزاع هذا الإقليم من الأفغان، ثم آثر أن يهادن البريطانيين حين دخلو دهلى ومدوا نفوذهم إلى مشارف ستلج.

وتم للبريطانيين إجلاس شجاع الملك على عرش كابل من جديد حتى يضمنوا بذلك القضاء على دسائس الروس وإبعاد نفوذهم عن حدود الهند.

على أن الأهلين ما لبثوا أن ثاروا عليهم في العاصمة ثورة عارمة أرغمتهم التسليم بعودة دوست محمد إلى مقامه القديم وإخلاء المدينة من قواتهم، لتنزل بهم من بعد ذلك كارثة بشعة وهم يتراجعون بين ثلوج الطريق وضربات رجال القبائل على الجانبين، فلم ينج من حملتهم التى كانت تضم عشرين ألف رجل إلا شخص واحد

---

(1) Dunbar 488.

(٢) إطلاق « بلاد الأفغان » على الإقليم الذي يعرف بهذه التسمية اليوم، هو من اصطلاح العصور الحديثة، ومن باب تعميم الجزء على الكل، فمنازل الأفغان هى إلى الجنوب من طريق كابل – أما سكان كابل وغزنه ولمغان فهم خليط من عناصر العرب والفرس والترك :

هو الطبيب العسكرى بريدون(1) الذى كتب له أن يبلغ جلال آباد حيث كانت تنزل حامية عسكرية بها.

ورجع البريطانيون من جديد إلىأفغانستان فى حملة انتقامية قدمت من قندهار وجلال آباد فوجدت الأهلين فى كابل قد قتلوا شجاع الملك، ونادوا بابنه فتح جنك مكانه.

على أن إرادة الأهلين كانت أقوى من عنف الغزاة وأسلحتهم، فما لبث البريطانيون أن أرغموا على الرجوع ثانية عن أفغانستان بعد أن عاهدوا أميرها دوست محمد عام ١٨٤٣م على احترام حدوده.

ولم يكن مصير الحملات التى قادها اللورد روبرتس عامى ١٨٧٨، ١٨٧٩م فدخل بها كابل بأحسن حظا من حملات أو كلاند سالفة الذكر.

فعلم أبناء القبائل الأفغانية، من الأفريدى والمحسودى والوزيرى، ببسالتهم وضراوتهم فى القتال، البريطانيين كيف يحترمون مشيئة الأحرار الذين رفضوا على الدوام كل ما كان يعرض عليهم من مغريات مادية لقبول المستعمرين ببلادهم(2).

وقد باءت بالفشل كل المحاولات التى بذلها البريطانيون لطى بلاد الأفغان تحت نفوذهم.

وبقى شاه الأفغان محافظاً على عهوده مع البريطانيين محافظة تامة حتى بعد كل البعد عن المشاركة فى ثورة التحرير التى نشبت بالهند عام ١٨٥٧م بزعامة فريق من المسلمين وكادت تنتهى إلى طرد المستعمرين منها.

إخضاع السك والبلوخ : تذرع البريطانيون بحروبهم الأفغانية لإخضاع السند بلاد البلوخ لسلطانهم، كما انتهزوا كذلك فرصة اعتداء السك على بعض مناطقهم بعد موت أميرهم رنجيت سنغ، فما زالوا

(1) Moreland 346.

(٢) حاضر العالم الإسلامى ثان ص٢٩٢ – ٢٠٠

يطاردونهم حتى أنزلوا بهم هزيمة قاصمة بالكجرات عام ١٨٤٩م([1]) ضموا من بعدها كشمير والبنجاب كله إليهم، وجردوا قوات هذه الطائفة من أسلحتها وصرفوا رجالها للعمل في المزارع.

وكان السك والغور كها أبناء نيبال، التى لم لم يخضع المستعمرون إلا بعضها، خير محاربين اعتمد عليهم البريطانيون فى كل الحروب التى خاضوها دفاعًا عن أمبراطوريتهم أو لالتهام أراض جديدة.

ويتدخل البريطانيين على الدوام فيما كان يقع بين الأمراء من منازعات بالدس والوقيعة، أفلحوا آخر الأمر فى أن يضموا إليهم الإمارات الهندية التى لم يستولوا عليها بقوة السلاح.

وبات الأمراء الذين بادروا إلى محالفة هؤلاء المستعمرين من أول الأمر، فحفظت عليهم إماراتهم، معدودين من أتباع بريطانيا، ومنعوا من ممارسة أى نشاط سياسى أو إدارى دون مشورة مستشاريهم البريطانيين الذين كانوا فى الواقع أصحاب السلطان المطلق فى هذه الأراضى.

وفرض على أمثال هؤلاء الأمراء أموال كثيرة يدفعونها للشركة نظير حمايتها لهم ودفاعها عن أراضيهم، وحين كان يعجز أحدهم عن الدفاع أو يتوقف، كانت الشركة تبادر بالاستيلاء على أراضيه لتفرض على سكان إمارته ما تلزم به غيرهم فى أملاكها من ضرائب الأراضى الباهظة، حتى اضطر الكثيرون منهم إلى بيع أولادهم لسداد ما كانوا يلزمون به فعانى الملايين من أهل الهند أفظع ضروب القسوة والطغيان وعاشوا فى شقاء لم تعرفه الإنسانية فى أحلك عصورها([2]).

---

(1) Dunbar 502.

(٢) الهند وجيرانها ٤٠٣

خاتمة سلاطين الدولة المغولية :

لم يقرر غزو نادر شاه الفرس ولا غزوات أحمد أبدالى، شاه الأفغان، المتكررة للهند مصير الدولة المغولية بقدر ما قررته معركة بكسر عام ١٧٦٥م ببهار. فطويت بانتصار البريطانيين فيها على شاه عالم السلطان التيمورى صفحة الحكم الإسلامى فى الهند.

ولم يكن البريطانيون ليتركوا شاه عالم ينزح من مقامه بالله آباد، حيث كان يعيش على المال الذى ربطوه له، إلى كنف المرهتها بدهلى إلا ليضيقوا الخناق عليه وعلى حلفائه من بعد ذلك، وقد باتوا على يقين، تام من قرب وقوع شبه القارة الهندية بأيديهم وخلاصها لهم بعد أن تم لهم هناك القضاء على نفوذ الفرنسيين أخطر منافسيهم وأقواهم، وما تكشف لهم عن عجز قوات الهند الكثيرة على الوقوف أمام قواتهم، على قلة عددها، لحسن تدريب رجالها وما بأيديها من أسلحة حديثة لا تعرف الهند لها نظيرًا. حتى واجهوا، وعددهم مع حلفائهم من الوطنيين خمسة آلاف رجل، عشرة أضعافهم فى معركة بكسر سالفة الذكر، فانتصروا عليهم انتصارًا حاسمًا لم يكلفهم أكثر من عشرين قتيلاً وبعض الجرحى.

ولئن كان شاه عالم يذكر للمرهتها أنهم أعانوه على العودة إلى دهلى ونظروا إليه فى الغالب نظرتهم إلى أحد حلفائهم حتى سارعوا إلى إنقاذه من بين براثن الثائر الروهيلى غلام قادر، فى حين أعرض كونوالث مدير الشركة البريطانية عن نجدته فى محنته مع هذا الزعيم الأفغانى، وضيق عليه البريطانيون، من قبل، فى الله آباد بعد أن هزموه فى بكسر، فإنه على كل حال كان يداعبه الأمل فى أن تنتهى الحرب بين المرهتها والبريطانيين، إلى إنهاك قواهما معًا، حتى يخرج المنتصر منهما وهو أميل سلوك طريق المودة معه. وعلى هذا الرأى حرص كل الحرص على دوام اتصاله بالفريقين المتحاربين وإعلان تأييده لكل واحد منهما على حدة فى نفس الوقت.

على أن البريطانيين ما لبثوا حين دخل قائدهم ولسلى مدينة دهلى عام ١٨٠٣م أن انفردوا بالأمر كله فيها فلم يلتفتوا إلى السلطان إلا ليرتبوا له معاشًا لم يزد على ما كانوا قد أجروه عليه فى الله آباد من قبل.

أكبر شاه الثانى :

لم يكن للسلطان وأعضاء أسرته ما يقلقهم فى ظل الحكم البريطانى إلا ضآلة ما رتب لهم من مال أصبح لا يفى بنفقاتهم([1])، وإن وجد بخزائن شاه عالم بعد وفاته ما يزيد على المليون من الروبيات كان قد ادخرها.

وحين قضى شاه عالم قبيل أواخر عام ١٨٠٦م بعد أن جلس على العرش خمسة وأربعين عامًا، فخلفه ثانى أبنائه أكبر شاه الثانى، ليقضى حياة يغلب عليها الخمول والضعف حتى عدل اللورد هيستنجز، حين خلف ولسلى على إدارة الشوكة الهندية، عن تصدير أوامر شركته ونشراتها بإرادة السلطان، ورفع عن خاتمه كذلك الرسم التقليدى الذى يصفه بأنه خادم السلطان المخلص، بل لقد رفض فى لقائه له أن يخضع للمراسم التى لم يكن الحكام البريطانيون من قبله يجدون غضاضة في ممارستها. ولم يكتف بذلك حتى حرض نواب أوده على أن ينادى بنفسه سلطانًا، واحتضن رام موهان وصاحب جمعية براهما سماج الذى راح يدعو مجدًا إلى القضاء على بيت التيموريين فى الهند([2]).

بهادر شاه الثانى :

وخلف أكبر الثانى ابنه بهادر شاه الثانى عام ١٨٣٧م ليعيش بدوره على الرزق الذى كان يجريه البريطانيون على أبيه، من قبل، بعيدًا عن كل نشاط سياسى أو مشاركة فى الحكم، فلم يكن يقلق باله إلا معارضة المستعمرين فى اختياره لولى عهده وعدم استجابتهم لشكواه من ضآلة معاشه الذى كان يراه لا يكفى لحفظ مظاهر الأبهة اللائقة بأمير تيمورى.

---

(١) Spear, Twilight of the Mughuls pp 36-9.

(٢) راح هذا الزعيم، بتأثير حركات الإصلاح الدينى السابقة يدعو إلى توحيد ديانات الهند فى دين واحد يعبد إلهًا واحدًا هو براهما، دون تعدد فى الآلهة أو الطبقات أو الزوجات، وينكر كل العادات الهندية القبيحة كالساتى وزواج الأطفال وغيرهما.

وبقيام الثورة الوطنية الكبرى، التى يعرفها البريطانيون بثـورة السـباهى أو العصيان، عام ١٨٥٧م انتهت أيام بهادر شاه على عرش الهند، وطويـت صفحـة السلاطين البابريين أبناء تيمورلنك بالهند كلها.

الثورة الوطنية :

هذه الثورة العارمة التى كادت تقضى على كل نفوذ للبريطانيين فـى الـهند كلها، والتى كان مبعثها عسف الشركة البريطانية واستنزافها لثروات البلاد وإقفـار أراضيها الخصبة، لا سيما في الشمال، نشبت فى وقـت واحـد بالبنغـال ودهلـى وجونبور والبنجاب.

أما أخطر أدوارها فقد بدأ بالبنغال حيث الجيش الذى كان يعتمد عليه هـؤلاء المستعمرون فى حفظ النظام بالهند، وكان قوامه أكثر من مائة ألـف مقـاتل فيـهم عشرون ألفا من البريطانيين. وقد بنى الثائرون خطتهم على أن يسارع البريطـانيون عندئذ إلى استدعاء كل قواتهم المنتشرة فى الهند إلى البنغال فيخلو لهم الجو بذلـك ويثبتوا أقدامهم ويجمعوا شملهم من جديد، فلا يتمكن المستعمرون منهم بعـد ذلـك أبدًا.

وعرف المتزعمون للثورة كيف يثيرون ثائرة جند البنغال، وكان أغلبهم مـن الراجبوتيين والبراهمة، حين انطلقوا يلقون فى روعهم أن الشركة تعتزم تسـييرهم إلى خارج الهند لحرب بورما، الأمر الذى يتنافى وعقائدهم التى تعد كل من يغـادر موطنه خارجًا على طبقته منبوذًا، كما نبهوهم كذلـك إلـى معالجـة البريطـانيين لأسلحتهم وعجلاتهم بشحم الخنزير ودهن البقر المقدس، ودسهم هذه الدهـون فيمـا يقدمونه لهم من الطعام، بل إنهم كذلك قد عقدوا العزم على حملـهم قسـرًا علـى اعتناق النصرانية بأيدى مبشريهم الذين جلبوهم لتحقيق هذا الغرض، وهاهم يقفلـون فى وجوههم بـاب الترقية حتى إلى أصغر رتب القيادة فى الجيش، وهـو مـا لـم يمنعه عليهم أحد من السلاطين المسلمين من قبل.

وانطلق المسلمون فى دهلى يقودون الثورة، بزعامة بعض ابنـاء السـلطان وفريق من الزعماء الأفغان المحليين ومعهم حامية ميروت الشمالية التى انضمـت

إلى صفوفهم، وفى خطتهم أن يخرجوا المستعمرين من بلادهم ويعيدوا للمسلمين سابق سلطانهم بالهند.

وما غدا المرهتها فى جونبور أن نزعوا بدورهم إلى العصيان يتزعمهم أميرهم نانا صاحب الذى كان فريق من رجاله قد حددت إقامتهم هناك، كما انطلقت الشائعات فى الوقت نفسه بزحف الروس والأفغان لشد أزر الثوار، حتى أصيب البريطانيون فى الثورة بخسائر كثيرة وهزائم متكررة فى أماكن عديدة([1]).

على أن المستعمرين ما لبثوا أن أقروا الأمور فى البنجاب بهمة قائدهم لورنس وحسن تدبيره، لينطلقوا على الثوار بكل مكان فى قسوة بالغة وعنف، ويقصفوا بمدافعهم دهلى، ثم يدفعوا بالسلطان المغولى الشيخ وهو فى الثانية والثمانين من عمره، إلى محاكمة صورية أدانوه فيها بدعوى وقوفه وراء ولده محمد بخت خان وميراز مغول فى تزعمهما للثوار، ومسئوليته عن مقتل تسع وأربعين من البريطانيين بدهلى. وثورته على الحكومة البريطانية بوصفه أحد رعاياها، وإعلانه الحرب عليها ومناداته بنفسه سلطانا على الهند.

هذا والثابت المعروف أن احدًا من السلاطين المغول، منذ أن صار شاه عالم فى قبضة الشركة الهندية، لم يقبل الاعتراف بالحماية البريطانية أبدًا، كما أن بهادرشاه نفسه لم يكن له أى مشاركة فى هذه الثورة حتى اعتذر لزعمائها بفراغ يده من المال، وأنه ليس له جيش أو قوة يقدمها لهم ولم يكن له بالتالى علاقة بملصقة صغيرة وجدت أثناء الثورة على حائط المسجد الجامع وبها نداء منسوب إلى شاه الفرس يدعو فيها المسلمين إلى تناسى خلافاتهم وتوحيد صفوفهم حتى يقبل لنجدتهم([2]).

---

(1) Moreland pp 367-375.

(2) Spear, pp 200,222,28.

هذا وقد انبرى بعض الباحثين البريطانيين بعد مضى ستين عامًا على هذا الثورة يبرئ السلطان الشبح من كل ما نسب إليه، ويدل على أن الشركة هى التى تارت قانونًا على السلطان وليس هو عليها.

قضى البريطانيون فى هذه المحاكمة عام ١٨٥٨م على السلطان المسن بهادر شاه بنفيه مع أفراد أسرته إلى رانجون، وأعلنوا من بعد ذلك ضم شبه القارة الهندية كلها إلى أمبراطوريتهم لتمارس الحكومة البريطانية حكمها بنفسها حكمًا مباشرًا. وعوضت الشركة الهندية عن إبعادها عن شئون الحكم بمبالغ طائلة وتعويضات سخية جعلت دينا على الهند، هى وكل النفقات التى أنفقتها بريطانيا فى حروبها الأفغانية وحروب بورما بدعوى تأمين حدود الهند والمحافظة على سلامتها.

وراح الحكام البريطانيون فى الهند يذيعون بدورهم على الدنيا ما يبذلونه من جهود للنهوض بهذه البلاد وترقيتها، ومنها إنشاء الطرق الحديدية وتوسيع رقعة الأرض الزراعية ونشر الحضارة الأوروبية. ولم يكن هدفهم من وراء ذلك كله فى الغالب إلا تنظيم ابتزاز ثروات هذه الأرض الواسعة الغنية، حتى كانت منتجاتها تنقلها فى كل عام أكثر من عشرة آلاف سفينة، معظمها بريطانية، لتبيعها بريطانيا فى أسواقها بخمسة أضعاف أثمانها أو يزيد، فلا يعود من هذا الربح الوفير على أصحابه الأصليين، سوى القليل، وهم الذين دفع بجماهيرهم ليزرعوا الأرض لسادتهم على كفاف من العيش.

وأقام البريطانيون من جهاز حكمهم بالهند طبقة جديدة تُضاف إلى طبقات الهند وتعلوها جميعًا، حتى حرموا على أهلها دهرًا طويلاً مجالستهم أو مطاعمتهم أو مزاملتهم فى سفر أو سمر.

قيام دولة باكستان :

نفى البريطانيون بهادر شاه الثانى، آخر السلاطين البابريين من الهند بوصفه الزعيم الروحى لأهلها من المسلمين الذين رفضوا فى الغالب الاعتراف بسلطانهم وأصر زعماؤهم وأبناء الطبقة المستنيرة منهم على معاداتهم وتأليب أهل هذه البلاد جميعًا عليهم، حتى أعلن اللورد ألنبرو حاكم الهند البريطانى، فى صراحة تامة، أن العنصر الإسلامى فى الهند هو عدو بريطانيا الأصيل، وأن السياسة البريطانية فى الهند يجب أن تهدف

إلى تقريب العناصر الهندوكية إليها لتستعين بهم في القضاء على الخطر الذي يتهدد بريطانيا في هذه البلاد[1].

وعلى هذا المبدأ بطش البريطانيون بالمسلمين الذين قادوا الثورة الوطنية (العصيان) أكثر مما بطشوا بغيرهم من الطوائف الأخرى الذين شاركوا فيها فأقصوهم إقصاءً شاملاً عن كل وظائف الدولة التي كانوا يشغلون عدداً كبيرًا منها، وجهدوا في تقويض كل أوضاعهم الاقتصادية والثقافية، ثم اصطنعوا أبناء الطبقات الهندوكية المتوسطة في الوظائف الصغيرة فلا يتخطونها أبدًا إلى المناصب الكبرى التي كانت جميعها، في السلكين المدني والعسكري، وقفًا على المستعمرين.

حتى إذا ما أصدروا قوانين التملك الزراعي، الذي نظم للأوروبيين حقوق امتلاك الأراضي الكثيرة والضياع الواسعة بالهند، صارت أغلب الأراضي التي كان المسلمون يمارسون زراعتها، بمقتضى هذا القانون، ملكًا لجباة الضرائب من الهنادكة، وانقلب زراعها الأصليون الذين صودرت أراضيهم إلى أجراء عندهم.

ولم يكتف هؤلاء المستعمرون بهذا كله بل طفقوا يزيفون تاريخ الحكم الإسلامي بالهند ويظهرون سلاطين المسلمين وعمالهم بمظهر الطغاة. ثم انطلقوا من بعد ذلك يدعون الهنادكة إلى إحياء ماضيهم القديم قصد إثارتهم بذلك على مواطنيهم من المسلمين، لينجلي ذلك، كله فيما بعد، عن مذابح رهيبة متكررة بينهم وخلافات عميقة متواصلة شغلتهم جميعًا حينا طويلاً من الدهر عن مناوءة الحكم البريطاني بالهند.

---

(١) بلغ من عداء هذا الحاكم البريطاني للمسلمين أنه أمر بنزع بعض بوابات رآها بغزنة حين دخل البريطانيون أفغانستان بزعم أنها أجزاء من معبد سومنات حملها محمود الغزنوي معه من الهند بعد أن خرب مصلى الهنادكة هذا أوائل القرن الخامس الهجري. وحين حمل النبرو هذه البوابات إلى الهند، تقربًا منه إلى الهنادكة وتذكيرًا لهم بعداوة المسلمين، اكتشفوا هناك أن هذه الأبنية هي من صنع سبكتكين أبي محمود الذي لم يتخطى حدود الهند في غزواته.
Dunbar 489.90.

بعث اضطهاد البريطانيين للمسلمين فى الهند شعوراً قوياً فيهم بضرورة العمل على توحيد صفوفهم من جديد ورفع معنوياتهم وإصلاح حالهم، حتى نهض السيد أحمد خان، فى أوائل النصف الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى، يفصح عن هذا الشعور إفصاحًا عمليًا، فرسم لقومه المنهج الذى يبلغ بهم إلى تحقيق نهضتهم إلى أن نفورهم من البريطانيين لا يعنى التزام العزلة والتخلف عن المشاركة فى ركب الحياة الهندية، وأن الإطلاع على المدنية الحديثة وعلومها واقتباس الصالح منها واجب على المسلمين لا يتعارض أبدًا مع التفقه فى أمور دينهم والتمسك بآداب الإسلام وتقاليده[1] . ثم اتجه من بعد ذلك إلى البريطانيين يصارحهم بتبعاتهم ويؤكد لهم عدول المسلمين عن عدائهم لهم، حتى يخفف من حدة اضطهادهم لهم. إذ كانوا قد أبعدوهم إبعاداً شاملاً عن كل وظائف الدولة وطفقوا يغلقون أبواب الرزق فى وجوههم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً - ويقيم لهم الدليل على أن عسف شركتهم البريطانية وسوء إدارتها هو الذى أدى إلى ثورة الوطنيين عام ١٨٥٧م.

ولم يأبه السيد لاتهام بعض الرجعيين له بممالأة المستعمرين والمروق من الدين، فشمر عن ساعد الجد فى حزم وعزم وانطلق يعمم إصلاحاته فى أغلب نواحى الحياة الإسلامية ويدعو قومه إلى الاغتراف من علوم الغرب. وراح فى مجلته « تهذيب الأخلاق » ينقد أحوال المسلمين ويتقصى الأسباب التى أدت إلى زوال مجدهم القديم، ويعرض لكثير من الموضوعات العلمية والسياسية والاجتماعية التى يجب على المسلمين الإحاطة بأهدافها والاشتغال بها والمشاركة فيها. ودلل من خلال أبحاثه هذه على مرونة اللغة الأوردوية، لغة المسلمين وأغلب أهل الهند، وصلاحيتها التامة لمسايرة المدنية الحديثة. وكان من أعظم أعماله الخالدة إنشاء كلية عليكر، بشمال الهند، التى تحولت من بعد ذلك إلى جامعة عقب

---

(١) كان مما احتج به فى هذا الشأن أن المسلمين حين شرعوا ينشئون حضارتهم الكبرى لم يترددوا فى دراسة كتب اليونان وسواهم من غير أهل الملة، فلا حرج على المسلمين بهذا من دراسة كتب الغرب وعلومهم بل هو واجب عليهم : حاضر العالم الإسلامى أول ٢٧١ - ٢٧٢

عودته من زيارته لبريطانيا عام ١٨٧٥م، وفيها قامت الدراسات الغربية والدراسات الإسلامية جنبًا إلى جنب على أرقى منهج جامعى إذ ذاك([1]).

بجهود السيد أحمد خان ظهر من بين المسلمين طائفة من المفكرين والأدباء والفلاسفة الذين حملوا الرسالة من بعده([2])، واتسع المجال لنقل فيض من المؤلفات الأوروبية النافعة إلى الأوردوية، فضلاً عن إحياء التراث الإسلامى الهندى.

ولئن كان السيد أحمد خان قد أوقف حياته على النهضة بالمجتمع الإسلامى وسعى إلى حمايته حين نادى بضرورة تمثيل المسلمين فى المجالس الهندية التشريعية بنواب مستقلين منهم، حتى لا تطغى طائفة الأغلبية على طائفة الأقلية فى هذه البلاد التى تعد فيها العقائد أساس حياتها السياسية والاجتماعية، وجهر بأن المسلمين والهنادكة أمتان مختلفتان تمام الاختلاف فى العقيدة والتقاليد وكل شئ، فإن تلاميذه الذين حملوا رسالته من بعده ما غدوا أن أعلنوا أن فترة محاسنة البريطانيين، التى فرضها رائدهم من قبل. فقد استوفت أجلها، وأن واجب المسلمين غدا يفرض عليهم أن ينتزعوا حقوقهم من أيدى المستعمرين وكل من يقف فى سبيلهم، حتى أفصح المفكر الملهم محمد إقبال، وهو من أبناء جامعة عليكر، عن وجوب قيام وطن خاص بالمسلمين وحدهم بالهند، ورسم حدود هذا الوطن على الأساس الذى تقوم عليه دولة باكستان اليوم فى الغالب.

ولم تكن معارضة الهنادكة لقيام دولة خاصة بالمسلمين فى الهند إلا لخوفهم، فيما ظنوا فى الغالب، من أن ينقلبوا إلى مصدر متاعب لهم من جديد حين يشتد ساعدهم ويستعيدوا بعض ماضيهم من القوة، فى حين كان البريطانيون يرون مبدئيًا أن كل انقسام بين شعوب الهند فيه تحقيق لمصالحهم العليا على قاعدة الاستعمار المعروفة « فرق تسد ».

---

(١) Dunbar 558-90.

(٢) من أمثال هؤلاء السيد أمير على وخدا بخش ومحمد إقبال ومحمد على وأخوه شوكت على. وفيهم من أخرج للناس باللغات الأوروبية كتبًا قيمة عرفهم فيها بروح الإسلام وحقيقته وحضارته ومدنيته تعريفًا بينًا.

وما لبث المسـلمون آخر الأمر أن بلغوا بجهود زعيمهم محمد علـى جنـه، ومن ورائه الرابطة الإسلامية، إلى تحقيق قيام دولة لهم، بعـد أن أصـروا علـى رفض جميع عروض المؤتمر الهندى، الذى كان يتزعمه غـاندى، ودسـتور عـام ١٩٣٥م، حتى لا تضيع حقوق أقليتهم الكبيرة فى تيار الغالبية الهندوكية، وحتـى لا يكون لأحد وصاية عليهم([١]). فأعلنوا مولد باكستان فى ٤ أغسطس ١٩٤٧م علـى حدود ترضيهم فى الغالب، قبلوها ليضعوا بذلك حدًا للمذابح الكثيرة التى سقط فيـها من المسلمين أكثر مما سقط من الهنادكة. وهى تضم كراجى، مركـز حكومتـها إذ ذاك وإقليم بشاور والحدود، والسند والبنجاب فى الغرب، وأغلب البنغال فى الشرق.

وبباكسـتان([٢]) ما ينيف على المائة وعشرين مليونًا من المسلمين يعيش إلـى جانبهم أكثر من عشرين مليونًا من أصحاب المذاهب الأخرى الهنديـة. ولا يـزال ما يزيـد على ستين مليونـًا من المسلمين يعيشون فى جمهورية الهند.

واتخذت باكستان من مدينة كراجى عاصمة لها ثم انتقلت منها إلى روالبنـدى ثم إلى إسلام آباد عاصمتها الحالية.

ومن أسف أن يشتد التناحر الحربى من بعد ذلك فى باكستان الشرقية لينتـهى الحال بنجاح الشيخ مجيب الرحمن زعيم حزب عوامى فى هزيمة قوات الدولـة - حيث ناصرته جمهورية الهند بقواتها، والروس بأسلحتهم، ومن ثم أعلـن اسـتقلال باكستان الشرقية واتخذ من مدينة دكا عاصمة لها. وصارت هذه الدولـة الجديـدة تعرف باسم بنجالادش.

وفى فبراير عام ١٩٧٤ أعلن ذو الفقار على بوتو رئيس وزراء باكستان فـى مؤتمر القمة الإسلامى أبان انعقاده بلاهور اعـتراف حكومتـه بدولـة بنجـالادش الجديدة حفاظًا منه على وحدة صفوف المسلمين.

---

(1)Moreland 463-501.

(٢) باكستان هى الأرض الطهور – واسمها جماع الحروف الأولى من اسماء المقاطعات التـى تتكون الدولة منها.

مشكلة كشمير

عندما قسمت شبه القارة الهندية عام ١٩٤٧م إلى جمهوريتى باكستان والهند أخذ الزعماء فى هاتين الجمهوريتين يرددون عبارات الود والتمنيات الطيبة كل بالنسبة لجارته. على أن جمهورية الهند الهندوكية ما لبثت أن انطلقت تقيم العراقيل فى وجه جارتها باكستان التى ظفرت بوجودها بالرغم منها فمن ذلك أنها ظلت تسوف فى دفع ما قدر للباكستان فى مال الهند وهو أربعون مليونًا من الجنيهات يمثل ١٧,٥% من الاحتياطى حتى أخذ غاندى نفسه فى الصوم إذ ذاك لوضع حد للخلاف بين البلدين. بل لقد قامت المذابح فى البنجاب الشرقية بين المسلمين والسك من جديد، كما اضطر مائة ألف من سكان دهلى المسلمين إلى الاحتماء بالقلاع القديمة هناك حتى يرحلون إلى باكستان. وانتهى الأمر بين الدولتين - وفقًا للمذابح - إلى إخلاء المسلمين للبنجاب الشرقية على أن يخرج كل الهنادكة من البنجاب الغربية. وتبادل الفريقان فى ذلك ستة ملايين من السكان.

ولم تنته هذه المحنة الرهيبة حتى قام ما يشبه الحرب الاقتصادية بين الدولتين فقد امتنعت الهند عن شراء الحبوب والقطن من باكستان وعدم تصدير الفحم لها، فى حين امتنعت باكستان بدورها عن مد الهند بالجوت، وكانت الهند فى ذلك هى الخاسرة، إذ كانت الأسواق مفتوحة أمام باكستان لتصريف منتجاتها.

ولئن أمكن تسوية هذه المشاكل الاقتصادية فيما بعد، فإن أصعب ما واجه البلدين كانت مشكلة الإمارات الهندية التى كانت ترتبط مباشرة بالتاج البريطانى. فلقد نص قانون استقلال الهند على أن تظل مثل هذه الإمارات حرة أو تنضم إلى إحدى الجمهوريتين على أساس عقيدة غالبية السكان فيها بصرف النظر عن عقيدة أميرها، إذ المعروف أن الاستعمار البريطانى كان يحرص على تنصيب أمراء

من غير أصحاب الديانة الغـالبة فى كل إمارة حتى يضمن ولاءهم له مـن جهـة، وحتى يستخدمونهم فى الضغـط على الأهلين من جهة أخـرى. ويرغـم سـكوت باكسـتان على ضم الهند لإمـارة حيدر آباد الدكنية إليها، تلك الولاية التى كـانت برغم هندوكية أغلب سكانها كانت تعد أهم مراكز الثقافة الإسـلامية هنـاك، فقـد راحت الهند كذلك تطالب بإصرار بضم إمارة كشمير إليها، وهى التى يبلـغ عـدد سكانها أربعة ملايين ٨٠% منهم من المسلمين، وذلك بدعوى سيطرة السك عليـها فى القرن الماضى وخضوعها فى الوقت الحاضر لحكومة المهراجا هارى سـنغ منذ عام ١٩٢٥م. وفى هـذا تقول باكستان أن المسلمين حكموا كشمير أكـثر مـن خمسـة قرون، وأن ثمانين فى المائة من سكانها مسلمون، وهى فضلاً عن ذلك تعد من الناحية الجغرافية جزءاً متممًا لباكستان، فالحدود بين كشمير والهند وعرة جـدًا لا تخشى الهند منها شيئًا، فى حين تتصل كشمير بباكستان بسهول فسـيحة تجـرى فيها ثلاثة روافد للسند تحمل محصول الأخشاب أهم محاصيل كشمير. هذا كما تعـد باكستان السـوق الطبيعية لتصريف فواكه كشمير ثانى محاصيلـها المهمـة، وهـى والصوف والبسط (السجاجيد). وأنهار كشمير هذه يتوقف عليهـا سـقى تسـعة عشر مليونًا من الأفدنـة بباكستان، فلو أن كشمير ضمت إلى الهند لكان معنى هـذا التهديد بانقطاع الماء عن كل هذه الأراضى عند حدوث أى خلاف بين البلدين. وقـد حدث بالفعـل خلاف شديد على مياه روافد سندية أخرى تجرى بالأراضى الهنديـة قبل دخول باكستان، واضطرت باكستان إلى دفع رسوم كبيرة ثمنًا لما تسحبه مـن مياه هذه الأنهار، مع أن المعروف أن المياه المشتركة هى أنهار دولية.

ولقد كان أهل كشمير، وأغلبهم من المسلمين، يعتقدون أن الوضـع الطبيعـى لبلادهم هو انضمامهم إلى باكستان، وذلك بالقياس على ما نادت بـه الـهند نفسـها واعتقدته بدورها من حقها فى ضم الولايات ذات الأغلبية الهندوكية إليها. علـى أن

المهراجا الهندوكى هارى سنغ، وهو الذى كان يخص نفسه ورجاله بـــ ٨٠% مـــن إيرادات كشمير، رأى أن يستنجد بالهند وجيوشها لدخول بلاده. وأدى ســـلوكه هـــذا إلى ثورة المسلمين عليه هناك ثورة عارمة انتهت باستيلائهم علــــى الســـلطة فـــى المناطق الغربية حيث كونوا حكومة كشمير الحرة برئاسة السردار محمد إبراهيم.

وما غدت قوات الهند أن أخـــذت تتوغل فى المنـــاطق الجنوبيـــة والشـــرقية وحين أرادت باكستان أن ترد على صنيع الهند هذا، انبرى الفيلد مارشال أو كنلـــك يعلن أن عمل الهند هو عمل مشروع وهدد فى ذلك بسحب الضباط البريطانيين مـــن جيش باكستان وكانوا إذ ذاك يضطلعون بمراكز رئيسية فيه. وحيـــن اتيـــح لقـــوات باكستان دخول كشمير من بعد ذلك كانت القوات الهندية قد سبقتها إلى كسب عـــــدة مراكز هامة.

وبرغم وقف القتال بين الطرفين فى يناير من عام ١٩٤٩ واتفـــاق الطرفيـــن على مبدأ الاستفتاء بتدخل هيئة الأمم المتحدة فلا تزال هذه المسألة دون حل حتـــــى اليوم.

ومما هو جدير بالذكر أن باكستان تحتج فى ذلك بأن الهند حاولت أن تكســـب تأييد أمريكا وبريطانيا فى هذه المسألة فبادرت بالاعتراف بإسرائيل بدعوى الأمـــــر الواقع مع أنها لم تكن بدورها قد اعترفت إذ ذاك بالصين الشعبية، فى الوقت الـــذى أعلنت فيه باكستان صراحة رفضها الأكيد الاعتراف بإسرائيل حتى لو اعترفت كـل البلاد العربية نفسها بها.

حضارة الدولة المغولية

أقبل المسلمون، منذ فجر الإسلام، على الإفادة من حضارة الفرس واليونان بعد أن أطلعوا عليها، فلما دخلوا وتوغلوا فى أراضيها واستقروا بها ومعهم ثقافتهم المزدهرة، اشتاقوا كذلك إلى التعرف على ما عند الهنود من ثقافة ومدنية سمعوا الكثير عنها ووقفوا على قدر منها فى بلادهم .

ونشأ عن امتزاج حضارة الحاكمين بحضارة المحكومين القديمة ومدينتهم حضارة ثالثة، اشتملت على عناصر هاتين الحضارتين، هى ما تعرف باسم الحضارة الإسلامية الهندية التى بدت فى أكمل صورها فى عهد الدولة المغولية التى أقامها السلطان التيمورى ظهير الدين محمد بابر وخلفاؤه، فظلت تحكم هناك قرابة ثلاثة قرون .

جمع هؤلاء السلاطين البابريون فى أشخاصهم كثيرًا من الصفات المتناقضة التى ورثوها عن أبيهم الأكبر تيمورلنك، فكان فيهم وحشية وتسامح، وجبروت وحلم . وكانوا يقيمون من هامات المقهورين على هيئة الأهرامات والمنائر ولا يجدون فى ذلك حرجًا، ثم يشيدون، إلى جانب أكداس القتلى، منشآت الحضارة والمدنية ويبالغون فى حبهم وبذلهم للآداب والعلوم والفنون والمشتغلين بها . بل إنهم ليسعون إلى العلماء يشاركونهم الدرس ويدعونهم من أقصى الأرض إلى بلادهم . وعلى هذه الخطة وفد إلى بلاط الهند صفوة من علماء العرب والفرس والترك ليساهموا بجهودهم فى بناء الحضارة الإسلامية الهندية هناك .

وأدى التاسمح الذى اشتهر به سلاطين الدولة المغولية([1])، إلى العمل على تقريب سكان الهند إليهم فى الغالب، حتى أصهروا إليهم، وتبعهم رجالهم فى ذلك، وفتحوا لهم أبواب المناصب فى الدولة، فساعد ذلك كله على نشر الإسلام بالهند

---

(١) يجمع المؤرخون على بعد سلاطين الدولة المغولية عن التعصب الدينى، فمارس الأهلون فى عهدهم طقوسهم الدينية بحرية تامة فى الغالب .

Havell 426-Prasad 286,7.

حتى كانت غالبية المائة والعشرين مليون مسلم الغالبة بشبه القارة الهندية اليوم من أصول هندوكية خالصة .

وإذا كان بابر مؤسس هذه الدولة لم يطل به الأجل بعد إقراره للأمور في الهندستان، وإذا كان ابنه همايون قد أمضى عمره في صراع متواصل من أجل عرشه، فإن جلال الدين أكبر، ثالث السلاطين، هو أول من أفصح عن التسامح المطلق وجهر بالتآلف فنادى بأن الهند للهنود من أهلها مسلمين وهنادكة . وهو الذى بلغ كذلك بالدولة المغولية ذروة المجد والرقى . فقد نهض بالفنون والعلوم والآداب نهضة شاملة، وزين الهند بكثير من المنشآت الفخمة وأرسى جهاز الحكم على نظم لاتمت شعبه وأذاعت شهرته، وقلده فيها الذين حكموا من بعده

نظام الحكم : كانت السلطات جميعها في الدولة، من عسكرية ومدنية ودينية، في قبضة السلطان، على الرسم الغالب في تلك العصور، وفي البلاد الإسلامية على الخصوص، وكان هواه هو دستوره وتشريعه . فطالما كان الجالس على العرش من أولى العزم والقوة، كان التماسك يعم الدولة الإسلامية كلها في الهند، وإلا فإن حكام الولايات كانوا يسعون إلى إعلان استقلالهم وتأسيس إمارات لهم من فورهم ما أتيحت لهم الفرصة بذلك . وعلى هذا القياس ازدهرت الدولة المغولية أيما ازدهار عندما كان على رأسها رجال أقوياء كبار، وسقطت عندما خلت من مثلهم .

أما الوزراء والولاة والقادة والأمراء فكانوا صنائع للسلطان في الغالب، يرفع من قدرهم ويخفض كيف يشاء، ويهبهم من أراضي الدولة، التي هي جميعها بداهة ملكه، حين يشاء ويقدر ما يشاء، ويستردها كذلك على مشيئته .

هذا ؛ وكانت أراضي الدولة على ضربين، منها ما يقطع للقادة والأمراء على أن ينفقوا من دخلها على جندهم الذين يساهمون بهم في حروب الدولة، ويدفعوا نصيبًا آخر معلومًا من المال كذلك إلى بيت المال

فى كل عام، ومنها ما يستأجره الملتزمون على بدل سنوى يؤدونه . وكان هؤلاء جميعًا ذوى سلطان مطلق على الأهلين بمناطقهم فى الغالب .

وعدل أكبر نظام الإقطاع هذا إلى تقسيم البلاد إلى ولايات عليها نواب وعمال له، على النظام الذى بيناه فى موضعه سالفًا، وأنشأ جيشًا قويًا مدربًا يتبعه رأسًا وتقوم الدولة بدفع رواتب أفراد قواته من خزانتها[1] . ونهج خلفاؤه نهجه فى الغالب حتى جاء أورنكزيب عالمكير فرجع إلى النظام الأول .

وأدى اهتمام الحكام المغوليين والسوريين[2] بالوقوف السريع على كل ما يجرى فى مختلف أنحاء بلادهم الواسعة، إلى تنظيم شئون البريد تنظيمًا محكمًا، وتمهيد الطرق والإكثار منها وتزويدها بعلامات يهتدى بها السعاة والمسافرون وأقاموا على هذه الطرق منازل كثيرة لنزول الناس والدواب، وأباحوها جميعًا للمسلمين والهنادكة . وأدى قيام هذه المحطات إلى تجمع صغار التجار عندها ورواج أحوالهم بالتالى .

وقد أعجب بهذه الطرق الرحالة الفرنسى تافرنييه، الذى ساح بالهند فى أواسط القرن السابع عشر الميلادى، وصرح بأنها كانت خيرًا من طرق فرنسا وإيطاليا إذا ذاك وأكثر أمنا[3] .

وعنى هؤلاء السلاطين جميعًا كذلك بإقامة العدل بين رعاياهم وانتشار الأمن فى ربوع بلادهم، وألزموا التجار والصيارفة بمراعاة الأمانة، وراقبوا سلوك عمالهم مراقبة دقيقة فى الغالب، فلم يترددوا فى أن ينزلوا بهم أشد العقاب حين كانوا يتحققون من ظلمهم للأهلين أو اعتدائهم على أملاكهم أو أموالهم .

المجتمع : إن مؤرخى الهند عامة لم يعنوا فى الغالب إلا بحياة الحكام والسلاطين وأعمالهم وفتوحاتهم، وما يتصل بذلك من حياة الولاة

---

(١) انظر ذلك كله بالتفصيل فى الفصل الخاص بأكبر .

(٢) السوريون هم آل شيرشاه وأولاده .

(٣) حضارات الهند ٤٨

والقواد وأعمالهم، فلم يلتفتوا، إلا فى النادر، إلى الكتابة عن شعوب هذه البلاد وأحوالها الاجتماعية فى شئ من التفصيل يذكر، اللهم إلا قلة يسيرة من المسلمين وفيهم أبو الفضل ابن المبارك، مؤرخ أكبر ووزيره، الذى تعد تدويناته من المصادر المهمة التى وصلتنا فى هذا الباب، هى وما كتبه فريق من الأوروبيين من التجار والمبشرين الذين وفدوا على تلك البلاد فى العصر الوسيط وما تلاه .

والمجتمع المغولى فى الهند كان، كما قلنا من قبل، مجتمعًا إقطاعيًا خالصًا رأسه السلطان الذى كان يضفى فى العادة على بلاطه من ضروب الأبهة والعظمة ما خلب لب الذين أتيح لهم الإطلاع عليها وأدهش وصفه كل من سمع بها، ففى بلاطه كان يتجلى بهاء الدولة ومجدها ورواؤها، ومنه تشع علامات المدنية وتنبثق آلاء الثقافة، وفيه تروج أنواع المعارف، وعنده وفى كنفه يعيش رجال العلوم والآداب والفنون .

ومن بعده يأتى الأمراء ورجال الدولة الذين كانوا على دين سلطانهم فى الغالب فى البذخ والترف والإسراف، حتى كانت قصورهم تزدحم بالجوارى والغلمان وتتخم بكل طريف أو فريد من الأثاث والمتاع، وتفيض موائدهم بأطايب الطعام، وإلى جانبها أكداس من الفاكهة المنوعة النادرة، المستوردة من بخارى وسمرقند، والأنبذة والأشربة الفاخرة التى لم يلتفت إلى تحريمها أحد من سلاطين المغول تحريمًا جديًا بالهند إلا أورنكزيب .

ولعل استيقان هؤلاء الأعيان من مصادرة السلطان لأموالهم وأملاكهم بعد موتهم، على العادة الغالبة إذ ذاك، أو حتى وهم على قيد الحياة حين يبلغ بعض الوشاه إلى الإيقاع بهم عنده، كان ذلك يدفعهم فى الغالب إلى إنفاق أموالهم فى مثل هذه الوجوه فى إسراف بالغ .

وكان التجار بدورهم يحرصون، ولا سيما فى المناطق البعيدة عن العاصمة، على إخفاء أموالهم عادة فلا يصادرها حكامهم حين تشتد حاجتهم إلى المال أو يدفعهم جشعهم إلى طلبها .

هذا ؛ وكان أوسط الناس وأصحاب الحرف والصناعات يعيشون فى الغالب عيشة تتراوح بين الميسرة والمعسرة . أما أبناء الطبقات الدنيا وأصحاب الحرف الدنيئة، ومنهم خدم الأمراء والحكام وأجراؤهم، فكانوا فى شظف من العيش والذل مقيم، لا ينالون إلا وجبات غذائية قليلة هزيلة وأجور ضئيلة، حتى كادت الأمانة تنعدم بينهم بدافع من حاجتهم إلى سد رمقهم وإجابة مطالب ذويهم . ومع هذا فيقول بعض المؤرخين بأن حالتهم برغم ذلك كله كانت أفضل بكثير منها فى العصور الحديثة(١) .

وكانت طبقات الشعب هذه، ومعها الزراع وإجراء الأرض، هم أتعس الناس حظا وأشدهم بؤسا حين تجتاح الهند المجاعات بسبب انحباس الأمطار الموسمية وما ينجم عنها من شح الأقوات وانتشار الأوبئة الفتاكة .

وقد ألتفت أكبر، وأولاده من بعده، فى الغالب، والتفاتًا جديًا إلى العناية بأمر هذه الطبقات والعمل على تحسين أحوالها ومد يد العون لها عند المجاعات والقحط(٢) .

الصناعات : كذلك كان أكبر هو أول من عنى بأمر الصناعات الهندية ونهض بها، فكان عنده، كما يروى مؤرخه أبو الفضل، مائة مصنع للنسيج والأسلحة والصباغة، كل واحد منها كالمدينة فى اتساعه(٣) . ومنها ما كان يعد للسلطان فى كل عام ألف حلة ليخلع أغلبها على رجاله .

وكانت أهم مراكز الصناعة المغولية هى فى لاهور وآكرا وفتحبور وأحمد آباد ودكا . وكثير منها كان يصدر المنسوجات الفاخرة والسجاد إلى الخارج .

كذلك كانت الهند تصدر الصوف والنيلة والتوابل، وتقايض عليه فى موانئها بالكماليات الشرقية والغربية التى اقتضتها حياة البذخ والإسراف التى كان يحياها

---

(١) Muslim Rule 673.

(٢) Eb. 546.

(٣) آيين أكبرى – آيين ٩

حكامها والتى كان من مساوئها دخول الطباق إلى هذه البلاد مستهل القرن السابع عشر الميلادى لتزرعه فى أراضيها من بعد ذلك .

العمارة . أدى كلف البابريين البالغ بالحضارة والمدنية إلى أن إلتفتوا إلى تعمير مدنهم وشغفوا بالعمارة شغفاً بالغاً، حتى ظهر فى عهدهم طراز معمارى، هو مزيج من فنون المسلمين فى الغالب وبعض الفنون الهندوكية، فشاع فى العالم باسم الطراز المغولى، ويتميز بالقباب البصلية الشكل والترصيع بالحجارة الكريمة والميناء والخزف، والأقواس الحادة، والأبواب الفخمة التى تعلوها نصف القبة .

لقد انتقد ظهير الدين بابر أبنية الهند منذ دخلها انتقاداً شديداً وأظهر امتعاضة من عمارتها، ولم يمنعه اشتغاله بحروبه المتواصلة فى هذه البلاد من إقامته من المنشآت على الطراز التيمورى الذى عرفه فى موطنه الأول ببلاد ما وراء النهر وصادفه فى مواضع كثيرة بخرسان وكابل، حتى ليذكر فى سيرته أنه كان يستخدم ٦٨٠ من النحاتين فى بناء قصوره، بخلاف ١٤٩١ آخرين كانوا يعملون فى منشآته الأخرى من الخزانات والمساجد بآكرا وبيانه ودهولبور وكواليار([1]) . ولم يبق من منشآته الكثيرة هذه إلا مسجد كابل باغ فى بانى بت والمسجد الجامع فى سنبهل، ليجئ من بعده حفيده أكبر فيزين الهندستان بعدة منشآت فخمة جاءت عمارتها آية فى الإعجاز الفنى . وقد بقى منها حتى اليوم ضريح همايون وبعض قصوره فى فتحبور سكرى ثم بلندروازه (البوابة الكبيرة) التى أقامها تذكاراً لفتوحاته الدكنية والتى تعد بارتفاعها الذى يبلغ ١٧٩ قدمًا وحنيتها مثالاً لروعة العمارة الهندية كلها . ويقوم غير بعيد منها ذلك المسجد الجامع، الذى حاكى به فى تصميمه البيت الحرام، ثم حصن آكرا الذى استغرق بناؤه سنوات ثمانية .

ومما يذكر فى هذا الصدد أن أكبر لم يغفل فى عهده عن مراقبة أسعار مواد البناء حرصًا منه على تيسير الحياة لشعبه .

وما أذاع صيت العمارة المغولية فى الخافقين هو « تاج محل » ذلك المثوى البديع الذى شيده شاهجهان لزوجته، أرجمند بانو ممتاز محل، فقام مثالاً على

---

(١) بابر نامة ٢٩١ب

الروعة فى البناء وفى الوفاء، حتى رجح بعض المؤرخين، خطأ، إستعانة شاهجهان فى إقامته بالفنانين الإيطاليين، كما نسبوا إلى بابر من قبل استخدامه لتلاميذ سنان، معمارى العثمانيين، المشهور .

والثابت المعروف أن هذا البناء، الذى يعد بحق من روائع الفن المعمارى المعدودة، هو فى تصميمه وتنفيذه إسلامى خالص .

ومن منشآت شاهجهان الخالدة مدينة دهلى الجديدة، التى عرفت فى عهده باسم شاهجهان آباد، والتى خططها على أحسن نمط فى عصره وأقام بها عدة قصور فخمة له ولأمرائه، وخص التجار وأصحاب الحرف والصناعات والفنانين من نقاشين وغيرهم، كل فريق منهم بمحلته، ليبهروا من بعد ذلك بمنتجاتهم ورواء مدينتهم أنظار الأوروبيين الذين زاروها إذ ذاك([1]) .

ونالت آكرا بدورها كذلك الكثير من عناية السلطان حتى أشاد الرحالة الألمانى مندلسلو بنظافة طرقها الممهدة وجمال أبنيتها وإتساع رقعتها، وأحصى بها إذ ذاك سبعين مسجدًا وثمانمائة حمامًا([2]) .

وبموت شاهجهان، وارتقاء ابنه الصوفى أورنكزيب عالمكير العرش من بعده وضعف خلفائه، فتر اهتمام الدولة بالتعمير والبناء .

وقلد الأمراء المسلمون، فى مختلف الإمارات الهندية، طراز العمارة المغولية، فظهرت أمثلة منها رائعة فى بيجابور وغولكونده وأحمد نكر وبرار وبيدار وتخطتها إلى نيبال، بسفوح الهملايا، التى لم يدخلها المسلمون، فضلاً عن إمارة فيايانكر بأقصى الجنوب .

النقش : كان طبيعيًا أن يستتبع شغف سلاطين الدولة المغولية بالعمارة شغفهم كذلك بفن النقش والعناية به، وأخذت مدرسته عندهم طابعها المغولى الخاص بها حتى أفرد لها أرباب الفنون بابًا خاصًا بها وتحدثوا فى أسفار كاملة عنها([3]) .

---

(١) Lsne-Pcole367-72.

(٢) Lane-Poole 333.5.

(٣) L. Binyon. The Court Painters of the Granp Moghul. Oxford 1921.

فهذا جدهم بابر قد جلب معه إلى الهند جملة من روائع النقوش التى كانت فى حوزة الأسرة التيمورية، ومن بينها لوحات لبهزاد مصور السلطان حسين بيقرا، الذى يصفه عداء الفنانين بأنه رفائيل الشرق(1)، كما استصحب همايون معه فى عودته من المنفى إلى الهند النقاشين المشهورين سيد على تبريزى وخواجه عبد الصمد، ليجئ ابنه أكبر من بعد ذلك فيقرر أن التصوير نوع من العبادة، وأن للفنان، فما يبدو له، طريقته الخاصة للإقرار بواحدانية الخالق المبدع، فهو حين يصور الكائنات وينقش أطرافها وملامحها على لوحته لا بد وأن يتصرف بذهنه إلى التفكر فى إبداع خالقها الذى نفخ فيها بما يعجز هو عن تصويره وإبرازه .

وهو بعد ذلك يقيم ببلاطه معرضًا للنقوش فى كل أسبوع ويجيز المجيدين من أصحابها تشجيعًا لهم، بل إنه ليستهوى نوابغ النقاشين من خارج الهند بالمنح والعطايا ليفدوا إليه، كما يمد تشجيعه وعنايته إلى فنانى الهنادكة ويحضهم على التعمق فى تفهم فنونهم القديمة ودراستها، فكان من نوابغهم ببلاطه دسونت وبساوت وسنول وتراشند وحكنات، إلى جانب عبد الصمد وميرسيد على وفرخ بك ومحمد نادر وأستاذ منصور .

وقد عهد أكبر إلى نقاشيه بتصوير وقائع جنكيز نامه، وظفر نامه، ورازنامه، وهى جميعًا من مؤلفات المسلمين . ثم المهابهارتا والرامايانا . ملحمتى الهنادكة اللتين كان قد أمر بنقلهما وبعض كتب هندوكية أخرى إلى الفارسية، فزينت كلها بنقوش ـور حوادثها(2) . وقد تأثر بعض هؤلاء النقاشين بالفنون الأوروبية التى كان البرتغاليون قد جلبوا معهم إلى الهند بعض نماذج منها .

وورث جهانكير عن أبيه كثيرًا من أحاسيسه الفنية حتى كان فى مقدوره أن يتعرف فى يسر على مقومات كل فنان وخصائصه حتى حين يشارك غيره فى نقش واحد(3) .

---

(1) لهذا النقاش لوحات عدة بأشهر متاحف الفنون وهو يتأثر فى نقوشه بمذهب الصوفية الفارسية، فهو بذلك من مدرسة الرمزية .

(2) بداوتى ثان ٣٢٠، ٣٣٦

(3) واقعات جهانكيرى ٣٥٩، ٢٠

وبلغ الفنانون والنقاشون فى عهد أورنكزيب بفن الخط وزخارف الكتب مرتبة الأعجاز الفنى الرائع، وساهم السلطان نفسه معهم بنصيب ملحوظ فى نسخة للقــرآن الكريم فى إبداع مشهور .

وتخلف عن فنانى الدولة المغولية لوحات كثيرة سجلت كثيرًا مـــن مظـــاهر الحياة فى البلاط وفى المجتمع الهندى، بل وفى البيئـــة الهنديـــة كلـــها بأشـــجارها وأزهارها وطيورها وفيولها، تجدها اليوم هى وزخارفهم قد أزدانت بـــها متـــاحف العالم الكبرى .

حدائق المغول : يتمثل كلف سلاطين الدولة المغولية بالجمال، وحبهم للطبيعـة ومباهجها، فى حدائقهم التى أقاموها فى مواضع كثيرة بالهند حتى ذاع صيتها وأقبل الأوروبيون فى إيطاليا وبلاد الإنجليز، على الخصوص، يحتذون نمطها ويزينوا بـها كثيرًا من مدنهم .

فهذا بابر تراه فى مواطن كثيرة بسيرته لا يفتأ يتغنى بما أبدعته الطبيعة مـــن آلائها . حتى إذا ما دخل الهند فشاهد حدائقها لأول وهلة، انتقدها انتقاداً شديدًا لسـوء تنسيقها وخلوها من الماء يجرى فى جداولها بين الخمائل « فأين هى مـــن مغـانى فرغانه وكابل » . وما غدا أن أنشأ بالهندستان عدداً من البساتين والمنتزهـــات مـــا حاكى بها رياض مواطنه، فكان من بينها جارباغ الكابلى بظاهر آكرا الــذى جعلـــه على نمط نظيره بكابل وجلب إليه كثيرًا من النباتات والأشجار التى لم تكـــن الــهند تعرفها من قبل(١) .

وورث عنه حفيده شاهجهان شغفة بالنباتـــات والحدائـــق والأشـــجار وكلفـــه بدراستها تفصيلاً(٢)، كما استهوت مغانى كشمير، بفتنتها، الأمراء البابريين جميعًـــا فكانوا يسارعون إليها فى كل صيف طلبًا للانتجاع والمتعة، حتـــى أقـــاموا علـــى غرارها بلاهور، قصبة البنغال، شالمار أخرى حاكوا بـــه نظيرتـــها فـــى التبـــت بأشجارها وجداولها وشلالاتها ومدرجاتها .

---

(١) بابرنامه ٣٨٠ب

(٢) ولقعات جها نكيرى ٣٠٤، ٣٣٨، ٣٤٨، ٣٧٠

وما زال الشعراء حتى اليوم يتغنون فى الفارسية والأوردوية بمفاتن هذه الرياض وجمالها .

الموسيقى : هذا والمطلع على موسيقى الهند اليوم لا يستطيع أن يغفل أمر المؤثرات الإسلامية التى عملت فيها، سواء فى ناحية الأصوات أو ناحية الآلات .

ومن المشهور كذلك أن سلاطين المغول كانوا على ولع شديد بالعزف والغناء، باستثناء أورنكزيب عالمكير الذى سرح الموسيقيين والشعراء من بلاطه . فهذا بابر قد روى عنه تأليفه لبعض الأصوات، فى حين كان ابنه همايون يعقد ندوة موسيقية ببلاطه فى يومى الاثنين والأربعاء من كل أسبوع: أما أكبر فقد استقدم إلى بلاطه مشاهير الموسيقيين رجالاً ونساء، من كشمير وإيران . ولا يزال مثوى مطربه ميان تانس بكواليار مزاراً يقصده موسيقيوا الهند حتى اليوم .

وفى إقبالنامه جهانكيرى، لمعتمد خان، تفصيل لنشاط الموسيقيين ببلاط جهانكير، وقد كلف هذا السلطان نفسه بالموسيقى حتى ألف فيها أصواتًا كثيرة .

وفى عهد الدولة المغولية أدخل إلى الهند كثير من الآلات الموسيقية، مثل الرباب والسرود والدلربى والطاووس، وجميعها فارسية الأصل([1])، كما ألف، كثير من الأسفار فى هذا الفن تزخر بها مكتبة فيضى بآكرا اليوم، ولا يزال إلى وقتنا هذا للألحان المغولية رواج بالهند .

الحركة الفكرية : لم يبد سلاطين الدولة المغولية رعاة للحركة الفكرية فى الهند وحماة للعلوم والآداب فحسب، بل كان منهم من ساهم بقلمه فيها وأخرج للناس كتبًا قيمة . فمن ذلك السيرة الفذة التى أنشأها بابر عن نفسه فأفصحت عن إحاطته الواسعة بالتاريخ وتقويم البلدان وكثير من العلوم العقلية والنقلية، وتمكنه التام من الآداب العربية والفارسية والتركية . كذلك كتبت ابنته كلبدن بيكيم، هما يونتامه التى تعد مرجعًا وثيقًا فى تاريخ ثانى سلاطين المغول . وشغف مثلها بالآداب كثيرات من نساء البيت المغولى، أشهرهن زيب النسا ابنه عالمكير التى كانت تقرض الشعر

---

(١) Legaey of India p 299.

باللسانين العربى والفارسى فى رقة وعذوبة أودعتها ديوانـــها المشـــهور « ديـــوان مخفى » .

هذا، وكان همايون يحرص فى أسفاره على إلا تفارقه مكتبته الخاصة، وكـــان يميل بخاصة إلى المصنفات الجغرافية والفلكية، ولم يكن جوهـــر صـــاحب تذكـــرة الواقعات إلا تابعًا من أتباعه ومقدم شرابه(١) .

وصادفت سوق الثقافة والحياة الفكرية رواجًا منقطع النظير عند أكبر، أعظـــم ملك عرفته الهند، حتى أوقف المؤرخ عبد القادر بدوانى المجلد الثالث من كتابـــه، منتخب، على ذكر رجالها والمشتغلين بها فى عهده . فكان من أعلامهم مـــــلا داود صاحب تاريخ ألفى، وأبو الفضل بن المبارك صاحب أكبر نامه وآيـــين أكـــبرى - والكتاب الأول يستعرض فيه تاريخ الدولة المغولية منذ نشأتها، فى حين يتحدث فـــى الكتاب الثانى عن رسوم هذه الدولة وتقاليدها ونظم الحكم فيـــها ومظـــاهر المدنيـــة عندها - ثم أخوه أبو الفيض فيضى الشاعر الطبيب الرياضى، ونظام الديـــن أحمـــد صاحب طبقات أكبرى، ومحمد عبد الباقى صاحب مآثر رحيمـــى، ومحمـــد قاســـم هندوشاه صاحب تاريخ فرشته .

وأغلب هذه الكتب قد نشرتها المطابع ونقل بعضها إلى لغات كثيرة، وجميعـــها قد صنف بالفارسية التى كان لها ولآدابها رواج عظيم ومركز ممتاز بالـــــهند أيـــام الحكم الإسلامى بعامة وفى عهد الدولة المغولية بخاصة، حتـــى أقبـــل كثـــير مـــن الهنادكة على دراستها واشتهر نفر من براهمة كشمير بإجادة النظم بها .

وبلغ من تقدير أكبر للعلماء أن استبد به الحزن حين بلغه خبر مقتل وزيـــــره ومؤرخه أبى الفضل، حتى ود لو كان هو المقتول مكانه، فنوابغ العلماء - على حـــد قوله - لا يجود بهم الزمان إلا فى القليل النادر بخلاف الملوك وإن صلحوا .

ولأكبر يدين الهنادكة ببعث آدابهم السنسكريتية وإحيائها من جديد، وظـــــهور طبقة ممتازة من كتابهم وشعرائهم . وبفضل نظرته المتسامحة وتشجيعه أقبل فريـــق

---

(١) كان لبابر كذلك مكتبة قيمة عليها قيم يدعى عبد الله كتابدار .

من المسلمين أنفسهم على الاشتغال بتلك الآداب، حتى نظم الشعر بالسنسكريتية الوزير عبد الرحيم خانخانان الذى نقل بابرنامه من الجغتائية إلى الفارسية على ما أشرنا إلى ذلك من قبل .

وفى عهد جهانكير كتب معتمد خان تاريخه المعروف بإقبالنامه جهانكيرى وكامكرخان مآثر جهانكيرى، والشيخ نور الحق زبدة التواريخ، كما ألف فى عهد شاهجهان، بادشاهنامه لعبد الحميد لاهورى ثم لأمين قزوينى، وشاهجهاننامه لعنايت خان وعمل صالح لمحمد صالح .

هذا : كما كتب داراشكوه بن شاهجهان بعض كتب فى التصوف المقارن مثل « مجمع البحرين »، وترجم لجمهور من أهل التصوف فى كتابه « سفينة الأولياء » . ودفعه شغفه بالإطلاع على فلسفة الهند القديمة وعقائدها إلى أن عهد إلى بعض المترجمين بأن ينقلوا إلى الفارسية قدراً من كتبها مثل اليوبانيشاد وبهجفادجيتا ويوجاماشيست .

حتى إذا بلغنا عصر أورنكزيب وجدنا عنده من المؤرخين محمد هاشم المعروف بخافى خان صاحب منتخب اللباب وسخن راى خترى صاحب خلاصة التواريخ، ثم محمد مستعد خان صاحب مآثر عالمكير ومحمد كاظم صاحب عالمكير نامه . وأشهر ما كتب فى عهد هذا السلطان هو الموسوعة الفقهية الكبرى، المعروفة بالفتاوى الهندية أو العالمكيرية التى عهد بتأليفها إلى فريق من خيرة علمائه، وبذل لهم فى سخاء، فأجملوا فيها الفقه الحنفى كله إجمالا شاملا . ولم يمض على الفراغ من تأليفها أكثر من قرن ونصف القرن حتى طبعت فى القاهرة ونشرت، وذلك قبيل منتصف القرن التاسع عشر الميلادى مما يدل على قيام الروابط الثقافية الوثيقة بين الشعوب الإسلامية برغم بعد الشقة بينها، وما أصابها من انحلال وضعف فى ذلك القرن . ويعد هذا الكتاب من أهم المراجع التى اعتمد عليها المصلحون فى السنين الأخيرة لإصلاح قوانين الأحوال الشخصية بمصر .

اللغة الأوردوية : كان من أجلى مظاهر التجاوب القوى بين الثقافتين الهندية والإسلامية وآدابهما، تطور اللغة الأوردوية، أوسع لغات شبه القارة الهندية انتشاراً،

والتى تعد مزيجًا من لغات الحاكمين والمحكومين، أى من الفارسية أساسًـــا، ومــا تسرب إليها من ألفاظ عربية كثيرة ومصطلحات اللهجات المحلية الهندية[1] .

فقد بدأت ألفاظ كثيرة من لغات الفاتحين تتسرب إلى لهجات الهند منذ أن غـزا محمود الغزنوى هذه البلاد واستقر خلفاؤه من بعده بها، كما غدت ألفاظ وعبـــارات هندية بدورها تجرى على لسان المسلمين فى الهند، حتى تمكن فريق منهم من آداب البلاد المفتوحة تمكنا بينا ظهرت أمثلته عند خسرو الدهلوى الذى كان ينظم الشـــعر بالفارسية والبهاشا، لهجة دهلى، على الأوزان السنسكريتية فى القرن الرابع عشـــر الميلادى .

حتى إذا ما أخذ الهنادكة يقبلون على تعلم الفارسية منذ أيام اللودهيين طمعًـــا فى الالتحاق بالدواوين، وجاء سلاطين المغول يفتحون لهم الأبواب إلى المنـــاصب ويعنون بالنهضة بالآداب الفارسية والسنسكريتية على السواء، ازداد تقرب اللغتيـــن من بعضهما واختلاطهما، ليظهر من أثر هذا المزج لهجة ثالثة فى عهد شـــاهجهان فى القرن السابع عشر الميلادى، وقد بدا عليها معالم النضج والاستقلال واضحـــة، وقد عرفت باسم « زبان أردو » أى لغة سوق المعسكر بدهلى، حيث كان لـها رواج ملحوظ .

وبقيت هذه اللغة الجديدة فى الغالب تساهم فى النشاط الأدبى بنصيب محـــدود لا تبلغ فيه بعض مقام الفارسية، حتى تم للبريطانيين استعمار الهند فعملـــوا علـى اقتلاع الفارسية من هذه البلاد - بوصفها لسان المفكرين المسلمين الذين جروا علـى مناهضتهم حتى تزعموا آخر الأمر ثورة التحرير الهندية ضدهم فى منتصف القـرن التاسع عشر - فبذلوا جهودًا كبيرة لتنظيم أصول الأوردوية ونحوها وطبعوا كتبــها، حتى عمت الهند على حداثة عهدها وازدهرت آدابها ولا تزال للمطارحات الشـعرية الأوردنية بالهند كلها سوق رائجة حتى اليوم .

---

(١) اللهجات الهندية هى فى الغالب خليط من اللغات الدراوية والآرية بما فيها السنســكريتية . وقـد بقيت السنسكريتيـة الأدبية الخالصة وقفًا على أبناء الطبقات العليا منذ أن وضع « منـو » المتم نظـام الطبقات فعزلت نفسـها بذلك فى الغالب عن عامة الناس .

وكانت الأوردوية هى لسان الزعماء المسلمين من أمثال السيد أحمد خان وإقبال وخلفائهما الذين نصبوا أنفسهم للنهضة بالمسلمين فى الهند والدفاع عن حقوقهم بازاء عداء البريطانيين المرير لهم .

وعالج بها لنفر من المسلمين والهنادكة كثيرًا من الموضوعات الحديثة والقديمة فبرهنوا بذلك على مرونتها وصلاحيتها كل الصلاحية فى العصور الحديثة([1]) . وهى اليوم لغة باكستان الأولى ومن أكثر اللغات تداولاً بجمهورية الهند .

كان من أثر الإسلام البالغ بالهند، فضلاً عن اجتذابه الملايين من أهلها بسماحته وقوله بالمساواة بين الناس جميعًا، أن برز طائفة من المصلحين الهنادكة ينادون بإنكار عبادة الأوثان من دون الله الواحد القهار([2])، كما أنكروا كذلك نظام الطبقات والوظائف الدينية وزواج الأطفال وعادة الساتى، وأباحوا زواج الأرامل وسمحوا لغير الهنود باعتناق دينهم .

ولم تكن دعوات نانك صاحب ديانة السك، وكبير صاحب مذهب بهتكى، ورام موهن صاحب « برهما سماج » وتعظيمهم جميعًا للأنبياء والمرسلين إلا صدى لتعاليم الإسلام الذى كان بالهند دينًا وحكمًا ومدنية .

---

(١) Leacy of India pp 293-5.

(٢) ديانات الهند القديمة كانت تقول أصلاً بالتوحيد فى الغالب (البيرونى : ذكر ما للهند من مقولة ... ص١٣) وإن لم يبدو عندها بالمظهر الراسخ المؤكد عند المسلمين حتى انحرف بها سدلتها من بعد ذلك فباعدوا ما بينها وبين مبادئها الأولى .

أفغانستان

قلعة الإسلام الشامخة بقلب آسيا

تاريخها وكفاحها ضد الاستعمار فى العصر الحديث

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أحمدك اللهم وحدك، يا من صدق وعدك، ونصرت عبدك، وأعززت جندك، وهزمت الأحزاب وحدك، وأصلى وأسلم على نبيك وحبيبك المصطفى محمد بن عبد الله يا من بعثته رحمة لكل خلقك ونوراً يهتدى به كل من آمن بك وبه وأحبك، وجاهد بنفسه وماله فى سبيل نصرة الإسلام واتباع دين الحق من عبيدك .

﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقًا فى التوراة والإنجيل والقرآن، ومن أوفى بعهده من الله، فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هوالفوز العظيم ﴾[1] .

وبعد، فإن أفغانستان – قلعة الإسلام الشامخة بقلب آسيا – يعيش شعبها المؤمن المجاهد العظيم محنة ضارية قاسية منذ مستهل عام ١٩٨٠م حين أقدم خائن مرتد من أبنائه وهوبابراك كارميل على فتح جميع أبواب بلاده على كافة مصاريعها لجحافل السوفييت الروس وذلك بعد أن خلع سلفه فى حكم البلاد عميل الروس السابق حفيظ الله أمين وقتله فى ظل حراب السوفييت وبأمرهم .

ولقد نهض أبناء الشعب الأفغانى الأبطال إلى مجالدة عدوهم المستعمر الروسى الدخيل منذ اللحظة الأولى التى اقتحم فيها حدود ديارهم، لا يفت فى عضدهم أبدًا تدفق قواته الكثيفة على بلادهم، ولا ما يملك من أسلحة الموت والدمار الرهيبة بالقياس إلى ما بأيدى هؤلاء المجاهدين من العتاد غير الكثير والسلاح القليل.

وأطماع الروس فى بلاد الأفغان – قلعة الإسلام الشامخة فى قلب آسيا – ليست وليدة الصراعات السياسية فى زمننا هذا اوالدعوات المذهبية، إذ ترجع جذورها إلى مستهل القرن التاسع عشر الماضى، حين شرع القياصرة الروس يدفعون بقواتهم إلى التوغل فى قلب آسيا بهدف الاستيلاء على التركستان والقضاء

---

(١) سورة التوبة : الآية ١١١

على الإمارات الإسلامية فى هذا الإقليم الذى يعرف فى التاريخ كذلك باسم « إقليم بخار الكبرى » .

وكانت بريطانيا تستكمل بدورها كذلك وضع أيديها، فى تلك الفترة، على كل شبه القارة الهندية كلها .

وما ارسخ المستعمر الروسى قدمه فى تلك البلاد التى غزاها بآسيا الوسطى، وتبعه المستعمر البريطاني بدوره ؛ فأحكم من قبضته على شبه القارة الهندية، حتى طفق كل واحد من هذين المستعمرين يتطلع إلى الاستيلاء على أفغانستان بدعوى تأمين حدود مستعمراته الجديدة .

على أن واقع الأمر هوأن بريطانيا كانت تحرص كل الحرص على أن يبقى المحيط الهندى بحيره بريطانية خالصة حماية لمصالحها الاستعمارية فى جنوب آسيا وشرق أفريقيا، وأن عليها أن تمنع روسيا بذلك من الوصول إلى هذه المياه الدافئة عبر أفغانستان وإلى الجنوب منها بالتالى .

وقد وقفت أفغانستان وسط هذا الصراع، بين المستعمرين، الروسى والبريطانى، قلعة شامخة بفضل بسالة رجالها .

ولئن كان البريطانيون قد استطاعوا، لفترات، دخول كابل وتنصيب عملاء لهم من الأفغان على عرش البلاد، إلا أن كل هذه المحاولات التى بذلها المستعمر لطى بلاد الأفغان فى دائرة نفوذه قد باءت بالفشل، فضاعت للمستعمر جيوش بأكملها برغم بدائية أسلحة الأفغان بالقياس إلى أسلحة المستعمر الحديثة، وذلك على ما سنفصله فى الصفحات التالية، وأرغمت بذلك أفغانستان المستعمر على احترام إرادة أبنائها والاعتراف باستقلالها :

وانتقل ميدان الصراع بين الروس والبريطانيين من بعد ذلك إلى إيران، جارة أفغانستان، فصار للروس نفوذهم فى الشمال وللبريطانيين نفوذهم بالجنوب حتى جاء رضا شاه بهلوى الكبير فخلص بدوره بلاده من المستعمرين . وليس هذا موضوعنا على كل حال[1] .

---

(١) انظر كتابى « تاريخ الدول الإسلامية بآسيا وحضارتها » ص١٥٥ وما بعدها .

وخرجت بريطانيا من شبه القارة الهندية بعد تقسيمها إلى جمهوريتى باكستان والهند المستقلتين، كما زال النفوذ البريطانى فى جنوب شرقى آسيا، وبذلك خلا الجوللسوفييت الذين لم تتحول أبدا أنظارهم عن أفغانستان أوتغيب أطماعهم عنها . ولم يكن هؤلاء الروس لينسوا كذلك أبدا لذلك الشعب الأفغانى المسلم موقفه منهم، حين انطلقوا يتوغلون بقواتهم فى الإمارات الإسلامية الممتدة من وسط آسيا حتى القوقاز، وطفقوا يخضعون لسلطانهم بقوة السلاح شعوب تلك المناطق الإسلامية طوال القرن التاسع عشر الماضى وأوائل القرن العشرين الحالى، إذ سارع الأفغان آنذاك بفتح حدود بلادهم وأبواب دورهم لتلك الألوف المؤلفة من جموع المسلمين من التركستانيين وغيرهم الذين هاجروا بدينهم هربا من حرب الإبادة التى كان يمارسها المستعمر الروسى معهم فى أيام القياصرة وفى عهد البلاشفة على السواء وقد رحب الأفغان بهؤلاء المهاجرين المسلمين واستقبلوهم كما استقبل الأنصار إخوانهم المهاجرين بالمدينة المنورة لعهد رسول الله ﷺ .

ولقد جالد المسلمين فى تلك الإمارات الإسلامية المستعمر الروسى فى بسالة واستماتة حتى استشهد منهم طول تلك الفترة ما يقارب الملايين العشرة، دون أن يتلقوا معونات تذكر من الشعوب الإسلامية الأخرى التى كانت ترزح نياك الوقت فى أغلال الاستعمار بدورها .

وحين حاول أبناء تلك البلاد عرض قضية بلادهم على عصبة الأمم القديمة، ثم على هيئة الأمم المتحدة من بعد ذلك، لم يلتفت إليهم أحد ولا تزال هناك بعض منظمات لهم، بألمانيا الغربية على الأخص، تسعى لتحقيق هذا الهدف .

وقد عمد السوفييت أخيرا إلى تهجير مجموعات من المسلمين من سكان التركستان إلى مناطق متفرقة بقلب روسيا، وإحلال جموع من الروس البلاشفة محلهم . وغنى عن البيان أن هذه المناطق الإسلامية يعتمد السوفييت اعتماداً كبيرا على ما تنتجه من القطن والحبوب وما بها من بترول وثروات معدنية وافرة .

وقد جاءت الأنباء أخيرا بفرار نفر من المسلمين التركستانيين من قوات الغزوالروسية بأفغانستان وانضمامهم بأسلحتهم إلى صفوف المجاهدين الأفغان .

وقد كشف هؤلاء عن مدى خداع السوفييت لهم حين ألقوا فى روعهم بأنهم إنما يقدمون إلى تلك البلاد تلبية لدعوة الأفغان لهم فى إلحاح لإنقاذهم من براثن الأمريكيين فى بلادهم .

هذا والواضح الأكيد أن السوفييت يهدفون آخر الأمر إلى ضم بلاد الأفغان إلى تلك الدول الإمارات الإسلامية التى استعمروا أرضها واستعبدوا أهلها فى تلك المناطق الممتدة من التركستان حتى القوقاز، والتى كان لها دور بارز فى بناء الحضارة الإسلامية، فهى الأرض التى ظهر فيها ابن سينا والبيرونى والأمام البخارى والبيهقى والترمذى وغيرهم بل إن روسيا نفسها تدين بنشأة كثير من معالم الحضارة والمدنية فيها إلى حكام تلك البلاد الذين بلغوا بفتوحاتهم مرات متكررة إلى موسكوفى القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين . وظل دوق موسكونفسه لسنين طويلة لا يمارس سلطانه إلا على إرادتهم .

وفى الصفحات التالية حديث عن تاريخ أفغانستان منذ الفتح الإسلامى حتى وقتنا هذا وما تعرضت له تلك البلاد فى العصور الحديثة من محاولات المستعمرين - الروس والبريطانيين - لطيها تحت نفوذهم . وقد تصدى أبناء تلك البلاد لتلك المحاولات فى بسالة وتمرس بالقتال أرغمت العدو نفسه على احترام مشيئتهم الحرة واستقلالهم . وهم فاعلون ذلك مرة أخرى مضطلعون به فى هذه الأيام من جديد بإذن الله فى مجالدتهم للغزوالروسى الحالى لبلادهم ومحاولتهم دفع هذا المستعمر الغاشم بجحافله عن بلادهم .

ويلى ذلك حديث آخر عن السيد جمال الدين الأفغانى، ودعوته التى خرج بها من بلاده داعيًا إلى يقظة الشعوب الإسلامية فى مختلف الأقطار، ومحرضا لها على استردادها لحريتها وبعثها وإحيائها لأمجاد الإسلام من جديد، وما أسفرت هذه الدعوة عن نتائج خطيرة وآثار عميقة لا تزال تُلتمس فى أنحاء البلاد الإسلامية حتى اليوم، والله الموفق .

تاريخ بلاد الأفغان « أفغانستان »

منذ الفتح الإسلامى

لم تعرف هذه البلاد بهذا الاسم الذى تشتهر به اليوم إلا منذ القرن الثامن عشر الميلادى، وإن ذكرت القبائل الأفغانية فى التاريخ من قديم واشتهرت مواطنها التى تتألف منها هذه الدولة اليوم، اشتهرت « كابل » و « غزنه » بدورها فى التاريخ الإسلامى، كما اشتهرت « هراة » بمكانتها المرموقة فى ميادين الثقافة الرفيعة، فضلاً عما لأراضها وأراضى « بدخشان » و « سجستان» من خصب عميم، وعرفت « قندهار » بشهرتها التجارية وموقعها الاستراتيجى الهام .

تقع بلاد الأفغان عند الركن الشمالى الشرقى من الهضبة الإيرانية الأسيوية . وإقليمها جبلى شديد الوعورة فى أغلبة تصل مساحته إلى ربع المليون من الأميال المربعة، وتحيط به فارس وباكستان وتركستان .

وفى أمة الأفغان، التى يبلغ تعدادها خمسة عشر مليوناً من الأنفس، تتمثل الشعوب الإسلامية كلها بعروقها خير تمثيل . ففيهم من ينتسبون إلىالعرب ؛ بل وإلى خير العرب من قريش، وفيهم من عناصر الترك والفرس والمغول .

وكما تتمثل شعوب المسلمين فى أمة الأفغان، فكذلك تتمثل لغاتهم فى «البشتو » لغة الأفغان الثانية بعد « الفارسية »، نجد فيها ألفاظًا ومصطلحات من العربية والفارسية والتركية .

هكذا يتمثل المسلمون، عروقًا وألسنة، فى قلعة الإسلام الشامخة هذه.

وقد كان للأفغان - قبل دخول الإسلام إلى بلادهم - مساهمة فى حضارة العالم القديم، كما عرفوا كذلك قدراً من حضارة الهند، وحضارة إيران، بحكم الجوار، وعرفوا حضارة اليونان حين كانت بلادهم جزءاً من دولة «بقطريا» التى أقامها قواد الإسكندر المقدونى فى تلك الأنحاء .

وأول ما دخل الإسلام بلاد الأفغان في القرن الأول الهجري، فلقد فتح المسلمون العرب بلاد فارس أيام ثاني الخلفاء الراشدين عمر بن الخطاب كما هو معروف مشهور . حتى إذا ما ولي عثمان بن عفان ثالث أمراء المسلمين، وجدنا عبد الله بن عامر عامله على البصرة يبعث بقائده عبد الرحمن لغزو « سيستان » فلا يرجع من غزوته هذه حتى يبلغ جبال الغور ويدخل « كابل » فيأسر أميرها البدهي (البوذي) ويحطم كل ما صادفه في طريقة من أوثان البدهيين، ومنها ما كان من ذهب محلى بالجواهر . وقد استسلمت له كذلك : « نيسابور » و « هراة» و « مرو » .

واشتدت غزوات المسلمين في هذه النواحي أيام الأمويين حتى بلغت آسيا الوسطى وتخطت حدودِ الهند، وذلك بحسن تدبير القائد العربي المعروف « الحجاج بن يوسف الثقفي » بخاصة . واستقر على أثر هذه الغزوات كثير من أفخاذ القبائل العربية في البلاد المفتوحة، استقروا في بلاد وراء النهر وفي إقليم السند وفي خراسان ومنازل الأفغان، ولم ينتج عن استقرار العرب بهذه المناطق انتشار الإسلام بين الآهلين هناك على نطاق واسع فحسب، بل لقد ظهر كذلك من بعد ذلك بوقت قصير طبقة من أبناء هذه البلاد المفتوحة، تجيد العربية وتشتغل بعلوم اللغة والقرآن والحديث .

وهنا نشير إلى حقيقتين هامتين : الأولى، هي أن العقائد التي كانت تسود هذه المناطق، من بوذية وزرادشتية وغيرها، كانت تقوم على نظام الطبقات حتى كان الأمر يصل ببعضها إلى أن تحرم على أتباعها مجالسة غيرهم أو مطاعمتهم، فضلاً عن استبداد كهنة هذه العقائد الشديد بأتباعهم، فحين أقبل الإسلام فوجد فيه الأهلون المساواة التامة، لا فضل فيه لعربي على عجمي إلا بالتقوى، أقبلوا على الدخول فيه دون إكراه . نقول دون إكراه ونستشهد في ذلك بما ذكره المستشرق بارتولد في كتابه عن تاريخ الحضارة الإسلامية من تشدد المعتصم العباسي في عقاب نفر من المسلمين كانوا قد تعرضوا لمعبد من معابد المجوس ببلاد الصغد . والحقيقة الثانية، هي أن ما من بلد دخله الإسلام إلا وتحول أهله في الغالب عن لغاتهم وعقائدهم وعاداتهم إلى لغات المسلمين وعقائدهم ورسومهم .

جمهورية أفغانستان

وخلف العباسيون الأمويين، وفى عهدهم بدأت تظهر الدويلات الإسلامية المستقلة فى القسم الشرقى من الدولة الإسلامية . فظهر الطاهريون ثم الصفاريون الذين بسطوا سلطانهم على كابل وهرات وطبرستان، وخلفهم السامانيون فضموا إلى ملكهم أراض كثيرة فى بلاد ما وراء النهر . وكان من بين عمال الدولة السامانية أمير يدعى سبكتكين كان يحكم ولاية غزنه الأفغانية فى القرن الرابع الهجرى .

وعلى يد سبكتكين هذا قامت أول دولة أفغانية إسلامية هى الدولة الغزنوية التى اضطلعت بدور من أعظم أدوار التاريخ الإسلامى .

فقد استطاع سبكتكين مدة حكمه القصير أن يمد حدود دولته حتى البنجاب ويضم إليه الخراسان وأجزاءًا من بلاد ما وراء النهر . وخلفه ابنه يمين الدولة محمود الغزنوى أعظم سلاطين المسلمين لعصره . ولا يرجع إلى محمود الفضل فى نشر الإسلام ببلاد الأفغان كلها فحسب، بل وفى الهند كذلك التى خرج إليها غازيا مجاهدًا سبع عشرة مرة فى مدى سبع وعشرين عامًا ابتداء من آخر القرن الرابع الهجرى، ولم يغر محمود ما عرضه عليه الهنادكة من أموال طائلة ليفتدوا بها أوثانهم، وهو فى جهاده لنشر الإسلام ببلادهم، ورد عليهم بمقالته المشهورة بأنه يؤثر أن يقال عنه بأنه محطم الأصنام على أن يقال عنه بأنه بائع الأوثان .

وهنا نعرض لحادثة مهمة، ذلك أن المستعمرين البريطانيين، حين دخلوا كابل فى القرن الماضى، عمدوا إلى نقل بعض حجارة منها إلى الهند انطلقوا بها يزعمون للهنادكة بأنها من بقايا معابدهم التى خربها محمود الغزنوى قبل ذلك بألف عام ونقلها إلى بلادهم ليدخلها فى بناء مساجده . أراد البريطانيون بصنيعهم هذا أن يزيدوا من الوقيعة بين الهنادكة والمسلمين بالهند، لكن أمرهم ما غدا أن افتضح وظهر كذب ما ادعوه .

وفى عهد محمود، الذى امتدت دولته من شرق الهند حتى فارس صارت حاضرته غزنه الأفغانية مركزًا من أهم مراكز الثقافة الإسلامية . فكان ببلاطه

جمهور كثير من رجال العلوم والآداب والفنون، نذكر من بينهم العلامة أبا الريحان البيرونى والعتبى المؤرخ ثم الفردوسى أعظم شعراء الفرس جميعًا .

وتعرضت الدولة الغزنوية لهزات عنيفة فى عهد خلفاء محمود بسبب حروبهم مع السلاجقة والغز، حتى ورثهم الغوريون الأفغان فى القرن السادس الهجرى . وكان هؤلاء الغوريون هم خير جند الغزنويين أيام مجدهم .

وإذا كان بـ « محمود الغزنوى » يبدأ دور الحكم الإسلامى بالهند، فبجهود الغوريين انتشر الإسلام هناك على نطاق واسع، واستقرت الحكومة الإسلامية التى ظلت بأيدى سلاطين من الأفغان حتى أوائل القرن العاشر الهجرى حين انتقلت مقاليد الأمور إلى أيدى الدولة المغولية التى أقامها هناك الأمير التيمورى ظهير الدين محمد بابر، وفى عهد هؤلاء الأمراء الأفغان ازدهرت الهند حكمًا وحضارة ومدنية .

وتعرضت بلاد الأفغان بدورها لمحنة الغزو المغولى التى نزلت بالعالم الإسلامى على أيدى جنكيز خان وأولاده، وأصاب الخراب أغلب مدنه . وظلت بلاد الأفغان تخضع لأبناء جنكيز خان الذين كانوا يحكمون فى فارس باسم الايلخانيين حتى ظهور تيمورلنك . وفى عهد الأيلخانين بدأت الحضارة الإسلامية تنتعش من جديد . فمن الحقائق المقررة أن جموع الترك والمغول المخربة، بعد أن دخلوا فى الإسلام، انقلبوا بفضل الحضارة الإسلامية إلى بناة للمدنية، حتى ازدهرت على أيديهم الثقافة والمدنية الإسلامية ازدهارًا ملحوظًا نجد مثاله عند الإيلخانيين المغول فى فارس الذين ترجم كثير من المؤلفات فى عصرهم، أى فى القرن الثامن الهجرى، إلى اللاتينية بأوروبا، وفى آثار تيمورلنك وأولاده من بعده ببخارى وسمرقند وهراة .

واستطاع تيمورلنك أن يقيم له دولة واسعة امتدت من قلب الروسيا حتى ضفاف الكنج الهندى . وصحبت انتصاراته الحربية الكثيرة هذه نهضة حضارية واسعة لم يشهدها القسم الشرقى من الدولة الإسلامية من قبل .

وفى عهد الأمراء التيموريين عمرت هراة الأفغانية بالمنشآت الفخمة من مساجد ومدارس ودور للشفاء وغيرها . وصارت هذه المدينة من أهم مراكز الثقافة الإسلامية، فقصدها مشاهير الفقهاء والحكماء والشعراء والكتاب والمؤرخون والنقاشون (أى المصورون) أولئك الذين أفادت الإنسانية جمعاء مما خلفوه من تراث فوائد جليلة . وكانت هذه المدينة هى كذلك أعظم مراكز التجارة والسياسة بآسيا الوسطى فى هاتيك الأوقات، حتى رأينا الأمير التيمورى ظهير الدين بابر يقول عنها، فى سيرته القيمة المعروفة ببا برنامة، بأنها كانت أعظم مدن العالم المسكون إذ ذاك .

وفيما كان حسين بيقرا آخر الأمراء التيموريين بخراسان يحكم فى هراة التى بلغ نشاطها الحضارى والثقافى ذروته فى عهده، كان ابن عمه ظهير الدين بابر يحكم فى كابل وغزنه . وظل بابر فى بلاد الأفغان ما ينوف على العشرين عاما . حتى تم له فى ختام الربع الأول من القرن العاشر الهجرى الاستيلاء على الهندستان . أى شمال شبه القارة الهندية كله، حيث أقام دولته التى تعرف فى التاريخ باسم الدولة المغولية، فظلت تحكم الهند أكثر من ثلاثة قرون حتى دخلها المستعمرون البريطانيون عليهم . وفى عهد الدولة التيمورية هذه شهدت الهند دورا من أعظم أدوار الحضارة بها .

ولم ينس بابر، حين تم له الجلوس على عرش الهند، أن يبعث بقطعة من النقود الفضية تذكارا منه إلى كل قاطن بكابل، رجلا أو امرأة طفلا أو شيخا حرا أو عبدا . ولا يفتؤ، وهو بالهند يتغنى بمحاسن كابل، فلا يقيم جملة من الرياض على نمط مغانيها اشتهرت باسم البساتين الكابلية فحسب، بل نراه كذلك يوصى بأن يدفن بهذه المدينة، وكان له ما تمناه فثوى على ربوة تطل على بلده الحبيب .

ظلت بلاد الأفغان تعد فى الغالب جزءا من الدولة التيمورية أى المغولية بالهند ؛ يرى فيها أصحابها موطن أبيهم الأكبر وحصنهم الذى يلوذون به حين تتهددهم الأخطار .

حتى إذا ما أخذ الضعف يتسرب إلى الدولة المغولية بالهند، انطلق حكام الفرس يتخطفون بعض الأراضى الأفغانية فى حين أخذت بعض القبائل الأفغانية بدورها تتطلع إلى الاستقلال ببلادها وتطمح إليه .

واستولى على مقاليد الحكم بفارس، فى النصف الأول من القرن الثانى عشر الهجرى - القرن الثامن عشر الميلادى - نادر شاه الأفشارى مكان الصفويين ليجتاح من بعد ذلك بلاد الأفغان وينحدر إلى الهند فيدخل دهلى وينزل بها من الدمار والخراب أكثر بما أنزل بها تيمورلنك من قبل، ويستولى على ما بها من ثروات وأموال طمع من ورائها إلى إعداد جيش قوى يكف به خطر العثمانيين عن بلاده .

وكان نادر شاه قد عمد بعد دخوله بلاد الأفغان إلى ضم فريق منهم إلى جنده، وكان من بينهم فتى فى الرابعة عشر من عمره يدعى أحمد قتل أبوه وجده فى حروبه معهم، وكان من زعماء الأبداليين الأقوياء . وسرعان ما وصل هذا الفتى بطموحه وجده إلى قيادة فرقة الأبداليين الأفغان بالجيش الفارسى، وكانت تضم بضعة آلاف من المحاربين الأشداء .

وحين قتل نادر شاه، بتدبير من القاجاديين فى جيشه، سارعت الفرقة الأفغانية تشق طريقها عائدة إلى بلادها، وهناك نودى بقائدها أحمد، فى مدينة قندهار أميرًا على بلاده باسم « أحمد شاه الأبدالى الدرانى »، وكان إذ ذاك فى الثالثة والعشرين من عمره، فكانت دولته هذه هى أول دولة فى التاريخ تعرف باسم « الدولة الأفغانية » .

وسار أحمد شاه هذا فى حكمه سيرة عدل ألفت القلوب من حوله ولم يكن يبرم أمرا دون مشورة زعماء القبائل فى بلاده .

وما إن تم له إرساء قواعد حكومته حتى انحدر إلى سهول البنجاب فخاض غمار حروب متكررة عند دهلى وما حولها، هدف من ورائها إلى دفع خطر الجماعات التى كانت تكيد للدولة الإسلامية بالهند وعلى رأسهم المرهتها والسك .

وأعظم هذه المعارك هى التى كسر فيها مائتى ألف من محـــاربى المرهتـــها الأشداء فى سهل بانى بت إلى الشمال الغربى من دهلى . وكـــانت جموعـــهم قـــد زحفت من وسط الهند وجنوبها بهدف القضاء التام على الدولـــة الإســـلامية بشـــبه القارة الهندية .

ولولا ما تعرض له أحمد الابدالى من متاعب، بسبب ضعف موارده الماليـــة وتفشى المرض فى صفوف جنده، حتى اضطر إلى الرجوع إلى بـــلاده لكـــان قـــد اســـتطاع فى الغالب أن يعيـــد للحكومة الإسلامية بالهند سابق هيبتها ، ويعـــــوق بلا شـــك استعمار البريطانيون الشمال الهندى بعد أن كانوا قد تغلغلوا فى الشـــرق والجنوب .

وســـار أبناء أحمد شاه من بعـــده ســـيرته فحـــاول تيمـــور شـــاه وزمـــان شـــاه فى غزوات متكررة إقـــرار الأمـــور فـــى إقليـــم البنجـــاب أهـــم أقســـام باكستان الحاليـــة .

ولم يكن البريطانيون بعد أن تم لهم دخول دهلى ليسكتوا على وجود الأفغـــان الأشداء بالبنجاب، وهم يعلمون تمام العلم أن هؤلاء لم يقدموا الـــهند إلا لشـــد أزر المسلمين أخطر أعدائهم بها .

هنالك عمد هـــؤلاء المستعمرون إلى أسلحتهم الاستعمارية المشـــهورة فمـــا زالوا بشـــاه فارس حتى حملوه على مهاجمة بلاد الأفغان، فلم ينتـــه الحـــال إلـــى انســـحاب الأمير الأفغانى من الهنـــد فحسب، بل لقد خلـــع كذلـــك عـــن عرشـــه بتحريض منافسيه عليه .

حتى إذا ما جلس على عرش الأفغان الأمير القوى دوست محمد أوائل القـــرن التاسع عشر، عزم البريطانيون على غزو تلك البلاد التى تعد أقوى قلاع المســـلمين بآسيا إذ ذلك وكان قد تم لهم تثبيت أقدامهم بالهند وتنظيم انتهاب خيراتها وثرواتـــها . هنالك انبروا يظاهرون شاه شجاع الملك فى منافسته لأمير الأفغان الجديـــد علـــى العرش حتى سيروا معه فريقا من رجالهم وأمدوه بأسلحة حديثة خاض بـــها عـــدة معارك انتهت بانتصار دوست محمد انتصارا حاســـما . وقـــرن الأمـــير الأفغـــان

انتصاراته هذه بفوز آخر، كتب له عدة حدوده الغربية، إذ دفع عنها خطر الفرس الذين كانوا قد أقبلوا يهاجمونه بتحريض من الروس وعون منهم .

صالح دوست محمد البريطانيين كما صالح الروس بدورهم كذلك، وكانت ولايات آسيا الوسطى الإسلامية قد أخذت تتساقط بأيديهم الواحدة بعد الأخرى فضلا عن ازدياد نفوذهم ببلاد فارس .

ولم يتعرف البريطانيون بموقف الحياد الذى التزمه أمير الأفغان بإزاء المنافسة الشديدة التى قامت بين روسيا وبريطانيا فى هذه المنطقة حتى زعموا أن المندوب الروسى فينكوفتش لم يكن ليمارس نشاطه بالعاصمة الأفغانية لولا تأييد دوست محمد له، وتذرعوا بهذه الحجة فزحفوا على بلاد الأفغان .

ولئن كان قد تم لهؤلاء المستعمرين دخول كابل وإجلاس ربيبهم شجاع الملك على عرشها بعض الوقت، فإن إرادة الأفغان كانت أمضى من أسلحة الاستعمار، إذ قاموا قومة رجل واحد فلم يكتفوا بإخراج هؤلاء الدخلاء وصنيعتهم من العاصمة فحسب، بل وتمكنوا كذلك، على قلة عددهم، من أن يبيدوا فى بعض المواقع جيوشا بريطانية بأكملها، كما حدث عند « خورد كابول » حيث أبيد جيش بريطانى بأكمله قوامه عشرون ألفا من الجند المجهز بأحدث الأسلحة، فلم ينج من رجاله جميعا إلا طبيب شاب يدعى « بريدون » استطاع أن يصل إلى سادته فى جلال آباد فيخبرهم بالكارثة التى نزلت بجيش الإمبراطورية التى لم تكن تغرب الشمس عن أملاكها .

وعاد البريطانيون إلى بلاد الأفغان من جديد طلبا للثأر فنزلت بهم الهزائم، وسقط الوطنيون على ربيبهم شجاع الملك فقتلوه، فلم يروا بدا آخر الأمر من مصالحة دوست محمد والاعتراف به أميرا على الأفغان .

وما إن مات الأمير عام ١٨٦٣م وخلفه ابنه « شير على » حتى عمد البريطانيون إلى محاولة التدخل فى شئون هذه البلاد من جديد بحجة تأمين حدود الهند من هجمات قبائل الأفغان عليها . والواقع أنهم كانوا هذه المرة يمهدون لتنفيذ خطة بعينها، رسمها « دزرائيلى » داهيتهم المشهور، ترمى إلى مهاجمة الروس فى

آسيا الوسطى لو تعرضت الأستانة إذ ذاك لخطر استيلائهم عليها، وقد تمكن البريطانيون عام ١٨٧٨م من دخول كابل مرة أخرى فى جيوش كثيفة، وفر من وجههم أميرها « شير على » حيث وافاه أجله بعد ذلك بعام واحد .

ولم يقبل الشعب الأفغانى أن يولى عليه « يعقوب خان بن شير على »، على أن تقوم إلى جانبه بكابل بعثة بريطانية . فانطلق يقاوم المحتلين فى كل مكان حتى قتل كل أعضاء بعثة الاستعمار وأنزل بقوات الاحتلال خسائر كبيرة وهزائم متكررة اضطرتهم إلى الجلاء من فورهم .

هنالك قبض على أزمة الحكم الأمير عبد الرحمن، حفيد « دوست محمد » فمضى فى عزم وحزم يقر الأمور ويشيع الأمن فى بلاده ويصلح نظم الحكومة وينظم الجيش ويوفر له عدده وأسلحته حتى وافاه أجله عام ١٩٠١م.

وخلفه ابنه حبيب الله خان فسار سيرته، وآثر أن يهادن البريطانيين إبان الحرب العالمية الأولى حتى رفض أن يستجيب إلى نداء العثمانيين والألمان مع ما بذلوه من جهد لحمل الأفغان على حرب البريطانيين بدعوى الجهاد . ولم تقدر له بريطانيا صنيعه هذا فأصرت على الاحتفاظ ببعض مناطق الحدود الأفغانية بدعوى تأمين حدود الهند .

وقتل هذا الأمير عام ١٩١٩ وهو فى مصطاده بلمغان دون أن يهتدى أحد إلى قاتله . ويعد حبيب الله خان رائد النهضة الحديثة فى بلاد الأفغان بلا نزاع .

وخلفه ابنه أمان الله خان ؛ وبجهود هذا الأمير تحقق لبلاد الأفغان استقلالها الكامل، إذ استرد بقوة السلاح كافة الأراضى التى كان البريطانيون قد انتزعوها، وبلغ إلى أن اعترفت بريطانيا له بالاستقلال التام، وضمنت له مرور ما يحتاج إليه من سلاح وعتاد عن طريق الهند، ووافقت على إنشاء شقة حرام بين حدوده وحدود الهند .

هكذا بعثت حكومة الأفغان لأول مرة بالسفراء الرسميين إلى الدول الأخرى، ووثقت من علاقاتها بصفة خاصة مع روسيا وتركيا الحديثة وإيران . واهتم أمان

الله خان ملك الأفغان اهتماما بالغا بتنظيم حكومته وجيشه ونشر التعليم، وعنى عناية شديدة بتعمير بلاده، كما وضع أسس الحياة الدستورية بها، غير أنه نزع إلى تقليد مصطفى كمال أتاتورك فى نبذ كثير من التقاليد الإسلامية وجهر بذلك فى رحلته المشهورة التى خرج فيها عام ١٩٢٨م إلى بعض البلاد الشرقية والغربية . حتى إذا ما عاد إلى بلاده ثار عليه فريق من قومه ومعهم طائفة من العلماء ثورة عارمة انتهت بخروجه من بلاده . هنالك سارع إلى بلاد الأفغان محمد نادر شاه، أحد أبناء عمومته، وكان يعانى من المرض الشديد بالخارج، فقضى على أسباب الثورة وسار فى حكم أمته على مقتضى العدل والحزم ملتزما قواعد الشرع متمسكا بمكارم الأخلاق والتقاليد الإسلامية . وتجلت همة نادر شاه فيما بذله من جهود للنهوض بالبلاد من جديد بعد تلك الفتنة العارمة التى كانت قد أنهكت قواها واستنزفت مواردها ومحمد نادر شاه هذا هو الذى قاد جيوش الأفغان فى حربها مع البريطانيين عامى ١٩١٩، ١٩٢٠، فهو بحق بطل استقلالها، وقد اغتالته يد أثيمة عام ١٩٣٣ .

وخلفه ابنه محمد ظاهر شاه فسار سيرته فى تدعيم الحياة الدستورية والنهوض بالجيش ونشر التعليم وتقوية اقتصاديات البلاد وتعميرها واستثمار ما بأرضها من ثروات فضلا عن توثيق علاقاتها بجيرانها بعامة وبالبلاد الإسلامية بخاصة .

وفى ١٧ يوليو عام ١٩٧٣ أعلنت أفغانستان إلغاء النظام الملكى وقيام الجمهورية برئاسة محمد داود ابن عم الملك السابق محمد ظاهر شاه .

وظهرت ميول داود هذا إلى توثيق علاقاته بالسوفييت واضحة منذ أن أمسك بزمام الحكم فى بلاده . وما لبث هؤلاء أن دفعوا بعميل من أوليائهم، وهو نور الدين تره كى، فسقط على « محمد داود » رئيس الجمهورية فى ١٨ إبريل ١٩٧٨ وفتك به وبأسرته، ثم اتخذ مكانه ولم يطل : « تره كى » الأجل إذ باغته بامر من الروس عميل آخر لهم هو حفيظ الله أمين فقتله فى منتصف سبتمبر عام ١٩٧٩، ولم يهنأ حفيظ الله بالحكم بدوره إلا أشهرا ثلاثة، إذ رأى الروس فى عميل وخائن

آخر، هو بابراك[1] كارميل، رجلهم المنشود الذى بادر بأسرهم وفى ظلال سيوفهم إلى خلع حفيظ الله أمين فى ٢٧ ديسمبر ١٩٧٩ ثم قتله فى اليوم التالى واتخذ مكانه.

لقد بدأ تسلل الروس إلى بلاد الأفغان كخبراء وأصدقاء – على عادتهم – أيام محمد داود ثم فى عهد نور الدين تره كى الذى شرع يمهد الأرض أمام الغزو السوفيتى لأفغانستان، ذلك الغزو الذى كشف عن وجهه أيام حفيظ الله أمين وبلغ ذروته ابتداء من ولاية بابراك كارميل وفى عهده .

والواضح المؤكد الجلى هو أن السوفييت لا يهدفون من وراء غزوهم لأفغانستان إلى مجرد الاستيلاء على الموارد الطبيعية والثروات المعدنية بتلك البلاد، ومن بينها مصادر الغاز الطبيعى الغنية، فحسب . بل إنهم ليهدفون أساسا وفى المقام الأول كذلك الوصول إلى منابع البترول فى الخليج، تلك المنابع التى تعد بلا مبالغة، عصب الحياة للدول الصناعية الكبرى، وهم أى السوفييت، فى تطلعاتهم هذه لا يغيب عن تفكيرهم أو يسقط من حسابهم وتخطيطاتهم، ما أدت إليه ثورة إيران الخمينى من اضطراب واضح بالمنطقة وانحسار الوجود السياسى الأمريكى هناك بالتالى .

إن بلاد الأفغان لا يزيد عدد سكانها على الخمسة عشر مليونا من الأنفس ومساحتها كذلك ليست بالكبيرة بالقياس إلى أراضى جيرانها كإيران وباكستان، وليس فى جيرانها بدورهم من له من القوة الحربية ما يستطيع أن ينجد به جاره، وهذه أوضاع واضحة معروفة لدى الجميع كافة دون مرية أو شك .

وبرغم ذلك كله فإن الروس بدأوا غزوهم لأفغانستان بقوات تقرب من الثمانين ألف جندى أخذت من بعد ذلك – وعلى ضوء مقاومة الشعب الأفغانىّ الباسلة – تزيد فى تدفق جنودها على تلك البلاد حتى تجاوز عددهم المائة والعشرين ألفا، إلى جانب أسراب الطائرات وحشود المدرعات والدبابات وأسلحة الدمار الأخرى .

---

(١) بابرك : الأسد الصغير .

إن السوفييت حين أقدموا على غزو أفغانستان، لم يكن يغيب عن بالهم أو لا يدخل فى حسابهم تاريخ شعب أفغانستان المجيد ومواقفه الباسلة وضراوته فى قتال أعدائه حرصا على حريته واستقلاله حتى أفنى للمستعمر عدوه جيوشا بأكملها فى القرن التاسع عشر الماضى على ما أشرنا إليه من قبل .

ولقد أيقن الغزاة السوفييت أنهم بالغون هذه المرة بأسلحتهم الكثيفة المدمرة إلى ما لم يبلغوه هم وغيرهم من قبل بالقضاء التام على . إرادة هذا الشعب الأفغانى الأبى، ولم يلق هذا المستعمر بالا إلى ما حدث فى حرب رمضان - أكتوبر بسيناء، حيث أقام جند مصر الدليل القاطع الأكيد على أن السلاح بالرجل وليس الرجل بالسلاح .

وهكذا لم يتردد المجاهدون الأفغان بأسلحتهم القليلة البسيطة عن التصدى لغزاة بلادهم بكل شبر من أرضهم، فأفنوا جموعا عدة من قواتهم واستولوا على مقادير كبيرة من عتادهم وأسلحتهم الحديثة التى ما غدوا أن استخدموها بدورهم فى حربهم، فضلا عما أسقطوه لهم من طائراتهم .

صنع المجاهدون الأفغان هذا كله ويداومون على صنعه كل يوم برغم ما يستخدمه الغزاة من أسلحة اجتمع المجتمع الإنسانى المتحضر على حظر استخدامها.

إن المجاهدين الأفغان الأبطال ببسالتهم وضراوتهم فى القتال واستماتتهم فى الدفاع عن كل شبر من أرض، هم جديرون بكل حق وبكل فخر أن يكونوا أحفاد أولئك الأشاوش الأمجاد الذين علموا المستعمر فى القرن الماضى كيف يحترم مشيئة الأحرار .

وخير مثال لتقديس الأفغان لمعانى الحرية والاستقلال نراه فى تلك الدعوة التى انطلق جمال الدين الأفغانى يجاهد بها فى سبيل يقظة الشعوب الإسلامية جمعاء وينفخ فيها من روح الجهاد . ويحرضها على طلب الحرية والتفانى فى سبيلها .

ودعاء إلى الله أن يكلل جهود المجاهدين الأفغان بالنصر المبين .

« وإن ينصركم الله فلا غالب لكم » .

السيد جمال الدين الأفغاني
ودعوته ليقظة الشعوب الإسلامية

تجمع المصادر والآراء على أن هدف السيد جمال الدين الأساسي الذى كرّس كل جهوده طوال حياته ولتحقيقه كان هو إيقاظ الشعوب الإسلامية من ذلك السُّبات الذى كان يريم عليها وإنهاضها من ضعفها حتى تلحق بركاب الأمم القوية فيعود للإسلام – عقيدة وحضارة ومدنية – مجده بالتالى وعلو شأنه .

وقبل أن أتعرض بالحديث عن جهاد السيد وجلاده فى سبيل تحقيق غاياته وتوقيع أهدافه، أشير هنا إلى حقيقة بلغ إليها أحد علماء المسلمين قبل أن يعلنها العلماء المحدثون بأكثر من ألف عام وذلك حين قرر عالمنا « المقلاسى » الجغرافى عن تجربة ويقين بأن « للبقاع تأثير فى الطباع » وهو ما يعرف اليوم بأثر البيئة الراسخ فى مزاج الفرد ومقوّمات حياته وطرائق تفكيره .

وبيئة السيد الأفغانى التى خرج من ترابها عام ١٢٥٤هـ/١٨٣٨م وعاش أحداثها هى أفغانستان التى تعرضت قبل مولد هذا الزعيم وإبّان حياته ومن بعد مماته لعدوان أكبر دول الاستعمار فى المنطقة إذ ذاك وهى روسيا وبريطانيا .

وفى القرن الذى عاش فيه السيد جمال الدين، أى القرن التاسع عشر الماضى كانت بريطانيا قد أرسخت أقدامها فى الهند وأخذت تتهيأ للانقضاض على بلاد الأفغان عند حدود الهند الشمالية الغربية بدعوى تأمين حدود مستعمرتها الهندية فى حين انطلقت روسيا تتخطف بلاد المسلمين فى آسيا الوسطى والتركستان . ولئن تنافست هاتان الدولتان وتسابقتا بدعوى الاستعمار فى وسط آسيا، فقد كان يجمعها فى الواقع ائتلاف راسخ بهدف القضاء على كل كيان للمسلمين أينما وجدوه .

وبين هاتين القوتين العظميين بجيوشهما الجرارة وقفت أفغانستان قلعة للإسلام شامخة فى وسط آسيا تدفع عن حدودها جند المستعمرين فى صلابة أبطال حطّين وضراوة جُند عين جالوت .

وحين غادر السيد جمال الدين بلاده عام ١٨٦٩م لم يكن قد مضى إلا سنوات قليلة حين تمكن الشعب الأفغانى وعلى رأسه بطله الكبير « دوست

محمد » من أن يُفنى لبريطانيا جيشاً بأكمله عند « خورد كابول » قوامه عشـــرون ألفا من الجند لم ينج منـــه إلا ضابط واحد يدعى بريدوت عاد إلى قومـــه ليُفضـــى إليهم بأخبار تلك الكارثة . وهكذا كانت إرادة الأفغان أقوى من أسلحة الاســـتعمار، فلم يسمحوا أبدًا على مدى تاريخهم الطويل لمستعمر أن يطأ تراب بلادهم .

فعل صناديد الأفغان ذلك وأكثر منه فيمـا بعـد حين انطلق جمال الدين مـن بلاده ليستنهض همم المسلمين فى الهند وفارس وتركيا ومصر، يدعوهم إلى توحيـد صفوفهم بإزاء المستعمر والعمل على استرجاع سالف أمجادهم .

وكان أطول مدة قضاها السيد فى بلد إسلامى واحد باختياره هى تلـك التـى عاشها بمصر وتزيد على ســنوات ثمــان (١٢٨٨هـ – ١٢٩٦هـ) (١٨٧١م – ١٨٧٩م) .

ولنا هنا أن نتساءل عن الأسباب التى أقنعته بالبقاء هذه الحقبة غير القصـــيرة بمصر بالذات .

فبالقطع لم يكن يغيب عن بال الســيد الأفغانى أنه من مصر خرجـــت تلــك القوات التى دمـــرت جيوش الصليبيين فى حِطِّين . والمصريون هم كذلــك الذيــن أوقفوا زحف المغول عند عين جالوت، ولم يكن من أثر هذا النصر الحاسم انحســار خطر المغول عن العالم الإسلامى فحسب، بل إننا نجد من بعد ذلك أبنـــاء هولاكـــو ممن حكموا فى إيران وما حولها لا يلبثون بفعل الإســـلام – عقيدة ومدنيـــة – أن يقبلوا على الدخول فى دين الحق وينقلبوا إلى حُمــاة له . هكـــذا ولأول مـــرة فـــى التـــاريخ يدخل الغالبون فى دين المغلوبين .

عرف السيد جمال الدين ذلك عن مصر الإسلامية دون شك، كما عرف كذلك عن مصر فى القرن الذى عاش فيه أن المصريين لم يسكتوا حيـــن دخـــل بلادهـــم نابليون بونابرت أعظم قواد عصره فحاربوا جنده فى شـــوارع القـــاهرة وأزقتـــها وطاردوهم فى كل شبر بقرى الريف ودساكره .

وعرف كذلك أن الشعب المصرى وحده وبمفـــرده هـــو الـــذى ردَّ الحملـــة الإنجليزية بقيادة الجنرال فريزر عند رشيد .

وفى مصر كذلك – أولاً وقبل كل شئ – كان وما زال الأزهر الشريف الذى تتمثل فيه الوحدة الإسلامية الواقعية بأروقته التى كانت تضم الطلاب من كافة أرجاء العالم الإسلامى ابتداء من رواق المغاربة عند أقصى المحيط الأطلسى غربًا حتى رواق جاوه عند بحار الصين بأقصى الشرق .

ومن أبناء الأزهر من أمثال محمد عبده وسعد زغلول واللقانى ثم عبد الله النديم ومعهم فريق آخر – ممن أفادوا من جهود الطهطاوى والعطار والطويل وعلى مبارك وثمار أفكارهم – من هؤلاء جميعًا ومن أبناء البلاد الشرقية الأخرى من أمثال أديب إسحق وسليم النقاش كان حواريو جمال الدين الذين وجد فيهم الأرض الطيبة لغرس أفكاره التى عمت الشرق كله فيما بعد .

وفى مصر كان الرائد الزعيم الأفغانى هو أول من جهر بأن الشعب هو أساس الدولة وأنه هو مصدر السلطان كله، وأنه لا إصلاح للحكومة إلا عن طريق إصلاح الشعب بكفالة حقوقه الكاملة فى الحياة الحرة الكريمة .

وفى مصر كان السيد كذلك هو أول من وجه الصحافة وجهها الصحيحة لخدمة الشعب والنهوض به .

وحين بان لدول الاستعمار خطر السيد عليها من وجوده بمصر التى كانوا يمهدون لاحتلالها، ما زالوا بالخديو توفيق حتى أخرجه من مصر فى السادس من رمضان عام ١٢٩٦هـ ؛ أى لمائة عام خلت (٢٤ أغسطس ١٨٧٩م) .

وفى الهند التى نفى جمال الدين إليها، فبرغم ما فرضه البريطانيون عليه من الرقابة الدقيقة هناك، فقد استطاع أن يجذب إلى حلقته العديد من الأحرار المسلمين هناك، ومن بينهم الشاب محمد إقبال .

وكانت تعاليم جمال الدين ودعوته إلى تمكين كيان المسلمين هى التى أوحت فيما بعد للفيلسوف محمد إقبال بالجهر بدعوته إلى قيام وطن خاص بالمسلمين فى شبه القارة الهندية هو باكستان .

وسمح البريطانيون للسيد جمال الدين بمغادرة الهند وذلك بعد أن تم لهم احتلال مصر والقضاء على العرابيين بها، وفى باريس لحق بالسيد حواريه الشيخ محمد عبده بعد نفيه من مصر بدوره، فأصدرا ومعهم ميرزا محمد باقر صحيفة « العروة الوثقى » التى دوّت صوتها فى كافة أنحاء العالم الإسلامى، حتى انتبه المستعمرون إلى خطرها عليهم فأغلقوها .

ويسافر السيد من بعد ذلك عام ١٨٨٦م إلى روسيا حيث أمضى هناك أربع سنوات جهد فيها على أن يحمل القيصر ورجال حكومته على وقف حملات التنصير والإبادة التى كان يمارسها جند الروس فى القوقاز والتركستان بآسيا الوسطى .

وبرغم المقاومة المجيدة المستميتة التى لقيها المعتدون الروس هناك والتى استمرت حتى النصف الأول من هذا القرن العشرين فسقط فيها ملايين عديدة من شهداء المسلمين هناك فإن أحدًا من الشعوب الإسلامية لم يمد - مع الأسف - يد العون الجدى إلى تلك البلاد ذات الماضى الحضارى الإسلامى العريق والتى ظهر فيها من علماء المسلمين من أمثال ابن سينا والبخارى والترمذى والبيهقى والبيروتى ومئات غيرهم، والتى كان أصحابها قد وصلوا بفتوحاتهم كذلك مرات متعددة إلى موسكو نفسها .

وفى ألمانيا التقى جمال الدين عام ١٨٨٩م بناصر الدين شاه الفرس وكان يجوب أوروبا وقد خرج إليها من بلاده لأول مرة . وقبل السيد جمال الدين دعوة الشاه بالعودة معه إلى بلاده وفى خاطره أن العاهل الفارسى لا يلبث أن ينهض ببلاده بعد ما رأى ما صارت إليه شعوب أوروبا من تقدم وما تمارسه من الحرية والاستقلال .

ولكن خاب ظن السيد فى صاحبه ؛ فهاهم الروس يتخطفون أراضى إيران فى الشمال، وهاهم الإنجليز ينزلون فى الشرق والجنوب فضلاً عن تدخلهم فى اقتصاد إيران واحتكارهم لبعض منتجاتها، وناصر الدين فى شغل عن ذلك كله يرفض أن يستمع لمطالب شعبه بالدستور حتى طفق ينكّل بأحرارهم وينصرف

بكليته فى جمع المـــال مع إسرافه الشديد حتى أغرق بلاده فى الديون بدوره علـــى غرار ما كان يفعل معاصره إسماعيل خديو مصر السابق .

وما أن يجهر السيد الأفغانى بمعارضته فى ذلك حتى يبعث الشـــاه بزبانيتـــه فتلقى به خارج إيران بعد أن أذاقه العذاب النُكُر .

وما أن استقر جمال الدين بلندن حاضرة بريطانيا حتى وافاه هناك مبعوثـــوا السلطان عبد الحميد فزينوا له القدوم إلى دار الخلافة فى استانبول، وكان الســـلطان التركى يهدف بذلك إلى إبعاد السيّد عن أحرار الترك ودعاة الإصلاح ممـــن أفلتـــوا من سجونه ومعتقلاته إلى أوروبا، ويفيد منه فى الوقت نفسه فـــى الدعـــوة لفكـــرة الجامعة الإسلامية التى انطلق ينادى بها عبد الحميد تحقيقًا لمآربه فحسب .

وما من شك فى أن السيد جمال الدين كان يرى فى الدولة العثمانية، برغم مـا أصابها من التفسخ، آخر قوة عسكرية حقيقية كبرى للإسلام، فضـــلاً عمـــا يعقـــده المسلمون فى كافة أنحاء الأرض من آمال كبيرة على الخلافة فى اســـتانبول، وأن الجيوش العثمانية فى حروبها الأوربية إنما تواجـــه فى الواقع تلك الدول الصليبيـــة، وأن جميع شعوبها مجمعة على عدائها للإسلام .

وقد أثبت صدق مقالة السيد هذه فيما بعد ما تضمنته نصوص معاهدة فرســاى ومؤتمر الصلح الذى عقد عقب الحرب العالمية الأولى .

ومن هنا كان جمال الدين يرى وجوب تضافر الجهود لتحقيق قيام الجامعـــة الإسلامية، وها هم المسلمون وتربطهم جميعًا روابط حضارية وثيقة بفضل عقيدتـــهم على اختلاف عروقهم .

ولئن كان عبد الحميد قد أصم أذنيه عن الاستجابة لآراء السيد جمـــال الديـــن وخططه لإصلاح أحوال المسلمين والنهوض بهم، ثم مكربه واعتقله فى قفص مـــن ذهب حتى لقى ربه عام ١٨٩٧، فإن جذور دعوة الزعيم الأفغانى ومبادئـــه كـــانت على كل حال قد رسخت قوية عميقة متماسكة فى أغلب بقاع العالم الإسلامى ؛ ثـــم ما لبثت ابتداء من الربع الأول من القرن العشرين الحـــالى، ولمـــا يمضـــى اثنـــا وعشرون عامًا على وفاة السيد، حتى أخـــرج الزرع شطأه واستغلظ واستوى علـــى

سوقه وصمد كالطود الراسخ أمام عواصف المستعمر وطغيانه وجبروته، فكان من أنضج ثماره وأصلبها ظهور قوى عسكرية إسلامية حقيقية مظفرة تمثلت فى تركيا كمال أتاتورك وإيران رضا شاه بهلوى، وأفغانستان أمان الله خان ونادر شاه، أولئك الذين انتظم عقدهم فى حلف سعد آباد المشهور بعد أن حققوا الاستقلال الكامل لبلادهم بقوة السلاح .

وبطبيعة الحال فإن ما حققه هؤلاء الأبطال العسكريين من آمال لبلادهم قد قوّى فى سواعد الشعوب الإسلامية الأخرى وهى فى كفاحها لتحرير أراضيها من الغاصب المحتل .

حتى جاء من بعد ذلك دور مصر العسكرى الحاسم فى العاشر من رمضان، السادس من أكتوبر، فانطلق أبناؤها، أحفاد أولئك العرابيين - أصحاب السيد الأفغانى وأول من تأثروا بدعوته واستجابوا لها - انطلق صناديد مصر فى العاشر من رمضان صواعق خارقة كاسحة يدمرون السدود والقيود ويحققون بانتصاراتهم الكرامة والعزة لكل مسلم فيما بين المحيط الأطلسى وبحار الصين، ويمهدون بذلك الأرض تمهيدًا حقيقيًا لقيام الوحدة الإسلامية القوية مناط كفاح السيد الأفغان طوال سنى حياته .

وأبطال حرب رمضان - أكتوبر - أحفاد العرابيين أصحاب السيد جمال الدين الأفغانى وتلامذته - هم الذين يضطلعون اليوم بتدريب المجاهدين الأفغان على استخدام الأسلحة الحديثة فى حربهم مع غزاة بلادهم من السوفييت . هذا وتقدم جمهورية مصر العربية إلى هؤلاء المجاهدين المزيد من هذه الأسلحة الحديثة إلى جانب المساعدات الأخرى مما تستلزمه المعارك . كما بادرت بعض الدول الإسلامية بدورها بمد المجاهدين بالمساعدات .

أهم مراجع الكتاب

أهم مراجع الكتاب

١ – تاريخ الطبرى لابن جرير الطبرى – القاهرة : ١٣٢٣هـ .

٢ – تاريخ الكامل لابن الأثير – القاهرة ١٣٠٢هـ .

٣ – تاريخ فرشته (فارسى) لمحمد قاسم هندوشاه – لكنو ١٣٢٣هـ .

٤ – حبيب السير لخواندمير (فارسى) – طهران ١٣٧٣هـ – ش .

٥ – مخزن أفغانى (فارسى) لنعمت الله – لندن ١٨٢٩م .

٦ – تاريخ سلاطين أفغانى (فارسى) لأحمد يادكر – تهران .

٧ – تتمة البيان در تاريخ أفغانى (فارسى) للسيد جمال الدين الأفغانى – القاهرة ١٣٢٢هـ .

٨ – حاضر العالم الإسلامى تأليف (لو ترب) وترجمة زعيتر ، مع تعليقات مستفيضة بقلم الأمير شكيب أرسلان القاهرة : ١٤٥٢هـ .

٩ – تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية وحضارتهم – تأليف د. أحمد محمود الساداتى .

القاهرة – مكتبة الآداب ١٩٨٠م .

١٠ – تاريخ الدول اللإسلامية بآسيا وحضارتها – تأليف د. أحمد محمود الساداتى – القاهرة ١٩٧٩م .

١١ – تاريخ بخارا ، تأليف أرمينيوس فامبرى ، وترجمة د. أحمد محمود الساداتى ، مع إضافات وتعليقات مستفيضة – القاهرة ١٩٦٥م .

١٢ – أحمد أمين : زعماء الإصلاح فى العصر الحديث – ١٩٤٨م .

1- Ikbal Ali Shah: Afghanistan London 1928.

2- Ferrier, T. P.: History of the Afghans. London 1858.

3- Sykes, Percy: A History of Afghanistan. London 1940.

4- Brockelmann, Karl: Geschichte der Islamischer Voelker. Leipzig 1940.

5- Kuhn, Hars: Geschichte der nationaleu Bewegunger im Orient Leipzig1930.

6- Haidar Bammat: Visages de L'Islam. Lussanne 1946.

7- Baymira Hayit: Turkestan Darmstadt 1957.

8- Ichwari Prasad: Muslim Rule in India, Allahabad 1933.

9- Havell. E. The History of Aryan Rule in India. London.

مكتبة البحث

مراجع فارسية :

١ – إقبالنامه جها نكيرى : لمعتمد خان . كلكتا ١٨٦٥م

٢ – أكبر نامه ، أو تاريخ أكبر شاه باتفصيل أحوال بدرش همايون ، لأبى الفضل بن المبارك – مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٨م تاريخ فارسى .

٣ – انتخابات جهانكيرى – غير معروف مؤلفه .

(مجموعة إليوت ٦)

٤ – آيين أكبرى لأبى الفضل بن المبارك .

مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٥٠ تاريخ فارسى .

٥ – بابر نامه (بالتركية الجغتائية) – نشر السيدة .

بنيت بفريدج . ليدن ١٩٠٥م

الترجمة الفارسية لعبد الرحيم خان خانان – نشرها

محمد شيرازى بمباى ١٣٠٨هـ

٦ – تاريخ بيهقى – ترجمة الخشاب ونشأت –

القاهرة ١٩٦٥م

٧ – بادشا هنامه – لعبد الحميد لاهورى . (مجموعة اليوت ٧)

٨ – تاريخ أحمد شاهى ، غير معروف مؤلفه . (مجموعة اليوت ٨)

٩ – تاريخ ألفى ، لأحمد داود . (مجموعة اليوت ٥)

١٠ – تاريخ المغول لعباس إقبال تهران ١٩٣٣م

١١ – تاريخ جهانكشاى ، لعلاء الدين عطا ملك الجوينى .

٣ . م – ليدن ١٩١١ ، ١٩١٦ ، ١٩٣٧

١٢ – تاريخ حبيب السير فى أخبار أفراد البشر .

تأليف غياث الدين بن همام الدين الحسينى المعروف بخواندمير ٤م .

(طهران ١٣٧٣هـ)

١٣ - تاريخ رشيدى ، لميرزا محمد حيدر دوغلات الترجمة الإنجليزية لسير دنيسون روس مع تعليقات له . لندن ١٨٩٨م

١٤ - تاريخ سلاطين أفغانى لأحمد يادكر . (مجموعة اليوت ٥)

١٥ - تاريخ شير شاه لعباس خان سروانى . (مجموعة اليوت ٤)

١٦ - تاريخ عالمكير ثان ، غير معروف مؤلفه . (مجموعة اليوت ٨)

١٧ - تاريخ عمومى إيران لعباس إقبال . طهران

١٨ - تاريخ فرشته لمحمد قاسم هندوشاه ، جزءان فى مجلد .

لكنو ١٣٢٣هـ

١٩ - تاريخ كجرات لشاه أبى تراب ولى . كلكتا ١٨٩٩م

٢٠ - تاريخ مظفرى ، لمحمد على خان . (مجموعة اليوت ٨)

٢١ - تاريخ هندى ، لرستم على . (مجموعة اليوت)

٢٢ - تتمة واقعات ، جها نكيرى لمحمد هادى . (مجموعة اليوت ٦)

٢٣ - تذكرة آنندرام مخلص . (مجموعة اليوت ٨)

٢٤ - تذكرة الواقعات أو هما يو ننامة : لجوهر . (مجموعة اليوت ٥)

٢٥ - تكملة أكبر نامه ، لعناية الله (مجموعة اليوت ٦) .

٢٦ - جهار مقالة لنظامى عروضى سمرقندى مع تعليقات القزوينى : ترجمة عزام والخشاب . القاهرة ١٩٤٩

٢٧ - رياض السلاطين : أو تاريخ بنغالة .

تأليف غلام حسين سليم : كلكتا ١٨٩٠ ، ١٨٩٨

٢٨ - سير المتأخرين لغلام حسين خان . (مجموعة اليوت ٨)

٢٩ - شاهجها ننامه ، لعناية الله . (مجموعة اليوت ٧)

٣٠ - طبقات أكبرى ، لنظام الدين أحمد بخشى (مجموعة اليوت ٥)

٣١ - طبقات ناصرى لمنهاج السراج ترجمة رافرتى .

لندن ١٨٧٣ - ١٨٩٧م

٣٢ – ظفر نامه ، لنظام الدين شامى . بيروت ١٩٣٧

ظفر نامه ، لشرف الدين يزدى – كلكتا ١٨٨٥ – ٨٧م

٣٣ – عالمكير نامه ، لمنشى محمد كاظم بن محمد أمين .

كلكتا ١٦٦٨م

٣٤ – عبر تنامه ، لمحمد قاسم . (مجموعة اليوت ٧)

٣٥ – عمل صالح : لمحمد صالح لاهورى . كلكتا ١٩١٢م

٣٦ – فرحة الناظرين : لمحمد إسلام . (مجموعة اليوت ٨)

٣٧ – مآثر الأمراء لشاه نواز خان – ٤م . كلكتا ١٨٨٠ – ١٨٩٦

٣٨ – مآثر عالمكيرى لمحمد ساقى مستعد خان . كلكتا ١٨٧٧م

٣٩ – مرآة سكندرى لاسكندر بن محمد .

(مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٥٢ تاريخ فارسى)

٤٠ – منتخب التواريخ ، لعبد القادر بن ملوك شاه بدونى – ٣م .

كلكتا ١٨٦٨م

٤١ – منتخب اللباب لخافى خان . (مجموعة اليوت ٧)

٤٢ – واقعات جهانكيرى ، سيرة جهانكير . (مجموعة اليوت ٦)

٤٣ – وقايعى (حالات) لأسعد قزوينى . (مجموعة اليوت ٦)

مراجع عربية : (مساعدة)

١ – اختلال التوازن العالمى ، لغو ستاف لوبون ، ترجمة صلاح الدين وصفى . القاهرة ١٩٢٨م

٢ – تاريخ الحضارة الإسلامية ، لبارتولد ، ترجمة حمزة طاهر .

القاهرة ١٩٣٣م

٣ – تاريخ الأمم والملوك لمحمد بن جرير الطبرى . القاهرة ١٣٢٣هـ

٤ – تاريخ العتبى على هامش الفتح الوهبى . القاهرة ١٢٨٦هـ

٥ – تاريخ الكامل ، لابن الأثير – ١٢ج . القاهرة ١٣٠٢هـ

٦ – جنكيز خان . لهارولد لامب ، ترجمة بهاء الدين ثورى .

بغداد ١٩٤٦م

٧ – حاضر العالم الإسلامى ، تأليف لوثرب ، تعريب عجاج نويهض . (انظر تعليقات الأمير شكيب أرسلان عليه) ٤م .

القاهرة ١٣٥٢هـ

٨ – حضارات الهند : لغوستاف لوبون ترجمة عادل زعيتر .

القاهرة ١٩٤٨م

٩ – الدعوة إلى الإسلام ، لتوماس أرنولد ، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرين .

القاهرة ١٩٤٧م

١٠ – ذكر ما للهند من مقولة مقبولة للعقل أو مرذولة ، لأبى الريحانى البيرونى (نشر زاخاو) لندن ١٨٨٧م

١١ – ضحى الإسلام لأحمد أمين . القاهرة ١٩٣٨م

١٢ – فتوح البلدان للبلاذرى . ليدن ١٨٦٦م

١٣ – المختصر فى أخبار البشر ، لأبى الفداء . القاهرة ١٣٥٢هـ

١٤ – مروج الذهب للمسعودى . القاهرة ١٣٤٩هـ

١٥ – معجم البلدان ، لياقوت الحموى ٨م . القاهرة ١٩٠٦م

١٦ – الهند وجيرانها ، لول دبورانت ، ترجمة زكى نجيب محمود .

القاهرة ١٩٥٠م

مراجع أوروبية :

1 - Ameer Ali. The Spirit of Islam. London 1923

2 - Barthold W. Histoire des Turs d'Asie Central. Adapt. Fr. par Mme Donskies Paris 1945

3 - Barthold. Turkestan London 1928

4 - Binyon. Laurence. The Court Painters of the Grand Moghul Oxford 1921

5 - Cambridge History of India 5 Vols. Cambr. 1922-29

6 - Cunneingham, J. Hist of the Sikhs. London 1916

7 - Czaplika. M. A. The Turks of Central Asia. Oxford 1918

8 - Degwgues, J. Histoire général des Huns, des Turcs, des Mongols etc... 5 Vols. Paris 1756-58

9 - d'Ohsson, Baron C. Histoire des Mongols. Amesterdam 1852

10 - Duff, Grant. Hist of the Mahrattas. 2 Vols. 1921

11 - Dunbar, O. A. History of India from the Earliest Times to the Present Day. London 1936

12 - Elliot H. M. & Dowson, John. The History of India as told by its own Historians. The Mohamadan Period. 5 Vols. London 1867-77

13 - The English History Review. 1898

14 - Gabliz, H. C. Ueber die Sprache des Hazaras. Z. Dmg. Bd XX.

15 - Gait, Edward. Hist of Assam Calcutta 1929

16 - Garratt. G. T. The Legacy of India Oxford 1938

17 - Garret Fd. Mughal Rule in India 1930

18 - Grenard Fer. Baber Paris 1930

19 - Grousset, R. L'Empire Mongol. Paris 1941

20 - Grousset, R. Hist. de l'Extrême Orient. 2 Vols. Paris 1920

21 - Hammer, J. D. Histoire de l'Empire Ottoman. 18 Vols. Paris 1830

22 - Havell, E. B. The History of Aryan Rule in India London
23 - Howorth, H. History of the Mongols. 3 Vols London 1846
24 - Ikbal Ali : Afghanistan London 1928
25 - The Indian Moslems by an Indian. Mohamedan. London 1938
26 - Ischwari Prasad: medieval India 1925
27 - Ishwari Prasad. A. short History of Muslim Rule in India. Allahabad 1933
28 - Islamic Culture Review (1928)
29 - Lane-Poole, St, Medieval India under Mohamedan Rule. London 1917
30 - Moreland, W. H. & Chatterje. A short History of India. London 1936
31 - Mueller A, Der Islam in morgen-und Abendland Berlin 1887
32 - Sarkar. Hist. of Aurengzib. 2 Vols Calcutta 1912-24
33 - Sarkar. Shivaji and his times. Calcutta 1919
34 - Smith, V. A. Hist. of Fine arts in India and Ceylon. Oxford 1930
35 - Sirdar Ikbal Ali Shah. Afghanis London 1928
36 - Spear, P. Twilight of the Mughuls. Cambridge 1951
37 - Vambery, A. A. History of Bokhara London 1873

فهرس أبجدى عام

(ض)

(ط)

(ظ)

(ع)